

تأليف

الإمام ، بدر الأعلام

الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب

المتوفى بمصر سنة ١٢٤٢ هـ

نشره

قصي محب الدين الخطيب

طبع بمطبعتنا السلفية :

الطبعة الأولى : ١٣٧٩

« الثانية : ١٣٩٦



٢١ شارع الفتح بالروضة ☎ ٨٤٠٣٦٤

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أتم نعمته على الإنسانية ببعثه خاتم رُسل الله ، وحامل أكمل رسالاته ، محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه ومن سار فى طريقهم النيّر الواسع المستقيم إلى يوم الدين

وبعد فلما أخذ شيخُ الإسلام محمدُ بن عبد الوهاب وبنوه الكرام على مسئوليتهم بذل الجهد لتجديد شباب الإسلام ، وردّ العرب والمسلمين عن بُنَيّات الطريق إلى الطريق المحمدىّ الأعظم ، كان مما استعانوا به على ذلك توضيح السيرة المحمدية الشريفة للناس بحسب منازلهم ، وعلى طبقاتهم فى العلم والفهم والإدراك ، فكان أهل الفضل والعلم من تلاميذهم ومريديهم يتدبّرونها بالتوسع من أمهات الكتب المفصّلة ، والمبتدئون منهم يتلقونها من المختصر الذى ألفه شيخ الإسلام وطبع قبل بضع سنوات . والمتوسطون منهم ألف لهم الإمام بدر الأعلام الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب هذه السيرة المتوسطة ، وهى أصغر من السيرة التى ألفها ابن هشام ، وأكبر من المختصر الذى ألفه والده رحمهم الله جميعا رحمة واسعة . والغرض من تعدّد هذه الكتب فى السيرة النبوية أن ينهل من فراتها العذب كل فريق بحسب منزلته وعلى قدر استعداده

والمخطوطة التى جاءتنا من الرياض لنعتمدها فى الطبع ، مكتوبة بخط مبارك بن عبد الله ابن مبارك . فرغ من كتابتها لسبع عشرة ليلة مضت من شعبان سنة ١٢١٣ ، أى فى حياة الإمام المؤلف رحمه الله . ولعله كان من تلاميذ الشيخ ، وكتبها لنفسه لدراستها ، غير أن فيها خروما وبعض التحريف ، فنستعين الله على استدراك ذلك بقدر الطاقة . والله المعين

محب الدين الخطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة

الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب

رحمهما الله تعالى

هو الإمام ، الحبرُ الهمام ، بدرُ الأعلام ، مفتي الأنام ، حجةُ الإسلام ، قمرُ الدجى ، وشمس الضحى ، الثقة الثبت ، العلم الحجة البارع . التقيّ النقي الورع ، الفارس في العلوم . والسيفُ الصارم المسلول على المبتدعين ، والحبر القائم بأمور الدين . ذو الهمة والشجاعة والإقدام ، فائق علماء زمانه ، مجتهد أوانه . فذلك هو قطبه ، يزيد عليهم زيادة الشمس على البدر . إذا ذكر الكلام على المسألة بهت الناس من كثرة نقوله ومقوله ، بجودة إيراده ، وإعطائه كل قول ما يستحقه . يقول الحق الذى أدّى اليه اجتهاده . إلى ما اشتهر عنه من الورع وكمال الفكر وسرعة الفهم ، مع الخوف من الله والتعظيم لحُرماته . لم يُر تحت أديم السماء بعد والده مثله في وقته علماً وعملاً وحالاً ومقالاً وحلماً وخلقاً واتباعاً وكرماً وقياماً في حق الله . هو عالم نجد ومفتيها بعد والده

ولد في بلد الدرعية ، وأخذ العلم عن والده وفاق ، وتفقه في المذاهب وأدرك في الأصول والفنون أعلاها . وتفنن في علوم الإسلام حتى بلغ علاها . كان عارفاً بالتفسير لا يجارى ، وبأصول الدين وإليه فيها المنتهى ، وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك . وبالفقه وأصوله ، وبالعربية . وبالجملة له اليد الطولى في كل فن من فنون العلم . له المصنفات المشهورة المقبولة ، والفتاوى القاطعة غير المملولة ، والرسائل والنصائح النافعة المبرورة . منها (جواب أهل السنة ، في نقض كلام الشيعة والزيدية) مجلد . و(مختصر

السيرة) مجلد ، وهو هذا . وله مشاركة فى كتاب (التوضيح عن توحيد الخلاق [1]
وله (الكلمات النافعة فى المكفرات الواقعة [2]) و (منسك فى الحج) ورسائل وفتاوى تبلغ مجلداً

وله مجالس فى التدريس مشهورة ، بإحياء علوم أصول الدين معمورة . تأتى إليه العلماء من الأمصار ، والسؤالات تتوالى عليه من جميع النواحى والأقطار . فيفهم السائلين أحسن إفهام . ويجيب بأحسن جواب بإيجاز وانتظام . أثنت عليه أهل نجد بأسرها وأهل الخبرة من شرقها وغربها . وقد قال الشيخ حسين بن غنام يثنى عليه وعلى إخوانه من علماء الدرعية :

مدارسهم معمورة بعلومهم ... وما ثبطوا عن نشر أحكامهم ثبطا
فلست ترى إلا مفيداً وشاديا ... عكوفاً على جمع الحديث له ضبطا
وأمراً بمعروف وتنكير منكر ... وتنكيل من قد قارف الحوب والسخطا
وحثاً على فعل الصلاة جماعة ... وتوبيخ من عنها تخلف أو أبطا

وقال الشيخ أحمد بن على بن مشرف بعد ثنائه عن الشيخ :

وأبناؤه الغر الكرام قد اقتفوا ... محجته المثلى وفى نصرها جدوا
فكانوا إلى التوحيد يدعون دأبهم ... فكم قد أفادوا من يروح ومن يغدو
وكم سنة أحيوا وكم بدع نفوا ... وكم شبهة أجلوا وأبوابها سدوا

وقال الشيخ محمد بن أحمد الحفظى :

وحف بآل الشيخ أعلام مكة ... على حلقات الذكر والعلم هاديا
مدارس فى التوحيد تصنيف والد ... لما طالما غطت عليها العوافيا
فأصبح توحيد العبادة ظاهراً ... على الأرض والشرك المحرم خازيا

---

(١) المطبوع فى القاهرة سنة ١٣١٩.

(٢) طبعت مرارا ، أجودها بالمطبعة السلفية بالقاهرة

أئمة حق والنصوص طريقهم وأحمد خريت الطريق وحاديا
على مذهب الحبر الإمام ابن حنبل عليهم من المولى سلام موافيا
عقائدهم سنية أجمع الملا عليها خصوصاً تابعاً وصحابيا

أخذ عنه العلم الخلق الكثير والجم الغفير من الجهابذة النبلاء . منهم بنوه الشيخ سليمان وعلى وعبد الرحمن ، والشيخ عبد الرحمن بن حسن والشيخ عبد اللطيف ، والشيخ حسن بن حسين الفقيه والشيخ عبد الرحمن بن حسين وحمد وعلى بنو الشيخ حسين ابن الشيخ ، والشيخ محمد بن سلطان والشيخ محمد بن عبد العزيز والشيخ أحمد الوهيبى والشيخ عبد العزيز ابن معمر والشيخ مسعد بن حجى والشيخ جمعان ومسفر بن عبد الرحمن من أهل عسير والشيخ محمد بن مقرن والشيخ عثمان بن عبد الجبار والشيخ ابراهيم بن سيف وغيرهم . وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول قيام ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والإنابة والافتقار إلى الله والانكسار والانطراح بين يديه على عتبة عبوديته ،لم ير فى زمانه مثله . وكان رحمه الله شجاعاً مقداماً ذكر عنه فى حرب الدرعية حين حاصرتها العساكر أنه وقف فى باب سمحان المعروف فى الدرعية شاهراً سيفه يقاتل حتى كسر العساكر وهو يقول لأهل الدرعية : بطن الأرض على عز ولا ظهرها على ذل ، وأنا أبو سليمان . هكذا يقول رحمه الله . فلما نقلت العساكر أهل الدرعية من آل مقرن و آل الشيخ رحلوا به معهم إلى مصر فى سنة ١٢٣٣ ، وتوفى فيها سنة ١٢٤٢ . رحمه الله وعفا عنه وأسكنه الفردوس الأعلى .

مختصر

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم



الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

أما بعد فأنا أذكر لك شيئاً من نسب رسول الله محمد سيد البشر ، وشيئا من أحواله وآياته وأخباره وآدابه إلى أن توفى بالاختصار . وأذكر فيه خلافة الخلفاء الأربعة رضى الله تعالى عنهم

أما نسبه فهو : أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قُصَىّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لُؤَىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة بن خُزَيمة بن مُدركة بن الياس بن مُضَر بن نِزار بن معدّ بن عدنان . هذا متفق على صحته ، وما فوق عدنان مختلف فيه . ولا خلاف أن عدنان من ولد اسماعيل بن ابراهيم ، وابراهيم هو الذبيح ، على القول الصحيح ، والقول بأنه إسحاق باطل

ولا خلاف أنه ﷺ ولد بمكة عام الفيل ، وكانت وقعة الفيل تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ، وإلا فأهل الفيل نصارى أهل كتاب . دينهم خير من دين أهل مكة لأنهم عباد أوثان ، فنصرهم الله نصرا لا صنع للبشر فيه ، تقدمة للنبى الذى خرج من مكة ، وتعظيما للبلد الحرام

وولد عليه السلام يوم الإثنين لثمان خلون من ربيع الأول ، اختاره (1) ،

---

(1) مخروم فى الأصل

وقيل لعشر منه ، وقيل لاثنتى عشرة خلت منه . ونُبِّئَ يوم الإثنين لأيام خلت من ربيع [١] ، ومات لثمان خلون من ربيع الأول

وفى عبد المطلب يجتمع معه بنو على وبنو جعفر و [بنو عقيل[٢]] بنو أبى طالب ، وبنو العباس وبنو الحارث وبنو أبى لهب

وفى عبد مناف يجتمع معه [بنو أمية[١]] وسائر بنى عبد شمس ، وبنو المطلب وبنو نوفل

وفى قُصَىّ يجتمع معه عليه السلام بنو عبد العزّى وبنو عبد الدار ، منهم حَجَبَة الكعبة ، ومنهم النضر بن الحارث . ومن بنى عبد العزّى الزبير بن العوام وخديجة وورقة بن نوفل

وفى كلاب يجتمع معه عليه السلام بنو زهرة بن كلاب ، وأمه منهم ، ومنهم سعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف

وفى مُرّة يجتمع معه عليه السلام بنو تَيم بن مرة وبنو مخزوم بن يَقَظة بن مرة فمن بنى تيم بن مرة أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله . ومن بنى مخزوم خالد بن الوليد وأبو جهل بن هشام

وفى كعب يجتمع معه عليه السلام بنو عدىّ بن كعب ، ومنهم عمر بن الخطاب وسعيد ابن زيد ، وبنو جُمَح ومشاهيرهم أمية بن خلف عدوّ رسول الله ، وأخوه أُبىّ بن خلف مثله فى العداوة لرسول الله ، وبنو سَهم ومنهم عمرو بن العاص

وفى لؤى يجتمع معه عليه السلام بنو عامر بن لؤى ، ومنهم عمرو بن عبد ودّ فارس العرب الذى قتله على بن أبى طالب ، ومنهم سهيل بن عمرو

وفى غالب يجتمع بنو تيم الأدْرَم ، والأدرم الناقص . وفى فهر يجتمع معه بنو محارب وبنو الحارث ابنى فهر ، ومن بنى الحارث بنو الخلج ومنهم أبو عبيدة بن الجراح[٢] . وفهر

---

(١) الأصل مخزوم

(٢) أبو عبيدة من بنى ضبة بن الحارث ، والخلج ينتسبون إلى إخوتهم بنى قيس ابن الحارث

هذا هو أبو قريش كلها ، فكل من كان من ولده فهو قرشى ، ومن لم يكن من ولده فليس قرشيا

وفى كنانة يجتمع معه عليه السلام كل من ينتمى إلى كنانة من بنى عبد مناة وملكان وملك وعمرو وعامر أولاد كنانة ، فصار من بنى عبد مناة بنو بكر ومن بنى بكر بنو الدّيل رهط أبى الأسود الدؤلى ، وبنو مدلج وبنو ليث وبنو ضمرة . ومن بنى الحارث الأحابيش

وقد قيل : إن النضر بن كنانة هو قريش ، والصحيح أنه فهو بن مالك

وفى خزيمة يجتمع معه عليه السلام بنو أسد والقارة ، وهم الهون بن خزيمة ، فمن الهون عَضل وهى قبيلة أبوهم عضل بن الهون ، ومنهم الدّيش أخو عضل . ويقال لهاتين القبيلتين القارة

وفى مُدْركة يجتمع معه عليه السلام بنو هذيل بن مدركة ، ومنهم عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ

وفى الياس يجتمع معه بنو تميم بن مُرّ بن أُدّ بن طابخة بن الياس ، وبنو ضبة بن أد ، والرّباب ومزينة ، وهم بنو عمرو بن أد ، ويقال لهم مزينة نسبة إلى أمهم مزينة ابنة كلب بن وَبره

وفى مضر يجتمع معه عليه السلام بنو قيس عيلان بن مضر ، وهو بالعين المهملة ، قيل إن عيلان فرسه وقيل كلبه ، وقد جعل الله لقيس من الكثرة أمرا عظيما ، فمن ولده جميع قبائل غطفان بن سعد بن قيس عيلان ، وجميع قبائل هوزان ، وسُلَيم ومازن ابنا منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس عيلان ، ومن هوازن بنو سعد بن بكر ، وبنو كلاب ، وبنو كعب ، وبنو جُشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومن جشم دريد بن الصِّمة من غَزِية بن جشم بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن : منهم بنو كعب بن ربيعة وبنو هلال وبنو نمير وبنو جعدة وبنو قشير ، وبنو عُقيل بن كعب بن ربيعة منهم بنو المنتفق بن عامر بن عقيل ، ومنهم بنو خفاجة بن عمرو بن عقيل ، ومن هوازن بنو سلول وبنو ثقيف بن منبه

ابن بكر بن هوازن ، ومن قيس عيلان بنو عبس وذبيان ، ومن ذبيان بنو فَزارة بن ذبيان ابن بغيض ، ومنهم عدوان وباهلة ، ومن بنى سُليم بن منصور رَعْل وذكوان وعصية بن خُفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم ، وزعب بن مالك بن خفاف بن امرى القيس . وقد قيل إن ثقيفا من إياد ، وقيل من بقايا ثمود . ومن بنى ذبيان النابغة الشاعر المشهور

وفى نزار يجتمع معه ﷺ بنو ربيعة بن نزار، منهم بنو أسد وضبيعة ابنى ربيعة ، ومن بنى أسد بكر وتغلب وعنز أبناء وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دُعمى بن جَديلة بن أسد بن ربيعة ، ومنهم بنو عبد القيس بن أفصى والنمر بن قاسط ، ومنهم بنو حنيفة بن لجيم ابن صعب بن على بن بكر بن وائل ، ومنهم بنو عجل بن لجيم ، ومن رجال بكر مرة وابناه همام وجساس قاتل كليب ، وطرفة بن العبد الشاعر . ومن بنى تغلب كليب بن ربيعة ملك بنى وائل الذى قتله جساس فهاجت بسببه تلك الحرب المعروفة بحرب البسوس بين بنى بكر وبنى تغلب ، ومن ربيعة عنزة بن أسد بن ربيعة فمنهم بنو عنزة وهم أهل خيبر ، ومن بنى عنزة القارضان ، ومن ربيعة سدوس واللهازم

ويجتمع معه ﷺ أيضا فى نزار بنو إياد بن نزار وبنو أنمار بن نزار ، فمن بنى إياد كعب بن مامة الذى يضرب بجوده المثل ، وقس بن ساعدة وكان يضرب بفصاحته المثل . والله أعلم

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا ، حتى كنتُ من القرن الذى كنت منه » . وفى صحيح مسلم عن واثلة ابن الأسقع قال رسول الله ﷺ « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم »

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير فرقتهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل فجعلنى فى خير القبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلنى فى خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا » رواه الترمذى وقال : حديث حسن

وفى حديث رواه الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن الله اختار خلقه فاختار منهم بنى آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختارنى من العرب ، فلم أزل من خيار من خيار ، ألا من أحب العرب فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم

وأما عبد الله أبو رسول الله ﷺ فهو ابن عبد المطلب المذكور ، وكان عبد الله أحسنَ أولاد عبد المطلب وأعفَّهم ، وكان أبوه يحبه ، والأكثر يقولون إنه توفى وهو حمل ، وقيل إنه مات ولرسول الله ﷺ شهران ، وجميع ماخلفه عبد الله خمسة أجمال وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن ، وهى حاضنته

وأمه عليه السلام آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب

ولد عليه السلام لثمان خلون من ربيع الأول ، وقيل لعشر ، وقيل لاثنتى عشرة ، يوم الإثنين وروى البيهقى أنه ﷺ ولد مختونا مسروراً . قال العباس : فأعجب عبد المطلب جده وحظى عنده ، وقال : ليكونن لهذا شأن . وذكر البيهقى أيضاً أنه لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ ارتج إيوان كسرى وسقط منه أربع عشر شرفة ، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك من ألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة . وفى سقوط الأربع عشرة شرفة إشارة إلى أنه يملك منهم ملوك وملكات بعدد الشرفات ، وقد ملك منهم فى أربع سنين عشرة وملك الباقون إلى خلافة عثمان ، وروى أحمد وغيره عن العِرباض بن سارية عن النبى ﷺ قال « إنى عند الله فى أم الكتاب لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته وسوف أنبئكم بتأويل ذلك : دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى قومه ، ورؤيا أمى التى رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » وكذلك أمهات المؤمنين يرين . وعن ميسرة الضبى قال : قلت يارسول الله متى كنت نبيا ؟ وفى رواية متى كتبت نبيا؟ قال « وآدم بين الروح والجسد » وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت : لما ولدته خرج من فرجى نور أضاءت له قصور الشام ، وولدته نظيفا مابه قذر ، وإلى هذا أشار العباس بن عبد المطلب فى شعره حيث قال :

وأنت لما ولدت أشرقـــت الأرض وضاءت بنـــورك الأفق
ونحن فى ذلك الضياء وفى النور فسبل الرشاد نخـــترق

وقال فى اللطائف : وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجىء به من النور الذى اهتدى به أهل الأرض ، وزالت به ظلمة الشرك . كما قال تعالى ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ الآية . وأما إضاءة بُصرى بالنور الذى خرج منه فهو إشارة إلى ما خص الشام من نور نبوته ، فإنها دار ملكه كما ذكر كعب : إن فى الكتب السالفة « محمد رسول الله ، مولده بمكة ، ومهاجره يثرب ، وملكه بالشام » ولهذا أسرى به إلى الشام إلى بيت المقدس ، كما هاجر ابراهيم عليه السلام إلى الشام وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام ، وهى أرض الحشر والمنشر

وأرضعته ﷺ ثويبة عتيقة أبى لهب ، أعتقها حين بشرته بولادته ﷺ . وقد رؤى أبو لهب بعد موته فى النوم فقيل له : ما حالك ؟ فقال : فى النار ، إلا أنه خُفف عنى كل اثنين ، وأمص من بين إصبعىّ هاتين ماء — وأشار برأس إصبعه — وإن ذلك بإعتاقى ثويبة عندما بشرتنى بولادة النبى ﷺ وبإرضاعها له . قال ابن الجوزى : فاذا كان هذا أبو لهب الكافر الذى نزل القرآن بذمه جوزى بفرحه ليلة مولد النبى ﷺ به فما حال المسلم الموحد من أمته ﷺ يسر بمولده ؟ وثويبة مولاة أبى لهب أول من أرضعه بعد أمه بلبن ابنها مسروح ، وأرضعت أيضا مع رسول الله بابن ابنها مسروح حمزة عمّ رسول الله . وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى . ثم أرضعته ﷺ حليمةُ السعدية

وفى السنة الرابعة من مولده ذكر أن الملكين شقا بطنه واستخرجا قلبه وشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء ثم غسلا قلبه وبطنه بالثلج ، وقال أحدهما : زنه بعشرة من أمته ، فوزنه . ثم ما زال يزيد حتى بلغ الألف ، فقال : والله لو وزنته بأمته لوزنها . وروى أنه وقع شق صدره الشريف مرة أخرى عند مجىء جبرائيل له بالوحى فى غار حراء ، ومرة أخرى عند الإسراء ، وروى الشق أيضا وهو ابن عشر . وقد روى أنه ختم بخاتم النبوة

بين كتفيه ، وأنه يشم منه مسكا ، وأنه مثل زِرّ الحَجَلة ، ذكره البخارى . وفى مسلم : جُمْع عليه خِيلان كأنها الثآليل السود عند نُغض كتفه ، وروى : عند غُضروف كتفه اليسرى ، وروى الأيمن . وفى مسلم أيضا : كبيضة الحمامة ، وفى الشمائل : بضعة ناشزة ، وفى الترمذى ودلائل البيهقى : كالتفاحة . وقوله مثل زر الحجلة بالزاى والراء ، والحجلة بالحاء المهملة والجيم ، قال النووى : هى واحد الحجال ، وهى بيت كالقبة لها أزرار كبار وعرى . هذا هو الصواب . وقوله « جمع » بضم الجيم وإسكان الميم أى جمع الكف ، وهو صورته بعد أن تجمع الأصابع وتضمها . وقوله خيلان بكسر الخاء وإسكان التحتية ، جمع خال ، وهو الشامة على الجسد . والنُّغض والناغض أعلى الكتف . وفى حديث عتبة بن عبد السلمى عند أحمد والطبرانى : إن الملكين لما شقا صدره قال أحدهما للآخر : خِطه . فخاطه ، وختم عليه بخاتم النبوة

وماتت أمه عليه السلام ولم يستكمل إذ ذاك سبع سنين ، حين انصرفت من زيارة أخواله بنى النجار . وكانت خرجت به معها ومعه دايته أم أيمن ، وقدمت به أم أيمن إلى مكة بعد موتها ، فكفله جده عبد المطلب ، ورق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده ، فكان لا يفارقه ، وما كان يجلس على فراشه إجلالا له إلا رسول الله ﷺ . وقدم مكة قوم من بنى مدلج من القافة ، فلما نظروا اليه قالوا لجده : احتفظ به ، فلم نجد قدما أشبه بالقدم الذى فى المقام من قدمه ، فقال لأبى طالب : اسمع مايقول هؤلاء واحتفظ به

وتوفى جده عبد المطلب فى السنة الثامنة من مولده وأوصى به إلى أبى طالب . قال ابن اسحاق : وكان عبد المطلب من سادات قريش ، محافظا على العهود ، يتخلق بمكارم الأخلاق ، يحب المساكين ، ويقوم بالحجيج ، ويطعم حتى الوحوش والطير فى رءوس الجبال ، ويطعم فى الأزمان ، ويقمع الظالمين

وأم عبد المطلب سلمى بنت زيد من بنى النجار : تزوجها أبوه هاشم بن عبد مناف ، فخرج إلى الشام وهى عند أهلها وقد حملت بعبد المطلب ، فمات بغزة ، فولدت عبد المطلب وسمته « شيبة » . فلما ترعرع خرج اليه المطلب ليأتى به إلى مكة ، فأبت أمه فقال : إنه يلى ملك

أبيه ، فأذنت له فقدم به مكة ، فقال الناس هذا عبد المطلب . فقال : ويحكم إنما هو ابن أخى هاشم. فولى عبد المطلب ما كان يلى أبوه ، وأقام لقومه ما أقام آباؤه ، وشرف فيهم شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبوه ، وعظم خطره فيهم . وكان له أولاد عشرة ، أكبرهم الحارث توفى فى حياة أبيه ، وأسلم من أولاد الحارث يوم بدر ربيعة وأبو سفيان وهو عبد الله . ومنهم الزبير بن عبد المطلب شقيق عبد الله ، ولم يدرك الإسلام ، وأسلم من أولاده عبد الله وضباعة ومنهم أبو طالب واسمه عبد مناف ، وقيل إنه شقيق عبد الله ، وحضر الإسلام ولم يسلم ، وله من الولد طالب وعقيل وجعفر وعلى ، وبين كل واحد [وأخيه] عشر سنين ، أكبرهم طالب ثم عقيل ثم جعفر ثم على . ومنهم أبو لهب مات عقيب بدر ، وله من الولد عتيبة الذى دعا عليه النبى ﷺ فقتله السبع ، وله عتبة ومعتب أسلما يوم الفتح . ومنهم حمزة والعباس أسلما رضى الله عنهما . ومن أولاد عبد المطلب عبد الله أبو النبى ﷺ ، ولم يولد لأبيه وأمه غيره ﷺ فيما ذكر . وله من البنات ست : البيضاء أم حكيم تزوجها كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس فولدت له عامرا أبا عبد الله بن عامر الجواد المشهور ، وبنات منهن أروى تزوجها عفان بن أبى أمية فولدت له عثمان بن عفان ، ثم خلفه عليها عقبة بن أبى مُعَيط فولدت له الوليد وعاشت إلى خلافة ابنها عثمان . ومنهن بَرَّة أم أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، ومنهن عاتكة أم عبد الله بن أبى أمية واختلف فى إسلامها . ومنهن صفية أم الزبير أسلمت وهاجرت ، وأروى أم آل جيش عبد الله وأبى أحمد وعبيد الله وزينب وحمنه

ومات جده عبد المطلب وله ثمان سنين — وقيل [illegible] ، وله من العمر عشر ومائة سنة ، وكفله عمه أبو طالب ، وكان عبد المطلب قد أوصاه بذلك لكونه شقيق عبد الله . قال الواقدى : أقام أبو طالب من سنة ثمان من مولد رسول الله ﷺ إلى السنة العاشرة من النبوة ثلاثا وأربعين سنة يحوطه ويقوم بأمره ويذب عنه ويلطف به ، وقد أخرج ابن عساكر عن جُلهمة بن عرفطة قال : قدمت مكة وهم فى قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب أقحط الوادى وأجدب العيال . فهلم فاستسق . فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتماء حوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بإصبعه

الغلام وما فى السماء قُزَعة ، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق واغدودق ، وانفجر الوادى وأخصب النادى والبادى ، وفى ذلك يقول أبو طالب :

وأبيض يُستسقى الغمامُ بوجهه ثِمال اليتامى عصمة للأرامل

والثمال بكسر المثلثة : الملجأ والغياث ، وقيل المطعم فى الشدة ، وعصمة للأرامل أى يمنعهم من الضياع والحاجة ، والأرامل المساكين من رجال ونساء

قال ابن اسحاق : وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة ومع جده عبد المطلب فى كلاءة الله وحفظه ، وينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من الكرامة . ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتى عشرة سنة خرج مع عمه أبى طالب حتى بلغ بُصرى فرآه بَحِيرا الراهب — واسمه جرجيس — فعرفه بصفته ، فقال وهو آخذ بيده : هذا سيد العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال : وما علمك بذلك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا وخرّ ساجدا ، ولا تسجد إلا لنبى . وإنى أعرفه بخاتم النبوة فى أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة ، وإنا نجده فى كتبنا . وسأل أبا طالب أن يرده خوفا عليه من اليهود . الحديث رواه ابن أبى شيبة ، وفيه أنه أقبل عليه الصلاة والسلام وعليه غمامة تظله . ثم خرج ﷺ مرة أخرى ، ومعه ميسرة غلام خديجة فى تجارة لها ، حتى بلغ سوق بصرى وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، فنزل تحت ظل شجرة ، فقال نسطور الراهب : مانزل تحت هذه الشجرة إلا نبى . وكان ميسرة يرى فى الهاجرة ملكين يظلانه من الشمس ، فلما رجعوا إلى مكة ساعة الظهيرة وخديجة فى علية لها رأت رسول الله ﷺ وهو على بعيره وملكان يظلانه . ذكره أبو نعيم

وتزوج رسول الله ﷺ خديجة بعد ذلك ، وكانت تحت أبى إهابة بن زرارة التميمى ، ثم تزوجها عتيق بن عائذ المخزومى فولدت له هندا ، وكان لها حين تزويجها برسول الله ﷺ من العمر أربعون سنة فولدت لرسول الله ﷺ بنين وبنات ، وكل أولاده من خديجة ، حاشا إبراهيم فانه من مارية القبطية ، فالذكور من ولده : القاسم — وبه كان يكنى — وهو أكبر ولده عاش أياما يسيرة ، ولد قبل النبوة . وولدان آخران اختلف فى اسمهما ، وعبد الله والطيب

والطاهر، وأما ابراهيم فولد له بالمدينة وعاش عامين غير شهرين ومات قبل موته عليه السلام بثلاثة أشهر يوم كسوف . وبناته عليه السلام أربع : زينب تزوجها أبو العاص بن الربيع وكانت خديجة خالته ، ومات أبو العاص فى خلافة عمر وولدت له عليا مات مراهقا ، وأمامة تزوجها على رضى الله عنه بعد فاطمة ولم تلد له ، ومات عنها فتزوجها المغيرة بن نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب فماتت عنده ولم تلد له ، وماتت زينب فى حياة أبيها ﷺ . ولرسول الله ﷺ أيضا رُقَية وتزوجها عثمان بن عفان رضى الله عنه ولم يكن لها زوج غيره ، فولدت له ابنا مات وله أربع سنين ، ثم ماتت رقية بعد بدر بنحو ثلاثة أيام . وكان له عليه السلام فاطمة تزوجها على بن أبى طالب ، فولدت الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم وابناً مات صغيراً اسمه المحسن رضى الله عنه ، فتزوج زينب عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فولدت له على بن عبد الله له عقب ، وتزوج أم كلثوم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وماتت فاطمة بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر . وكان لرسول الله أيضا أم كلثوم وهى أصغر بناته كانت مملكة بعتبة بن أبى لهب فلم يدخل بها وطلقها ، فتزوجها عثمان بن عفان رضى الله عنه فماتت عنده فى حياة رسول الله ولم تلد له

وخديجة أول امرأة تزوجها وأول امرأة ماتت من نسائه ولم ينكح عليها غيرها ، وأمره جبريل أن يقرأ عليها السلام من ربها . ثم حبب اليه الخلوة والتعبد لربه فكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه ، وبُغضت اليه الأوثان ودين قومه فلم يكن شىء أبغض اليه من ذلك . وأنبته الله نباتا حسناً حتى كان أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا وأعزهم جوارا وأعظمهم حلما وأصدقهم حديثا حتى سماه قومه « الأمين » لما جمع الله فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية . ولما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وثلاثين سنة قامت قريش فى بناء الكعبة

قال أهل السيرة : كان أمر البيت وولايته بعد اسماعيل عليه السلام إلى ولده ، ثم غلبهم أخوالهم من جُرهم ، فلم يزل فى أيديهم حتى استحلوا حرمته وأكلوا مايهدى اليه وظلموا من دخل مكة فرقَّ أمرهم ، فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة وغبشان من خزاعة

ذلك أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة ، فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا ، وغلبتهم بنو بكر وغبشان فنفوهم من مكة . وكانت مكة فى الجاهلية لا يقر فيها ظلم ولا بغى ، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجهم الله منها ، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هالك مكانه ؛ فيقال ما سميت بكة إلا أنها تبك أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها . ثم إن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بنى بكر ، وكان الذى يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشانى ، وقريش إذ ذاك حلول وصرم وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة ، فوليت خزاعة البيت يتوارثونه كابراً عن كابر حتى كان آخرهم حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة (وهو لحىّ الخزاعى)

ثم إن قُصَىّ بن كلاب خطب إلى حليل ابنته ، فرغب فيه فزوجه ، فولدت عبد الدار وعبد مناف وعبد العُزّى وعبدا . فلما انتشر ولد قصى وكثر ماله وعظم شرفه هلك حليل ، فرأى قصى أنه أولى بالكعبة وبأمر البيت من خزاعة وبنى بكر ، وأن قريشا صريح آل اسمٰعيل ، فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة ودعاهم إلى إخراج خُزاعة وبنى بكر من مكة فأجابوه ، فالتقوا واقتتلوا اقتتالا شديدا ، ثم تداعوا إلى الصلح فحكّموا عمرو بن عوف أحد بنى بكر ، فقضى بينهم أن قصياً أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة ، وكل دم أصابه منهم قصى موضوع تحت شدخه ، وما أصابت خزاعة وبنو بكر ففيه الدية ، وأن يخلى بين قصى وبين الكعبة ومكة . فوليها قصى ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه ، إلا أنه أقر للعرب ما كانوا عليه ، وذلك أنه كان يراه دينا فى نفسه . فأقر آل صفوان على الإجازة بالناس ، قال ابن اسحاق : فكان صفوان هو الذى يجيز للحج من عرفة ثم بنوه من بعده ، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام كرب بن صفوان . وأقر عدوان وكانت فيهم الإضافة من مزدلفة يتوارثون ذلك كابرا عن كابر حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام أبو سيارة . وأقر النسأة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه ، حتى جاء الإسلام فهدم ذلك كله ، فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه ، فكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، وقطع مكة رباعاً بين قومه

فنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة . وقيل إن قريشاً هابوا قطع شجر الحرم فى منازلهم فقطعها قصى بيده وأعوانه ، فسمته قريش « مجمِّعاً » لما جمع من أمرها ، وتيمنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يزوج رجل من قريش ولا يتشاورون فى أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء لحرب غيرهم إلا فى داره يعقده لهم بعض ولده ، وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع إلا فى داره يشق عليها فيها مدرعها ثم تدرعه ثم ينطلق بها إلى أهلها فكان أمره فى قومه فى حياته وبعد موته كالدين المتبع

واتخذ لنفسه (دار الندوة) وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضى أمورها . قال السهيلى : ولفظها مأخوذ من لفظ الندا ، والنادى والمنتدى هو مجلس القوم الذى يندون حوله أى يذهبون قريبا منه ثم يرجعون . وهذه الدار تصيَّرت من بنى عبد الدار إلى حكيم بن حزام بن خُويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصى ، فباعها فى الإسلام بمائة ألف درهم وذلك فى زمن معاوية ، فلامه معاوية على ذلك وقال : بعت مكرمة آبائك وشرفهم . فقال حكيم : ذهبت المكارم إلا التقوى ، والله لقد اشتريتها فى الجاهلية بزق خمر وبعتها بمائة ألف درهم وأشهدكم أن ثمنها فى سبيل الله ، فأينا المغبون ؟ ذكر هذا الخبر الدارقطنى فى أسماء رجال الموطأ له . انتهى

فلما كبر قصى ، وكان عبد الدار بكره ، وكان عبد مناف قد شرف فى زمان أبيه وعبد العزى وعبد ، قال قصى لعبد الدار : أما والله يابنى لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك ، لايدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يُعقد لقريش لواء لحربها إلا بيدك . ولايشرب رجل من مكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلا فى دارك . فأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة . وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها إلى قصى بن كلاب فيصنع به طعاما للحجاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وذلك أن قصيا فرض على قريش فقال لهم : يامعشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى

يصدروا عنكم ، ففعلوا . فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجا فيدفعونه اليه ، فيصنع به طعاما للناس أيام منى ، فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية حتى قام الإسلام ، ثم جرى فى الإسلام ، فهو الطعام الذى يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضى الحج

وكان قصى لا يخالَف ولا يُردّ عليه شىء صنعه ، فلما هلك أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم . ثم إن بنى عبد مناف أرادوا أخذ ما بيد بنى عبد الدار وأنهم أولى بذلك ، فتفرقت قريش بعضهم مع بنى عبد مناف وبعضهم مع عبد الدار ، فعقد كل قوم حلفا مؤكدا على لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ما بلّ بحرٌ صوفة . فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، أخرجتها لهم بعض نسائهم ، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، فسموا المطيّبين . ثم تداعوا للصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار . ورضى كل واحد من الفريقين بذلك ، وثبت كل قوم مع من حالفوا ، حتى جاء الله بالإسلام فقال رسول الله ﷺ « ما كان من حلف فى الجاهلية فان الإسلام لم يزده إلا شدة

وأما (حلف الفضول) فقال ابن اسحاق : اجتمعوا له فى دار عبد الله بن جُدْعان : وكان أكرم حلف سمع به العرب وأشرفه . وكان أول من تكلم به ودعا اليه الزبير بن عبد المطلب ، وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة : واشتراها منه العاص بن وائل — وكان ذا قدر بمكة وشرف — فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدىُّ الأحلافَ : عبدَ الدار ومخزوما وجُمحا وسهما وعديًّا ، فأبَوا أن يعينوه على العاص بن وائل ، فعلا جبل أبى قبيس — وقريش فى أنديتهم حول الكعبة — فنادى بشعر يصف فيه ظلامته رافعا صوته ، فمشى فى ذلك [الزبير] بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك . فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار ابن جُدعان ، فصنع لهم طعاما وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام قياما ، فتعاهدوا وتعاقدوا بالله ليكونُنّ يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه ما بلّ بحرٌ صوفة . فسمت قريش ذلك الحلف « الفضول » وقالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر . ثم

مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه . وقال الزبير بن عبد المطلب :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا　　ألّا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تواثقوا وتعاقدوا　　فالجار والمعترّ فيهم سالم

قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمى أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف يقول : قال رسول الله ﷺ « لقد شهدتُ فى دار عبد الله بن جُدعان حلفا ما أحب أن لى به حُمر النَّعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت » وعبد الله بن جدعان هذا تيمى يكنى أبا زهير ، ابن عم عائشة ، ولذلك قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ابن جُدعان كان يطعم الطعام ، ويقرى الضيف ، فهل ينفعه ذلك يوم [الدين] ؟ فقال « لا ، لأنه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » أخرجه مسلم . وفى غريب الحديث لابن قتيبة أن رسول الله ﷺ [قال] : كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جُدعان (فى) صَكَّة عُمَىّ - يعنى فى الهاجرة [1] قال ابن إسحاق : فولى السقاية والرفادة هاشم بن عبد مناف ، وذلك أن عبد شمس كان سفارا قلما يقيم بمكة ، وكان مقلا ذا ولد ، وكان هاشم موسرا ، وكان هاشم أول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء والصيف . وأول من أطعم الثريد بمكة ، وكان اسمه عمرو فما سمى هاشما إلا لهشم الخبز بمكة لقومه . قال الشاعر [2] :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه　　قوم بمكة مسنتين عجاف

قال ابن إسحاق : ثم هلك هاشم بغزّة من أرض الشام تاجراً ، فولى السقاية والرفادة من بعده المطّلب بن عبد مَناف، وكان أصغر من عبد شمس وهاشم وكان ذا شرف فى القوم وفضل ، وكانت قريش تسميه «الفياض» لسماحته . ثم هلك المطلب . ثم ولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما أقام آباؤه ، وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه . ثم إن عبد المطلب أُتىَ فى المنام وأمر بحفر زمزم ، وذلك

(١) الصكة من الاصطكاك ، أى الازدحام ، إجابة لدعوة ابن جدعان . وعمى اسم رجل من عدوان كان يفيض بالناس عند الهاجرة　　(٢) هو مطرود بن كعب الخزاعى

لأن الجرهمي عمرو بن الحارث لما أحدث قومه بحرم الله وقيّض الله من أخرجهم من مكة فعمد عمرو إلى نفائس [الكعبة] فجعلها في زمزم وبالغ في طمها وفر إلى اليمين ، فأتى عبد المطلب في المنام وأمر بحفرها ، ووُصف له موضعها بعلامات وأمارات ، ففعل ذلك ، فغدا بمعوله ومعه الحارث ابنه ، ليس له يومئذ ولد غيره ، فحفر فيها . فلما بدا لعبد المطلب الطيّ كبّر . فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته فقالوا : ياعبد المطلب ، إنها بئر أبينا اسمعيل ، وإن لنا فيها حقا ، فأشركنا فيها . قال ما أنا بفاعل ، إنّ هذا الأمر قد خُصصتُ به دونكم : فخاصموه إلى كاهنة بني سعد . وقيل إنه لما حفر وجد فيها غزالين من ذهب وأدراعا وأسيافا ، فقالت قريش : يا عبد المطلب ، لنا معك في هذا شرك وحق ، قال لا ، وهلم إلى أمر نَصَف بيني وبينكم نضرب عليها بالقداح . قالوا : وكيف نصنع ؟ قال أجعل للكعبة قِدحين ولي قِدحين ولكم قدحين ، فمن خرج قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . فقالوا : أنصفت . فجعل قدحين أصفرين للكعبة ، وقدحين أسودين لعبد المطلب ، وقدحين أبيضين لقريش ، ثم أعطوا صاحب القداح الذي يضرب عليها عند هُبَل ، وقام عبد المطلب يدعو وضرب صاحب القداح فخرج الأصفران على الغزالين وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش . فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة وضرب في الباب الغزالين من ذهب ، فكان أول ذهب حليت به الكعبة فيما يزعمون . ثم إن عبد المطلب [جعل] سقاية زمزم للناس ، فنذر لله لئن آتاه الله عشرة من الولد يمنعونه لينحرن أحدهم عند الكعبة ، فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم يمنعونه جمعهم فأخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء ، فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ثم أتوني ففعلوا . فدخل بهم على هُبل فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب بنيّ هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره ، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه ، وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب ولده اليه ، فكان يرى أن السهم إذا أخطأ فقد أشوى [1] : فلما أخذ صاحب القداحَ القداحَ ليضرب بها قام عبد المطلب عند هُبل يدعو الله ، ثم ضرب صاحب القداح

---

(١) رمى فأشوى : أي لم يصب الهدف

فخرج عَلَى عبد الله ، فأخذه بيده وأخذ الشفرة ثم أقبل على أساف و نائلة ليذبحه[1] ، فقامت اليه قريش من أنديتها فمنعوه ، وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ـ وكان عبد الله ابن أخت القوم ـ والله لا تذبحه حتى تعذر فيه أبدا ، فان كان فداؤه بأموالنا فديناه . ثم أتوا عرّافة فسألوها . فقالت كم الدية فيكم ؟ قالوا عشرة من الإبل . وكانت كذلك . قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قرّبوا صاحبكم وقربوا عشرة من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم . فقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وقربوا عشراً من الإبل ، وعبد المطلب عند هُبَل يدعو الله ، فضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فلم يزالوا يزيدون عشرا عشرا والقدح يخرج على عبد الله إلى أن بلغوا مائة من الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله فخرج القدح على الإبل ، ثم أعادوا الثانية فخرج على الإبل ، ثم أعادوا الثالثة فضربوا فخرج على الإبل ، فنحرت وتُركت لا يُصدّ عنها إنسان ولا يمنع ، فجرت الدية فى قريش والعرب مائة من الإبل ، وأقرها رسول الله ﷺ فى الإسلام . وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « أنا ابن الذبيحين » يعنى اسمعيل وأباه عبد الله . وروى الحاكم فى المستدرك أن أعرابيا جاء إلى النبى ﷺ يسأله فقال : يا ابن الذبيحين ، فتبسم النبى ﷺ ولم ينكر عليه

وقد كان السيل هدم الكعبة فسرق منها لما انهدمت غزال من ذهب وحلى وجوهر فنقضتها قريش ، وكان فى حيطانها صور كثيرة بأنواع الأصناف عجيبة ، منها صورة ابراهيم عليه السلام فى يده الأزلام ، ويقابلها صورة ابنه اسمعيل على فرس مخبر ، وبعد هذه الصور صور كثير من أولادهم إلى قصى بن كلاب وغيره فى نحو ستين صورة ، فى كل واحدة من تلك الصور آلة صاحبها وكيفية عبادته وما اشتهر من فعله . ولما بنت قريش الكعبة ورفعت سَمكها وتأتّى لها ما أرادت فى بنائها من الخشب الذى ابتاعوه من السفينة التى رمى بها البحر

(١) أساف ونائلة : صنمان كانا عند الصفا والمروة

إلى ساحله التى بعث بها ملك الروم من القُلزُم من بلاد مصر إلى الحبشة ليبنى بها هناك كنيسة ، وانتهوا إلى موضع الحجر على ما ذكرنا ، وتنازعوا أيهم يضعه ، اتفقوا على أن يرتضوا بأول من يطلع عليهم من باب بنى شيبة ، فكان أول من ظهر لأبصارهم النبى ﷺ من ذلك الباب ، وكانوا يعرفونه بالأمين لوقاره وهديه وصدق لهجته واجتنابه القاذورات والأدناس ، فحكّموه فيما تنازعوا فيه ، وانقادوا لقضائه ، فبسط ما كان عليه من رداء — وقيل كساء — وأخذ ﷺ الحجر فوضعه فى وسطه ، ثم قال لأربعة رجال من قريش وأهل الرياسة فيهم والزعماء منهم ، وهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مَناف ، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزّى بن قصى ، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم ، وقيس بن عمرو ابن مخزوم ، وقيس بن عدى السهمى : ليأخذ كل واحد منكم بجنبة من جنبات هذا الرداء ، فشالوه حتى ارتفع من الأرض وأدنوه من موضعه ، فأخذ ﷺ الحجر ووضعه مكانه ، وقريش كلها حضور ، فكان ذلك أول ما ظهر من فعله وقضاياه وأحكامه ، فقال قليل ممن حضر من قريش تعجبا من فعلهم وانقيادهم إلى أصغرهم سنا : واعجباً لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا إلى أصغرهم سنا وأقلهم مالا فجعلوه رأسا حاكما ، أما واللات والعزّى ليفوتنهم سبقا ، وليقسمن بينهم حظوظا وجدودا ، وليكونن له بعد هذا اليوم شأنا ونبأ عظيما . وكان رسول الله ﷺ ينقل معهم الحجارة وكانوا يرفعون أُزرهم على عواتقهم ففعل ذلك رسول الله ﷺ فلبط به — أى طاح على وجهه — ونودى : استر عورتك ، فما رؤيت له عورة بعد ذلك . فلما بلغ خمسة عشر ذراعا سقفوه على ستة أعمدة . وكان البيت يكسى القباطى ، ثم كسى البرود ، ثم كسى الديباج . وأخرجت قريش الحجر لقلة نفقتهم ، ورفعوا بابها عن الأرض لئلا يدخلها إلا من أرادوا ، وكان إذا أراد أن يدخلها من لا يريدون تركوه حتى يبلغ الباب ثم يرمونه

وقال ابن اسحق : إنها كانت قبل ذلك رضما فوق القامة . قال السهيلى : والرضم أن تنضد الحجارة بعضها على بعض من غير ملاط . وقوله «فوق القامة» كلام غير مبين لمقدار ارتفاعها إذ ذاك . وذكر غيره أنها كانت تسع أذرع من عهد اسمعيل ، ولم يكن لها سقف ،

فلما بنتها قريش قبل الإسلام زادوا فيها تسع أذرع ، قال . وكان بناؤها فى الدهر خمس مرات : الأولى حين بناها شيث بن آدم ، والثانية حين بناها ابراهيم على القواعد الأولى والثالثة حين بنتها قريش قبل الإسلام بخمسة أعوام ، والرابعة حين احترقت فى عهد ابن الزبير بشرارة طارت من أبى قبيس فوقعت فى أستارها فاحترقت ، وقيل إن امرأة أرادت تجمرها فطارت شرارة من المجمرة فى أستارها فاحترقت فشاور ابن الزبير فى هدمها من حضره ، فهابوا هدمها وقالوا : نرى أن تصلح ما وهى ، لا تهدم . فقال : إن دار أحدكم إذا احترقت لم يرض إلا بأكمل صلاحها إلا بهدمها . فهدمها حتى أفضى إلى قواعد ابراهيم ، فأمرهم أن يزيدوا فى الحفر ، فحركوا حجرا منها فرأوا تحته نارا وهولا أفزعهم ، فأمروا أن يقروا القواعد وأن يبنوا من حيث انتهى الحفر . وفى الخبر أنه سترها حين وصل إلى القواعد فطاف الناس بتلك الأستار ، فلم تخل قط من طائف ، حتى لقد ذكر أن يوم قتل ابن الزبير اشتدت الحرب واشتغل الناس فلم ير طائف يطوف بالكعبة إلا جمل يطوف بها ، فلما استتم بنيانها ألصق بابها بالأرض ، وعمل لها خلفا — أى بابا آخر من ورائها — وأدخل الحجر فيها ، وذلك لحديث حدثته به خالته عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال « ألم تر أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد ابراهيم حين عجزت بهم النفقة » ثم قال « لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وجعلت لها خلفا وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر » ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام . قال : ابن الزبير فليس بنا اليوم عجز عن النفقة ، فبناها على مقتضى حديث عائشة ، فلما قام عبد الملك بن مروان قال : لسنا من تخليط أبى خُبيب ، فهدمها وبناها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله ﷺ . فلما فرغ من بنائها جاءه الحارث ابن أبى ربيعة المعروف بالقباع ، وهو أخو عمر بن أبى ربيعة الشاعر ومعه رجل آخر فحدثه عن عائشة بالحديث المتقدم ، فندم وجعل ينكت فى الأرض بمخصرة فى يده ويقول وددت أنى تركت أبا خبيب وما تحمل من ذلك . فهذه المرة الخامسة . فلما قام أبو جعفر المنصور أراد أن يبنيها على ما بناها ابن الزبير فشاور فى ذلك فقال له مالك بن أنس : أنشدك الله يا أمير المؤمنين ، وان يجعل الله هذا البيت ملعبة للملوك من بعدك لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا

غيره ، فتذهب هيبته من قلوب الناس . فصرفه عن رأيه فيه

وكانت الكعبة قبل أن يبنيها شيث خيمة من ياقوتة حمراء يطوف بها آدم ويأنس بها ، لأنها أنزلت اليه من الجنة ، وكان قد حج إلى موضعها من الهند ، وقد قيل أيضا : إن آدم أول من بناها ، ذكره ابن اسحق فى غير رواية البكائى . وذكر ابن اسحق أن الماء لم يعلها حين الطوفان . ويذكر أن يعرب قال لهود عليه السلام : ألا نبنيه ؟ قال : إنما يبنيه نبى كريم يأتى من بعدى يتخذه الرحمن خليلا . فلما نضب ماء الطوفان كان مكان البيت ربوة من مدرة وحج اليه هود وصالح ومن آمن معهما وهو كذلك . فلما بعث الله ابراهيم ونبت اسمعيل بمكة أمر إبراهيم ببناء الكعبة ، فدلته عليه السكينة وظللت له على موضع البيت ، فلما بلغ ابراهيم الركن جاءه جبريل بالحجر الأسود من جوف أبى قبيس . وروى الترمذى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال «أنزل الحجر من الجنة أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بنى آدم» . وذكر أيضا عن عبد الله بن عمرو أن الركن الأسود والركن اليمانى ياقوتتان من الجنة ، ولولا ما طمس من نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب

وأما المسجد الحرام فأول من بناه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذلك أن الناس ضيقوا على الكعبة وألصقوا دورهم بها ، فقال عمر : إن الكعبة بيت الله ولا بد للبيت من فناء ، وإنكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم . فاشترى تلك الدور من أهلها وهدمها وبنى المسجد المحيط بها . ثم كان عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فاشترى دور أخر وأغلى فى ثمنها ، وزاد فى سعة المسجد . فلما كان ابن الزبير زاد فى اتقانه لا فى سعته ، وجعل فيه عمدا من الرخام ، وزاد فى أبوابه وحسنها . فلما كان عبد الملك بن مروان زاد فى ارتفاع حائط المسجد وحمل اليه السوارى فى البحر إلى جدة ، واحتملت من جدة على العجل إلى مكة . وأمر الحجاج بن يوسف فكساها الديباج ، وكان ابن الزبير كساها الديباج قبل الحجاج ، ذكره الزبير بن بكار . ثم كان الوليد بن عبد الملك فزاد فى حليها . فلما كان أبو جعفر المنصور وابنه محمد المهدى زادا أيضا فى اتقان المسجد وتحسين هيئته . انتهى كلام السهيلى ملخصا

ولما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله بشيرا ونذيرا » وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، إلى الأسود والأحمر ، ناسخا بشريعته جميع شرائع الأنبياء قبله . ونذكر قبل ذلك شيئا من أمور الجاهلية وما كانوا عليه قبل مبعثه

واعلم رحمك الله أن أهل الجاهلية لا عذر لهم فى ترك رسالة الله ، لأن الرسالة عمت بنى آدم ، كما قال تعالى ﴿ وإنْ من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . وأصل ذلك ما ذكر الله أنه لما أهبط آدم ومن معه من الجنة قال سبحانه ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا ، فإمَّا يأتينَّكم منى هدىً ﴾ الآية . وفى الآية الأخرى ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضلُّ ولا يشقىْ ﴾ الآيات . وهُداه الذى وعدنا به هو إرسال الرسل وإنزال الكتب . وقد وفى بما وعد سبحانه ، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فتوارث بنو آدم العلم والهدى عن أبيهم آدم عليه السلام . قال قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، فكان أول من بعث نوح . وهكذا قال مجاهد وغير واحد من السلف . وكان أول ما كادهم به الشيطان من تعظيم الصالحين ، كما ذكر الله ذلك فى قوله تعالى ﴿ وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم ، ولا تذرن وَداً ولا سُواعا ولا يَغوث ويَعوق ونَسراً ﴾ فروى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ وقالوا لا تذرنَّ آلهتكم ﴾ الآية أن هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون عليها أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت وصارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعدُ : أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهَمْدان ، وأما نسر فكانت لحِمْير لآل ذى الكلاع . وروى عبد الله بن حميد عن محمد بن كعب فى قوله تعالى ﴿ ولا تذرنَّ وَدًّا ولا سواعا ﴾ الآية ، قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، فنشأ قوم بعدهم يأخذون أخذهم فى

العبادة ، فقال لهم إبليس : لو صورتم صورهم تنظرون إليهم ، فصوروا ، ثم ماتوا . فنشأ قوم بعدهم ، فقال لهم إبليس : إن الذين كانوا قبلكم كانوا يعبدونها ، فعبدوها . وروى ابن جرير عن محمد بن قيس أن يغوث ويعوق ونسرا كانوا قوما صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورنا صورهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فلما ماتوا جاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم . وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف : كان هؤلاء قوما صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ، وطال عليهم الأمد فعبدوهم . فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور وفتنة التماثيل وهما اللتان أشار إليهما النبى ﷺ فى قوله « أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » . وقال الكلبى : كان هؤلاء قوما صالحين ، فماتوا فى شهر ، فجزع عليهم ذوو أقاربهم فصوروا صورهم . قال : فكان الرجل يأتى أخاه وابن عمه فيعظمه ، حتى ذهب ذلك القرن ، ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم الأول . ثم جاء القرن الثالث فقالوا : ما عظم أولنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم ، فعبدوهم . فلما بعث الله نوحا وغرق من غرق أهبط الماء هذه الأصنام من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض جدة . فلما نضب الماء بقيت على الشط ، فسفت الريح حتى وارتها . قال : وكان عمرو بن لُحَىّ سيد خُزاعة كاهنا ، وكان له رئِىّ من الجن فأتاه فقال : عجل السير والظعن من تهامة ، بالسعد والسلامة ائت جدة ، تجد فيها أصناما معدة . فأوردها تهامة ولا تهب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب . فأتى جدة فاستثارها ثم حملها حتى أوردها تهامة وحضر الحج ، فدعا العرب إلى عبادتها فأجابوه . انتهى ما ذكره هشام بن محمد الكلبى ملخصا . وقيل : إن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره فلما قدم مآب البلقاء وبها يومئذ العماليق فرآهم يعبدون الأصنام ، فاستحسن ذلك وظنه حقا فقال لهم : أفلا تعطونى صنما منها فأسير به إلى أرض العرب ؟ فأعطوه صنما يقال له هُبل ، فقدم به مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته

وتعظيمه . قال السهيلى : وكان عمرو بن لحىّ حين غلبت خزاعة على البيت ونفت جرهم عن مكة قد جعلته العرب ربا ، لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يعظم الناس ويكسو فى الموسم ، فربما نحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة ، حتى إن اللات الذى كان يلتّ السويق للحاج على صخرة معروفة فسميت صخرة اللات ، ويقال إن الذى كان يلت من ثقيف ، فلما مات قال لهم : إنه لم يمت ولكن دخل فى الصخرة ، ثم أمرهم بعبادتها ، وأن يبنى عليها بيت يسمى « اللات » وذكر أبو الوليد الأزرقى فى أخبار مكة أن عمرو بن لحى فقأ عين عشرين بعيرا ، وكانوا يفقأون عين الفحل إذا بلغت ألفا ، فاذا بلغت ألفين فقأوا عينه الأخرى ، قال الشاعر :

وكان شكر القوم عند النعم كىّ الصحيحات وفقء الأعين

وكانت التلبية من عهد ابراهيم عليه السلام « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك » حتى كان عمرو بن لحى . فبينما هو يلبى تمثل له الشيطان فى صورة شيخ يلبى معه فقال « لبيك لا شريك لك » فقال الشيخ « إلا شريكا هو لك » فأنكر ذلك عمرو فقال : وما هذا ؟ فقال الشيخ : قل « تملكه وما ملك » فانه لا بأس بهذا ، فقالها عمرو فدانت بها العرب

قال ابن اسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : حُدثت أن رسول الله ﷺ قال « رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار . فسألته عمن بينى وبينه من الناس فقال : هلكوا قال ابن اسحق : حدثنى محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمى أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم الخزاعى « يا أكثم رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف[1] يجر قصبه فى النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك منه » فقال أكثم : عسى ألا يضرنى شبهه يانبى الله ؟ قال « إنك مؤمن وهو كافر ، إنه أول من غير دين ابراهيم ، فنصب الأوثان ، وبحر

(١) فى نسب عمرو بن لحى اختلاف كثير

البحيرة وسيب السائبة الوصيلة »

وفى الصحيحين عن ابن المسيب قال : البحيرة التى يمنع درّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة التى يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شىء » قال أبو هريرة : فقال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن لحى الخزاعى يجر قصبه فى النار ، كان أول من سيب السوائب » . والوصيلة الناقة البكر تبكر فى أول انتاج الإبل ثم تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر . والحام الفحل يضرب الضراب المعدود ، فاذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شىء وسموه الحام

قال ابن إسحق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسمعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حتى ضاقت ، والتمسوا الفسح فى البلاد ، فكان لا يظعن منهم ظاعن إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيث مانزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم وإسمعيل غيره فعبدوا الأوثان ، فصاروا إلى ما كانت عليه قبلهم من الضلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من دين إبراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف بعرفة ومزدلفة وإهداء البُدْن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم ما ليس فيه . فكانت قريش وكنانة إذا أهلوا قالوا « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وماملك » فيوحدونه بالتلبية ، ويدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده . انتهى كلام ابن اسحق . وروى الطبرانى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان يلبى أهل الشرك « لبيك اللهم لا شريك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » فأنزل الله تعالى ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكتْ أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء ﴾ الآية . قال المفسرون : والمعنى أيرتضى أحد منكم أن يكون

عبده شريكا له فى ماله فهو وهو فيه سواء ؟ قال أبو مجلز : إن مملوكك لاتخاف أن يقاسمك مالك ، وليس له ذاك ، كذلك الله لا شريك له . والمعنى إن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟ وهذا كقوله تعالى ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أى من البنات ، لأنهم جعلوا الملائكة بنات الله ، وقد كان أحدهم إذا بُشر بالأنثى ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم

قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي : وكان من أقدم أصنامهم مناة ، وكان منصوبا على ساحل البحر الأحمر من ناحية المشلل بقُديد بين مكة والمدينة ، وكانت العرب جميعا تعظمه ، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له ، ولم يكن أحد أشد إعظاما له من الأوس والخزرج . قال هشام : وحدثنا رجل من قريش عن ابن عبيدة بن عبد الله بن أبى عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال : كانت الأوس ومن جاورهم من عرب يثرب وغيرها يحجون ، فيقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رءوسهم ، فاذا نفروا أتوه فحلقوا عنده رءوسهم وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك . وكانت مناة لهذيل وخزاعة ، فبعث رسول الله ﷺ عليا فهدمها عام الفتح

ثم اتخذوا اللات بالطائف ، وهى أحدث من مناة ، وكانت صخرة مربعة ، وكانت سدنتها من ثقيف ، وكانوا قد بنوا عليها ، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونها ، وبها كانت تسمى زيد اللات وتيم اللات . وكانت فى موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم ، فلم تزل كذلك حتى بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب لما أسلمت ثقيف فهدماها وحرقاها بالنار ، انتهى . وروى ابن جرير باسناده عن سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ قال كان يلتُّ السويق للحاج فمات ، فعكفوا على قبره . وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس : كان يلت السويق للحاج . رواه البخارى بنحوه

ثم اتخذوا العُزى وهى أحدث من اللات ، اتخذها ظالم بن سعد بوادى نخلة فوق ذات

عرق ، وبنوا عليها بيتا ، فكانوا يسمعون منها الصوت . قال هشام : وحدثنى أبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : كانت للعزّى شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة ، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فقال : ائت بطن نخلة فانك ستجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى . فأتاها فعضدها . فلما جاء اليه قال : هل رأيت شيئا ؟ : قال : لا . قال : فاعضد الثانية ، فعضدها . ثم أتى النبىّ ﷺ قال : هل رأيت شيئا ؟ قال لا . قال فاعضد الثالثة . فإذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقيها تضرب بأنيابها وخلفها سادنها . فقال خالد :

كفرانك لا سبحـــانك إنى رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها فاذا هى حممة ، ثم عضد الشجرة وقتل السادن ، ثم أتى النبى ﷺ فأخبره فقال : تلك العزى ، ولا عزّى بعدها للعرب . انتهى

وقال بعض العلماء : وكانت الطواغيت الـكبار التى تشد اليها الرحال ثلاثة : اللات ، والعزى ، ومناة . كما ذكر الله ذلك فى كتابه حيث يقول ﴿أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى﴾ وكل واحد من هذه الثلاثة لمصر من أمصار العرب . والأمصار التى كانت من ناحية الحرم ومواقيت الحج ثلاثة : مكة والمدينة والطائف . فـكانت اللات لأهل الطائف ، ذكروا أنه كان فى الأصل رجلا صالحا يلت السويق للحاج ، فمات فعكفوا على قبره مدة ثم اتخذوا تمثاله ، ثم بنوا عليه بنيه . وأما العزى فـكانت لأهل مكة قريبا من عرفات ، وكانت هناك شجرة يذبحون عندها ويدعون ، فبعث النبى ﷺ خالد بن الوليد عقب فتح مكة فأزالها ، وقسم النبى ﷺ مالها ، وخرجت منها شيطانة ، فيئست العزى أن تعبد . وأما مناة فـكانت لأهل المدينة يهلون لها شركا بالله ، وكانت حذو قُديد الجبل الذى بين مكة والمدينة من ناحية الساحل . ومن أراد أن يعرف كيف كانت أحوال المشركين فى عبادة أوثانهم ، ويعرف حقيقـة الشرك الذى ذمه الله وأنواعه ، حتى يتبين له تأويل القرآن ويعرف ما كرهه الله ورسوله ، فلينظر سيرة النبى ﷺ وأحوال العرب فى زمانه ، وما ذكره الأزرقى فى أخبار مكة وغيره من العلماء . ولما كان للمشركين سدرة يعلقون بها

أسلحتهم ويسمونها « ذات أنواط » فقال بعض الناس : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط فقال « الله أكبر ، قلتم كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . إنها السنن ، لتركبن سَنن من كان قبلكم » فأنكر ﷺ مجرد مشابهتهم للكفار فى اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين عليها سلاحهم ، فكيف بما هو أطمّ من ذلك وأعظم من مشابهتهم المشركين ، أو هو الشرك بعينه . انتهى . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال . إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية ، وذلك أنه إذا لم يعرف ما كان عليه أهل الجاهلية وقع فيه وهو لا يشعر

قال هشام بن محمد بن السائب الكلبى : وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وأعظمها عندهم هُبَل وكان فيما بلغنى من عقيق أحمر على صورة الإنسان ، وكانوا إذا اختصموا فى أمر أو أرادوا سفرا ، أتوه فاستقسموا عنه بالقِداح ، وهو الذى قال أبو سفيان يوم أحد : اعلُ هُبَل ، فقال رسول الله ﷺ : قولوا الله أعلى وأجلّ

وكان لهم أساف ونائلة ، قيل : إن أصلهما أن أساف رجل من جُرهم ونائلة بنت زيد ابن جرهم ، وكان يتعشقها فى أرض اليمن ، فأقبلوا حجاجا ، فلما خلا البيت فوجدا غفلة من الناس ففجر بها فى البيت ، فمسخا حجرين ، فأخرجوهما فوضعوهما عند الكعبة ليتعظ بهما الناس ، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها ، فكانوا يذبحون عندها . والله أعلم

قال ابن اسحق والكلبى : وكان ذو الخَلَصة لدَوس وخَثْعَم وبَجيلة ومن كان ببلادهم من العرب ، وكان مروةً بيضاء منقوشا عليها كهيئة التاج ، وكان له بيت فقال رسول الله ﷺ [لجرير بن عبد الله البَجَلى] : ألا تكفينى ذا الخلصة ؟ فسار اليه بأحمس فقاتلته خثعم وباهلة ، فظفر بهم ، وهدم بيت ذى الخلصة وأضرم فيه النار . وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد بتبالة . وذكر السهيلى أن موضعه اليوم [1] لبلدة يقال لها العَبَلات من أرض خثعم . وذكره المبرد عن أبى عبيدة . قال السهيلى : وكان بعث جرير له قبل

---

(١) بياض بالأصل

وفاة النبي ﷺ بشهرين . قال جرير : قال لى رسول الله ﷺ « ألا تريحنى من ذى الخاصة » وكان بيتاً فى خثعم يسمى الكعبة اليمانية ، فانطلقتُ فى خمسين ومائة من أحمس إلى ذى الخلَصة وكانوا أصحاب خيل فقلت : يارسول الله إنى لا أثبت على الخيل ، فضرب بيده فى صدرى حتى رأيت أثر أصابعه فى صدرى وقال « اللهم ثبته ، واجعله هاديا مهديا » فانطلق اليها فكسرها وحرقها فأرسل إلى النبي ﷺ يبشره ، فقال رسول جرير : والذى بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جمل أجرب ، فبارك على خيل أحمس ورجالها خمس مرات . رواه البخارى ومسلم . وثبت عن الصادق المصدوق أنه سيعبد فى آخر الزمان ، وثبت فى الحديث أنه لا تقوم الساعة حتى تضرب اليات نساء دوس وخَثعم حول ذى الخاصة

وكان لدَوْس صنم يقال له ذو الكفين ، فلما أسلموا بعث رسول الله ﷺ الطفيل ابن عمرو الدوسى فحرقه

وكان لبنى الحارث بن يشكر صنم يقال له الشّرى

وكان لقضاعة ولَخْم وجذام وعاملة وغَطَفان صنم فى مشارف الشام يقال له الأقيصر

وكان لمزينة صنم يقال له نهم ، وبه كانت تسمى عبد نهم

وكان لعنزة صنم يقال له سعير

وكان لطى صنم يقال له الفلس بين سلمى وأجأ

وكان لأهل كل دار بمكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فاذا أراد أحدهم السفر فكان [أول] ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به

قال ابن اسحق : وكان لخَولان صنم يقال له عم أنس بأرض خولان يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسما بينه وبين الله بزعمهم ، فما دخل فى حق عم أنس من حق الله سموه له وتركوه . ومادخل فى حق الله من حق عم أنس ردوه عليه ، وفيهم أنزل الله تعالى

﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث نصيبا ﴾ الآية

قال ابن إسحق : وكان لبنى ملكان من كنانة بن خزيمة صنم يقال له سعد ، صخرة بفلاة من الأرض طويلة ، فأقبل رجل منهم بإبل له مؤبلة ليقفها عليه ابتغاء بركته فيما يزعم ، فلما رأته الإبل ـ وكان تهراق عليه الدماء ـ نفرت منه ، فذهبت فى كل وجه ، فغضب ربها ، فأخذ حجرا فرماه به ثم قال : لا بارك الله فيك ، نفرت عنى إبلى . ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ، فلما اجتمعت قال :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ففرّقنا سعدٌ فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا تدعو لغىّ ولا رشد

وقال أبو رجاء العطاردى : كنا نعبد الحجر فى الجاهلية ، فإذا وجدنا حجرا هو أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من تراب ، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ، ثم طفنا به . وروى الدارمى عن مجاهد قال : حدثنى مولاى[1] أن أهله بعثوا معه بقدح فيه زبد ولبن إلى آلهتهم ، قال : فمنعنى أن آكل الزبد لمخافتها . قال : فجاء كلب فأكل الزبد وشرب اللبن ثم بال على الصنم وهو أساف ونائلة . قال هرون : كان الرجل فى الجاهلية إذا سافر حمل معه أربعة أحجار ثلاثة لقدره والرابع يعبده ويربى كلبه ويقتل ولده . وروى أيضا أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يارسول الله ، إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان ، فكنا نقتل الأولاد ، فكانت عندى بنت لى ، فلما أجانت وكانت مسرورة بدعائى إذ دعوتها يوما فاتبعتنى ، فمررت حتى أتيت بئرا من أهلى غير بعيد ، فأخذت بيدها فرديت بها فى البئر ، وكان آخر عهدى بها تقول : يا أبتاه يا أبتاه . فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه . فقال رجل : أحزنتَ رسول الله . فقال له : كفّ فانه يسأل عما أهمه . ثم قال : أعد علىّ حديثك ، فأعاده ، فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته ، ثم قال له : إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا ، فاستأنفْ عملك . انتهى

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنما ، فجعل يطعن بسية

---

(١) مولاه السائب بن أبى السائب أبو الحجاج المكى الإمام المقرئ المفسر

قوسه فى وجوهها وعيونها يقول ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ وهى تتساقط على رءوسها . ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت ، أخرجاه فى الصحيحين من حديث ابن مسعود بنحوه ، ولم يذكرا « وهى تتساقط الخ » وعندها « فجعل يطعنها بعود كان فى يده الخ »

قال أبو الحسن المسعودى فى كتابه مروج الذهب : كانت العرب فى جاهليتها فرقا : منهم الموحّد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشور موقن بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصى ، كقس بن ساعدة المشهور بالفصاحة ورباب الشنى وبحيرا الراهب وكان من عبد القيس ، ومنهم من أقر بالخالق وأثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والإعادة وأنكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام ، وهم الذين حكى الله تعالى قولهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها ، ونحروا لها البُدن ونسكوا لها النسائك ، وحرموا لها وأحلوا لها . ومنهم من أقر بالخالق والبدء وكذب بالرسل والبعث ومال إلى قول أهل الدهر ، وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله ﴿ وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ الآية . ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية . وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله ، تعالى وتقدس عن قولهم ، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم عند الله وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ الآية ، وقوله ﴿ أفرأيتم اللات والعزّى ﴾ الآيات . انتهى كلامه . وقال غيره . ومنهم من كان يعبد الجن ، وكانت علومهم علم الأنساب والأنواء والتواريخ وتعبير الرؤيا ، وكانت لأبى بكر رضى الله عنه فيها يد طولى ، وكانت الجاهلية تفعل أشياء جاء الإسلام بها ، وكانوا لا ينكحون الأمهات ولا البنات وكان أقبح ما يأتونه الجمع بين الأختين ، وكان الرجل منهم يتزوج امرأة أبيه ، وكانوا يغتسلون من الجنابة ، وكانوا يداومون على المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان ، وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى ، وكانوا يحجون ويعتمرون

وقد قسم المؤرخون العربَ إلى ثلاثة أقسام : بائدة وعاربة ومستعربة . أما البائدة فهم الأولى الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لتقادُم عهدهم ، وعاد وثمود وجُرهم الأولى – وكانت على عهد عاد – فبادوا ودرست أخبارهم . وأما جُرهم الثانية فهم من ولد قحطان ، وبهم اتصل اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، ولم يبق من ذكر العرب البائدة إلا القليل . وأما العرب العاربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان ، وأما العرب المستعربة فهم من ولد اسمعيل . انتهى

فصل

قال ابن القيم : وتلاعُبُ الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم ، فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صور تلك الأصنام على صورهم كما تقدم عن قوم نوح ، ولهذا لعن النبى ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ، ونهى عن الصلاة إلى القبور ، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيدا ، وقال « اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل ، فأبى المشركون إلا خلافه فى ذلك كله ، إما جهلا وإما عنادا لأهل التوحيد ، ولم يضرهم ذلك شيئا . وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين ، وأما خواصهم فإنهم اتخذوها بزعمهم على صور الكواكب المؤثرة فى العالم عندهم ، أو جعلوا لها بيوتا وسدنة وحجابا وحَجا وقربانا ، ولم يزل فى هذه الدنيا قديما وحديثا ، فمنها بيت على رأس جبل بأصبهان كان به أصنام أخرجها بعض ملوك المجوس وجعله بيت نار ، ومنها بيت ثان وثالث ورابع بصنعاء بناه بعض المشركين على اسم الزهرة فخربه عثمان بن عفان ، ومنها بيت بناه قابوس الملك على اسم الشمس بمدينة فرغانة فخربه المعتصم . وأشد الأمم فى هذا النوع من الشرك الهند

وأصل هذا المذهب من مشركى الصابئة ، وهم قوم إبراهيم الخليل عليه السلام الذين ناظرهم فطلبوا تحريقه ، وهو مذهب قديم فى العالم ، وأهله طوائف شتى : فمنهم عباد الشمس

زعموا أنها ملك من الملائكة السفلية كلها عندهم منها ، وهي عندهم ملك الفلك ، فتستحق التعظيم والسجود والدعاء . ومن شريعتهم في عبادتها أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهر على لون النار ، وله بيت خاص قد بنوه باسمه ، وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع ، وله سدنة وقوّام وحجبة ، وهم إذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها ، وإذا غربت ، وإذا توسطت الفلك ، ولهذا يقارنها الشيطان [1] في هذه الأوقات الثلاثة لتقع عبادتهم له ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن تحري الصلاة في هذه الأوقات ، قطعا لمشابهة الكفار ظاهرا ، وسداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام .

وطائفة أخرى اتخذت القمر صنما وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة وإليه تدبير هذا العالم السفلي ، ومن شريعة عبادته أنهم اتخذوا لهم صنما على شكل عجل ويجره أربعة ، وبيد الصنم جوهرة ويعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياما معلومة من كل شهر ، ثم يأتون اليه بالطعام والشراب والفرح والسرور ، فاذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه

ومنهم من يعبد أصناما اتخذوها على صورة الكواكب وروحانيها بزعمهم ، وبنوا لها هياكل ومتعبدات ، لكل كوكب منها هيكل يخصه وصنم يخصه وعبادة تخصه ، فانهم لا تستمر لهم طريقة إلا بشخص خاص على شكل خاص ينظرون إليه ويعكفون عليه ، ومن هاهنا اتخذ أصحاب الروحانيات والكواكب أصناما زعموا أنها على صورها ، فوضع الصنم إنما كان في الأصل على شكل معبود غائب فجعلوا الصنم على شكله وهيئته وصورته ليكون نائبا منابه وقائما مقامه ، وإلا فمن المعلوم أن عاقلا لا ينحت خشبة أو حجرا بيده ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده . ومن أسباب عبادتها أيضا أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم وتخبرهم ببعض المغيبات وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم ، فبجهلهم وسخفهم يظنون أن المتكلم هو الصنم نفسه المخاطب ، وعقلاؤهم يقولون إن هذه روحانيات الأصنام ، وبعضهم يقولون إنها الملائكة . وبالجملة فان أكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان ، ولم يتخلص

---

(١) كذا الأصل ، ولعل فيه تحريفا

منها إلا الحنفاء أتباع ملة ابراهيم . وعبادتها فى الأرض من قبل نوح كما تقدم ، وهيأ كلها وسدنتها ومحارمها والكتب المصنفة فى شرائع عبادتها طبقت الأرض . قال إمام الحنفاء ﴿واجنُبْنِي وَبَنِيَّ أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس﴾ ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو فى المخلوق وإعطاؤه فوق منزلته حتى جعل فيه حظ من الإلهية ، وشبهوه بالله سبحانه ، وهذا هو التشبيه الواقع فى الأمم ، الذى أبطله الله وبعث رسله وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله ، قال الله تعالى ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ وقال ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا﴾ الآية . وقال عن أهل النار ﴿تالله إنْ كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسوِّيكم برب العالمين﴾ وقال ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ فنهاهم أن يضربوا له مثلا من خلقه ، فان هذا لم يقله أحد ولم يكونوا يفعلونه ، فان الله سبحانه أجل وأعظم وأكبر من [ذلك فى] فطر الناس كلهم ، ولكن المشبهون يغلون فيمن يعظمونه ، فيشبهونه بالخالق . والله أعلم

ذكر أمر البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى

وفى الصحيحين عن ابن المسيب قال : البحيرة هى التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس . والسائبة التى يسيبونها لآلهتهم لايحمل عليها . والوصيلة الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل ثم تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر . والحامى فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فاذا ضربه ودعوه للطواغيت ، وأعفوه من الحمل فلا يحمل عليه ، وسموه الحامى . انتهى

وقال ابن اسحاق : البحيرة بنت السائبة ، هى الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر سيبت ، فلم يركب ظهرها ولم يجزّ وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها ثم خلى سبيلها مع أمها فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف كما فعل بأمها ، فهى البحيرة بنت السائبة . والوصيلة الشاة اذا أتأمت عشر إناث متتابعات فى خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة . قالوا : قد وصلت ،

فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم ، إلا أن يموت منها شيء فيشترك فى أكله ذكورهم وإناثهم . والحامى إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره فلم يركب ولم يجز وبره وخلى فى إبله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك . قال ابن اسحاق فلما بعث الله رسوله محمد ﷺ أنزل الله ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ الآية ، وأنزل ﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ﴾ الآية وقوله ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ﴾ الآية

أمر الحمس

قال ابن اسحاق : وقد كانت قريش ـ لا أدرى قبل الفيل أو بعده ـ ابتدعت للحمس رأيا رأوه وأرادوه ، فقالوا : نحن بنوا إبراهيم وأهل الحرم وولاة البيت وقاطنو مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلنا ، ولا تعرف له مثل ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئا من الحل مثل ما تعظمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم . فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها ، وهم يعرفون ويقرّون أنها من المشاعر والحج ودين ابراهيم ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها ، إلا أنهم قالوا نحن أهل الحرم وليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيره كما يعظم ، نحن الحمس والحمس أهل الحرم . ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من مساكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياهم ، يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم ، وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك ، ثم ابتدعوا فى ذلك أمورا لم تكن لهم حتى قالوا : لا ينبغى للحمس أن يقطوا الأقط ولا يسلوا السمن وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرما . ثم رفعوا فى ذلك فقالوا لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجا أو عمارا ، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس ، فان لم يجدوا شيئا طافوا بالبيت عراة فإن تكرم

منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب أحمس وطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ولم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره ، فكانت العرب تسمى تلك الثياب «اللقى» فحملوا على ذلك العرب فدانت به ، أما الرجال فيطوفون عراة ، وأما النساء فتضع المرأة ثيابها كلها إلا درعا مفرجا ثم تطوف فيه ، فقالت امرأة من العرب :

اليوم يبـــدو بعضه أو كله　　وما بدا منـه فلا أحله

فكانوا كذلك حتى بعث الله محمدا ﷺ فأنزل الله ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ يعنى قريشا والعرب ، وأنزل فيما حرموا على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت ﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ الآية

ذكر أهل الفترة

بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم

قال المسعودى : وكان بين المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم فى الفترة جماعة من أهل التوحيد وممن يقر بالبعث قد اختلف الناس فيهم ، فمن الناس من رأى أن منهم أنبياء ، ومنهم من رأى غير ذلك . فمن ذكر رياب الشنى وكان من عبد القيس ثم من شن وكان على دين المسيح قبل مبعث رسول الله ﷺ ، فسمعوا مناديا ينادى من قبل السماء قبل مبعثه ﷺ : خير أهل الأرض رياب الشنى و بَحيرا الراهب ورجل آخر لم يأت بعد ، يعنى النبي ﷺ . وكان لا يموت أحد من ولد رياب إلا رأوا طشا على قبره

ومنهم أسعد أبو كرب الحميرى وكان مؤمنا بالنبي ﷺ قبل مبعثه بسبعمائة سنة وقال :

شهدت على أحمد أنه　　رسول من الله بارى النسم
فلو مد عمرى إلى عمره　　لكنت وزيرا له وابن عم

وهو أول من كسا الكعبة الأنطاع والبرود ، ولذلك يقول بعض حِمْير :

وكسونا البيت الذى حرم الله

ومنهم قس بن ساعدة من إياد بن معد ، وكان حكيم العرب ، وكان مقرا بالبعث ، وهو الذى يقول « من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت » وقد ضرب العرب بحكمته الأمثال قال الأعشى :

وأحكم من قس وأجرى من الذى   بذى الغيل من غسان أصبح حادرا

وقد وفد من إياد إلى النبي ﷺ فسألهم عنه ، فقالوا : هلك . فقال : رحمه الله . كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أحمر وهو يقول « أيها الناس ، استمعوا وعوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت . أما بعد فان فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا . بحر يفور ، ونجوم تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع . أقسم قس بالله قسما : إن له دينا أرضى من دين أنتم عليه . ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ سبيل مؤتلف ، وعمل مختلف » وقال أبياتا لا أحفظها . فقام أبو بكر فقال : أنا أحفظها يا رسول الله ، فقال :

فى الذاهبين الأولين   من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا   للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها   تمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضى ولا   يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة   حيث صار القوم صائر

فقال رسول الله ﷺ : رحم الله قسا ، إنى لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده

وممن كان فى الفترة زيد بن عمرو أبو سعيد بن زيد أحد العشرة ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب ، وقد كان زيد رغب عن عبادة الأوثان وعابها ، فأولع به عمه الخطاب سفهاء مكة فسلطهم عليه فآذوه : قال ابن اسحاق : واجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من

أصنامهم وكانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به وكان ذلك عيداً لهم [في كل] سنة يوما ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكتم بعضكم عَلَى بعض . قالوا : أجل . وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وعبيد الله بن جحش — وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب — وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى . فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ؟ ياقوم التمسوا لأنفسكم دينا ، فإنكم والله ما أنتم على شيء . فتفرقوا فى البلدان يلتمسون دين إبراهيم فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب . وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ، ثم هاجر من المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان مسلمة ، فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هناك نصرانيا ، وخلف رسولُ الله ﷺ [على] زوجته أم حبيبة بعده ، فأرسل إلى النجاشى عمرو بن أمية فزوجها رسول الله ﷺ وأصدقها عنه أربعمائة دينار . وأما عثمان ابن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده . وأما زيد بن عمرو فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية ، وفارق قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموءودة وقال : أعبد رب إبراهيم ، وبادأ قومه بعيب ما هم عليه . وقال ابن اسحاق : وحدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا مسندا ظهره إلى الكعبة وهو يقول : يامعشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك . ولكن لا أعلمه . ثم يسجد على راحته . قال ابن اسحاق : وحديث ابنه سعيد بن زيد بن عمرو وعمر بن الخطاب وهو ابن عمه قالا لرسول الله ﷺ : أنستغفر لزيد بن عمرو ؟ قال نعم ، فانه يبعث أمة وحده . وقال الليث كتب إلى هشام عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول : يامعشر قريش ، والله ما منكم على دين ابراهيم غيرى .

وكان يُحيي الموءودة ، يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها فأنا أكفيك مؤنتها فيأخذها ، فاذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها اليك ، وإن شئت كفيتك مؤنتها . وروى البخارى أيضا عن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ لقى زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل عليه الوحى ، فقدمت الى النبى ﷺ (١) فأبى أن يأكل منها . ثم قال زيد : لست آكل مما تذبحون على أصنامكم ، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه . وإن زيد بن عمرو بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ، إنكارا لذلك وإعظاما له . قال موسى : حدثنى سالم بن عبد الله ولا أعلمه يحدث إلا عن ابن عمر أن زيد بن عمرو ابن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه . فلقى عالما من اليهود ، فسأله عن دينهم فقال : لعلى أدين بدينكم ، فقال : لا تكن على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله . فقال زيد : ما أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أستطيعه ، فهل تدلنى على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن تكون حنيفا . قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين ابراهيم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد فلقى عالما من النصارى فذكر مثله فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله . قال : ما أفر إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضب الله شيئا أبدا وأنا أستطيع . فهل تدلنى على غيره ؟ قال ما أعلمه إلا أن تكون حنيفا . قال : وما الحنيف ؟ قال : دين ابراهيم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله ، فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم خرج ، فلما برز رفع يديه وقال : اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم . انتهى

قال ابن اسحاق : قال زيد بن عمرو فى فراق دين قومه وما كان لقى منهم فى ذلك :

أرباً واحداً أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور

فلا عُزّى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمى بنى عمرو أزور

---

(١) لعله سقط هنا كلمة « ذبيحة » أو « لحوم ذبيحة »

ولا غنما أدين وكان ربا لنا فى الدهر إذ حلمى يسير
ولكن أعبد الرحمن ربى ليغفر ذنبى الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها متى ما تحفظوها لا تبور
ترى الأبرار دارهم جنان وللكفار حامية سعير

وقال أيضا :

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا وقولا رضيا لا ينى الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه إله ولا رب يكون مدانيا
ألا أيها الإنسان إياك والردى فإنك لا تخفى عن الله خافيا
وإياك لا تجعل مع الله غيره فإن سبيل الرشد أصبح باديا
حنانيك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهى ربنا ورجائيا
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى أدين إلها غيرك الله ثانيا
وأنت الذى من فضل من ورحمة بعثت إلى موسى رسولا مناديا
وقلت له أذهب وهرون فادعوا إلى الله فرعون الذى كان طاغيا
وقولا له آأنت سويت هذه بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له آأنت رفعت هذه بلا عمد ارفق إذا بك بانيا
وقولا له آأنت سويت وسطها منيرا إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له من يرسل الشمس غدوة فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رءوسه وفى ذاك آيات لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نجيت يونسا وقد بات فى أضعاف حوت لياليا
وإنى وإن سبحت باسمك ربنا لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فرب العباد ألق سيبا ورحمة على وبارك فى بنى وماليا

وقال ابن هشام هى لأمية بن أبى الصلت فى قصيدة له . وقال زيد أيضا :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت   له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما رآها استوت   على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت   له المزن تحمل عذباً زلالا
إذا هى سيقت إلى بلدة   أطاعت فصبت عليها سجالا

وكان الخطّاب قد آذى زيداً حتى أخرجه إلى أعلى مكة فنزل حِراء مقابل مكة ووكل به الخطاب شبابا من شباب قريش وسفهاء من سفهائهم ، فقال لهم لا تتركوه يدخل مكة ، وكان لا يدخلها إلا سرا منهم ، فاذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم . ثم خرج يطلب دين ابراهيم يسأل الأحبار والرهبان حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل فجاء إلى الشام كلها حتى انتهى إلى راهب بميعة من أرض البلقاء كان ينتهى إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون ، فسأله عن الحنيفية دين ابراهيم فقال : إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أظلك زمان نبىّ يخرج فى بلادك التى خرجتَ منها يُبعث بدين إبراهيم الحنيفية ، فالحق بها فإنه مبعوث الآن ، هذا زمانه . وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض منها شيئا ، فخرج سريعا حين قال له ذلك الراهب ما قال يريد مكة حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه ، فقال ورقة بن نوفل يبكيه :

رشدتَ وأنعمت ابن عمرو وإنما   تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينكَ ربا ليس رب كمثله   وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وإدراكك الدين الذى قد طلبته   ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها   تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقى خليل الله فيها ولم تكن   من الناس جبارا الى النار هاويا
وقد تدرك الإنسانَ رحمةُ ربه   ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

ومن كان فى الفترة أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وكان عاقلا ، وكان يتجر الى الشام فيلقى أهل الكتاب من اليهود ويقرأ الكتب ، وقد كان علم أن نبيا سيبعث فى العرب فطمع أن يكون هو ، فلما بعث رسول الله ﷺ وصرفت عنه النبوة حسد وكفر ، فكان يقول أشعارا على آراء أهل الديانة يصف فيها السموات والأرض والشمس والقمر والملائكة والأنبياء ، ويذكر البعث والنشور والجنة والنار ويعظم الله وحده ، ومن ذلك قوله :

الحمد لله لا شريك له من لم يكن هكذا فقد ظلما

ووصف أهل الجنة فى بعض كلامه فقال :

فلا لغو ولا تأثيم فيها وما فاهوا به لهُمُ مقيم

ولما بلغه ظهور النبى ﷺ اغتاظ لذلك وتأسف ، وأتى المدينة ليسلم فرده الحسد ، فرجع الى الطائف ، فبينما هو ذات يوم مع فتية ليشرب إذ وقع عليه غراب فنعق ثلاثة أصوات وطار ، فقال أمية : أتدرون ماقال ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : إن أمية لايشرب الكأس الثالثة حتى يموت . فقال القوم : لنكذِّبن قوله . قال : احثوا كأسكم فحثوها ، فلما انتهت الكأس الثالثة الى أمية أغمى عليه ، فسكت طويلا ثم أفاق وهو يقول :

لَبَّيْكُما لبيكما ها أنا ذا لديكما

أنا من خفت عليه النعمة ، ولم يحمد الشكر

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأى عبد لك ما ألمَّا

ثم أنشأ يقول :

إن يوم الحساب يوم عظيم شاب منه الصغير شيبا طويلا
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى فى رءوس الجبال أرعى الوعولا
كل عيش وإن تطاول دهرا صائر مرة إلى أن يزولا

ثم شهق شهقة كانت فيها نفسه

وقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص فى قوله ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ الآية : إنه أمية بن أبى الصلت . وهو أول من كتب « باسمك اللهم » ومنه تعلمت قريش ، ولتعلمه هذه الكلمة سبب عجيب ذكر المسعودى

وقد أسلمت عاتكة أخت أمية هذا فخبرت عنه بخبر ذكره عبد الرزاق فى تفسيره أنها جاءت إلى النبى ﷺ فحدثته أنها رأت وهى فى اليقظة نسرين نزلا على سقف بيتها ، وفيه أخوها أمية نائما . فشقا السقف ، فنزل أحدهما على أمية فشق صدره وحشاه بشىء ثم أصاحه فخرج فقال له النسر الآخر : وعى ؟ قال : نعم . قال : هل زكا ؟ قال : لا . فكذلك كان ينطق بالحكمة فى أشعاره ويذكر التوحيد ويعظم الرب ويذكر الجنة والنار ، فلما قتل ببدر من قتل من أشراف قريش بكاهم ورثاهم وحقد على الإسلام وحُرم التوفيق . ومما ذكر من شعره قوله :

إن آيات ربنا باقيات ما يمارى فيهن إلا كفور

خلق الليل والنهار فكل مستبين حسابه مقدور

ثم يجلو النهار رب كريم بمهاة شعاعها منشور

حبس الفيل بالمُغَمَّسِ حتى ظل يحبو كأنه معقور

لازما حلقة الجران كما قطر من صخر كبكب محدور

حوله من ملوك كندة أبطا ل ملاويث فى الحروب صقور

خلفوه ثم ابذعرُّوا جميعا كلهم عظم ساقه مكسور

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة بور

ومن ذلك قوله أيضا :

إله محمد حقا إلهى ودينى دينه غير انتحال

إله العالمين وكل أرض ورب الراسيات من الجبال

بناها وابتنى سبعا شدادا بلا عمد يرين ولا حبال

وسوّاها وزينها بنور ... من الشمس المضيئة والهلال

ومن شهب تلألأ فى دجاها ... مراميها أشد من النصال

وأنشا المزن تُدْلج بالرّوايا ... خلال الرعد مرسلة العزالى

ليسقى الحرث والأنعام منها ... سجال الماء حالا بعد حال

وشق الأرض فانبجست عيونا ... وأنهارا من العذب الزلال

وبارك فى نواحيها وزكّى ... بها ما كان من حرث ومال

وأجرى الفلك فى تيار موج ... تفيض على المداليج الثقال

وكل مُعَمَّر لا بد يوما ... وذى دنيا يصير الى زوال

ويفنى بعد جدّته ويبلى ... سوى الباقى المقدَّس ذى الجلال

كأنا لم نعش إلا قليلا ... إذا كنا من الهوم البوالى

ونادى مسمع الموتى فجئنا ... من الأجداث كالسفن العجال

فلا أنساب بين الناس ترجى ... ولا رحم يصير الى وصال

سوى التقوى ولا مولى يُرَجَّى ... سوى الرب الرحيم من الموالى

وسيق المجرمون وهم عصاة ... الى ذات المقامع والنكال

اذا نضجت جلودهم أُعيدت ... كما كانت وعادوا فى سفال

ونادوا مالكا ودعوا ثبورا ... وعجوا فى سلاسلها الطوال

فليسوا ميتين فيستريحوا ... وكلهمو بحرِّ النار صال

وحلّ المتقون بدار صدق ... وعيش ناعم تحت الظلال

ظلال بين أعناب ونخل ... وبنيان من الفردوس عال

لهم ما يشتهون وما تمنوا ... من اللذات فيها والجمال

ومن استبرق يكسون فيها ... عطايا جمة من ذى المعالى

وكأس لذة لا غول فيها ... من الخمر المشعشعة الحلال

وله أشعار كثيرة غير ذلك . وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : أصدق كلة قالها الشاعر لبيد « ألا كل شىء ما خلا الله باطل » وكاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم . وعن عمرو بن الشريد [1] عن أبيه قال : استنشدنى النبى ﷺ من شعر أمية بن أبى الصلت ، فأنشدته ، حتى أنشدته مائة قافية . رواه البخارى فى الأدب المفرد (٢) . وممن كان فى الفترة أبو قيس صرمة بن أبى أنس من الأنصار من بنى النجار، وقد كان ترهب ولبس المسوح وهجر الأوثان ودخل بيتا فاتخذه مسجدا لا تدخله طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب ابراهيم ، ولما قدم النبى ﷺ المدينة أسلم وحسن إسلامه ، وفيه نزلت آية السحور ﴿ كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ ، وهو القائل فى النبى ﷺ :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة ... يذكّر لو يلقى حبيبا مواتيا

وهو الذى يقول :

يقول أبو قيس وأصبح غاديا ... ألا ما استطعتم من وصاتىَ فافعلوا

وأوصيكم بالله والبر والتقى ... وأعراضكم ، والبر بالله أول

وإنْ قومكم سادوا فلا تحسدنّهم ... وإن كنتمُ أهل الرياسة فاعدلوا

وإن نزلت إحدى الدواهى بقومكم ... فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا

وإن أنتم أمعرتم فتعففوا ... وما حملوكم فى الملمات فاحملوا

وإن ناب غُرْم فادح فارفعوهم ... وإن كان فضل الخير فيكم فأفضلوا

ومن ذلك قوله أيضا :

سبّحوا الله شرق كل صباح ... طلعت شمسه وكل هلال

عالم السر والبيان لدينا ... ليس ما قال ربنا بضلال

---

(١) فى الأصل : الرشيد (٢) رقم ٨٦٩ طبع السلفية

يا بَنِىّ الأرحام لا تقطعوها وصِلوها قصيرة من طوال
واتقوا الله فى ضعاف اليتامى ربما يستحلُّ غير الحلال
واعلموا أن لليتيم وليا عالما يهتدى بغير السؤال
ثم مال اليتيم لا تأكلوه إن مال اليتيم يرعاه وال
واجمعوا أمركم على البر والتقوى وترك الخنا وأخذ الحلال

ومنهم أبو عامر الأوسى واسمه عبدعمرو بن صيفى بن النعمان من بنى عمرو بن عوف ، وابنه حنظلة بن أبى عامر وهو غسيل الملائكة ، وكان سيدا فى الجاهلية قد ترهب فيها ولبس المسوح ، وكان يسمى فى الجاهلية الراهب ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاهره بالعداوة فخرج فارا إلى قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ وجاء معهم يوم أُحد وحفر حفائر بين الصفين فوقع فى إحداهن رسول الله ﷺ ، وتقدم فى أول المبارزة فاستمالهم إلى نصره ، فلما عرفوه قالوا : ألا أنعم الله بك عينا يافاسق ياعدو الله ، ونالوا منه ، فرجع وهو يقول : لقد أصاب قومى بعدى شر ، ودعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت طريدا بعيدا فنالته الدعوة ، وذلك أنه لما رأى أمر رسول الله ﷺ فى ارتفاع ذهب إلى هرقل يستنصره على النبى ﷺ ، فوعده ومنّاه ، وأقام عنده وكتب إلى جماعة من أهل النفاق من قومه يعدهم أنه سيقدم عليهم بجيش ، فيخرج محمدا وأصحابه . وأمرهم أن يبنوا مسجدا ويستعدوا بما استطاعوا من قوة وسلاح ، فبنوا مسجد الضرار ، فلما فرغوا أتوا إلى النبى ﷺ فقالوا : إنا قد فرغنا من مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله فيه القرآن ﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا ﴾ الآيات . وأمر به رسول الله ﷺ بعد أن رجع من تبوك فحرقه

ذكر قصة سلمان الفارسى رضى الله عنه

قال ابن اسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى عن محمد بن لبيد عن عبدالله ابن العباس قال : حدثنى سلمان الفارسى من فيه قال : كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان

من أهل قرية يقال لها جى ، وكان أبى دهقان أهل قريته ، وكنت أحبَّ خلق الله اليه ، فلم يزل حبه إياى حتى حبسنى كما تحبس الجارية ، واجتهدتُ فى المجوسية حتى كنت قطن النار الذى يوقدها لا يتركها تخبو ساعة . قال: وكانت لأبى ضيعة عظيمة ، قال فشغل فى بنيان له يوما فقال لى : يا بنى قد اشتغلت فى بنيانى هذا عن ضيعتى فاذهب اليها فاطلعها ،وأمرنى فيها ببعض ما يريد ، ثم قال : ولا تحتبس عنى فانك إن احتبست عنى كنت عندى أهم إلى من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شىء من أمرى .قال فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى اليها فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس لحبس أبى إياى فى بيته ،فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتنى صفتهم فى صلاتهم ، ورغبت فى أمرهم وقلت هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبى فلم آتها . ثم قلت لهم ، من أين أصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام .. فرجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال : أى بنى أين كنت ؟ ألم أكن عهدت اليك ما عهدت ؟ قال قلت له : يا أبت مررت بنصارى يصلون بكنيسة لهم فأعجبنى ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس . قال : أى بنى ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه . قال قلت له : كلا والله إنه لخير من ديننا . فخافنى ، فجعل فى رجلى قيدا ثم احتبسنى فى بيته .قال وبعثت إلى النصارى وقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم . قال فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى ، فأخبرونى بهم . فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى بهم . فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبرونى بهم فألقيت الحديد من رجلى ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا : الأسقف فى الكنيسة . قال فجئت فقلت له : إنى رغبت فى هذا الدين وأحببت أن أكون معك وأخدمك فى كنيستك وأتعلم منك وأصلى معك . قال : ادخل .فدخلت معه قال : فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها،فاذا جمعوا اليه شيئا منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورِق ، قال

وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع . ثم مات ، فاجتمعت له النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فاذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا . فقالوا لى وماعلمك بذلك ؟ قلت لهم إنى أدلكم على كنزه . قالوا : فدلنا عليه . قال فأريتهم موضعه ، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا ، وورقا . قال فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبدا ، فصلبوه ورموه بالحجارة ، وجاءوا برجل فجعلوه مكانه قال يقول سلمان . فما رأيت رجلا يصلى الخمس أرى أنه أفضل ولا أزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة ولا أدأب ليلا ونهارا منه . قال فأحببته حبا شديدا لم أحب شيئا قبله . قال فأقمت معه زمانا ثم حضرته الوفاة فقلت له : يافلان إنى قد كنت معك فأحببتك حبا لم أحبه شيئا من قبلك ، وقد حضرك ماترى من أمر الله ، فالى من توصى بى وبم تأمرنى ؟ قال : أى بنى والله ما أعلم اليوم أحدا على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلا بالموصل وهو فلان ، وهو على ما كنت عليه . فالحق به قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له : يا فلان إن فلانا أوصانى عند موته أن ألحق بك ، وأخبرنى أنك على أمره . فقال لى . أقم عندى . فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات . فلما حضرته الوفاة قلت له ، يافلان إن فلانا أوصى بى اليك وأمرنى أن الحق بامرك ، وقد حضرك من أمر الله ماترى فإلى من توصى بى ، وبم تأمرنى ؟ قال : يابنى والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بنصيبين وهو فلان . فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فأخبرته خبرى وما أمرنى به صاحبى ، فقال : أقم عندى ، فأقمت عنده ، فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فوالله مالبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت له : يافلان إن فلانا كان أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلىَ من توصى بى ، وبم تأمرنى ؟ قال : يابنى والله ما أعلم بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجل بعمورية من أرض الروم فإنه على مثل ما نحن عليه ، فان أحببت فأته فانه على أمرنا فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبرى فقال : أقم عندى ، فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم . قال فاكتسبت ، حتى صار لى بقرات وغنيمة . قال

ثم نزل به أمر الله ، فلما حضر قلت له : يا فلان إنى كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى وبم تأمرنى ؟ قال : أى بنى والله ما أعلم أصبح اليوم أحد من الناس على مثل ما كان عليه هؤلاء آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبى هو مبعوث بدين ابراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة . فان استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل . ثم مات وغيب . قال ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث ، ثم مر بى نفر من كلب تجار ، فقلت لهم : احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنيمتى هذه . قالوا نعم فأعطيتهم إياها وحملونى معهم ، حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى فباعونى على رجل يهودى عبداً ، فكنت عنده ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى ولم يحق فى نفسى ، فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من قريظة من المدينة فابتاعنى منه فاحتملنى إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى ، فأقمت بها وبعث رسول الله ﷺ وأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق . ثم هاجر إلى المدينة فوالله إنى لفى رأس عذق لسيدى أعمل له بعض العمل ، وسيدى جالس تحتى ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال . يا فلان قاتل الله بنى قيلة [1] والله إنهم الآن لمجتمعون بقبا على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعم أنه نبى . قال سلمان : فلما سمعتها أخذتنى العُرَواء وهى الحمى النافض — قال ابن هشام : العرواء هى المرعدة من البرد والانتفاض — حتى ظننت أنى ساقط على سيدى ، فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك : ماذا تقول ؟ قال فغضب سيدى . فلكمنى لكمة شديدة ثم قال : مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك قال فقلت له : لا شىء إنما أردت أن أستثبته عما قال . قال : وقد كنت عندى شىء قد جمعته ، فلما أمسيت أخذته وذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقبا ، فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغنى إنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء

---

(١) بنو قيلة الأوس والخزرج أهل المدينة

ذوو حاجة ، وهذا كان عندى للصدقة ، فرأيتكم أحق به من غيركم. قال : فقربته اليه ، فقال ﷺ : كلوا ، وأمسك يده ، فلم يأكل . فقلت فى نفسى : هذه واحدة . ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا ، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة فجئته به فقلت له : إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها. قال : فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه منها . قال فقلت فى نفسى : هاتان ثنتان . ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة أحد أصحابه عليه شملتان له وهو جالس فى أصحابه ، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر الى ظهره هل أرى الذى وصف لى صاحبى ، فلما رآنى ﷺ استدبرته عرف أنى أستثبت فى شىء وُصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره فنظرت الى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبِّل فبكى وأبكى ، فقال لى ﷺ : تحوَّل ، فتحولت فجلست بين يديه فقصصت عليه حديثى كما حدَّثتك يا ابن عباس ، فأعجب رسولَ الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه ، ثم شغل سلمانَ الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأُحد ، قال سلمان : ثم قال لى ﷺ : كاتبْ ياسلمان ، فكاتبت صاحبى على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير ، وهى شبه الآبار الصغار المدسة[1] للنخل وأربعين أوقية زاد البلاد[2] ، وشىء من ذهب . فقال ﷺ لأصحابه : أعينوا أخاكم ، فأعطونى بالنخل الرجل ثلاثين ودية[2] والرجل بعشرين والرجل بخمسة عشر والرجل بعشر ، يعين الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمعت لى ثلاثمائة ودية ، فقال لى رسول الله ﷺ : اذهب ياسلمان ففقِّرلها[3] فاذا فرغت فأتنى أكون أنا واضعها بيدى قال ففقرت وأعاننى أصحابى ، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته ، فخرج رسولُ الله ﷺ معى اليها ، فجعلنا نقرب اليه الودية ويضعه ﷺ بيده حتى فرغنا ، فوالذى نفس سلمان بيده مامات منها ودية واحدة ، فأديت النخل وبقى علىَّ المال ، فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن فقال : مافعل الفارسى المكاتَب؟ قال فدُعيت له ، فقال : خذ هذه فأدِّها

---

(١) كذا ، ولم أقف على أصله

(٢) الودية : النخلة الصغيرة كالفسيل

(٣) أى احفر موضعا تغرس فيه . واسم الحفرة فقره وفقير

مما عليك ياسلمان . قال قلت : وأين تقع هذه يا رسول الله من الذى علىّ ؟ فقال : خذها فان الله سيؤديها عنك . قال : فأخذتها فوزنت لهم منها ـ والذى نفس سلمان بيده ـ أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم منها . وعتق سلمان . فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرا ، ثم لم يفتنى مشهد . انتهى . وفى صحيح البخارى عن سلمان الفارسى أنه تداوله بضعة عشر من رب إلى رب . وفيه عن أبى عثمان قال : سمعت سلمان يقول : أنا من رام هرمز . وفيه عن عثمان عن سلمان قال : فترة ما بين عيسى ومحمد ستمائة سنة وفى صحيح مسلم من حديث عياض ابن حمار عن النبى ﷺ أن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب

ذكر صفات رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة

روى البخارى عن عبد الله بن عمرو قال: وجدت فى التوراة فى صفة النبى ﷺ يقول الله سبحانه « يا أيها النبى إن أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، وان يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ويفتح عيونا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا بأن يقولوا لا إله إلا الله» وذكر الواقدى من حديث النعمان قال : كان من أحبار يهود باليمن فلما سمع بذكر النبى ﷺ قدم عليه فسأله عن أشياء ثم قال إن أبى كان يختم على سفر يقول : تقرأه حتى تسمع بنبى قد خرج بيثرب ، فاذا سمعت به فافتحه . قال نعمان: فلما سمعت به فتحت السِّفر فاذا فيه صفتك كما أراك الساعة ، وإذا فيه ما يحل وما يحرم ، وإذا فيه أنك خير الأنبياء ، وأمتك خير الأمم ، واسمك أحمد ﷺ ، وأمتك الحامدون ، وقربانهم دماؤهم وأناجيلهم صدورهم . لا يحضرون قتالا إلا وجبريل معهم يتحنن الله اليهم كتحنن النسر على فراخه . ثم قال لى . اذا سمعت به فاخرج اليه وآمن به وصدِّق به . فكان النبى ﷺ يحب أن يسمع أصحابه حديثه . فأتاه فقال ﷺ : يانعمان حدثنا . فابتدأ النعمان الحديث من أوله فرأى رسول الله ﷺ يتبسم ، ثم قال : أشهد أنى

رسول الله . وهو الذى قتله الأسود العنسى وقطعه عضوا عضوا وهو يقول :أشهدأن محمدا رسول الله وأنك كاذب مفتر على الله ، ثم حرقه بالنار. وقال أبو العباس رحمه الله فى الرد على النصارى[1]: وقد استخرج غير واحد من العلماء من الكتب الموجودة الآن فى أيدى أهل الكتاب من البشارات بنبوته مواضع متعددة ، وصنفوا فى ذلك مصنفات .وهذه البشارات فى هذه الكتب من جنس البشارات بالمسيح عليه السلام ، واليهود يقرون باللفظ لكن يدّعون أن المبشر به ليس هو المسيح بن مريم وإنما هو آخر ينتظر ،وهم فى الحقيقة لا ينتظرون إلا المسيح الدجال ، وينتظرون أيضا لمجىء عيسى بن مريم إذا نزل من السماء ويحرّفون دلالة اللفظ ويقولون إنها لا تدل على نبى منتظر ، كما قالوا فى قوله سأقيم لبنى اسرائيل من إخوتهم مثلك ياموسى ، أنزل عليه توراة ، أجعل كلامى على فيه . قال بعضهم : ليس هذا إخبارا بل استفهام إنكار، وقدروا ألف استفهام أى أسأقيم ، وليس فى النص شىء من ذلك . واليهود يحرفون الدلالات المبشرة بالمسيح وذلك عند المسلمين والنصارى لايقدح فى البشارة بالمسيح بل يبين دلالة المنصوص عليه وبطلان تحريف اليهود ، وكذلك البشارات بمحمد ﷺ فى الكتب المتقدمة لا يقدح فيها تحريف أهل الكتاب اليهود والنصارى بل يبين دلالة تلك النصوص على نبوة محمد ﷺ وبطلان تحريف أهل الكتاب . وشهادة الكتب لمحمد ﷺ إما شهادتها بنبوته وإما شهادتها بمثل ما أخبر به هو من الآيات البينات على نبوته ونبوة من قبله . وهو حجة أهل الكتاب على أصناف المشركين الملحدين ، كما ذكر الله هذا النوع من الآيات فى غير موضع من كتابه كما فى قوله تعالى ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل ، فان كنت فى شك مما أنزلنا فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ وقوله ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ الآية ﴿ قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ، أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى﴾ وذلك مثل قوله فى التوراة ما قد ترجم بالعربية : جاء الله من طور سيناء . وبعضهم يقول : تجلى

---

(١) هو شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية فى كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)

الله من طور سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلى من جبال فاران . قال كثير من العلماء واللفظ لأبى محمد : ليس بهذا خفاء على من يذكره ولا غموض ، لأن مجىء الله من طور سينا إنزاله التوراة على موسى من طور سينا كالذى هو عند أهل الكتاب وعندنا ، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح وكان المسيح من ساعير أرض الجليل بقرية تدعى ناصرة وباسمها سمى من اتبعه نصارى ، وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران وهى جبال مكة . وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف فى أن فاران هى مكة ، فإن ادعوا أنها غير مكة فليس بنكر أن ذلك من تحريفهم وإفكهم . قلنا : أليس فى التوراة أن ابراهيم أسكن هاجر واسماعيل فاران ، وقلنا : دلونا على الموضع الذى استعلن الله منه واسمه فاران والنبى الذى أنزل عليه كتاب بعد المسيح ، أو ليس استعلن وعلا وهما بمعنى واحد وهو ظهر وانكشف ، فهل تعلمون دينا ظهر ظهور الإسلام وفشا فى مشارقها ومغاربها فشوه ؟ قال ابن ظفر : ساعير جبل بالشام منه ظهور نبوة المسيح . قلت : وبجانب بيت لحم القرية التى ولد فيها المسيح تسمى إلى اليوم ساعير ولها جبال تسمى ساعير ، وفى التوراة أن نسل العيص كانوا سكانا بساعير ، وأمر الله موسى أن لا يؤذيهم ، وعلى هذا فيكون ذكر الجبال الثلاثة حقا : جبل حِراء الذى ليس حول مكة جبل أعلى منه وفيه كان نزول أول الوحى على النبى ﷺ وحوله من الجبال جبال كثيرة حتى قد قيل إن بمكة اثنى عشر ألف جبل ، وذلك المكان يسمى برية فاران إلى هذا اليوم ، والبرية التى بين مكة وطورسيناء برية فاران ، ولا يمكن أن أحداً بعد المسيح نزل عليه كتاب فى شىء من تلك الأرض ولا بعث نبى ، فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد ﷺ ، وهو سبحانه ذكر هذا فى التوراة على الترتيب الزمانى ، فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن ، وهذه الكتب نور الله وهداه ، وقال فى الأول : جاء وظهر . وفى الثانى أشرق ، وفى الثالث استعلن ، فكان مجىء التوراة مثل طلوع الفجر أو ما هو أظهر من ذلك ، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس زاد به النور والهدى ، وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس فى السماء ولهذا قال « واستعلن من

جبال فاران » فإن محمدا ﷺ ظهر به نور الله وهداه فى مشرق الأرض ومغربها أظهر مما ظهر بالكتابين المتقدمين كما يظهر نور الشمس إذا استعلت فى مشارق الأرض ومغاربها ولهذا سماه الله ﴿ سراجا منيرا ﴾ وسمى الشمس ﴿ سراجا وهاجا ﴾ ، والخلق يحتاجون إلى السراج المنير أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج ، فإن السراج يحتاجون إليه فى وقت دون وقت ، وأما السراج الوهاج المنير فيحتاجون إليه كل وقت وفى كل مكان ، ليلا ونهاراً سرا وعلانية ، وقد قال النبى ﷺ « زويت لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » وهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله بها فى القرآن فى قوله تعالى ﴿ والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين ﴾ فأقسم بالتين والزيتون وهو الأرض المقدسة التى نبت فيها ذلك ومنها بعث المسيح وأنزل عليه الإنجيل ، وأقسم بطور سينين ، وهو الجبل الذى كلم الله فيه موسى وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة ، وأقسم بالبلد الأمين وهى مكة ، وهو البلد الذى أسكن فيه ابراهيم ابنه اسماعيل وأمه . فقوله تعالى ﴿ والتين والزيتون ﴾ الآية إقسام منه تعالى بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التى ظهر فيها نوره وهداه وأنزل فيها الكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن كما ذكر الثلاثة فى التوراة بقوله : جاء الله من طور سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران ، ولما كان ما فى التوراة خبرا عنها أخبر بها على ترتيبها الزمانى فقدم الأسبق ، وأما القرآن فإنه أقسم بها تعظيم لشأنها ، وذلك اقدرته وآياته وكتبه ورسله ، فأقسم بها على وجه التدريج كما فى قوله درجة بعد درجة ، فختمها بأعلى الدرجات ، فأقسم أولا بالتين والزيتون ثم بطور سينا ثم بمكة شرفها الله ، لأن أشرف الكتب الثلاثة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل ، وكذا الأنبياء فأقسم بها على وجه التدريج كما فى قوله تعالى ﴿ والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا ﴾ فأقسم بطبقات المخلوقات طبقة بعد طبقة ، فأقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحاب الحاملات للمطر فإنها فوق الرياح ، ثم بالجاريات يسرا وقد قيل إنها السفن ، ولكن الأنسب أن تكون هى الكواكب المذكورة فى قوله ﴿ فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ﴾ والكواكب فوق السحاب . ثم قال ﴿ فالمقسمات أمرا ﴾ وهى الملائكة التى

هى أعلى درجة من هذا كله . وما ذكره ابن قتيبة وغيره من تربية إسماعيل فى برية فاران فهكذا هو فى التوراة . وقال داود فى الزبور فى قوله : سبحوا الله تسبيحا جديدا ، وليفرح بالخلق من اصطفى الله له أمته وأعطاه النصر وسدد الصالحين منهم بالكرامة يسبحونه على مضاجعهم ويكبرون الله بأصوات مرتفعة بأيديهم سيوف ذات شفرتين لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه . وهذه الصفات إنما تنطبق على صفات محمد وأمته ، فهم الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة فى أذانهم للصلوات الخمس وعلى الأماكن العالية ، كما قال جابر بن عبد الله كنا مع رسول الله ﷺ إذا علونا كبرنا ، وإذا هبطنا سبحنا . فوضعت الصلاة على ذلك . رواه أبو داود وغيره وهم يكبرون الله بأصوات عالية مرتفعة فى أعيادهم عيد الفطر وعيد النحر فى الصلاة والخطبة ، وفى أذانهم للصلاة ، وفى أيام منى الحجاج وسائر أهل الأمصار يكبرون عقيب الصلاة ويكبرون على قرابينهم وهديهم وضحاياهم ، والنصارى يسمون عيد المسلمين عيد الله الأكبر لظهور التكبير فيه ، وليس هذا لأحد من الأمم غير المسلمين ، وإنما كان موسى يجمع بنى اسرائيل بالبوق ، والنصارى شعارهم ناقوس وكذلك قوله « بأيديهم سيوف ذات شفرتين » وهى السيوف العربية التى بها فتح الصحابة وأتباعهم البلاد . وقوله « يسبحون على مضاجعهم » بيان لنعت المؤمنين الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويصلى أحدهم [الفرض] [1] قائما ، فان لم يستطع فقاعدا ، فان لم يستطع فعلى جنب ، ويصلون فى البيوت وعلى المضاجع ، بخلاف أهل الكتاب ، والصلاة أعظم التسبيح

فصل

وقال داود فى مزاميره وهى الزبور « ومن أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد ، فتقلد أيها الجبار بالسيف لأن البهاء [2] لوجهك والحمد الغالب عليك ، اركب كلمة الحق وسمة التأله

---

(١) عن الجواب الصحيح ٣ : ٢٩٩

(٢) فى الأصل « لا الها » ، والتصحيح من الجواب الصحيح ٣ : ٣٠٠ وأمثال ذلك من الأخطاء صححت من مواضعها فى الجواب الصحيح

فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك وسهامك مسنونة ، والأمم يخرون تحتك قالوا فليس متقلد السيف من الأنبياء بعد داود سوى محمد ﷺ ، وهو الذى خرت له الأمم تحته ، وقرنت شرائعه بالهيبة كما قال ﷺ « نصرت بالرعب مسيرة شهر » . وقد أخبر داود أن له ناموسا وشرائع ، وخاطبه بلفظ الجبار إشارة إلى قوته وقهره لأعداء الله ، بخلاف المستضعف المقهور ، وهو ﷺ نبى الرحمة ونبى الملحمة ، وأمته أشداء على الكفار رحماء بينهم ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، بخلاف من كان ذليلا للطائفتين من النصارى المقهورين مع الكفار ، أو كان عزيزا على المؤمنين من اليهود ، بل كان مستكبرا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون . قالوا وقال داود فى مزموره له : إن ربنا عظيم محمود جدا . وفى رواية : إلهنا قدوس ومحمد قد عم الأرض كلها فرحا . قالوا فقد نص داود على اسم محمد وبلده وسماها قرية الله ، فأخبر أن كلمته تعم الأرض كلها . وقد تقدم الحديث الصحيح لما قيل لعبد الله بن عمرو : أخبرنا ببعض صفة رسول الله ﷺ فى التوراة ، وذكر صفته موجودة بنبوءة أشعيا ، وليست موجودة فى نفس كتاب موسى ، ولفظ « التوراة » يقصدون به جنس الكتب التى عند أهل الكتاب وكذلك ما يوجد كثيرا فى قول كعب الأحبار وغيره قرأت فى التوراة ، إنما يريدون به جنس الكتاب الذى عند أهل الكتاب ، لا يخصون بذلك كتاب موسى . وأهل الكتاب يجدونه مكتوبا فى الكتب التى بأيديهم ، وهو فى كثير منها أصرح مما هو فى كتاب موسى خاصة ، فإذا أريد بالتوراة جنس الكتب فلا يستريب عاقل فى كثرة نعته وذكره ونعت أمته فى تلك الكتب ، ومعلوم أن الله أراد الاستشهاد به فى تلك الكتب وإقامة الحجة بذكره ، فإذا كان ذكره فى غير كتاب موسى أشهر وأظهر وأكثر كان الاستدلال بذلك أولى من تخصيص الاستدلال بكتاب موسى . قالوا : وقال داود فى مزمور « ويجوز من البحر إلى البحر ، ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض ، وتخر أهل الجزائر بين يديه ، وتلحس أعداؤه التراب ، وتسجد له ملوك الفرس ، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد ويخلص البائس المضطهد ممن هو أقوى منه وينقذ الضعيف الذى لا ناصر له ، ويرأف بالمساكين والضعفاء ، ويصلى عليه ويبارك فى كل حين » .

وهذه الصفات منطبقة على محمد وأمته لا على المسيح ، فانه لم يتمكن هذا التمكن فى حياته ولا من اتبعه بعد موته

فصل

قالوا وقال أشعياء النبي عليه السلام معلنا باسم رسول الله « إنى جعلت أمرك محمدا يا محمد ياقدوس الرب اسمك موجود من الأبد » ونص على خاتم النبوة « ولد لنا غلام يكون عجبا وبشرا ، والشامة على كتفيه ، أركون السلام إله جبار وسلطانه سلطان السلم ، يجلس على كرسي داود » فهل يبقى بعد ذلك لزائغ أو لطاعن مجال ؟ قالوا : الأركون هو العظيم بلغة الإنجيل ، والأراكنة المعظمون ، فقد شهد أشعيا بصحة نبوة محمد ووصفه بأخص علامته وأوضحها وهى شامته ، فلعمرى لم تكن الشامة لسليمان ولا المسيح ، وقد وصفه بالجلوس على كرسي داود ، يعنى أنه سيرث بنى إسرائيل نبوتهم وملكهم [ويبتزهم] رياستهم

قالوا وقال أشعيا فى نبوته « قيل لى قم نظاراً فانظر ماذا ترى ؟ فقلت : أرى راكبين مقبلين ، أحدهما على حمار والآخر على جمل ، ويقول أحدهما لصاحبه سقطت أصنام بابل وأصحابها للبحر [1]. قالوا فراكب الحمار هو المسيح وراكب الجمل هو محمد ، وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار ، ، وبمحمد ﷺ سقطت أصنام بابل

فصل

قالوا وقال حزقيل [2] وهو يصف لهم أمة محمد : وإن الله يظهرهم عليكم وباعث فيهم نبيا ومنزل عليهم كتابا ويملكهم رقابهم فيقهرونكم ويذلونكم بالحق ويخرج رجال بنى قيذار فى جماعات الشعوب ومعهم ملائكة على خيل بيض متسلحين فيحطون بكم وتكون عاقبتكم إلى النار، نعوذ بالله من النار . وذلك أن رجال بنى قيذارهم ربيعة ومضر أبناء عدنان ، وهم جميعا من ولد [قيذار بن إسماعيل ، والعرب كلهم من بنى عدنان وبنى قحطان ، فعدنان أبو

---

(١) فى الجواب الصحيح (٣ : ٤٠٣) : المنحر

(٢) فى الجواب الصحيح (٣ : ٣١٢) : دانيال

ربيعة ومضر وأنمار من ولد[1] [اسماعيل باتفاق الناس ، وأما قحطان فقيل هم من ولد اسماعيل وقيل من ولد هود ، ومضر ولده الياس بن مضر ، وقريش هم من ولد الياس بن مضر ، وهوازن مثل عُقيل وكلاب وسعد بن بكر وبنو نمير وثقيف وغيرهم من ولد الياس بن مضر ، وهؤلاء انتشروا فى الأرض فاستولوا على أرض الشام والجزيرة [ومصر والعراق[1]] وغيرها ، حتى إنهم لما سكنوا الجزيرة بين الفرات ودجلة سكنت مضر فى حرّان وما قرب منها فسميت ديار مضر ، وسكنت ربيعة فى الموصل وما قرب منها فسميت ديار ربيعة . وقوله « تنزل معهم ملائكة على خيل بيض » فهذا مما تواترت به الآثار أن الملائكة كانت تنزل على الخيل البيض

فصل

وقال دانيال عليه السلام وذكر محمدا رسول الله باسمه قال « ستنزع فى قسيك اغراقا ، وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء » فهذا تصريح بغير تعريض ، وتصحيح ليس فيه تحريض ، فان نازع فى ذلك منازع فليوجد لنا آخر اسمه محمد له سهام تنزع ، وأمر مطاع لا يدفع . وقال دنيال النبي أيضاً : سألت الله وتضرعت إليه أن يبين لى ما يكون من بنى إسرائيل ، هل يتوب عليهم ويرد اليهم ملكهم ويبعث فيهم الأنبياء ، أو يجعل ذلك فى غيرهم ؟ قال دانيال : فظهر لى الملك فى صورة شاب حسن الوجه فقال : السلام عليك يا دانيال ، إن الله يقول : إن بنى إسرائيل أغضبونى وتمردوا علىّ وعبدوا من دونى آلهة أخرى ، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل ومن بعد الصدق إلى الكذب ، فسلطت عليهم بخت نصر ، فقتل رجالهم وسبى ذراريهم وهدم بيت مقدسهم وحرق كتبهم ، وكذلك فعل من بعده بهم وأنا غير راض عنهم ولا مقيلهم عثراتهم فلا يزالون مغلوبين عليهم الذلة والمسكنة حتى أبعث نبيا من بنى اسماعيل الذى بشرت به هاجر وأرسلت اليها ملاكى فبشرها ، وأوحى إلى ذلك النبى وأعلمه الأسماء وأزينه بالتقوى وأجعل البر شعاره والتقوى ضميره

---

(١) عن الجواب الصحيح ٣ : ٢١٢

والصدق قوله والوفاء طبيعته والقصد سيرته والرشد سنته ، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه وناسخ لبعض ما فيها . أسرى به إلىّ وأرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلو فأدنيه وأسلم عليه وأوحى إليه ثم أرده إلى عبادى بالسرور والغبطة حافظا لما استودع صادقا بما أمر يدعو إلى توحيدى باللين من القول والموعظة الحسنة ، لا فظّ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق . رءوف بمن والاه رحيم بمن آمن به ، خشن على من عاداه ، فيدعو قومه إلى توحيدى وعبادتى ، ويخبرهم بما رأى من آياتى فيكذبونه ويؤذونه

قال الناقل لهذه البشارة : ثم سرد دانيال قصة رسول الله ﷺ حرفا حرفا مما أملاه عليه الملك حتى أوصل آخر أيام أمته بالنفخة وانقضاء الدنيا ونبوته كثيرة ، وهى الآن عند النصارى واليهود يقرون بها [ويقولون : لم يظهر صاحبها بعد [1]] وفيها ما وصفنا من ما ذكره الله من وصف هذه الأمة ونبيها واتصال ملكهم بالقيمة . قلت : فهذه نبوة دانيال فيها بشارة بالمسيح والبشارة بمحمد ﷺ ، وفيها من وصف محمد ووصف أمته بالتفضيل ما يطول وصفه . وقد قرأها المسلمون لما فتحوا العراق كما ذكر ذلك العلماء ، منهم أبو العالية : ذكر أنهم لما فتحوا تستر وجدوا دانيال ميتا ووجدوا عنده مصحفا ، قال أبو العالية أنا قرأت ذلك المصحف ، وفيه صفتكم ولحون كلامكم ، وكان أهل الناحية إذا أجدبوا كشفوا عن قبره فيسقون . فكتب أبو موسى فى ذلك إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر أن احفر بالنهار ثلاثة عشر قبرا وادفنه بالليل فى واحد منها لئلا يفتتن الناس به

وعن جبير بن مطعم قال : لما بعث الله نبيه فظهر أمره بمكة خرجت إلى الشام ، فلما كنت ببصرى أتتنى جماعة من النصارى فقالوا لى : أمن الحرم أنت ؟ قلت نعم . قالوا : فتعرف هذا الذى تنبأ فيكم ؟ قلت نعم . قال فأخذوا بيدى فأدخلونى ديرا لهم فيه تماثيل قالوا انظر هل ترى صورة هذا النبى الذى بعث فيكم ، فنظرت فلم أر صورته ، قلت : لا أرى صورته ، فأدخلونى إلى دير أكبر من ذلك الدير فيه صور أكثر مما فى ذلك الدير فقالوا لى :

---

(١) عن الجواب الصحيح ٤ : ٤

انظر هل ترى صورته ؟ فنظرت فاذا أنا بصفة رسول الله ﷺ وصورته ، وإذا أنا بصفة أبى بكر وصورته ، وهو آخذ بعقب رسول الله ﷺ . فقالوا لى : انظر هل ترى صفته ؟ قلت : نعم . قالوا : هو هذا ؟ وأشاروا إلى صفة رسول الله ﷺ قلت : اللهم نعم ، أشهد أنه هو. قالوا أتعرف هذا الذى أخذ بعقبه ؟ قلت نعم . قالوا : نشهد أن هذا صاحبكم وإن هذا الخليفته من بعده » رواه البخارى فى تاريخه قال : الذى أراه أن الصور لم يكن نبى إلا كان بعده نبى إلا هذا النبى . ورواه أبو نعيم فى دلائل النبوة . وروى موسى بن عقبة أن هشام بن العاص ونعيم بن عبد الله — ورجلا آخر سماه — بعثوا إلى ملك الروم زمن أبى بكر ، قال : فدخلنا على جبلة بن الأيهم وهو بالغوطة فذكر الحديث ، وأنه انطلق بهم الى الملك ، وأنهم وجدوا عنده شبه الرقعة العظيمة مذهبة ، وإذا فيها أبواب صغار ، ففتح بابا فاستخرج منه خرقة حرير سوداء فيها صورة آدم ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة وفيها صورة نوح ، ثم أراهم حريرة فيها صفة محمد ﷺ وقال : هذا آخر الأبواب ، لكنى عجلته لأنظر ما عندكم . ثم فتح أبوابا أخرى فأراهم صور بقية الأنبياء : موسى وهرون وداود وسليمان وعيسى بن مريم وصفة لوط وصفة إسحق ، وذكر أن هذا كان عندهم قديما من عهد آدم وأن دانيال صوّرها بأعيانها . وروى مثل هذا عن المغيرة بن شعبة أنه لما دخل على المقوقس ملك مصر والإسكندرية أخرج له صور الأنبياء فأخرج له صورة نبينا ﷺ فعرفها

ذكر حدوث الرمى ، وإنذار الكهان برسول الله ﷺ

قال ابن اسحاق : وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه بما يقارب زمانه ، وأما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فعن ما وجدوا فى كتبهم صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم اليهم فيه ، وأما الكهان من العرب فتأتيهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع إذ كانت وهى لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم ، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره ولا تلقى العرب لذلك فيه بالا ، حتى بعثه الله ، ووقعت تلك

الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها ، فلما تقارب زمان رسول الله ﷺ وحضر مبعثه حجبت الشياطين عن السمع وحيل بينها وبين القاعدة التى كانت تقعد لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم ، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله . قال ابن اسحق : وذلك لئلا يلتبس بالوحى ، وليكون ذلك أظهر للحجة ، وأقطع للشبهة . قال السهيلى : وما قاله صحيح ، ولكن القذف بالنجوم كان قديما ، وذلك موجود فى أشعار القدماء فى الجاهلية . وذكر عبد الرزاق فى تفسيره عن معمر عن ابن شهاب أنه سئل عن هذا الرمى بالنجوم أكان فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكنه إذ جاء الإسلام غلظ وشدد ، وفى قوله ﴿ وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ﴾ فلم يقل حرست دليل على أنه قد كان منه شىء فلما بعث النبى ﷺ ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وذلك ما أخبر الله من طرد الشياطين عن استراق السمع ، فإن ذلك التغليظ والتشديد كان زمن النبوة ، ثم بقيت منه — أعنى استراق السمع — بقايا يسيرة ، بدليل وجودهم على الندور فى بعض الأزمنة والأمكنة ، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الكهان فقال « ليسوا بشىء » ، فقيل إنهم يتكلمون بالكلمة فتكون كما قالوا فقال « تلك الكلمة من الحق يحفظها الجنى فيقرقرها فى أذن وليه قرقرة الدجاجة ، فيخلط معها أكثر من مائة كذبة » ويروى كقر الزجاجة . وفى تفسير ابن سلام عن ابن عباس قال إذا رمى الشهاب الجنى لم يخطئه ، ويحرق ما أصاب ولا يقتله . وعن الحسن قال : يقتله فى أسرع من طرفة عين . وروى أبو جعفر العقيلى فى كتاب الصحابة عن رجل من بنى لهب يقال له لهيب قال : حضرت مع رسول الله ﷺ فذكرت عنده الكهانة : فقلت[1] : بأبى وأمى ، نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ومنعهم فى استراق السمع عند قذف النجوم ، وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك — وكان شيخنا كبيرا قد أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة — وكان من أعلم كهاننا فقلنا : ياخطر هل عندك علم من هذه النجوم التى يرمى بها ؟ فإنا قد فزعنا لها وخشينا سوء عاقبتها . فقال : ائتونى بسحر ، أخبركم الخبر ،

---

(١) فى الأصل « فقال » والتصحيح من الروض الأنف ١ : ١٣٨

بخير أم ضرر ، أو لأمن أو حذر . قال : فانصرفنا عنه يومنا ، فلما كان من غد فى وجه السحر أتيناه ، فاذا هو قائم على قدميه شاخص فى السماء بعينيه ، فناديناه ياخطر ، فأومأ إلينا أن أمسكوا ، فانقض نجم عظيم من السماء ، وصرخ الكاهن رافعا صوته : أصابه إصابه . خامره عقابه . عاجله عذابه . أحرقه شهابه . زايله جوابه . ياويله ما حاله . بلبله بلباله ، عاوده خباله تقطعت حباله ، وغيرت أحواله . ثم أمسك طويلا وهو يقول :

يا معشر بنى قحطان ... أخبركم بالحق والبيان
أقسمت بالكعبة والأركان ... والبلد المؤتمن السدان
قد منع السمع عتاة الجان ... بثاقب بكف ذى سلطان
من أجل مبعوث عظيم الشان ... يبعث بالتنزيل والقرآن
وبالهدى وفاصل الفرقان ... تبطل به عبادة الأوثان

قال فقلت : ويحك ياخطر ، إنك لتذكر عظيما ، فماذا ترى لقومك ؟ قال :

أرى لقومى ما أرى لنفسى ... أن يتبعوا خير نبى الإنس
بمحكم التنزيل غير اللبس ... برهانه مثل شعاع الشمس
يبعث فى مكة دار الحمس

فقلنا له : يا خطر ومن هو ؟ فقال والحياة والعيش . إنه لمن قريش . ما فى حلمه طيش . ولا فى خلقه هيش . يكون فى جيش أى جيش من آل قحطان وآل أيش . فقلنا له : بيّن من أى قريش هو ؟ فقال : والبيت ذى الدعائم والركن والأحائم إنه لمن نجل هاشم ومن معشر أكارم . يبعث بالملاحم . وقتل كل ظالم . ثم قال : هذا هو البيان . أخبرنى به رئيس الجان . ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر . وانقطع عن الجن الخبر . ثم سكت وأغمى عليه فما أفاق إلا بعد ثالثة فقال : لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : لقد نطق عن مثل نبوة ، وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده . قال الحافظ أبو القاسم (١) فى هذا الأثر أصابه إصابه هكذا قيده

---

(١) أى السهيلى صاحب (الروض الأنف) وهو فيه ١ : ١٣٨

ـ بكسر الهمزة من إصابه ـ على بن أبى بكر بن طاهر ، ووجهه أن تكون الهمزة بدلا من واو مكسورة مثل وشاح وإشاح والمعنى أصابه وصابه جمع وصب مثل جمل وجمال ، وقوله « من آل قحطان وآل أيش » يعنى بآل قحطان الأنصار لأنهم من قحطان ، وأما آل أيش فيحتمل أن تكون قبيلة من الجن المؤمنين منسوبون إلى أيش ، فان يكن هذا وإلا فله معنى فى المدح غريب تقول فلان أيش هو وابن أيش هو ، ومعناه أى شىء عظيم ، فكأنه قال من قحطان ومن المهاجرين الذين يقال فيهم مثل هذا كما يقال هم وماهم وزيد وما زيد وأى شىء زيد ، وأيش فى معنى أى شى كما يقال ويلمه فى معنى ويل أمـــــه على الحذف لكثرة الاستعمال

ذكر خبر سواد بن قارب

عن محمد بن كعب القرظى قال : بينما عمر بن الخطاب ذات يوم جالسا إذ مر به رجل ، فقيل له يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار ؟ قال : ومن هذا ؟ قالوا : هذا سواد بن قارب الذى أتاه رئيه بظهور النبى ﷺ . قال فأرسل اليه عمر فقال له : أنت سواد بن قارب ؟ قال : نعم . قال : أنت الذى أتاك رئيك بظهور النبى ﷺ ؟ قال : نعم . قال فأنت على ما كنت عليه من كهانتك . قال فغضب وقال : ما استقبلنى بهذا أحد منذ أن أسلمت يا أمير المؤمنين . فقال عمر : سبحان الله ،ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك . قال : فأخبرنى بإتيان رئيك بظهور النبى ﷺ . قال : نعم يا أمير المؤمنين ، بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتانى رئيى فضربنى برجله وقال : قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالتى واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلابها ‍ ‍ ‍ ‍ وشدها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ‍ ‍ ‍ ‍ ما صادق الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ‍ ‍ ‍ ‍ ليس قُداماها كأذنابها

ثم ذكر أنه أتاه ليلتين بعد الأولى هو فيهما كلها بين النائم واليقظان وقال له : قم

يا سواد بن قارب ، واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته. وأنشده فى كل ليلة أبياتا بمعنى المتقدمات على قواف أُخر ، وذكر تمام الخبر. وفى آخر شعر سواد : قدم على رسول الله ﷺ فأنشده ما كان من أمر الجنى وذلك قوله:

أتانى نجيى بعد هدء ورقدة ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة أتاك رسول من لؤى بن غالب
فرفعت أذيال الإزار وأرقلت من العرمس الوجنا هجول السباسب
فأشهد أن الله لا رب غيره وأنك مأمون على كل غائب
وإنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنى بما يأتيك من وحى ربنا وإن كان فى ماقلت شيب الذوائب
وكن لى شفيعا يوم لا ذو شفاعة بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

ولسواد بن قارب هذا مقام حميد فى دوس حين بلغتهم وفاة رسول الله ﷺ ، فقام حينئذ سواد فقال : يامعشر الأزد ، إن من سعادة القوم أن يتعظوا بغيرهم ، ومن شقاوتهم ألا يتعظوا إلا بأنفسهم ، وإن من لم تنفعه التجارب ضرته ، ومن لم يسعه الحق لم يسعه الباطل ، وإنما تسلمون اليوم بما أسلمتم به أمس . وقد علمتم أن رسول الله ﷺ قد تناول قوما أبعد منكم فظفر بهم ، وأوعد قوما أكثر منكم فأخافهم ، ولم يمنعه منكم عدة ولا عدد ، وكل بلاء منسى إلا ما بقى أثره فى الناس ، ولا ينبغى لأهل البلاء إلا أن يكونوا أذكر من أهل العافية للعافية ، وإنما كف نبى الله عنكم ما كفكم عنه ، فلم تزالوا خارجين مما فيه أهل البلاء داخلين فيما فيه أهل العافية حتى قدم على رسول الله ﷺ خطيبكم ونقيبكم فعبر الخطيب عن الشاهد ونقب النقيب عن الغائب ، ولست أدرى لعله تكون للناس جولة ، فان يكن فالسلامة منها الأناة ، والله يحبها فأحبوها . فأجابه القوم وسمعوا قوله ، فقال فى ذلك سواد بن قارب :

جلت مصيبتك الغداة سواد وأرى المصيبة بعدها تزداد
أبقى لنا فقد النبى محمد صلى الإله عليه ما يعتاد

حزنا لعمرك فى الفؤاد مخامرا ... وهل لمن فقد النبيَّ فؤاد

كنا نحل به جنابا ممرعا ... جف الجناب فأجدب الرواد

فبكت عليه أرضنا وسماؤنا ... وتصدعك وجدا به الأكباد

كان العيان هو الطريف، وحزنا ... باق لعمرك فى النفوس تلاد

إن النبي وفاته كحياته ... الحق حق والجهاد جهاد

لو قيل تفدون النبي محمد ... بذلت له الأموال والأولاد

وتسارعت فيه النفوس ببذلها ... هذا له الأغياب والأشهاد

هذا وهذا لا يرد نبينه ... لو كان يفديه فداه سواد

إنى أحاذر والحوادث جمة ... أمرا لعاصف ريحه إرعاد

إن حل منه ما يخاف فأنتم ... للأرض إن رجفت بنا أوتاد

لو زاد قوم فوق منية صاحب ... زدتم ، وليس لمنية مزداد

فأعجب القومَ شعره وقوله ، فأجابوه إلى ما سأل وأحب

ذكر إنذار اليهود برسول الله ﷺ

قال ابن اسحٰق : وحدثنى عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قال : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لنا لما كنا نسمع من رجال يهود ، كنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم . فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم اليه فآمنا به وكفروا به وكذبوه ، ففينا وفيهم نزلت هؤلاء الآيات من البقرة ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مُصدِّق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ الآيات . قال ابن اسحق : حدثنى عاصم بن عمرو بن قتادة عن شيخ من بنى قريظة قال قال لى : هل تدرى عم كان إسلام ثعلبة بن شعية

وأسيد بن شعية وأسد بن عبيد إخوة بنى قريظة ، كانوا معهم فى جاهليتهم ثم كانوا سادتهم فى الإسلام ؟ قال قلت لا . قال : إن رجلا من يهود من أهل الشام يقال له الهيبان قدم علينا قبل الإسلام بسنتين فحل بين أظهرنا ، لا والله ما رأينا رجلا قط لا يصلى الخمس أفضل منه ؟ فأقام عندنا فكنا إذا قحط المطر علينا قلنا له : اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا ، فيقول : لا والله حتى تقدموا بين يدى مخرجكم صدقة . فنقول له : كم ؟ فيقول صاعا من تمر ومدين من شعير قال فنخرجها : ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقى الله لنا ، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونسقى ، وقد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث . قال ثم حضرته الوفاة عندنا ، فلما عرف أنه ميت قال : يا معشر يهود ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قال فقلنا : أنت أعلم . قال فإنى قدمت هذه البلدة أتوقع خروج نبى قد أظل زمانه ، هذه البلدة مهاجره ، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه . قد أظلكم زمانه فلا تسبقن إليه يا معشر يهود ، فانه يبعث بسفك الدماء وسبى الذرارى والنساء ممن خالفه ، فلا يمنعكم ذلك منه . فلما بعث رسول الله ﷺ وحاصر بنى قريظة قال هؤلاء الفتية وكانوا شبابا أحداثا : يا بنى قريظة والله إنه للنبى الذى عهد إليكم فيه ابن الهيبان . قالوا : ليس به . قالوا بلى والله ، إنه لهو بصفته . فنزلوا فأسلموا وأحرزوا دماءهم وأهليهم

كتاب المبعث

قال ابن اسحق : ولما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين ، وكافة للناس أجمعين . وكان الله قد أخذ له الميثاق على كل نبى بعثه قبله بالإيمان به والتصديق له والنصر على من خالفه ، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم ، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ﴾ الآية

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء

فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال له : اقرأ . قال . ما أنا بقارىء . قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ، فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علّم الإنسان مالم يعلم﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، حتى دخل على خديجة فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع . ثم قال لخديجة أى خديجة مالى ؟ فأخبرها الخبر . لقد خشيت على نفسى . فقالت له خديجة : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم ، وتَصْدُق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد وهو ابن عمها . وكان امرءا تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربى ، فكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت خديجة : أى عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الأكبر الذى أنزل على موسى . ياليتنى فيها جذَع ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك . قال رسول الله : أَوَ مخرجىّ هم ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزّراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفى . وفتر الوحى فترة ، حتى حزن رسول الله ﷺ حزنا شديدا فيما بلغنا ، غدا منه مراراً كى يتردى من رءوس الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل كى يلقى نفسه منها تبدى جبرائيل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقا . فيسكن لذلك جأشه ، وتقر نفسه ، فيرجع . فاذا طال عليه فترة الوحى عاد لمثل ذلك ، فاذا وافى ذروة الجبل تبدى له جبرائيل فقال مثل ذلك . قال ابن اسحق : حدثنى وهب بن كيسان مولى الزبير قال : سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثى : حدثنا يا عبيد كيف كان بدء ما تبدى به رسول الله ﷺ من النبوة حين جاءه جبرائيل ؟ قال فقال عبيد وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن

عنده من الناس : كان رسول الله ﷺ يجاور فى حِراء من كل سنة شهرا ، وكان ذلك مما تتحنث به قريش فى الجاهلية ، والتحنث التبرز ، فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين ، فاذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله به فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه فيها ، وذلك الشهر رمضان ، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاء جبرائيل بأمر الله . فذكر الحديث نحو ما تقدم ، وفيه : فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف راجعا صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال : يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتُكَذَّبنَّه ولتؤذَيَنَّه ولتخرجنَّه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه . ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله . انتهى

ومما ذكر من شعر ورقة فيما أخبرته به خديجة عن النبى ﷺ :

يا للرجال لصرف الدهر والقدر	وما لشىء قضاه الله من غير
حتى خديجة تدعونى لأخبرها	أمرا أراه سيأتى الناس من أخر
فخبرتنى بأمر قد سمعت به	فيما مضى من قديم الدهر والعصر
بأن أحمد يأتيه فيخبره	جبريل أنك مبعوث إلى البشر
فقلت علّ الذى ترجين ينجزه	لك الإله فرجى الخير وانتظرى
وأرسلته إلينا كى نسائله	عن أمره مايرى فى النوم والسهر
فقال حين أتانا منطقا عجبا	يقفّ منه أعالى الجلد والشعر
إنى رأيت أمين الله واجهنى	فى صورة كملت فى أهيب الصور

ثم استمر فكان الخوف يذعرني ... مما يسلم ما حولي من الشجر
فقلت ظني وما أدري أيصدقني ... أن سوف يبعث يتلو منزل السور
وسوف أبليك إن أعلنت دعوته ... من الجهاد بلا منّ ولا كدر

قال ابن اسحق : وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب ، وما كان يرى إذا كان الملكان يظلانه . فقال ورقة : لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمدا نبي هذه الأمة ، قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة ينتظر هذا زمانه أو كما قال . فجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول : حتى متى ؟ فقال ورقة في ذلك :

لججت وكنت في الذكرى لجوجا ... لهمّ طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... وقد طال انتظاري ياخديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا
وما خبرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمدا سيسود قوما ... ويخصم من يكون أن حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خسارا ... ويلقى من يسالمه فلوجا
فياليتي إذا ما كان ذاكم ... شهدتُ وكنت أولهم ولوجا
ولوجاً في الذي كرهت قريش ... ولو عجت بمكتها عجيجا
أرجي بالذي كرهوا جميعا ... إلى ذي العرش إن سفلوا عروجاً
وهل أمر السفاهة غير كفر ... بمن يختار من سمك البروجا
فان يبقوا وأبق تكن أمور ... يصبح الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتى سيلقى ... من الأقدار متلفة خروجا

ومن قول ورقة أيضا من رواية يونس عن ابن اسحاق :

أتبكر أم أنت العشية رائح ... وفي الصدر من إضمارك الحزن قادح

لفرقة قوم لا أحب فراقهم … كأنك عنهم بعد يومين نازح
وأخبار صدق خبرت عن محمد … يخبرها عنه إذا غاب ناصح
فتاك الذى وجهت ترجى خيره … بغور وبالنجدين حيث الضحاضح
إلى سوق بصرى فى الركاب التى غدت … وهن من الأحمال قعص دوالح
فخبرنا عن كل خير بعلمه … وللحق أبواب لهن مفاتح
بان ابن عبد الله أحمد مرسل … إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظنى به أن سوف يبعث صادقا … كما أرسل العبدان هود وصالح
وموسى وابراهيم حتى يرى له … بهاء ومنشور من الذكر واضح
ويتبعه حيا لؤى بن غالب … شبابهم والأشيبون الجحاجح
فان أبق حتى يدرك الناس عصره … فإنى به مستبشر الود فارح
وإلا فانى يا خديجة فاعلمى … عن أرضك فى الأرض العريضة نازح

وفى الصحيح قال ابن شهاب : وأخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله لأنصارى قال وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه : بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا بن السماء ، فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء الأرض ، فرعبت منه ، فرجعت إلى أهلى فقلت : زملونى زملونى ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر — إلى قوله — والرجز فاهجر ﴾ فحمى الوحى وتتابع

فصل

فى ذكر فوائد تتعلق بهذه الأخبار

قال بعض العلماء : وكان نزول جبريل فيما ذكر يوم الإثنين لسبع من رمضان ، وقيل لسبع عشرة مضت ، رواه البراء بن عازب . وروى عن أبى هريرة أنه كان فى السابع والعشرين من رجب ، وقال ابن عمر لثمان عشرة من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل . وقال ابن القيم : واحتج القائلون بأنه كان فى رمضان بقول الله تعالى ﴿شهر رمضان

الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس﴾ . قالوا : أول ما أكرمه الله بنبوته ، أنزل عليه القرآن جملة واحدة فى ليلة القدر إلى بيت العزة ، ثم نزل نجوما بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة كما روى ذلك عن ابن عباس . انتهى . قال بعض العلماء : والحكمة فى الغطة ثلاث مرات شغله عن الالتفات لشىء آخر ، وإظهار الشدة والجد فى الأمر تنبيها على ثقل القول الذى سيلقى اليه . وقول ورقة « يا ليتنى فيها جذع » الضمير للنبوة أى ليتنى كنت شابا حين ظهورها حتى أبالغ فى نصرتها وحمايتها ، وقوله فغطى أى خنقنى ، والناموس صاحب سر الملك ، وقال بعضهم : الناموس صاحب سر الخير ، والجاسوس صاحب سر الشر ، ومؤزراً من الأزر وهو القوة والعون ، واليأفوخ مهموز ولا يقال لرأس الصبى يأفوخ حتى يشتد ، وإنما يقال له الغاذية . قال السهيلى : وقد ثبت بالطرق الصحاح عن عامر الشعبى أن رسول الله ﷺ وكل به إسرافيل فكان يتراءى له ثلاث سنين ، فكان يأتيه بالكلمة من الوحى والشىء ، ثم وكل به جبريل فجاءه بالقرآن والوحى فى أحوال مختلفة :

فمنها النوم كما فى حديث ابن اسحق ، وكما قالت عائشة رضى الله عنها . وقد قال ابراهيم عليه السلام ﴿إنى أرى فى المنام أنى أذبحك﴾ فقال له ابنه ﴿افعل ما تؤمر﴾ فدل على أن الوحى كان يأتيهم فى النوم كما يأتيهم فى اليقظة . قال عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحى ، ثم تلا الآية

ومنها أن ينفث فى روعه الكلام نفثاً ، كما قال النبى ﷺ « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها . فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ولايحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فان ما عند الله لا ينال إلا بطاعته » رواه ابن أبى الدنيا فى القناعة ، وصححه الحاكم

ومنها أن يأتيه الوحى فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليه . وقيل إن ذلك ليستجمع قلبه عند تلك الصلصلة فيكون أوعى لما يسمع ، وأتقن لما يلقى ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد ، حتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض . وجاءه مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فكادت ترضها

ومنها أن يتمثل له الملك رجلا فيكلمه ، فقد كان يأتيه فى صورة دحية بن خلفة ، ويروى أن دحية إذا قدم المدينة لم تبق مُعصر إلا خرجت تنظر اليه لفرط جماله . وقال ابن سلام فى قوله ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها﴾ قال : كان اللهو نظرهم إلى وجه دحية لجماله

ومنها أن يتراءى له جبريل فى صورته التى خلقه الله فيها ، ستمائة جناح ينتثر منها اللؤلؤ والياقوت ، فيوحى اليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما فى سورة النجم

ومنها أن يكلمه الله من وراء حجاب ، إما فى اليقظة كما كلمه فى ليلة الإسراء ، وإما فى النوم كما قال فى حديث معاذ الذى رواه الترمذى قال « أتانى ربى فى أحسن صورة فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : فى الكفارات لا أدرى ، فوضع كفه بين كتفى فوجدت بردها بين ثندوتى . وتجلى لى علم كل شىء وقال لى : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : فى الكفارات . فقال : وما هن ؟ فقلت : الوضوء عند الكريهات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فمن فعل ذلك عاش حميدا ، وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه » وذكر الحديث

فهذه ست أحوال . قال ابن القيم وزاد بعضهم مرتبة سابعة ، وهى تكلم الله له بغير حجاب

قلت : وزاد بعضهم مرتبة أخرى ، وهى العلم الذى يلقيه الله فى قلبه وعلى لسانه عند الاجتهاد فى الأحكام ، لأنه عليه الصلاة والسلام إذا اجتهد أصاب قطعا وكان معصوما من الخطأ ، وهذا خرق للعادة فى حقه دون الأمة ، وهو يفارق النفث فى الروع من حيث حصوله بالاجتهاد والنفث بدونه . وقد ذكر بعضهم أن الحال كان يختلف بالوحى باختلاف مقتضاه ، فإن نزل بوعد وبشارة نزل الملك فى صورة الآدمى وخاطبه من غير كد ، وإن نزل بوعيد ونذارة كان حينئذ كصلصلة الجرس . انتهى

قال السهيلي وفي قوله تعالى ﴿ اقرأ بسم ربك ﴾ من الفقه أنك لا تقرأه بحولك ولا بصفة نفسك ولا بمعرفتك ، ولكن اقرأ مفتتحا باسم ربك مستعينا به ، فهو يعلمك كما خلقك وكما نزع عنك علق الدم ومغمز الشيطان بعد ما خلقه فيك كما خلقه في كل إنسان . فالآيتان المقدمتان لمحمد ﷺ والآخرتان لأمته . وهما قوله ﴿ الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ﴾ لأنها كانت أمة أمية لا تكتب ، فصاروا أهل كتاب وأصحاب قلم ، فتعلموا القرآن بالقلم وتعلمه نبيهم تلقيا من جبريل ، نزله على قلبه بإذن الله ليكون من المرسلين . وفيه من الفقه وجوب القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم غير أنه أمر مبهم لم يبين له بأي اسم من أسمائه يفتتح حتى جاء البيان بعد في قوله ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾ ثم قوله ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ثم كان بعد ذلك ينزل جبريل ببسم الله الرحمن الرحيم مع كل سورة

وقول ورقة « لتكذبنه ولتؤذينه » لا ينطق بهذه الهاء إلا ساكنة لأنها هاء السكت وقوله « أو مخرجيّ هم ؟ » لا بد من تشديد الياء في مخرجيّ لأنها جمع ، والأصل مخرجوني فأدغمت الواو في الياء وهو خبر ابتداء مقدم ، ولو كان المبتدأ اسما ظاهرا لجاز تخفيف الياء ويكون الاسم الظاهر فاعلا لا مبتدأ كما تقول أضارب قومك أخارج إخوتك فتفرد ، لأنك رفعت به فاعلا وهو حسن في مذهب سيبويه والأخفش . وذكر في الحديث أنه قال لرسول الله ﷺ لتكذبنه فلم يقل شيئا ثم قال ولتؤذينه فلم يقل شيئا ثم قال ولتخرجنه قال : أو مخرجيّ هم ؟ ففي هذا دليل على حب الوطن وشدة مفارقته على النفس . وأيضا فانه حرم الله وجوار بيته وبلد أبيه اسماعيل فلهذا تحركت نفسه عند ذكر الخروج منه مالم تتحرك قبل ذلك فقال « أو مخرجي هم ؟ » . والموضع الدال على تحرك النفس وتحرقها إدخال الواو بعد ألف الاستفهام مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه ، وذلك أن الواو ترد إلى الكلام المتقدم ويشعر المخاطب بأن الاستفهام على وجه الإنكار والتفجع لكلامه والتألم منه . انتهى كلام السهيلي

وقال شيخنا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى : أول ما نزل من القرآن فيه مسائل : الأولى الأمر بالقراءة . الثانية الجمع بين التوكل والسبب خلافا لغلاة المتفقهة وغلاة المتصوفة. الثالثة السر الذى فى الإضافة فى قوله ﴿ بسم ربك ﴾ المقتضى للتوكل . الرابعة وصفه سبحانه بالخلق الذى هو أظهر آياته . الخامسة ذكر خلقه للإنسان خاصة . السادسة كونه من علق . السابعة تكرير الأمر بالقراءة . الثامنة الوصف بأنه الأكرم . التاسعة ذكر التعليم بالقلم الذى هو فى المرتبة الرابعة . العاشرة تعليم الإنسان خاصة ما لم يعلم . الحادية عشرة أن الذكر بالقلب واللسان . أفضل من الذكر بالقلب وحده . الثانية عشرة الحث على التواضع لقوله ﴿ من علق ﴾ . الثالثة عشرة فيه معنى اعرف نفسك تعرف ربك . الرابعة عشرة معنى أن العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدهما إلى يوم القيامة الخامسة عشرة رجاء فضله لأجل ماتقدم من فضله . السادسة عشرة لصفاته لكونه الأكرم . السابعة عشرة الجمع بين الخلق والتعظيم . الثامنة عشرة الدلالة على التوحيد : التاسعة عشرة الدلالة على النبوة . العشرون الرد على الجهمية . والحادية والعشرون أن الاستحالة تظهر . الثانية والعشرون الرد على القدرية . الثالثة والعشرون الرد على الجبرية . الرابعة والعشرون أن العبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية . الخامسة والعشرون ذكر شرف العلم

وأما قوله تعالى ﴿ يا أيها المدثر ﴾ ففيه مسائل: الأولى أن الدعوة إلى الله لا تقتصر على نفسه . الثانية خطابه بالمدثر. الثالثة أن الداعى يبدأ بنفسه فيصلح عيوبها . الرابعة تعظيم الله علما وعملا . الخامسة هجران الرجز . السادسة قوله ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ . السابعة قوله ﴿ ولربك فاصبر ﴾ فأمره بالطريق إلى القوة على ماتقدم وهو الصبر خالصا ، ففيها آداب الداعى ، لأن الخلل يدخل على رؤساء الدين ماتركت هذه الوصايا أو بعضها : فمنها الحرص على الدنيا فنهى عنه بقوله ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ ، ومنها عدم الجد فنبه عليه بقوله ﴿ ياأيها المدثر ﴾ ومنها رؤية الناس فيه العيوب المنفرة لهم عن الدين كما هو الواقع ، ومنها أن التقصير فى تعظيم العلم هو من التقصير فى تعظيم الله . ومنها عدم الصبر على مشاق الدعوة . ومنها

عدم الإخلاص . ومنها عدم هجران الرجز والتقصير فى ذلك وهو من أضرها على الناس ، وهو من تطهير الثياب لـكن أفرده بالذكر كنظائره

فأول اقرأ فيه الأمر بطلب العلم وأول المدثر فيه الأمر بالعمل به . الثانية أول اقرأ فيه إنعامه عليك وأول المدثر فيه حقه عليك [1] . الرابعة أول اقرأ فيه الاستعانة ، وأول المدثر فيه الصبر . الخامسة أول اقرأ فيه إخلاص الاستعانة وأول المدثر فيه إخلاص الصبر . السادسة أول اقرأ فيه الاستعانة وأول المدثر فيه العبادة . السابعة أول اقرأ فيه أدب التعلم وأول المدثر فيه أدب العالم . الثامنة أول اقرأ فيه معرفة الله ومعرفة النفس وأول المدثر فيه الأمر والنهى . التاسعة أول اقرأ فيه معرفتك بنفسك وبربك وأول المدثر فيه العمل المختص والمتعدى . العاشرة أول اقرأ فيه أصل الأسماء والصفات وهما العلم والقدرة وأول المدثر فيه أصل الأمر والنهى وهو الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك . الحادية عشرة فى أول اقرأ ذكر القلم الذى لا يستقيم العلم إلا به وفى أول المدثر ذكر الصبر الذى لا يستقيم العمل إلا به . الثانية عشرة فى أول اقرأ ذكر التوكل وأنه يفتح المغلق وأول المدثر فيه الصبر الذى يفتحه الثالثة عشرة فى أول اقرأ العمل المختص وأول المدثر فيه العمل المتعدى . الرابعة عشرة فى أول اقرأ ست مسائل من الخبر وفى أول المدثر ست مسائل من الإنشاء . الخامسة عشر فى أول اقرأ ذكر بدء الخلق وأول المدثر ذكر الحكمة فيه . السادسة عشرة فى أول اقرأ ذكر أصل الإنسان وأول المدثر فيه كماله . السابعة عشرة فى أول اقرأ الربوبية العامة وأول المدثر الربوبية الخاصة الثامنة عشرة فى أول اقرأ شاهد لقوله « اعقلها واتكل » وفى أول المدثر الصبر الذى هو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . التاسعة عشرة فى أول اقرأ ابتداء النبوة . وأول المدثر ابتداء الرسالة . العشرون فى السورتين شاهد لقوله « العلم قبل العمل » . انتهى كلام شيخنا

فصل

فى الصحيحين عن عبد الله بن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره ان هرقل أرسل

---

(١) الثالثة لم تذكر فى الأصل ، ولعلها سقطت من الناسخ

إليه فى ركب من قريش كانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ قال أبو سفيان فقلت : أنا أقربهم نسبا . قال : أدنوه منى وقربوا أصحابه واجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه قل لهم : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه . فوالله لولا الحياء من أن يأثر علىَّ كذبا لكذبت عليه . ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ فقلت هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ فقلت : لا . قال . فأشراف اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت بل ضعفاؤهم . قال أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال : ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : بماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم . ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها . وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله . وسألتك : هل كان فى آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد

أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا . وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب . وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا . وكذلك الرسل لا يغدرون . وسألتك : بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم بأن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج فلم أكن أظن أنه فيكم ، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه . ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذى بعث به مع دحية الكلبى إلى عظيم بُصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه ، فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام : أسلم تسلم . أسلم يؤتك الله أجرك مرتين . وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين . ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . قال أبو سفيان : فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا . فقلت لأصحابى حين أخرجنا . لقد أمِر أمْرُ ابن أبى كبشة . إنه ليخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقنا أنه سيظهر ، حتى أدخل الله علىّ الإسلام

وكان ابن الناظور صاحب إليا وهرقل أسقف على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوما خبيث النفس ، فقال له بعض بطارقته : قد استنكرنا هيئتك . قال ابن الناظور : وكان هرقل حزاء ينظر فى النجوم ،، فقال لهم حين سألوه : إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم أن ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟ فقالوا : ليس يختتن إلا اليهود ، فلا يهمنك شأنهم ، واكتب إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود ، فبينما هم على أمر أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبره عن خبر رسول الله ﷺ ، فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب فقال هم يختتنون . فقال هرقل هذا ملك هذه الأمة قد ظهر

ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره فى العلم . وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى ، وأنه نبى ، فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : يامعشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبى ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال : ردوهم على . وقال : إنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت . فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل

فصل

ولما دعا رسول الله ﷺ إلى الله استجاب له عباد الله من كل قبيلة ، فكان أول من آمن بالله ورسوله خديجة صديقة النساء ، وقامت بأعباء الصديقية . قال ابن اسحق : وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدقت بما جاء من عند الله ، ووازرته على أمره ، فخفف الله بذلك عن رسوله ، فكان لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت رضى الله عنها . انتهى

قال ابن القيم : ولما قال لها « لقد خشيت على نفسى » قالت له : أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبدا . ثم استدلت بما فيه من الصفات والأخلاق والشيم على أن من كان كذلك لا يخزى أبدا ، فعلمت بكمال عقلها وفطرتها أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والشيم الشريفة تناسب أشكالها من كرامة الله وتأييده وإحسانه ، لا تناسب الخزى والخذلان ، وإنما يناسبه أضدادها من إكرام الله له وتمام نعمته عليه . ومن ركب على أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال إنما يناسبه ما يليق به . وبهذا العقل والصديقية استحقت أن يرسل إليها ربها السلام منه مع رسوليه جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وأمر رسول الله ﷺ أن يبشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لاصخب فيه ولا نصب . والقصب هو اللؤلؤ المجوف . وهى أول امرأة تزوجها ، وأول امرأة ماتت من نسائه ، ولم يتزوج

عليها ، وكل أولاده منها

ثم أسلم أبو بكر ، واسمه عبد الله بن أبى قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة بن كعب ، يجتمع هو ورسول الله ﷺ فى مرة . وقيل اسمه عتيق ، وقيل عتيق لقب لحسن وجهه . واسم أبى قحافة عثمان . وهو أول من أسلم من الرجال ، فلما أسلم أظهر إسلامه ودعا معه إلى الله . وكان أبو بكر مألفا لقومه، محببا سهلا . وكان أنسب قريش لقريش وبما كان فيها من خير وشر . وكان تاجرا ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لتجارته وحسن مجالسته وغير ذلك ، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ، وسعد بن أبى وقاص واسمه مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، والزبير بن العوام بن خويلد بن سعد بن عبد العزى بن قصى ، وعبد الرحمن بن عوف ابن عبد عوف بن عبد بن زهرة ، وطلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة . وأسلم غير هؤلاء على بن أبى طالب وهو صبى ، وكان فى كفالة رسول الله ﷺ أخذه من عمه فى سنة محل إعانة له ، وبادر إلى الإسلام زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ وكان غلاما لخديجة فوهبته لرسول الله ﷺ لما تزوجها ، وقدم أبوه وعمه فى فدائه فسألا عن النبى ﷺ فقيل : هو فى المسجد ، فدخلا عليه فقالا . يا بن عبد المطلب يا بن هاشم يا بن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله وجيرانه ، تفكون العانى وتطعمون الأسير ، جئناك فى ابننا عبدك فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه . قال : من هو ؟ قالوا زيد بن حارثة . فقال رسول الله ﷺ : فهلا غير ذلك ؟ قالا : ما هو ؟ قال : ادعوه فأخيره ، فإن اختاركم فهو لكم ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدا : قالوا : قد زدتنا على النصف . فدعاه فقال : أتعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : من هذا ؟ قال هذا أبى ، وهذا عمى . قال : أنا من قد علمت ورأيت صحبتى ، فاخترنى أو اخترهما : قال : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى بمكان الأب والعم . قالا : ويحك يا زيد ، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وعلى أهل بيتك ؟ قال : نعم ، قد رأيت من هذا الرجل شيئا

ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا . فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر فقال : أشهدكم أن زيدا ابنى أرثه ويرثنى . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما فانصرفا ، ودعى زيد بن محمد . حتى جاء الله بالإسلام فنزلت ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ فدعى يومئذ زيد بن حارثة . قال معمر فى جامعه . ما علمنا أحدا أسلم قبل زيد ابن حارثة . وهو الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه أنعم عليه وأنعم عليه رسوله وسماه باسمه . وقيل إن عليا أول من أسلم بعد خديجة . قال أبو عمر : وممن ذهب إلى هذا سلمان وأبو ذر والمقداد وجابر وأبو سعيد الخدرى وزيد بن أرقم وابن شهاب وقتادة وغيرهم . وقيل أول رجل أسلم ورقة بن نوفل . وفى جامع الترمذى أن رسول الله ﷺ رآه فى المنام فى هيئة حسنة . وفى حديث آخر أنه رأى عليه ثيابا بيضا . قال ابن الصلاح : والأورع أن يقال : أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر ، ومن الصبيان الأحداث على ، ومن النساء خديجة ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال . انتهى . وعن ابن عباس أنه كان يقول : أول الناس إسلاما أبو بكر ، واستشهد بقول حسان :

إذا تذكرت شجوا من أخى ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
التالى الثانى المحمود مشهده ... وأول الناس طرا صدق الرسلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبى وأوفاها بما حملا

وذكر أن النبى ﷺ سمعه فلم ينكر ، وأسلم غير هؤلاء عمرو بن عبسة السلمى ، وخالد ابن سعيد بن العاص بن أمية ، وكان بلال وخالد وسعد وعمر وعلى أولهم إسلاما ثم أسلم بعد هؤلاء أبو عبيدة واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن وهب بن ضبة بن الحارث ، فهو وأبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة ابن مرة ، وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن هصيص بن كعب ابن لؤى ، وأخوه قدامة ، وعبد الله ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى ابن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب ، وكان أبوه زيد قد رفض الأوثان فى الجاهلية ووحد الله وأخبر رسول الله ﷺ أنه يبعث

أمة وحده ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب . وقال ابن سعد : أول امرأة أسلمت بعد خديجة أم الفضل زوجة العباس ، وأسلم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعمير بن أبى وقاص أخو سعد وعبد الله بن مسعود حليف بنى زهرة وكان يرعى غنم عقبة بن أبى مُعَيط ، وكان سبب إسلامه أن رسول الله ﷺ حلب من غنمه شاة حائلا فدرت ، ومسعود بن ربيعة بن عمرو ابن سعد، وسليط بن عمرو بن ود بن نضر بن مالك بن عامر بن لؤى ، وعياش بن أبى ربيعة ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وامرأته أسماء بنت مخرمة التميمية، وخنيس بن حذافة ابن قيس بن عدى بن سُعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص وهو زوج حفصة بنت عمر ابن الخطاب قبل رسول الله ﷺ، وعامر بن أبى ربيعة العنزى بإسكان النون من عنزة بن وائل من ربيعة حليف آل الخطاب ، وعبد الله بن جحش بن رياب بن معمر بن صبرة بن مرة ابن كثير بن عمر بن دودان بن أسد بن خزيمة حليف بنى أمية ، وأخوه أبو أحمد بن جحش وكان أعمى ، وجعفر بن أبى طالب ، وامرأته أسماء بنت عميس ، وحاطب بن الحارث ابن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح ، وامرأته فاطمة بنت المجلل بن عبد الله ، وأخوه خطاب بن الحارث ، وامرأته فكيهة بنت يسار ، ومعمر بن الحارث بن معمر ابن حبيب ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة وامرأته رملة بنت أبى عوف بن ضبرة بن سهم ، والنحام واسمه نعيم بن عبد الله بن أسد بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب ، وعامر بن فهيرة أزدى أمه فهيرة مولاة أبى بكر الصديق ، وأمية بنت خالد الخزاعية امرأة خالد بن سعيد بن العاص ، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد مناف ، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف ابن عزيز بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم حليف بنى عدى، وخباب ابن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناة الخزاعى ولاء الزهرى حلفا ، وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة من بنى سعد بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة حلفاء بنى عدى ، وعمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحصين بن الوذيم بن ثعلبة بن عوف بن حارثة بن عامر الأكبر بن يام بن عنس

وهو زيد بن مالك ومالك جماع مذحج بن أدد حليف بنى مخزوم، وأسلم ياسر والد عمار، أسلم صهيب بن سنان بن مالك ويقال له الرومى، وكان مولى لعبد الله بن جدعان، ذكره أبو عمر فى السابقين، وذكر فيهم عتبة بن مسعود أخا عبد الله بن مسعود. قال ابن اسحق: ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدثت به قريش. ثم إن الله سبحانه أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن ينادى الناس بأمره ويدعو إليه، فكان مدة إخفاء رسول الله ﷺ أمره إلى أن أمره الله بإظهاره الدين ثلاث سنين فيما بلغنى، ثم قال الله له ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ ثم قال ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، فلما نادى رسول الله ﷺ وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون، وحدب على رسول الله ﷺ أبو طالب ومنعه وقام دونه، لأنه كان شريفا معظما فى قريش مطاعا فى أهل مكة لا يتجاسرون على مكاشفته بشىء من الأذى. قال ابن القيم: وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه على دين قومه لما فى ذلك من المصالح التى تبدو لمن تأملها. وأما أصحابه فمن كانت له عشيرة تحميه امتنع بعشيرته، وسائرهم تصدوا له بالأذى والعذاب، منهم عمار بن ياسر وأمه وأهل بيته فإنهم عُذبوا فى الله، وكان رسول الله ﷺ إذ مر بهم وهم يعذبون يقول صبرا يا آل ياسر فان موعدكم الجنة، ولقى أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب أمرا عظيما لما ذخره الله لهم فى الآخرة من الكرامة، فطعن الفاسق أبو جهل سمية أم عمار بحربة فى قبلها فقتلها رضى الله عنها. وكان سادات بلال وهم من بنى جمح يأخذونه ويبطحونه على الرمضاء فى حر مكة ثم يلقون على بطنه الصخرة العظيمة ثم يأخذونه ويلبسونه فى ذلك الحر الشديد درع حديد ويضعون فى عنقه حبلا ويسلمونه الى الصبيان يطوفون به وهو فى كل ذلك صابر محتسب لايبالى بما لقى فى ذات الله، وكان كلما اشتد به العذاب يقول: أحد، أحد. وأسلم سلمة ابن [هشام والوليد] بن الوليد بن المغيرة وأبو حذيفة مهشم بن عتبة بن ربيعة وغيرهم، وأعتق أبو بكر الصديق رضى الله عنه بلال بن رباح وأمه حمامة مولاته، وأعتق ابن فهيرة وأعتق

أم عبس وزبيرة والنهدية ابنتها وجارية لبنى عدى كان عمر بن الخطاب يعذبها على الإسلام وذلك قبل أن يسلم ، وقيل إن أبا قحافة قال له : يا بنى أراك تعتق رقابا ضعافا فلو أعتقت قوما جلدا يمنعوك . فقال له أبو بكر : يا أبت إنى أريد ما أريد : ففيه نزلت ﴿ وسيجنبها الأتقى الذى يُؤتى ماله يتزكى ﴾ إلى آخر السورة . قال ابن اسحق . وكان رسول الله ﷺ يقول فيما بلغنى « مادعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة و نظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر ما تردد فيه »

ذكر ابتداء فرض الصلاة

قال ابن اسحق : حدثنى صالح بن كيسان عن عروة عن عائشة قالت : افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افترضت ركعتين ركعتين كل صلاة ، ثم إن الله أتمها فى الحضر أربعا وأقرت فى السفر على فرضها ركعتين . قال ابن إسحق وحدثنى بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر ليريه كيف الطهور ، ثم توضأ رسول الله كما رأى جبريل ، ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله ﷺ بصلاته ، ثم انصرف جبريل عليه السلام فجاء رسول الله ﷺ خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ ثم صلى بها رسول الله كما صلى به جبريل فصلت ، كذا وذكره ابن اسحق مقطوعا . وقد وصله الحارث بن أبى أسامة فقال: حدثنى الحسن بن موسى عن ابن لهيعة عن عقيل بن خالد عن الزهرى عن عروة عن أسامة ابن زيد حدثنى أبى زيد بن حارثة أن رسول الله ﷺ فى أول ما أوحى إليه أتاه جبريل فعلمه الوضوء ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غَرفة من ماء فنضح بها فرجه . وقد روى ابن ماجة عن ابن لهيعة عن عقيل عن الزهرى بسنده بمعناه . وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس. وفى حديث ابن عباس : وكان ذلك من أول الفريضة . فالوضوء على هذا مكى بالفرض مدنى بالتلاوة لأن آية الوضوء مدنية . وإنما قالت عائشة فأنزل الله آية التيمم ولم تقل آية الوضوء — وهى هى — لأن الوضوء قد كان مفروضا ، غير أنه لم يكن قرآنا يتلى حتى نزلت آية المائدة .

وقال مقاتل بن سليمان : فرض الله فى أول الإسلام الصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشى لقوله تعالى ﴿وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار﴾ قال فى فتح البارى : كان ﷺ قبل الإسراء يصلى قطعا وكذلك أصحابه ، ولكن اختلف هل فرض شىء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا؟ فقيل : إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها انتهى. وقال النووى : أول ما وجب الإنذار والدعاء إلى التوحيد ، ثم فرض الله من قيام الليل ما ذكره فى سورة المزمل . ثم نسخه بما فى آخرها ، ثم نسخه بإيجاب الصلوات الخمس ليلة الإسراء بمكة . قال السهيلى . يحتمل أن يكون قول عائشة « فزيد فى صلاة الحضر » أى زيد فيها حتى أكملت خمسا فتكون الزيادة فى الركعات وفى عدد الصلوات ، ويكون قولها «فرضت الصلاة ركعتين » أى قبل الإسراء وقد قال به طائفة منهم ابن عباس ، ويجوز أن يكون معنى قولها « فرضت الصلاة » أى ليلة الإسراء حين فرضت الخمس ركعتين ثم زيد فى صلاة الحضر بعد ذلك ، وهذا هو المروى عن بعض رواة هذا الحديث عن عائشة ، وممن رواه هكذا الحسن والشعبى أن الزيادة فى صلاة الحضر كانت بعد الهجرة بعام أو نحوه ذكره أبو عمر . وذكر البخارى من رواية معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين ، ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ففرضت أربعا ، وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيا من عمه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها فاذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا . ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان فقال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخى ، ماهذا الدين الذى أراك تدين به ؟ قال «أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال ﷺ - بعثنى الله به رسولا للعباد ، وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه » أو كما قال . فقال أبو طالب : أى ابن أخى إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيتُ . وذكروا أنه قال لعلى : أى بنى ، ما هذا الذى أنت عليه ؟ قال . يا أبت آمنت برسول الله

وصدقت بما جاء به وصليت معه لله واتبعته . فزعموا أنه قال له . أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه . وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى تقاتلوا ، وضرب سعد يومئذ رجلا من المشركين بلحى بعير فشجه ، وكان أول دم أهرق فى الإسلام . انتهى

فصل

عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ أتى النبىّ ﷺ الصفا فصعده ، ثم نادى : يا صباحاه . فاجتمع الناس اليه — بين رجل يأتى اليه و بين رجل يبعث رسوله — فقال رسول الله ﷺ . يابنى عبد المطلب ، يابنى فهر ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله ﴿ تبت يدا أبى لهب وتبّ ﴾ أخرجاه فى الصحيحين ، وروى مسلم عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ فعم وخص فقال « يامعشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار ، فإنى والله لا أملك لكم من الله شيئا إلا أن لكم رحما سأبلُّها ببلالها »

فصل

قال ابن اسحق : ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهرا لأمره لا يردُّه عنه شىء فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يعتبهم من شىء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف

قريش إلى أبى طالب ـ عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى وأبو سفيان ابن حرب بن أمية واسمه صخر ـ قال ابن هشام : وأبو البخترى واسمه العاص بن هشام ابن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، قال ابن اسحق : والأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العزى بن قصى ، وأبو جهل واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب ، والعاص بن وائل بن هاشم بن سُعيد بن سهم أو من مشى منهم فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا ، ورد عليهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه . وقال السدى : إن أناسا من قريش اجتمعوا ـ فيهم أبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث فى نفر من مشيخة قريش ـ فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبى طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذى يعبد ، فانا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون اليه شىء فتعيرنا به العرب يقولون : تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه . فبعثوا رجلا منهم يُدعى المطلب فاستأذن لهم على أبى طالب فقال : هؤلاء مشيخة قريش وسراتهم يستأذنون عليك . قال : أدخلهم . فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكف عن شتم آلهتنا ، وندعه وإلهه . قال فبعث اليه أبو طالب ، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قومك سراتهم ، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك ، قال : ياعم أفلا تدعوهم إلى ماهو خير لهم ؟ قال . وإلى ما تدعوهم ؟ قال : أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم . فقال أبو جهل من بين القوم : ماهى وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها ؟ قال . تقولون « لا إله إلا الله » فنفروا وقالوا . سلنا غيرها . قال لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها . فقاموا من عنده غضبا وقالوا . والله لنشتمنك وإلهك الذى يأمرك بهذا . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يُراد .

رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد: فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قول لا إله إلا الله، فأبى وقال: على دين الأشياخ. ونزلت ﴿إنك لا تهدى من أحببت﴾ وقال مقاتل: كان رسول الله ﷺ عند أبي طالب يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون بالنبي سوءا فقال أبو طالب: حين تروح الإبل فان حنت ناقة إلى غير فصيلها دفعته اليكم، فقال:

والله لن يصلوا اليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وابشر وقر بذاك منك عيونا
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ... ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لا محالة إنه ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

فصل

ولما اشتد أذى المشركين على من آمن، وفتن منهم من فتن حتى يقولوا لأحدهم اللات إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون: وهذا إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. وروى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد. فوافقهم على ذلك مكرها وجاء معتذرا إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره﴾ الآية. ورواه البيهقي أيضا وفيه أنه سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، وأنه قال: يارسول الله ما تُركتُ حتى سببتك. قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً. قال: إن عادوا فعد

فلما اشتد البلاء عليهم أذن رسول الله ﷺ لهم في الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة وقال. إن بها ملكا لا يظلم الناس. وكان أول من هاجر اليها عثمان بن عفان ومعه زوجته رُقية بنت رسول الله، وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل، وأبو سلمة وامرأته أم سلمة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى

بنت أبي حثمة ، وأبو سَبرة بن أبي رهم وحاجب بن معمر ، وسهيل بن وهب ، وعبد الله ابن مسعود ، خرجوا متسللين سرا فوفق الله لهم ساعة وصولهم إلى الساحل سفينتين للتجار فحملوهم فيها إلى أرض الحبشة ، وكان خروجهم فى رجب من السنة الخامسة من المبعث ، فأقاموا بالحبشة شعبان ورمضان ، وخرجت قريش فى آثارهم حتى جاءوا البحر فلم يدركوا منهم أحدا ، ثم رجعوا إلى مكة فى شوال لما بلغهم أن قريشا صافوا رسول الله ﷺ وكفوا عنه . وسبب ذلك أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم فلما بلغ ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان فى تلاوته : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى . فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، وقد علمنا أن الله يخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا تشفع عنده . فلما بلغ السجدة سجد وسجد معه المسلمون والمشركون ، إلا شيخا من قريش رفع إلى جبهته حصى فسجد عليه وقال : يكفيني هذا . فحزن النبي ﷺ حزنا شديدا وخاف من الله خوفا عظيما . فأنزل الله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ﴾ الآيات . ولما استمر رسول الله ﷺ على سبِّ آلهتهم عادوا إلى شر ما كانوا عليه ، وازدادوا شدة على من أسلم . فلما قرب مهاجرة الحبشة من مكة وبلغهم أمرهم توقفوا عن الدخول ، ثم دخل كل رجل فى جوار رجل من قريش ، ثم اشتد عليهم البلاء والعذاب من قريش وسطت بهم عشائرهم ، وصعب عليهم ما بلغهم عن النجاشى من حسن جواره ، فأذن لهم رسول الله ﷺ فى الخروج إلى الحبشة مرة ثانية فخرجوا ، فكان خروجهم الثانى أشق عليهم وأصعب ، فكان عدة من خرج فى هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلا إن كان فيهم عمار بن ياسر فانه يشك فيه ، قاله ابن اسحق . ومن النساء تسع عشرة امرأة وهم جعفر ابن أبي طالب ومعه امرأته أسماء بنت عميس فولدت له هناك محمدا وعبد الله وعونا ، ومن بنى أمية بن عبد شمس عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ومعه امرأته فاطمة بنت صفوان بن أمية ابن محرث الكنانى ، وأخوه خالد بن سعيد ومعه امرأته أميمة بنت خلف بن أسعد الخزاعية ولدت له هناك سعيدا وأمه وهى أم خالد وهى التى تزوجها الزبير بعد ذلك فولدت له خالدا وعمرا ، ومن حلفائهم من بنى أسد بن خزيمة عبد الله بن جحش ، وأخوه عبيد الله معه

امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان فتنصر هناك ومات مرتدا ، وقيس بن عبد الله رجل منهم معه امرأته بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان بن حرب. ومعيقيب بن أبى فاطمة عديد ابنى العاص ابن أمية وهو من دوس ، ومن بنى نوفل بن عبد مناف عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب من قيس عيلان حليف بنى نوفل وهو الذى بنى البصرة وأسسها أيام عمر . ومن بنى أسد ابن عبد العزى الزبير بن العوام ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، وعمرو بن أمية بن الحارث ابن أسد . ومن بنى عبد بن قصى طليب بن عمير بن وهب بن أبى كثير بن عبد ، وقد انقرض جميع بنى عبد بن قصى . ومن بنى عبد الدار بن قصى سويبط بن عبد الدار ومعه امرأته حرملة بنت مالك بن عميلة بن السباق[1] بن عبد الدار وجهم بن قيس بن [عبد[2]] شرحبيل بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار معه امرأته حرملة بنت عبد الدار بن خزيمة بن قيس بن عامر ابن بياضة من خزاعة وابناه عمرو وخزيمة بنت جهم ، وأبو الروم بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وفراس بن النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار ، ومصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار . ومن بنى زهرة عبد الرحمن ابن عوف ، وعامر بن أبى وقاص أخو سعد ، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة معه امرأته رملة بنت أبى عون بن صبرة بن سعيد بن سعد بن سهم ولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن عبد المطلب ومن حلفائهم من هذيل عبد الله بن مسعود وأخوه عتبة والمقداد بن عمرو بن ثعلبة وكان يقال له المقداد بن الأسود بن عبد يغوث بن عبد مناف ابن زهرة ، وذلك أنه تبناه فى الجاهلية وحالفه ، ومن بنى تيم بن مرة الحارث بن خالد بن صخر ومعه امرأته ريطة بنت الحارث من بنى تيم ولدت له بأرض الحبشة موسى بن الحارث وعائشة وزينب وفاطمة وعمرو بن عثمان بن عمرو من بنى تيم ، ومن بنى مخزوم أبو سلمة ابن عبد الأسد معه امرأته أم سلمة فولدت له بأرض الحبشة زينب ، وشماس بن عثمان ،

---

(١) فى الأصل : حريملة بنت مالك بن عملة بنت السابق بن عبد الدار . والتصحيح من كتاب نسب قريش للمصعب الزبيرى ص ٢٥٦.

(٢) عن نسب قريش ص ٢٥٥

وهبار بن سفيان وأخوه عبد الله ، وهشام بن أبى حذيفة ، وسلمة بن هشام ، وعياش ابن أبى ربيعة ، ومن حلفائهم معتب بن عوف من خزاعة ، ومن بنى جُمَح عثمان بن مظعون وابنه السائب وأخوه قدامة وأخوه عبد الله ، وحاطب بن الحارث معه امرأته فاطمة بنت المجلل وابناه محمد والحارث ، وأخوه خطاب بن الحارث معه امرأته فكيهة بنت يسار ، وسفيان بن معمر معه ابناه جابر وجنادة وامرأته حسنة وهى أمهما وأخوهما من أمهما شرحبيل ابن حسنة . قال ابن هشام : شرحبيل بن عبد الله أحد الغوث بن مر أخى تميم بن مر ، قال ابن اسحق : وعثمان بن ربيعة . ومن بنى سهم خنيس بن حذافة وأخوه قيس ، وعبد الله وهشام بن العاص أخو عمرو بن العاص ، وعمير بن رئاب وأبو قيس بن الحارث وأخوه الحارث بن الحارث وعمير بن الحارث وسعيد بن الحارث وبشر بن الحارث ، ومحمية بن جزْء الزبيدى ومعمر بن الحارث وأخ له من أمه من بنى تميم يقال له سعيد بن عمر ، والسائب ابن الحارث . ومن بنى عدى بن كعب معمر بن عبد الله ، وعروة بن عبد العزى ، وعدى ابن نضلة وابنه النعمان ، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب من عنز بن وائل معه امرأته . ومن بنى عامر بن لؤى أبو سبرة بن أبى رُهم معه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو ، وعبد الله بن مخرمة ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسليط بن عمرو وأخو السكران ابن عمرو ومعه امرأته سودة بنت زمعة ومالك بن زمعة معه امرأته عمرة بنت السعدى وأبو حاطب بن عمرو وسعد بن خولة حليف لهم . ومن بنى الحارث بن فهر أبو عبيدة ابن الجراح ، وسهيل بن بيضاء وهو سهيل بن وهب ولكن أمه غلبت على نسبه وهى دعد بنت جحدم وكانت تدعى بيضاء ، وعمرو بن أبى سرح ، وعياض بن زهير ، وعمرو ابن الحارث بن زهير ، وعثمان بن غنم ، وسعد بن عبد قيس ، والحارث بن عبد قيس . قال ابن القيم : وقد ذكر فى هذه الهجرة الثانية عثمان بن عفان وجماعة ممن شهد بدرا فإما أن يكون هذا وهما وإما أن يكون لهم قدمة أخرى قبل بدر ، فيكون لهم ثلاث قدمات : قدمة قبل الهجرة وقدمة قبل بدر وقدمة عام خيبر ، ولذلك قال ابن سعد وغيره : إنهم لما سمعوا مهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا ومن النساء ثمان

فمات منهم رجلان بمكة وحبس سبعة وشهد بدرا أربعة وعشرون رجلا وأقاموا عند النجاشى على أحسن حال وبلغ ذلك قريشا

فصل

فلما كان بعد بدر اجتمعت قريش فى دار الندوة وقالوا : إن لنا فى الذين عند النجاشى ثأرا، فاجمعوا مالا وأهدوه إلى النجاشى لعله يدفع إليكم من عنده ، ولينتدب فى ذلك رجلان من أهل رأيكم، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد مع الهدية فركبا البحر ، فلما دخلا على النجاشى سجدا له وسلما عليه وقالا . قومنا لك ناصحون ، وإنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء الذين قدموا عليك ، لأنهم قوم رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول الله ولم يتبعه إلا السفهاء ، فضيقنا عليهم وألجأناهم إلى شعب بأرضنا لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم أحد ، فقتلهم الجوع والعطش، فلما اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم . وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التى كنت تحيا بها ، رغبة عن دينك . فلما دعاهم النجاشى وحضروا صاح جعفر بن أبى طالب بالباب : يستأذن عليك حزب الله . فقال النجاشى : مروا هذا الصائح فليُعد كلامه ، ففعل ، فقال : نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته . فدخلوا ولم يسجدوا له قال : ما منعكم أن تسجدوا لى ؟ قالوا : نسجد لله الذى خلقك وملّكك . وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان ، فبعث الله فينا نبيا صادقا ، وأمرنا بالتحية التى رضيها وهى السلام تحية أهل الجنة . فعرف النجاشى أن ذلك حق ، وأنه فى التوراة والإنجيل . فقال : أيكم الهاتف يستأذن ؟ قال جعفر : أنا . قال : فتكلم . قال : إنك ملك لا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم ، وأنا أحب أن أجيب عن أصحابى ، فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما فتسمع كلامنا . فقال عمرو بن العاص لجعفر : تكلم . فقال جعفر للنجاشى : سله أعبيد نحن أم أحرار ؟ فان كنا عبيدا قد أبقنا من موالينا فارددنا اليهم ، فقال عمرو : بل أحرار كرام . فقال : هل أرقنا دما بغير حق فيقتص منا ؟ قال : لا ، ولا قطرة . قال . فهل أخذنا

أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها ؟ قال عمرو : ولا قيراط . قال النجاشي : فما تطالبون منهم ؟ قال : كنا وهم على دين واحد ، على دين آبائنا ، فتركوا ذلك واتبعوا غيره . فقال النجاشي لجعفر : ما هذا الذي كنتم عليه والذي اتبعتموه ؟ واصدقني . فقال جعفر : أما الذي كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان ، كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة ، وأما الذي تحولنا اليه فهو دين الله الإسلام ، جاءنا به من الله رسول ، وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقا له. فقال النجاشي : تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك . ثم أمر بضرب الناقوس ، فاجتمع اليه كل قسيس وراهب ، فقال : أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين القيمة نبيا مرسلا ؟ قالوا : اللهم نعم قد بشرنا به عيسى وقال : من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد كفر بي ؟ فقال النجاشي لجعفر : ماذا يقول لكم هذا الرجل ؟ وماذا يأمركم به وماذا ينهاكم عنه ؟ قال يقرأ علينا كتاب الله ويأمرنا بالمعروف ، وينهانا عن المنكر ، ويأمرنا بحسن الجوار ، وصلة الرحم ، وبر اليتيم ، ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له . فقال اقرأ مايقرأ عليكم . فقرأ عليه سورة العنكبوت والروم ، ففاضت عين النجاشي وأصحابه من الدمع ، فقال : زدنا من هذا الحديث الطيب . فقرأ عليهم سورة الكهف فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال : إنهم يسبون عيسى وأمه ، فقرأ عليهم سورة مريم ، فلما أتى على ذكر عيسى وأمه رفع النجاشي نفاثة من سواكه قدر ما يقذى العين فقال : والله مازاد المسيح على مايقول هؤلاء نقدا . قال ابن اسحق : فلما قال ذلك تناخرت بطارقته . فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي . والسيوم الآمنون . من سبكم غرم ، فلا هوادة اليوم على حزب ابراهيم ، ما أحب أن لى دبراً من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم . والدبر بلسان الحبشة الجبل ، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى فيها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه . فخرجا مقبوحين مردودا عليهما ماجاءا به ، وفيهم نزلت ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ﴾ الآيات قاله قتادة وغير واحد وقيل بعثت قريش فى شأنهم إلى النجاشي مرتين : الأولى عند هجرتهم

والثانية عقب وقعة بدر ، وكان عمرو بن العاص رسولا فى المرتين ومعه فى إحداها عمارة ابن الوليد وفى الأخرى عبد الله بن أبى ربيعة المخزوميان

فصل

فلما كان فى ربيع الأول سنة سبع من الهجرة كتب رسول الله ﷺ كتابا إلى النجاشى يدعوه إلى الإسلام ، وبعث به مع عمرو بن أمية الضمرى . فلما قرئ عليه الكتاب أسلم وقال : لو قدرت أن آتية لأتيته . وكتب اليه أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت ممن هاجر إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش فتنصر هناك ومات ، فزوجه إياها ، وأصدقها عنه أربعمائة دينار . وكان الذى تولى تزويجها خالد بن سعيد بن العاص ، وكتب إليه أن يبعث اليه من بقى من أصحابه ويحملهم ففعل ، وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية وقدموا على رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ نعى النجاشى فى اليوم الذى مات فيه فخرج إلى المصلى فكبر أربع تكبيرات وقال : استغفروا لأخيكم . قال السهيلى : وكان موت النجاشى فى رجب سنة تسع ، ولما صلى عليه رفع اليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه بالمدينة . وتكلم المنافقون وقالوا : يصلى على علج مات بأرض الحبشة . قال ابن اسحق وحدثنى يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة قالت : لما مات النجاشى كان يتحدث أنه لا يزال على قبره نور . وحدثنى جعفر بن محمد عن أبيه قال : اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشى : إنك فارقت ديننا وخرجوا عليه ، فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنا وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم فان هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا . ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن وخرج الى الحبشة . وصفوا له فقال يامعشر الحبشة ألست أحق الناس بكم ؟ قالوا بلى . قال : وكيف رأيتم سيرتى فيكم ؟ قالوا : خير سيرة . قال : فما بالكم ؟ قالوا : فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد . قال : فما تقولون

أنتم في عيسى ؟ قالوا : نقول هو ابن الله ، فقال النجاشي ووضع يده على صدره على قبائه : هو يشهد أن عيسى ابن مريم، لم يزد على هذا شيئا ، وإنما يعني ما كتب . فرضوا وانصرفوا . فبلغ ذلك النبي ﷺ فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له . قال السهيلي : والنجاشي اسم لكل ملك يلي الحبشة ، كما أن كسرى اسم لملك الفرس ، وخاقان اسم لملك الترك ، وبطليموس اسم لمن ملك اليونان (١) واسم هذا النجاشي أصحمة بن الحر وتفسيره عطية

وفيه من الفقه الخروج من الوطن وإن كان الوطن مكة على فضلها إذا كان الخروج فرارا بالدين ، وإن لم يكن الى أرض الإسلام ، فان الحبشة كانوا نصارى يعبدون المسيح ويقولون هو ابن الله ، وسموا بهذه الهجرة مهاجرين ، وهم أصحاب الهجرتين الذين أثنى الله عليهم بالسبق فقال ﴿ والسابقون الأولون ﴾ وجاء في التفسير أنهم الذين صلوا القبلتين وهاجروا الهجرتين . فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة وهم قد خرجوا من بلد الله الحرام إلى بلاد كفر ، لما كان فعلهم ذلك احتياطا على دينهم ، وأن يخلى بينهم وبين عبادة ربهم يذكرونه آمنين مطمئنين . وهذا حكم مستمر متى غلب المنكر على بلد وأوذي على الحق مؤمن ورأى الباطل قاهرا للحق ورجا أن يكون في بلد آخر أي بلد كان يبين فيه دينه ويظهر فيه عبادة ربه ، فان الخروج على هذا الوجه حتم على المؤمن . وهذه الهجرة لا تنقطع إلى يوم القيمة ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ انتهى كلام السهيلي

وفي الصحيح عن عائشة قالت : لم أعقل أبويّ إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشية . فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا إلى أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال : أين تريد يا أبا ؟ فقال أبو بكر : أخرجني قومي ، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي . فقال ابن الدغنة إن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك

---

(١) أي الذين حكموا منهم في الإسكندرية ، ويقال لهم البطالسة

فرجع أبو بكر وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : فأمُر أبا بكر فليعبد ربه فى داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن ، فإنا نخشى أن يُفتن نساؤنا وأبناؤنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر . فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره . ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجدا بفناء داره ، فكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، فتتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون اليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، وقد جاوز ذلك وابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقرآن فيه ، وإنا قد خشينا أن يُفتن أبناؤنا ونساؤنا ، فانهه ، فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد اليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفر فى ذمتك ، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان . قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة الى أبى بكر : فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلىّ ذمتى لا أحب أن تسمع العرب أنى خفرت فى رجل عقدت له ، فقال أبو بكر فإنى أرد اليك جوارك وأرضى بجوار الله

فصل

ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب . قال ابن اسحق : حدثنى رجل من أسلم وكان واعية أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ فآذاه وشتمه ونال منه بعض مايكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره فلم يكلمه رسول الله ﷺ ، ومولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه عامدا الى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه

ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش وأشده شكيمة . فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول الله إلى بيته قالت : يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام : وجده ههنا جالسا فآذاه وشتمه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد . فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى لم يقف لأحد ، معدا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به . فلما دخل المسجد نظر اليه جالسا فى القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد على إن استطعت . فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا . وتم حمزة على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ ، فعرفت قريش أن رسول الله قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه

وزاد غير ابن اسحق فى إسلام حمزة أنه قال : لما حملنى الغضب وقلت أنا على قوله ، أدركنى الندم على فراق دين آبائى وقومى ، وبت من الشك فى أمر عظيم لا أكتحل بنوم . ثم أتيت الكعبة وتضرعت إلى الله أن يشرح صدرى ويذهب عنى الريب ، فما استتممت دعائى حتى زال عنى الباطل وامتلأ قلبى يقينا . أو كما قال . فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من أمرى ، فدعا لى بأن يثبتنى الله . وقال حمزة بن عبد المطلب :

حمدت الله حين هدى فؤادى   إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز   خبير بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا   تحدر دمع ذى اللب الحصيف
وأحمد مصطفى فينا مطاع   فلا تغشوه بالقول العنيف
فلا والله نسلمه لقوم   ولما نقض فيهم بالسيوف

ونترك منهم قتلى بقاع لورد الطير كالورد العكوف

وأخرج الترمذى وصححه عن ابن عمر ، والطبرانى عن ابن مسعود وأنس ، أن النبى ﷺ قال « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين اليك : بعمر بن الخطاب ، أو بأبى جهل ابن هشام »

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل وابن عساكر عن ابن عباس قال : قلت لعمر : لأى شىء سميت « الفاروق » ؟ قال : أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام، فخرجت فاذا فلان المخزومى ، فقلت له : أرغبت عن دين آبائك واتبعت دين محمد؟ فقال : إن فعلتُ فقد فعله من هو أعظم عليك حقا منى . قلت : من ذلك ؟ قال أختك وختنك . فانطلقت فوجدت همهمة ، فدخلت فقلت : ما هذا ؟ فما زال الكلام بيننا حتى أخذت برأس أختى فضربته وأدميته فقامت الى فأخذت برأسى فقالت : وقد كان ذلك على رغم أنفك . فاستحييت حين رأيت الدماء ، فجلست فقلت : أرونى هذا الكتاب . فقالت : إنه لا يمسه إلا المطهرون . فقمت فاغتسلت ، فأخرجوا لى صحيفة فيها ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فقلت : أسماء طيبة طاهرة ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلىٰ ﴾ إلى قوله ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنىٰ ﴾ فتعظمت فى صدرى ، فقلت ما هذا (١) قريش . فأسلمت . فقلت : أين رسول الله ؟ قالت : فانه فى دار الأرقم . فأتيته فضربت الباب فاستجمع القوم ، وقال لهم حمزة : مالكم؟ قالوا : عمر قال : وعمر ، افتحوا له الباب، فانه إن أقبل قبلناه . وإن أدبر قتلناه فسمع ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج ، فتشهد عمر ، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد . قلت : يارسول الله ألسنا على الحق ؟ قال: بلى . قلت : ففيم الاختفاء ؟ فخرجنا فى صفين : أنا فى أحدهما ، وحمزة فى الآخر ، حتى دخلنا المسجد ، فنظرت قريش إلىّ وإلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة . فسمانى رسول الله ﷺ « الفاروق » يومئذ، وفى رواية أنس عن أبى يعلىٰ والحاكم والبيهقى قال : خرج عمر متقلدا

---

(١) بياض بالأصل

بالسيف ، فلقيه رجل من بنى زهرة فقال : أين تعمد ياعمر ؟ فقال له : أريد أن أقتل محمدا .
قال : وكيف تأمن من بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمدا ؟ قال : ما أراك إلا صبوت .
قال : أفلا أدلك على العجب ؟ إن أختك وختنك قد صبوا وتركا دينك . فمشى عمر فأتاهما
وعندهما خباب ، فلما سمع عمر توارى فى البيت ، فدخل فقال : ما هذه الهينمة ؟ وكانوا
يقرأون طه . قالا : ماعدا حديثا تحدثناه بيننا . قال : فلعلكما قد صبوتما ؟ فقال ختنه : ياعمر
إن كان الحق فى غير دينك . فوثب عليه عمر فوطئه وطئا شديدا فجاءت أخته لتدفعه عن
زوجها فنفحها بيده فدمى وجهها ، فقالت وهى غضبى : إن كان الحق فى غير دينك ، إنى
أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . فقال عمر : اعطونى الكتاب الذى عندكم
فأقرأه ، وكان عمر يقرأ الكتاب ، فقالت أخته : إنك رجس ، ولا يمسه إلا المطهرون ؛
فقم واغتسل وتوضأ ، فقام وتوضأ ، ثم أخذ الكتاب فقرأ طه حتى انتهى إلى قوله ﴿إننى أنا الله
لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى﴾ فقال عمر : دلونى على محمد . فلما سمع خباب
قول عمر خرج فقال : أبشر ياعمر ، فإنى أرجو أن تكون دعوة رسول الله ليلة الخميس
« اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » وكان رسول الله ﷺ فى أصل
الدار التى فى أصل الصفا ، فانطلق عمر حتى أتى الدار وعلى بابها حمزة وطلحة وناس ، فقال
حمزة : هذا عمر ، إن يرد الله به خيرا يسلم ، وإن يكن غير ذلك يكن قتله علينا هينا .
قال والنبى ﷺ داخل يوحى اليه ، فخرج حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف
فقال : ما أنت بمنته ياعمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة .
فقال عمر أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك عبد الله ورسوله . وفى الصحيح عن سعيد بن زيد
قال : والله لقد رأيتنى وإن عمر لموثقى على الإسلام قبل أن يسلم عمر

قال ابن اسحق : وكان عمر ذا شكيمة لا يرام ، فلما أسلم امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ
وبحمزة ، فكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم
عمر . وفى البخارى عنه : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر . قال الذهبى : أسلم فى السنة السادسة
من النبوة وله سبع وعشرون سنة . وكان من أشراف قريش ، فكانوا إذا أرادوا حربا

بعثوه رسولا، وإذا نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر أرسلوه له منافرا ومفاخرا . وفى الصحيح عن ابن عمر قال : لما أسلم عمر اجتمع الناس إليه عند داره وقالوا صبأ عمر ، وأنا غلام فوق ظهر بيتى . فجاء رجل عليه قباء من ديباج فقال : صبأ عمر فما ذاك ؟ فأنا له جار . قال فرأيت الناس تصدعوا عنه ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : هذا العاص بن وائل . وفى رواية فى الصحيح عنه قال : بينما هو فى الدار خائفا إذ جاءه العاص بن وائل السهمى أبو عمرو عليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير ، وهو من بنى سهم وهم حلفاؤنا فى الجاهلية ، فقال له : ما بالك؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلونى إن أسلمت . قال : أمنت ، لا سبيل لهم اليك

فصل

قال ابن اسحق : فلما رأت قريش أن أمر رسول الله ﷺ يتزايد ويقوى، مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . أو كما قالوا . فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخى إن قومك جاءونى وقالوا لى كذا وكذا — للذى كانوا قالوه له — فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . قال : فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بدء ، وأنه خاذله ومسلمه وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال له رسول الله ﷺ : يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه . قال ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قام . فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخى . قال فأقبل عليه رسول الله ﷺ . فقال : أقبل يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً

قال ابن اسحق : ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم مشوا اليه بعمارة بن الوليد فقالوا له فيما بلغنى :

يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش وأجمله . فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل كرجل . قال : والله لبئس ماتسومونني، تعطونني ابنكم أغذيه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ! هذا والله مالا يكون أبداً . قال : فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا . فقال : والله ما أنصفتمونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم علىّ ، فاصنع ما بدا لك . أو كما قال . فحقب الأمر وحميت الحرب وتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضا . فقال أبو طالب عند ذلك يعرّض بالمطعم وبعم من خذله من بنى عبد مناف ومن عاداه من قبائل قريش ويذكر ما سألوه وما تباعد من أمرهم :

ألا قل لعمرو والوليد .ومطعم	ألا ليت حظى من حياطتكم بكر
من الخور حبحاب كثير رغاؤه	يرش على الساقين من بوله قطر
تخلف خلف الورد ليس بلاحق	إذا ما علا الفيفاء قيل له وبر
أرى أخوينا من أبينا وأمنا	إذا سئلا قالا إلى غيرنا الأمر
بلى لهم أمر ولكن تجرجما	كما جرجمت من رأس ذى علق الصخر
أخص خصوصاً عبد شمس ونوفلا	هما نبذانا مثل ما ينبذ الجمر
هما أغمزا للقوم فى أخويهما	فقد أصبحا منهم أكفهما صفر
هما أشركا فى المجد من لا أبا له	من الناس إلا أن يرس له ذكر
وتيم ومخزوم وزهرة منهم	وكانوا لنا مولى إذا بغى النصر
فوالله ما تنفعك منا عداوة	ولا منهم ما كان من نسلنا شفر

الشفر : هو حرف جفن العين

قال ابن اسحق : ثم إن قريشا تذامروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب

رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبى طالب ، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم وبنى عبد المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله والقيام دونه . فاجتمعوا اليه وقاموا معه ، إلا ما كان من أبى لهب وولده فانهم ظاهروا قريشا على قومهم . انتهى

وقال موسى بن عقبة عن ابن شهاب ، إنهم أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية ، فبلغ ذلك أبا طالب ، فجمع بنى هاشم وبنى عبد المطلب فأدخلوا رسول ﷺ شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله ، فمنهم من فعل ذلك حمية ، ومنهم من فعل ذلك إيمانا ويقينا . فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ألا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوا منهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ولا يقبلوا منهم صلحا أبدا ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل . وكتبوه فى صحيفة بخط منصور بن عكرمة ، وقيل بغيض بن عامر ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده . وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة ، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مسلمهم وكافرهم إلى أبى طالب فدخلوا معه شعبه ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا ، وقال ابن سعد سنتين ، حتى جهدوا وكان لا يصل اليهم شىء إلا سرا ، وفى الشعب ولد عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وقطعت قريش عنهم الأسواق حتى كان يسمع أصوات نسائهم وأبنائهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع ، واشتدوا على من أسلم ممن لم يدخل الشعب ، وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالا شديداً : قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد اغتياله ، فاذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، وأمره أن يأتى بعض فرشهم ، وفى ذلك عمل أبو طالب قصيدته اللامية المشهورة قال :

ولما رأيت القوم لا وُدَّ فيهم   وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وقد حالفوا قوماً علينــــا أضنَّة … يعضون غيظــا خلفنا بالأنامل
صبرتُ لهم نفسي بسمراء سمحــة … وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عنــد البيت رهطى وإخوتى … وأمسكت من أثوابه بالوصائل
أعوذ برب الناس من كل طاعن … علينا بسوء أو ملح بباطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعيبــة … ومن ملحق فى الدين ما لم نحاول
وثور ومن أرسى ثبيرا مكانه … وراق ليرقى فى حراء ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة … وبالله إن الله ليس بغــافل
وبالحجر المسوّد إذ يمسحونه … إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطىء ابراهيم فى الصخر رطبــة … على قدميه حافيا غير ناعل
وأشواط بين المروتين إلى الصفــا … وما فيهما من صورة وتماثل
ومن حج بيت الله من كل راكب … ومن كل ذى نذر ومن كل راجل
وبالمشعر الأقصى إذا عمدوا له … الال إلى مفضى الشراج القوابل
وتوقافهم فوق الجبال عشيــة … يقيمون بالأيدى صدور الرواحل
فهل بعد هــذا من معاذ لعـائذ … وهل من معيذ يتقى الله عادل
كذبتم وبيت الله نترك مـكة … ونظعن إلا أمركم فى بلابل
كذبتم وبيت الله نبزَى محمــدا … ولمــــا نطاعن دونه ونناضل
ونسلمــه حتى نصرَّع حوله … ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم فى الحديد اليكم … نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وإنا لعمر الله إن جد ما أرى … لتلتبسن أسيافنــــا بالأماثل
بكفى فتى مثل الشهاب سميــدع … أخى ثقة حامى الحقيقــة باسل
وما ترك قوم لا أبا لك سيــدا … يحوط الذمار غير ذرب مواكل
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه … ثمال اليتامى عصمة للأرامل
تلوذ به الهــــلاك من آل هاشم … فهم عنده فى رحمة وفواضل

وسائل أبا الوليد ماذا حبوتنا ... بسعيك فينا معرضا كالمخاتل
أضاق عليه بغضنا كل تلعة ... من الأرض بين أخشب وجنادل
فعتبة لا تسمع بنا قول كاشح ... حسود كذوب مبغض ذى دغاول
وكنت امرءاً ممن يعاش برأيه ... ورحمته فينا ولست بجاهل
ومر أبو سفيان عنى معرضا ... كما مر قيل من عظام المقاول
يفر إلى نجد وبرد مياهه ... ويزعم أنى لست عنكم بغافل
ويخبرنا فعل المناصح أنه ... شفيق ويخفى عارمات الدواخل
أمطعم لم أخذلك فى يوم نجدة ... ولا معظم عند الأمور الجلائل
أمطعم إن القوم ساموك خطة ... وإنى متى أوكل فلست بوائل
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا ... عقوبة شر عاجلا غير آجل
بميزان قسط لا يخس شعيرة ... له شاهد من نفسه غير عائل
لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا ... بنى خلف قيضا بنا والغياطل
ونحن الصميم من ذؤابة هاشم ... وآل قصى فى الخطوب الأوائل
فكل صديق وابن أخت نعده ... لعمرى وجدنا غبه غير طائل
سوى أن رهطا من كلاب بن مرة ... براء إلينا من معقة خاذل
ونعم ابن أخت القوم غير مكذب ... زهير حساما مفردا من حمائل
أشم من الشم البهاليل ينتمى ... إلى حسب فى حومة المجد فاضل
لعمرى لقد كلفت وجداً بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل
فمن مثله فى الناس أى مؤمل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالى إلها ليس عنه بغافل
فوالله لولا أن أجىء بسبة ... تجر على أشياخنا فى المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جدا غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

فأصبح فينا أحمد فى أرومة تقصر عنها سورة المتطاول
حدبت بنفسى دونه وحميته ودافعت عنه بالذرى والكلاكل

ثم بعد ذلك تألف قوم من قريش على نقض تلك الصحيفة ، كان أحسنهم فيها غناء هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نضر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى ، فإنه لقى زهير بن أمية بن المغيرة فعيره بإسلاء أخواله ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فأجابه زهير إلى نقض الصحيفة ، ثم مشى هشام إلى المطعم بن عدى فذكره أرحام بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف فأجابه إلى ذلك ، ثم مشى إلى أبى البخترى بن هشام فقال له مثل ما قال للمطعم بن عدى ، ثم مشى إلى زمعة بن الأسود فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال : وهل معى على هذا الأمر الذى تدعونى اليه من أحد ؟ قال : نعم . ثم سمى له القوم . واتعدوا حطم الحجون ليلا بأعلى مكة ، فاجتمعوا وتعاهدوا على القيام فى نقض الصحيفة . وقال زهير ، أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم . فلما أصبحوا غدوا على أنديتهم ، وغدا زهير ابن أبى أمية عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس فقال يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يباع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . فقال أبو جهل ـ وكان فى ناحية المسجد ـ كذبت والله لا تشق . قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كتبت . فقال أبو البخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به . قال المطعم بن عدى : صدقتم وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها . وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . قال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل ، وتشوور فيه بغير هذا المكان . وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد ، فقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » وما كان فيها من اسم الله فانها لم تأكله

وقال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : إن الله أطلع رسوله على الذى صنع بصحيفتهم ، فذكر ذلك لعمه فقال : لا والثواقب ما كذبتنى . فانطلق يمشى بعصابة من بنى عبد المطلب حتى أتى المسجد وهو حافل من قريش ، فلما رأوهم رأوا أنهم قد خرجوا من شدة الجوع

وأتو ليعطوهم رسول الله ﷺ . فتكلم أبو طالب فقال : إنه قد حدث أمر لعله أن يكون بيننا و بينكم صلحا ، فأتوا بصحيفتكم . وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا فيها قبل أن يأتوا بها. فأتوا معجبين لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوع اليهم ، قالوا : قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا ، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد قد جعلتموه خطرا لهلكة قومكم . فقال أبو طالب : لأعطينكم أمرا لكم فيه نَصَف ، إن ابن أخى أخبرنى ولم يكذبنى أن الله برىء من هذه الصحيفة التى فى أيديكم ومحا كل اسم له فيها وترك فيها غدركم وقطيعتكم ، فان كان ما قال حقا فوالله لا نسلمه إليكم حتى نموت عن آخرنا ، وإن كان الذى يقول باطلا دفعناه اليكم فقتلتموه أو استحييتموه. قالوا قد رضينا . ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر ، فقالوا : هذا سحر من صاحبكم . فارتكسوا وعادوا لشر ما كانوا عليه . فتكلم عند ذلك النفر الذين تعاقدوا ومزقت الصحيفة . قال ابن اسحاق : فلما مزقت وبطل ما فيها قال أبو طالب فى ما كان من أمر أولئك القوم الذين قاموا فى نقضها يمدحهم شعرا :

ألا هل أتى بحريّنا صنع ربنا (١) على نأيهم والله بالناس أَرْوَدُ (٢)

فيخبرهم أن الصحيفة مُزقت وأنْ كل مالم يرضه الله مفسد

تراوحها إفك وسحر مجمع ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد

تداعى لها من ليس فيها بقرقر فطائرها فى رأسها يتردد

وكانت كفاء وقعة بأثيمة ليقطع منها ساعد ومقلد

ويظعن أهل المكتين فيهربوا فرائصهم من خشية الشر ترعد

ويترك حراث يقلب أمره أيتهم فيهم عند ذاك وينجد

فمن ينس من حضار مكة عزه فعزتنا فى بطن مكة أتلد

---

(١) بحرينا : يعنى الذين بأرض الحبشة من المهاجرين المسلمين ، نسبهم إلى البحر لركوبهم إياه

(٢) أرود : أرفق . ومنه « رويدا » أى رفقا

نشأنا بهـا والناس فيهـا قليل ... فلم ننفكك نزداد خيراً ونحمـد
ونطعم حتى يترك الناس فضلهم ... إذا جعلت أيدى المضيفين ترعد
جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا ... على ملإ يهـدى لحزم ويرشد
قعود لدى حطم الحجون كأنهم ... مقاولة بل هم أعز وأمجـد
أعان عليهـا كل صقر كأنه ... إذا ما مشى فى رفرف الدرع أجرد
جرىء على كل الخطوب كأنه ... شهاب بـكفى قابس يتوقد
من الأكرمين من لؤى بن غالب ... إذا سيم خسفا وجهـه يتربد
طويل النجاد خارج نصف ساقه ... على وجهه نسقى الغمام ونسعد
عظيم الرماد سيـد وابن سيـد ... يحض على مقرى الضيوف ويحشد
ويبنى لأبنـاء العشيرة صالحا ... إذا نحن طفنـا بالبلاد ويمهـد
ألظَّ بهـذا الصلح كل مبرأ ... عظيم اللواء أمره ثم يحمـد
قضوا أمرهم فى ليلهم ثم أصبحوا ... على مهل وسائر الناس رقد
هو رجعوا سهل بن بيضاء راضياً ... وسر أبو بكر بهـا ومحمـد
متى شرك الأقوام فى جل أمرنا ... وكنا قديمـا قبلهـا نتودد
وكنا قديمـا لا نقر ظلامة ... وندرك ما شئنـا ولا نتشدد
فيال قصى هل لـكم فى نفوسكم ... وهل لـكم فيما يجىء به غـد
فانى وإياكم كما قال قائل ... لديك البيان لو تـكلمت أسود (١)

وأسلم هشام بن عمرو يوم الفتح، وخرج بنو هاشم من شعبهم وخالطوا الناس . قال ابن عبد البر : وذلك بعد عشرة أعوام من المبعث، ومات أبو طالب بعـد ذلك بستة أشهر وماتت خديجة بعده بثلاثة أيام

(١) أسود : جبل كان قد قتل فيه قتيل ولم يعرف قاتله ، فقال أولياء المقتول هذه المقالة ، يعنون بها أن هذا الجبل لو تـكلم لأبان عن القاتل ولعرف الجانى ، ولـكنه لايتكلم ، فذهبت مقالبهم مثلا

وفى الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال : ياعم قل « لا إله إلا الله » كلمة أحاجُّ لك بها عند الله . فقالا له : ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه رسول الله ، فأعادا ، فكان آخر ما كلمهم به هو : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول « لا إله إلا الله » . فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ، مالم أُنه عنك . فأنزل الله ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ﴾ وأنزل فى أبى طالب ﴿ إنك لاتهدى من أحببت ﴾ الآية . وفى الصحيح عن العباس أنه قال لرسول الله ﷺ : إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك ، فهل ينفعه ذلك ؟ قال « نعم وجدته فى غمرات من النار ، فأخرجته فى ضحضاح » وفى رواية « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة ، فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه » وفى رواية « ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار » انتهى . وكان موته فى رمضان بعد المبعث بعشر سنين على الصحيح . وقيل : إن رسول الله ﷺ يسمى ذلك العام « عام الحزن » ، وكانت مدة إقامة خديجة معه عليه السلام خمسا وعشرين سنة على الصحيح ، ثم بعد أيام من موت خديجة تزوج عليه السلام سودة بنت زمعة

فصل

فلما مات أبو طالب اشتد البلاء على رسول الله ﷺ من قومه وتجرءوا عليه وكاشفوه بالأذى ، وأرادوا قتله ، فمنعهم الله من ذلك . وذكر العلماء من أهل السير وغيرهم فيما لقى رسول الله ﷺ من قومه أمورا كثيرة : فمنها ما قاله ابن اسحق حدثنى يحيى بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : حضرتهم وقد اجتمعوا فى الحجر فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : مارأينا مثل ماصبرنا عليه ، سفه أحلامنا وشتم آباءنا وفرق جماعتنا . فبينما هم إذ أقبل رسول الله ﷺ فاستلم الركن ، فلما مر بهم غمزوه ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ . ثم مضى . فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ ثم مر بهم الثالثة فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ، لقد جئتكم بالذبح . وإنهم قالوا له :

يا أبا القاسم ما كنت جهولا ، فانصرف راشدا . فلما كان من الغد اجتمعوا كذلك إذ طلع ، فقالوا : قوموا اليه وثبة رجل واحد ، فلقد رأيت عقبة بن أبى مُعيط أخذ بمجمع ردائه ، وقام أبو بكر وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وفى حديث أسماء فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقال : أدرك صاحبك . فخرج من عندنا وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله . فلهوا عنه وأقبلوا على أبى بكر ، فرجع الينا لا نمس شيئا من غدائره إلا رجع معنا . وفى رواية البخارى عن عروة قال : سألت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال : بينا النبى ﷺ يصلى فى حجر الكعبة إذا أقبل عقبة بن أبى معيط فخنقه خنقا شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى ﷺ فقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله . الآية . ومنها ما ذكره البخارى أيضا فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يصلى عند الكعبة وجمع من قريش فى مجالسهم ، إذ قال قائل منهم : ألا تنظرون إلى هذا المرائى ، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجىء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه . فانبعث أشقاهم ، فلما سجد عليه الصلاة والسلام وضعه بين كتفيه ؛ وثبت النبى ﷺ ساجدا ، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك وأنا قائم أنظر لو كان لى منعه طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ . فانطلق منطلق إلى فاطمة ، وهى جويرية ، فأقبلت تسعى . وثبت النبى ﷺ ساجدا حتى ألقته عنه ، وأقبلت عليهم تسبهم ، فلما قضى رسول الله ﷺ رفع صوته ثم دعا عليه ، وكان إذا دعا دعا ثلاثا ، وإذا سأل سأل ثلاثا ، ثم قال : اللهم عليك بقريش ، ثم سمى : اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط وعمارة بن الوليد . قال عبد الله : فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر قد غيرتهم الشمس فى يوم حارّ ، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر ، ثم قال رسول الله ﷺ واتبع أصحاب القليب لعنة . انتهى . ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبى معيط وطىء على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان . ومنها حثو سفهائهم التراب

على وجهه ورأسه . ذكره ابن إسحق . ومنها أنهم يطرحون الفرث والدم على بابه . ومنها بصق أمية فى وجهه

قال ابن اسحق : وكان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ فى بيته أبو لهب والحكم ابن أبى العاص بن أمية وعقبة بن أبى معيط وعدى بن حمراء الثقفى وابن الأصداء الهذلى ، وكانوا جيرانه ، لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبى العاص ، وكان أحدهم فيما ذكر لى يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى ، وكان أحدهم يطرحها فى برمته إذا نصبت له ، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرا يستتر به منهم إذا صلى ، فكان رسول الله إذا طرحوا عليه ذلك الأذى كما حدثنى عمرو بن عبد الله بن عروة عن عروة بن الزبير يخرج به رسول الله ﷺ على العود فيقف به على بابه ثم يقول : يا بنى عبد مناف ، أى جوار هذا ؟ ثم يلقيه فى الطريق . وحدثنى هشام بن عروة عن أبيه عروة قال . لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ، ورسول الله ﷺ يقول لها : لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك قال ويقول بين ذلك : ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب

ومنها تعذيب أصحابه وهو ينظر ، قال ابن اسحاق : حدثنى عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم بن محمد قال : لقى أبا بكر سفيه من سفهاء قريش وهو عامد إلى الكعبة فحثا على رأسه ترابا ، قال فمر بأبى الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل قال فقال أبو بكر : ألا ترى ما يفعل هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك ، وهو يقول : أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك ؟ وفى الصحيح عن خباب قال : أتيت النبى ﷺ وهو متوسد بردة وهو فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : يا رسول الله ألا تدعو الله ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال : لقد كان فيمن كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه . قال ابن اسحق : حدثنى بعض

أهل العلم عن سعيد بن جبير عن عكرمة مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس قال : اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث بن كلدة أخو بنى عبد الدار وأبو البخترى بن هشام والأسود بن المطلب بن أسد وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية والعاص بن وائل ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان وأمية بن خلف ومن اجتمع إليهم ، قال : اجتمعوا عند غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأْتِهم . فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلموه بدء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعزّ عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم ، فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد سببت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى من قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك أو كما قالوا له . وإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك ، وإن كان الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا ـ فربما كان ذلك ، بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك . قال لهم رسول الله ﷺ : ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتابا وأمرنى أن أكون بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . أو كما قال . قالوا : يا محمد ، فان كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فانك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا ، فاسئل ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها

أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا قصى بن كلاب فانه كان شيخ صدق فنسأله عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول . فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بهذا بعثت اليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به ؛ وقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم . فان تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على فأصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم . قالوا : فإذا لم تفعل هذا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وأما لا فاليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم فى الأسواق تلتمس المعاش كما نلتمس حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه . ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا — أو كما قال — فان تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . قالوا : فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل . قال : فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعل . قالوا : يا محمد ، فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم اليك فيعلمك بما تراجعنا به ويخبرك بما هو صانع فى ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به ؛ إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا اليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا . وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا . فلما قالوا ذلك لرسول الله قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم

ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ماتخوفهم من العذاب فلم تفعل أو كما قال له — فوالله لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك . ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف الى أهله حزينا أسفا لما فاته مما كان طمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله — أو كما قال — فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى . فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم . قالوا : والله لا نسلمك لشىء أبدا فامض لما تريد . فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو ، وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبلته إلى الشام ، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام . فقام رسول الله ﷺ يصلى وقد غدت قريش فى أنديتهم فجلسوا فيها ينظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده ، وقامت اليه رجال قريش فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت اليه لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت عرض لى دونه فحل من الإبل والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته و أنيابه لفحل قط ، فهم بى أن يأكلنى . قال ابن اسحق : فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال : ذاك جبرائيل ، لو دنا لأخذه . فلما قال ذلك لهم أبو جهل قام النضر بن الحارث بن كلدة فقال : يامعشر قريش ، والله لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، قد رأينا السحرة نفثهم وعقدهم . وقلتم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن . قد رأينا الكهنة

تخالجهم وسمعنا سجعهم . وقلتم شاعر لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم مجنون ، لا والله ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه . يامعشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ، فانه والله قد نزل بكم أمر عظيم

وكان النضر بن شياطين قريش وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فذكّر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب مَن قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه فى مجلسه اذا قام ، وقال : أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلم فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى ؟ قال ابن هشام . وهو الذى قال فيما بلغنى : سأنزل مثل ما أنزل الله . قال ابن اسحق فكان ابن عباس يقول فيما بلغنى : نزل فيه ثلاث آيات من القرآن : قوله تعالى ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ وكل ما ذكر فيه أساطير الأولين

فلما قال لهم النضر بن الحارث ذلك بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبى معيط الى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما : سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من الأنبياء . فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله وقالا لهم إنكم أهل التوراة قد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فان أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل . فروا فيه رأيكم . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ، فانه قد كان لهم حديث عجب . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه . وسلوه عن الروح ماهى ؟ فاذا أخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبى ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل فاصنعوا فى أمره مابدا لكم . فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط بن عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف حتى قدما مكة على قريش فقالا : يامعشر قريش قد جئناكم بفصل

ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فان أخبركم بها فهو نبي ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم : فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يامحمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كان لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هي ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ : أخبركم بما سألتم عنه غدا . ولم يستثن . فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لا يحدث اليه في ذلك وحي ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه . حتى أحزن رسول الله ﷺ مابث الوحي . وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاء جبريل من الله بسورة الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف ، والروح . قال ابن اسحق : إن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه : لقد احتبست عني ياجبريل حتى سُؤتُ ظنا . فقال له جبريل ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك . له ما بين أيدينا وما خلفنا ﴾ الآية . وقال فيما سألوه عنه من الروح ﴿ ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ﴾ الآية

قال ابن اسحق : وحُدثت عن ابن عباس أنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قالت أحبار يهود : أرأيت قولك ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ إيانا تريد أم قومك ؟ قال : كلاًّ . قالوا : فانك تتلوا في ماجاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء ، فقال رسول الله ﷺ : إنها في علم الله قليل ، وعندكم في ذلك مايكفيكم لو أقمتموه . فأنزل الله عليه فيما سألوه عنه من ذلك ﴿ ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ أي أن التوراة في هذا من علم الله قليل . قال : وأنزل الله عليه فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وبعث من مضى من آبائهم من الموتى : ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا ﴾ أي إني لا أصنع من ذلك إلا ما شاء الله . وأنزل الله عليه في قولهم خذ لنفسك ما سألوه أن يجعل له جنانا وقصورا وكنوزا ويبعث معه ملكا يصدقه بما يقول ويرد

عليه ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ الى قوله ﴿ تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً ﴾ أى من أن تمشى فى الأسواق وتلتمس المعاش ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ الآية . وأنزل الله عليه فى ذلك من قولهم ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾ أى جعلنا بعضكم لبعض بلاء لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفوا لفعلت . وأنزل عليه فيما قال عبد الله بن أبى أمية ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ إلى قوله ﴿ هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾ وأنزل عليه فيما عرضوا من أموالهم ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله ﴾ ، فلما جاءهم رسول الله بما عرفوا من الحق وعرفوا صدقه فيما حدث وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه عنه حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله ، وتركوا أمره عيانا ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ أى اجعلوه لغوا وباطلا واتخذوه هزؤا لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوما غلبكم . فقال أبو جهل يوما وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق : يامعشر قريش يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عددا وكثرة أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ فأنزل الله فى ذلك من قوله ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ إلى آخر القصة . فلما قال ذلك بعضهم لبعض جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلى يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له : فكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلوا من القرآن وهو يصلى استرق السمع دونهم فرقا منهم ؛ فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته فظن الذى يستمع أنهم لا يسمعون شيئا من قراءته وسمع هو شيئا دونهم أصاخ له يستمع منه . قال ابن اسحق : حدثنى داود بن الحصين مولى عمرو بن عثمان أن عكرمة مولى ابن عباس حدثه أن عبد الله بن عباس

حدثهم أنما نزلت هذه الآية ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ من أجل أولئك ، يقول . لا تجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك ، ولا تخافت بها فلا يسمعها من يحب أن يسمعها ممن يسترق السمع ذلك دونهم ، فلعله يرعوى إلى بعض ما يسمع فينتفع به . انتهى .
قلت : وقد روى البخارى فى صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ الآية ، قال : نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة ، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله عز وجل ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أى بقراءتك فيسمع المشركون فيسبُّوا القرآن ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ زاد مسلم فى روايته : وابتغ بين ذلك سبيلا ، يقول : بين الجهر والمخافتة

قال ابن اسحق : وحدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حُدث أن أبا سفيان ابن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى قلبه شيئا . ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود ، ثم تعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال : يا أبا ثعلبة لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها ، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته فقال : ياأبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من

محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . فقام عنه الأخنس وتركه

ذكر خبر الوليد بن المغيرة

قال ابن اسحق : ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش ، وكان ذا سنّ فيهم وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يامعشر قريش إنه قد حضر الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذِّب بعضكم بعضا ويردُّ قولكم بعضه بعضا . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به . قال : بل أنتم قولوا وأسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر . لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : نقول ساحر . قال : وما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثه ولا عقده . قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله حلاوة ، وإن أصله لعَذْق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وابنه وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذَّروه إياه وذكروا لهم أمره . فأنزل الله فى الوليد بن المغيرة وفى ذلك من قوله تعالى ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا ﴾ إلى قوله ﴿سأصليه سقر ﴾ وأنزل الله فى النفر الذين كانوا يصنفون القول فى رسول الله فيما جاء به من الله ﴿ الذين جعلوا القرآن عِضين ﴾ أى أصنافا ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ الآية

وعن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : اقرأ عليّ . فقرأ عليه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ الآية ، قال : أعد . فأعاد عليه . قال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما يقول هذا بشر . وفي رواية : فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : ياعم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ، قال : ولم ؟ قال : أتيت محمداً لتعوض مما قبله . قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له . قال : ماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم أعلم بالأشعار مني

ذكر خبر عتبة بن ربيعة لرسول الله ﷺ

روى عبد بن حميد وأبو يعلى عن جابر بن عبد الله قال : اجتمعت قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي قد فرّق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يردّ عليه . فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة . فقالوا : أنت يا أبا الوليد . فأتاه عتبة فقال : يامحمد ، أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ . فقال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ . قال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبتَ ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك . إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك . فرّقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب . لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً . والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى . أيها الرجل ، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوّجك عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : فرغتَ ؟ قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ حتى بلغ ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود [1] ﴾ . فقال عتبة : حَسْبُك حَسْبُك ، ما عندك

---

(١) سورة فصلت

غير هذا ؟ قال : لا . فرجع الى قريش فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئاً إنكم تكلمونه به إلا كلمته . قالوا : فهل أجابك . قال : نعم ، لا والذى نصبها بنية [1] مافهمت شيئاً مما قال ، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . وقد ساقه البغوى فى تفسيره عن محمد بن فضيل عن الأجلح عن الذيال بن حرملة عن جابر ، فذكر الحديث إلى قوله ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم ، فقال أبو جهل : يامعشر قريش ، والله لا نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه ، وما ذاك إلا من حاجة أصابته ، فانطلقوا بنا اليه . فانطلقوا إليه فقال أبو جهل : يا عتبة ، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد ، وأعجبك طعامه ، فإن كان لك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما تغنيك عن طعام محمد . فغضب غضبة وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً وقال : والله إنى من أكثر قريش مالا ، ولكنى أتيته وقصصت عليه القصة فأجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسكتُ بفيه وناشدته الرحم أن يكفَّ ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب. ورواه محمد بن إسحاق فى السيرة عن محمد بن كعب القرظى ، وفى روايته : ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك . فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس اليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال : قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة . يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا

---

(١) البنية هى الكعبة بيت الله الحرام

سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم

ذكر خبر المستهزئين

منهم عمه أبو لهب وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية حمالة الحطب ، سماها الله حمالة الحطب لأنها كانت فيما بلغني تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر ، فأنزل الله فيها ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ إلى آخر السورة . وقيل إنها كانت تمشي بالنميمة . وتنقل الحديث ، وتلقي العداوة بين الناس ، وتوقد ناراً كما توقد النار بالحطب

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن أم جميل حين سمعت ما نزل في زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر ، وفي يدها فهر من حجارة . فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر ، قالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . أما والله إني لشاعرة

مذمَّما عصينا   وأمرَه أبينا   ودينه قلينا

ثم انصرفتْ. فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ قال : ما رأتني ، لقد أخذ الله بصرها عني

قال ابن اسحاق : وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ مذمما ، ثم يسبونه . وكان رسول الله ﷺ يقول : ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش ؟ يسبون ويهجون مذمما ، وأنا محمد

وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمح إذا رأى النبي ﷺ همزه ولمزه ، فأنزل الله فيه ﴿ ويل لكل هُمَزَة لمزة ﴾ إلى آخر السورة كلها . قال ابن هشام : الهمزة الذي يشتم الرجل علانية ويكسر عينه عليه ويغمز به ، قال حسان بن ثابت :

همزتك فاختضعت لذل نفس   بقافية تأجج كالشواظ

وجمعه همزات ، واللمزة الذى يعيب الناس سراً ويؤذيهم

قال ابن اسحاق : وكان خبّاب بن الأرتّ صاحب رسول الله ﷺ قيناً بمكة يعمل السيوف ، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً عملها له حتى كان له عليه مال ، فجاءه يتقاضاه ، فقال له : ياخباب أليس يزعم صاحبكم محمد هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم ؟ قال خبّاب : بلى . قال أنظرنى إلى يوم القيامة ياخباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك ، والله لا تكون أنت وصاحبك ياخباب آثرَ عنـــد الله منى ولا أعظم حظاً فى ذلك . فأنزل الله تعالى ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالا وولداً ﴾ إلى قوله ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ قلت : وفى الصحيح عن خبّاب رضى الله عنـه قال : كنت قيناً بمكة ، فعملت للعاص بن وائل السهمى ، فجئت أتقاضاه ، فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ . فقال : لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثم يحييك . قال : إذا أماتنى الله ثم بعثنى بعثنى ولى مال وولد . فأنزل الله ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال وقال لأوتين مالا وولداً ﴾ إلى قوله ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ فقيل : نعم . فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ رقبته ولأعفرنّ وجهـــه فى التراب . قال : فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى ، زعم ليطأ على رقبته . فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، فقالوا : مالك يا أبا الحكم . قال : إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولا وأجنحة . فقال رسول الله « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » وأنزل الله لا ندرى فى حديث أبى هريرة أو شىء بلغه ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ الآيات

قال ابن اسحاق : لقى أبو جهل ابن هشام رسول الله ﷺ فيما بلغنى فقال له : والله يا محمد لتتركن سبّ آلهتنا أو لنسُبّن إلهك الذى تعبد ، فأنزل الله تعالى ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴾ الآية ، فذكر لى أن رسول الله ﷺ كف عن سبّ آلهتهم ، وجعل يدعوهم إلى الله ، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلساً

فدعا فيه إلى الله وتلا فيه القرآن وحذر قريشاً ما أصاب الأمم الخالية ، خلفه النضر بن الحارث فى مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم وإسفنديار وملوك فارس ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً منى ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها ، فأنزل الله فيه ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر ﴾ الآية . ونزل فيه ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ ونزل فيه ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ﴾ إلى قوله ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾

قال ابن إسحاق : وجلس رسول الله ﷺ يوماً فيما بلغنى مع الوليد بن المغيرة فى المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ، فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله حتى أفحمه ، ثم تلا عليه ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ الآيات ، ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمى حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصبُ جهنم ، فقال عبد الله بن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته ، فاسألوا محمداً أكل ما يعبدون من دون الله فى جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة واليهود يعبدون عزيراً والنصارى يعبدون عيسى بن مريم . فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قوله ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال رسول الله : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته ، فأنزل الله عليه ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مُبعَدون ﴾ الآيات . ونزل فى ما ذكر من أمر عيسى بن مريم عليه السلام أنه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ﴾ أى يصدون عن أمرك بذلك من قوله . ثم ذكر عيسى فقال ﴿ إنْ هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ إلى قوله ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترنّ بها ﴾ أى ما وضعت على يديه من الآيات ومن إحياء الموتى وإبراء الأسقام ، وكفى به

دليلا على علم الساعة فلا تمترنّ بها واتبعون

قال ابن إسحاق : وقال الوليد بن المغيرة : أينزَّل على محمد وأُترَك وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ؟ فنحن عظيما مكة والطائف القريتين ، فأنزل الله فيما بلغنى ﴿ وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ الآية . قال ابن اسحق : وأبىّ بن خلف بن وهب بن حذافة ابن جُمَح وعقبة بن أبى مُعيط وكانا متصافيين حسناً ما بينهما ، فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه . فبلغ ذلك أبيا ، فأتى عقبة فقال له : ألم يبلغنى عنك أنك جالست محمدا وسمعت منه ؟ ثم قال : وجهى من وجهك حرام أن أكلمك ـ واستغلظ من اليمين ـ إن أنت جالست محمدا وسمعت منه . أو لم تأته فتتفل فى وجهه . ففعل ذلك عدو الله عقبة ، فأنزل الله فيهما ﴿ ويوم يعضُّ الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾ إلى قــــوله ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ . ومشى أبىّ بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد أرفت فقال : يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرى ؟ ثم فته فى يده ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ﷺ : فقال رسول الله ﷺ : أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ثم يدخلك النار ، فأنزل الله فيه ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ الآيات

قال ابن اسحق واعترض رسولَ الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة فيما بلغنى الأسودُ ابن المطلب والوليد بن المغيرة وأبىّ بن خلف والعاص بن وائل السهمى ، وكانوا ذوى أسنانهم فى قومهم ، فقالوا : يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فان كان الذى تعبد خيراً مما نعبد قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه . فأنزل الله فيهم ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ السورة كلها

قال أبو جهل بن هشام : يامعشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم

بها محمد ؟ قالوا : لا . قال : عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمكنّا منها لنتزقمنها تزقما . فأنزل الله فيه ﴿ إن شجرة الزقُّوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ﴾ أى ليس كما يقول . وأنزل فيه ﴿ والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم ﴾ الآية

ذكر نزول سورة عبس

قال ابن اسحق : ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله ﷺ ورسول الله يكلمه وقد طمع فى إسلامه . فبينما هو فى ذلك إذ مر به ابن أم مكتوم الأعمى فكلم رسولَ الله ﷺ وجعل يستقرئه القرآن فشق ذلك منه على رسول الله ﷺ حتى أضجره ، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه ، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسا وتركه ، فأنزل الله عز وجل ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ إلى قوله ﴿ مطهرة ﴾ أى إنما بعثتك بشيراً ونذيراً ولم أختص بك أحداً دون أحد ، فلا تمنعه ممن ابتغاه ولا تتصدَّ به لمن لا يريده . وابن أم مكتوم أحد بنى عامر بن لؤى ، واسمه عبد الله . انتهى . وكان رسول الله ﷺ يكرمه ، وإذا رآه قال : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى . ويقول : هل لك من حاجة ؟ ويستخلفه على المدينة إذا غزا . قال أنس بن مالك فرأيته يوم القادسية عليه درع ومعه راية سوداء

قال ابن اسحق : وكان رسول الله ﷺ إذا جلس فى المسجد ؟ فجلس إليه المستضعفون من أصحابه خباب وعمار وأبو فكيهة ويسار مولى صفوان بن أمية وصهيب وأشباههم من المسلمين ، هزئت بهم قريش وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء به وما خصهم الله به . انتهى . قلت : روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن مسعود قال : مرَّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال ، فقالوا . يا محمد أرضيتَ بهؤلاء عن قومك ؟ فنزل القرآن ﴿ وأنذر الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه من ولىّ ولا شفيع ﴾ إلى قوله ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ رواه ابن جرير ، وفيه : فقالوا : يا محمد ،

أرضيت هؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ، أنحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم ، فذاك أحرى إن طردتهم أن نتبعك . فنزل ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى﴾ الآيتين . قال ابن اسحق : وكان رسول الله ﷺ فيما بلغنى كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصرانى خير عبد لبنى الحضرمى ، وكانوا يقولون : والله ما يعلم محمدا كثيراً مما يأتى به إلا خير النصرانى غلام بنى الحضرمى ، فأنزل الله فى ذلك ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذين يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ يلحدون : يميلون ، الإلحاد : الميل

ذكر نزول سورة الكوثر

قال ابن اسحق : وكان العاص بن وائل السهمى فيما بلغنى إذا ذكر رسول الله ﷺ قال : دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو قد مات لقد انقطع ذكره واسترحتم منه . فأنزل الله فى ذلك من قوله ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ ما هو خير من الدنيا وما فيها ، والكوثر العظيم . وحدثنى جعفر بن عمرو عن عبد الله بن مسلم ، أخى محمد بن مسلم بن شهاب عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ ، وقيل له : يارسول الله ما الكوثر الذى أعطاك الله ؟ قال : نهر كما بين صنعاء إلى أيْلة ، آنيته كعدد نجوم السماء ، ترده طير لها أعناق كأعناق الإبل . قال يقول عمر بن الخطاب : إنها يارسول الله لناعمة ؟ قال : أكلها أنعم منها . وقد سمعت فى هذا الحديث أو غيره « من شرب منه لم يظمأ أبداً » قلت : روى البخارى عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الكوثر الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير إن ناسا يزعمون أنه نهر فى الجنة ، قال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله . انتهى . والعرب تسمى كل شىء كثير فى العدد أو كثير فى القدر كوثرا . ثم قال تعالى ﴿ إن شانئك ﴾ قال ابن عباس : عدوك ، ﴿ هو الأبتر ﴾ أى الأقل الأرذل المنقطع من كل خير

قال ابن اسحق : حدثنى أبى اسحق بن يسار قال : كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم

ابن المطلب بن مناف أشد قريش ، فخلا برسول الله ﷺ فى بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله ﷺ : يا ركانة ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ قال : إنى لو أعلم أن الذى تقول حق لاتبعتك . قال فقال رسول الله ﷺ : أفرأيت إن صرعتك تعلم أن ما أقول حق ؟ قال ، فهلم حتى أصارعك . قال فقام اليه ركانة يصارعه ، فلما بطش به رسول الله أضجعه لا يملك من نفسه . ثم قال : عد يا محمد . فأعاد ، فصرعه . قال قال : والله يا محمد إن هذا للعجب ، أتصرعنى ؟ قال رسول الله ﷺ : وأعجب من ذلك إن شئتَ أُريكه إن اتقيتَ الله واتبعت أمرى . قال : وما هو ! قال : أدعو لك هـــذه الشجرة التى ترى فتأتينى قال : ادعها . فدعاها ، فأقبلت حتى وقفت بين يدى رسول الله ﷺ . قال فقال لها : ارجعى إلى مكانك . فرجعت إلى مكانها . قال فذهب ركانة إلى قومه فقال : يا بنى عبد مناف ، وساحروا بصاحبكم أهل الأرض ، فوالله ما رأيت أسحر منه قط . ثم أخبرهم بالذى رأى والذى صنع

قال ابن اسحاق : ودعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام ، وكلمهم فأبلغ اليهم ، فقال له زمعة بن الأسود والنضر بن الحارث والأسود بن عبد يغوث وأبىّ بن خلف والعاص ابن وائل : لو جعل معك يامحمد ملك يحدِّث عنك الناس ويرى معك . فأنزل الله فى ذلك من قولهم ﴿ وقالوا لولا أُنزل اليه ملك . ولو أنزلنا ملـكا لقضى الأمر ﴾ إلى قوله ﴿ ما يلبسون ﴾ قال : ومر رسول الله ﷺ فيما بلغنا بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبى جهل بن هشام ، فغمزوه واستهزأوا به ، فغاظه ذلك ، فأنزل الله عليه فى ذلك من أمرهم ﴿ ولقد استُهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾

فصل

قال الشيخ أبو العباس بن تيمية رحمه الله فى كتاب الرد على النصارى ، فى تقرير نبوة محمد ﷺ بالأدلة العقلية والنقلية [1] : ومما ينبغى أن يعلم أن الله إذا أرسل نبياً وأتى

---

(١) الجواب الصحيح ج ٤ ص ٢٧٥ طبعة سنة ١٣٢٣

بآية دالة على صدقه قامت بها الحجة وظهرت بها المحجة ، فمن طالبه بثانية [لم تجب إجابته إلى ذلك ، بل وقد لا ينبغى ذلك ، لأنه إذا جاء بآية ثانية طولب (١)] بثالثة ، وإذا جاء بثالثة طولب برابعة ، فان طلب المتعنتين لا أمد له . ومعلوم أنه من قامت عليه الحجة فى مسألة علم أو حق من حقوق العباد التى يتخاصمون فيها أو قال أنا لا أقبل حجة حتى تقوم عليه حجة ثانية وثالثة كان ظالماً متعدياً ولا يمكِّن الحكام الخصومَ من ذلك . فحق الله الذى أوجب على عباده من توحيده والإيمان به وبرسله أولى إذا قامت بينة أوجبت على الخلق الإيمان برسله أن لا يجب إجابة إلى ثانية وثالثة . ثم قد يكون فى تتابع الآيات حكمة فيتابع الله سبحانه بين الآيات ، فان الأدلة كلما كثرت وتواردت على مدلول واحد كان أوكد وأظهر وأيسر لمعرفة الحق ، فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لا يعرف دلالة الآخر ، وقد يبلغ هذا مالا يبلغ هذا ، كما فعل بآيات موسى وآيات محمـــــد صلى الله عليهما ، وكما صد المكذبين عن الإيمان بمحمد حتى يمانعوه ويسعوا فى معارضته والقدح فى آياته فيظهر بذلك عجزهم عن معارضة القرآن وغيره من آياته فيكون ذلك من تمام ظهور آياته وبراهينه ، بخلاف مالو اتبعوا ابتداء بدون ذلك فانه قد كان يظن أنهم قادرون على معارضته ، وكذلك أيضاً يكون فى ذلك من يقينه وصبره وجهاده ويقين من آمن به وصبرهم وجهادهم ما ينالون به عظيم الدرجات فى الدنيا والآخرة . وقد تقتضى الحكمة أن لا يرسل بالآيات التى توجب عذاب الاستئصال كما ذكره الله فى كتابه من أن الكفار كانوا يقترحون على الأنبياء آيات غير الآيات التى جاءوا بها . فتارة يجيبهم الله إلى ذلك لما فيه من الحكمة والمصلحة ، وتارة لا يجيبهم لما فى ذلك من المضرة والمفسدة . وقد كان الرسول محمد ﷺ ربما طلب تلك الآيات رغبة منه فى إيمانهم فيجاب بأن تلك الآيات لا تستلزم الهدى ، بل تستلزم إقامة الحجة وتوجب عذاب الاستئصال [لمن كذب بها] والله تعالى قد يظهر الآيات الكثيرة مع طبعه على قلب الكافر كفرعون وأبى لهب وغيرهما لما فى ذلك من الحكمة العظيمة كما دل على ذلك القرآن والتوراة وغيرها . وقد تبين أنه لا يظهرها لانتفاء

---

(١) سقط من الأصل ، وأكمل من الجواب الصحيح

الحكمة فيها أو لوجود المفسدة قال تعالى ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ الآيتين بعدها وقال ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ الآية ، بين سبحانه أنه ما منعه أن يرسل بالآيات إلا تكذيب الأولين بها الذى استحقوا به الهلاك ، فإذا كذب هؤلاء استحقوا ما استحقه أولئك من عذاب الاستئصال . وهذا المعنى مذكور فى كتب التفسير والحديث وغيرها من كتب المسلمين ، وهو معروف بالأسانيد الثابتة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فقد ذكر أهل التفسير ما رواه الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحّى عنهم الجبال حتى يزرعوا ، قال فقيل له : إن شئت نستأنى بهم وإن شئت أن نؤتيهم الذى سألوا فان كفروا هلكوا كما هلكت الأمم من قبلهم . قال : بل أستأنى بهم ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ وروى ابن أبى حاتم وغيره عن مالك بن دينار قال : سمعت الحسن البصرى فى قوله ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ﴾ قال : رحمة الله لكم أيتها الأمة أنا لو أرسلنا الآيات فكذبتم بها أصابكم ما أصاب من قبلكم ، وقد كانت الآيات يأتى بها محمد ﷺ آية بعد آية فلا يؤمنون بها قال تعالى ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾ إلى قوله ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ إلى قوله ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أخبر سبحانه بأن الآيات تأتيهم ، وما تأتيهم من آية إلا أعرضوا عنها ﴾ وأنهم بتكذيبهم الحق سوف يرون صدق ماجاء به الرسول كما أهلك من قبلهم بذنوبهم التى هى تكذيب الرسل ، فان الله يقول ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ﴾ الآية ، وأخبر بشدة كفرهم بأنه لو أنزل عليهم كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا لسحر مبين . . الآيات . بين سبحانه أنه لو جعل الرسول ملكا لجعله على صورة الرجل ، إذ كانوا لا يستطيعون أن يروا الملائكة

فى صورهم ، وحينئذ فكان يقع اللبس لظنهم الرسول بشرا لا ملكا . وقال تعالى ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ إلى قوله ﴿لنزّلنا عليهم من السماء ملكا رسولا﴾ . وهذه الآيات التى اقترحوها لو أجيبوا بها ثم لم يؤمنوا أتاهم عذاب الاستئصال كما تقدم . وأيضاً هى مما لا يصلح الإتيان به ، فان قولهم ﴿حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ يقتضى تفجير الينبوع بمكة فيصير وادياً ذا زرع ، والله من حكمته جعل بيته بواد غير ذى زرع لئلا يكون عنده ما ترغب النفوس فيه من الدنيا فيكون حجهم للدنيا لا لله ، وإذا كان له جنة من نخيل وأعناب يفجر الأنهار خلالها تفجيراً كان فى هذا من التوسع من الدنيا ما يقتضى نقص درجته وانخفاض منزلته ، وكذلك إذا كان له بيت من زخرف والزخرف الذهب . وأما إسقاط السماء كسفاً فهذا لا يكون إلا يوم القيامة ، وهو لم يخبرهم أن هذا لا يكون إلا يوم القيامة ، فقولهم كما زعمت كذب عليه ، إلا أن يريدوا التمثيل فيكون القياس فاسداً . وأما الإتيان بالله والملائكة قبيلا فهذا لما سأل قوم موسى ما هو دونه أخذتهم الصاعقة ، قال تعالى ﴿وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة﴾ الآيتين . وأما إنزال الكتاب فقال تعالى ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ الآية . بين سبحانه أن أهل الكتاب سألوا إنزال كتاب من السماء وأن المشركين سألوا ذلك ، وبين سبحانه أن الطائفتين لا يؤمنون إذا جاءهم ذلك ، وإنما سألوه تعنتا . فقال عن المشركين ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إنْ هذا إلا سحر مبين﴾ وذكر عن أهل الكتاب أنهم سألوا موسى أكبر من ذلك وهو رؤية الله جهرة ، فهم مع هذا نقضوا الميثاق وكفروا بآيات الله وقتلوا النبيين بغير حق الى أمثال ذلك ، وأنه بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم ، فكان فى هذا من الاعتبار لأمة محمد ﷺ أن هذه الأمة المكذبة الذين لا يهتدون إذا جاءتهم الآيات المقترحة التى اقترحوها لم يكن فى مجيئها منفعة لهم ، بل فيها ما يوجب عقوبة الاستئصال اذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها وتغليظ

لأمر عليهم ، فكان أن لا ينزل مثل هذه الآيات الموجبة عذاب الاستئصال أعظم رحمة حكمة ، وقد عرض الله على محمد ﷺ أن يهلك قومه لما كذبوه فقال : بل أستأنى بهم عل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً ، كما فى الصحيح عن عائشة نها قالت للنبى ﷺ هل أتى عليك يوم أشد عليك من يوم أُحد ؟ فقال : لقد لقيت من ومك ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن بد كلاب فلم يجبنى إلى ما أردت . فانطلقت على وجهى وأنا مهموم ، فلم أستفق إلا وأنا قرن الثعالب ، فرفعت رأسى فاذا بسحابة قد أظلتنى فاذا فيها جبريل فنادانى فقال : إن لله سمع قول قومك وما ردوا عليك وقد بعث اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، نادانى ملك الجبال فسلم علىّ وقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعثنى اليك لتأمرنى بما شئت ، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ؛ فقال : أرجو أن يخرج لله من أصلابهم من يعبده لايشرك به شيئاً » أخرجاه . ولما طلب من المسيح المائدة كانت ن الآيات الموجبة لمن كفر بها عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين ، قال تعالى ﴿ إذ قال لحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيعُ ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ الى قوله ﴿ فانى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ . وكان قبل نزول التوراة يهلك الله لمكذبين للرسل بعذاب الاستئصال عذاباً عاجلا يهلك الله به جميع المكذبين كما أهلك وم نوح ، وكما أهلك عاداً وثموداً وأهل مدين وقوم لوط ، وكما أهلك قوم فرعون ، أظهر آيات كثيرة لما أرسل موسى أبقى ذكرها وخبرها فى الأرض ، إذ كان بعد نزول لتوراة لم يهلك الله أمة بعذاب الاستئصال . بل قال تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ن بعدما أهلكنا القرون الأولى ﴾ . بل كان بنو إسرائيل لما يفعلون ما يفعلون من الكفر المعاصى يعذب بعضهم ويبقى بعضهم إذ كانوا لم يتفقوا على الكفر ، ولهذا لم يزل فى لأرض من بنى إسرائيل أمة باقية ، قال تعالى لما ذكر بنى إسرائيل ﴿ وقطعناهم فى لأرض أمماً منهم الصالحون ﴾ الآية . وقال ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله ﴾ الآيات

وكان من حكمته ورحمته سبحانه لما أرسل محمدا ﷺ أن لا يهلك قومه بعذاب الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم ، بل عذب بعضهم بدون ذلك من أنواع العذاب كما عذب طائفة ممن كذبه بأنواع من العذاب كالمستهزئين الذين قال الله فيهم ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ فعذب كل واحد بعذاب معروف ، كالذى دعا عليه النبي ﷺ أن يسلط الله عليه كلباً من كلابه فكان يحترس بقومه فجاء الأسد فأخذه من بينهم . وهو من المشهور عند أهل السير وغيرهم ، وهو عتيبة بن أبى لهب . وكان أبو لهب لما عادى النبي ﷺ أمر ابنيه أن يطلقا ابنتى النبي ﷺ رقية وأم كلثوم قبل الدخول ، وقال عتيبة لرسول الله ﷺ : كفرتُ بدينك وفارقت ابنتك ، لا تحبنى ولا أحبك . ثم تسلط عليه بالأذى وشق قميصه ، فقال رسول الله ﷺ « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك » فخرج فى نفر من قريش حتى نزلوا فى مكان من الشام يقال له الزرقاء ليلا ، فطاف بهم الأسد تلك الليلة فجعل عتيبة يقول : ياويل أخى ، هو والله آكلى كما دعا محمد علىّ ، قتلنى وهو بمكة وأنا بالشام . فعدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه . وفى رواية هشام بن عروة عن أبيه قال : لما طاف الأسد بهم تلك الليلة انصرف عنهم وجعلوا عتيبة فى وسطهم ، فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة فقدغه . قال تعالى ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ فأخبر أنه يعذب الكفار تارة بعذاب من عنده ، وتارة بأيدى عباده المؤمنين بالجهاد وإقامة الحدود وتارة بعذاب غير ذلك . فكان تعذيبهم بمثل هذه الأسباب مما يوجب إيمان أكثرهم ، كما جرى لقريش وغيرهم فانهم لما كذبوه لو أهلكهم كما أهلك قوم فرعون ومن قبلهم لبادوا وانقطعت المنفعة به عنهم ولم يبق لهم ذرية تؤمن ، بخلاف ما إذا عذب بعضهم بأنواع من العذاب ولو بالهزيمة الأسر وقتل بعضهم كما عذبوا يوم بدر فان فى هذا من إذلالهم وقهرهم ما يوجب عجزهم مع بقائهم ، والنفوس إذا كانت قادرة على كمال أغراضها لا تكاد تنصرف عنها ، بخلاف ما إذا عجزت عن كمال أغراضها فان ذلك مما يدعو إلى التوبة كما يقال : من العصمة ألا تقدر . فكان ما وقع بهم تعجيزاً وزاجراً وداعياً إلى التوبة ، ولهذا

آمن عامتهم بعد ذلك ولم يقتل منهم إلا قليل وهم صناديد الكفر الذين كان أحدهم فى هذه الأمة كفرعون فى تلك الأمة كما روى عن النبى ﷺ أنه قال عن أبى جهل « هذا فرعون هذه الأمة » وقد ذكر الله لموسى فى التوراة : إنى أقسى قلب فرعون فلا يؤمن بك لتظهر آياتى وعجائبى ، بين أن فى ذلك من الحكمة انتشار آياته على صدق أنبيائه فى الأرض . إذ كان موسى قد أخبر بتكليم الله له وبكتابة التوراة له ، فأظهر الله من الآيات ما يبقى ذكره فى الأرض ، وكان فى ضمن ذلك من تقسية قلب فرعون ما أوجب إهلاكه وقومه أجمعين . وفرعون كان جاحداً للصانع منكراً لربوبيته لا يقر به ، فلذلك أتى من الآيات ما يناسب حاله . وأما بنو إسرائيل مع المسيح فكانوا مقرين بالكتاب الأول فلا يحتاجون إلى مثل ما احتاج اليه موسى ، ومحمد لم يكن محتاجاً إلى تقرير جنس النبوة إذ كانت الرسل قبله جاءت بما يثبت ذلك ، وقومه كانوا مقرين بالصانع ، وإنما كانت الحاجة داعية إلى إثبات النبوة له ، ومع هذا فأظهر الله على يديه من الآيات مثل آيات من قبله وأعظم ، ومع هذا فلم يأت بآيات الاستئصال التى يستحق مكذبها العذاب العام العاجل كما استحقه قوم فرعون وهود وصالح وشعيب وغيرهم ، فلهذا بين الله فى القرآن أن هذه الآيات إذا جاءت لا تنفعهم إذ كانوا لا يؤمنون بها ، ولكن تضرهم إذ كانوا يستحقون عذاب الاستئصال إذا كذبوا حينئذ ، ومع وجود المانع وعدم المقتضى لا يصلح الفعل على قول الجمهور القائلين بالحكمة ، ومن لم يعلل فلا يطلبها سبباً ولا حكمة بل يرد الأمر إلى محض المشيئة ، قال تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلى أن كذب بها الأولون ﴾ وهو يعلم أن قلوب هؤلاء كقلوب أولئك الأولين فيكذبون بها فيستحقون ما استحقه أولئك كقوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وغيرهم قال تعالى ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴾ وقال عن أهل الكتاب ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ الآية ، وقال تعالى ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ، أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ذكر هذا فى سورة اقتربت

التى ذكر فيها انشقاق القمر وإعراضهم عن الآيات وقولهم ﴿هذا سحر مستمر﴾ وتكذيبهم واتباعهم أهواءهم، وقال تعالى ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾ أى من أنباء الغيب وما أخبر به ما فيه مزدجر أى ما يزجرهم عن الكفر، إذ كان فى تلك الآيات بيان صدق الرسول والإنذار لمن كذبه بالعذاب كما عذب المتقدمون، ولهذا يقول عقيب القصة ﴿فكيف كان عذابى ونُذر﴾ أى كيف كان عذابى لمن كذب رسلى، وكيف كان إنذارى بذلك قبل مجيئه؟ يبين صدق قوله الذى أخبرت به الرسل، وعقوبته لمن كذب. ثم ذكر قصة المكذبين لنوح وهود وصالح ولوط، إلى قوله ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ فإن قوم فرعون كذبوا بجميع آيات موسى وجميع آيات الأنبياء، وكذبوا جميع الآيات الدالة على وجود الرب وقدرته ومشيئته، إذ كانوا جاحدين للخالق منكرين له فكذبوا آياته كلها. ثم قال ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾ أى كفاركم أيتها الأمة التى أرسل اليها محمد ﷺ خير من أولئكم الذين كذبوا نوحاً وهوداً وصالحاً ولوطاً وموسى ﴿أم لكم براءة فى الزبر، أم يقولون نحن جميع منتصر﴾ وذلك أن كونكم لا تعذبون مثل ما عذبوا إذا كذبتم إما أن يكون لكونكم خيراً منهم لا تستحقون مثل ما استحقوا، أو لكون الله أخبر أنه لا يعذبكم فيكون لكم براءة فى الزبر، فتعلمون ذلك بخبره فان ما يفعله الله تارة يعلم بخبره وتارة لمشيئته وحكمته وعدله، فإما أن تكونوا علمتم من هذا الوجه أو من هذا الوجه، هذا إن نظر إلى فعل الله الذى لا طاقة للبشر به، وإن نظر إلى قوة الرسول وأتباعه فيقولون ﴿نحن جميع منتصر﴾ فإنهم أكثر وأقوى، كقوله ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندِيّا. وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً﴾ أى أموالا ومنظراً. فقال تعالى ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ أخبر بهزيمتهم وهو بمكة فى قلة من الأتباع وضعف منهم ولا يظن آخذ بالعادة المعروفة أن أمره يظهر ويعلو قبل أن يقاتلهم، وكان كما أخبر فانهم يوم بدر وغيره هزم جمعهم وولوا الدبر، وتلك سنة الله فى الأولين والآخرين، وقال تعالى ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لوَلّوا الأدبار ثم

لا يجدون ولياً ولا نصيراً . سنة الله ﴾ الآية وحيث ظهر الكفار فإنما ذلك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم ، ثم إذا تابوا فكمل إيمانهم نصرهم ، كما قال تعالى ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا . قل هو من عند أنفسكم ﴾ فاذا كان من تمـــام الحكمة والرحمة ألا يهلكهم هلاك الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم كما قال ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ كان أن لا يأتي بموجب عذاب الاستئصال مع إتيانه سبحانه بما يقيم الحجة ويوضح المحجة كمال في الحكمة والرحمة ، إذ كان ما أتى به من الآيات حصل به كمال الخير والمنفعة والهدى ويبين الحجة على من كفر ، وما امتنع به دفع به من عذاب الاستئصال والهلاك والعذاب العام ما أوجب بقاء جمهور الأمة حتى يؤمنوا أو يتوبوا أو يهتدوا . وكان إرسال محمد ﷺ لما كان خاتم الرسل من الحكمة البالغة والمنن السابغة مالم يكن في رسالة رسول قبله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

فصل

قال ابن اسحاق : ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا أو قريباً من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فجلسوا اليه فكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوا وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم وتأتونهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركباً أحمق منكم . أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً . ويقال : إن النفر من النصارى من أهل نجران ، فالله أعلم أى ذلك كان . ويقال والله أعلم : فيهم نزلت هؤلاء الآيات ﴿ والذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به

مؤمنون﴾ الى قوله ﴿سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين﴾

قال ابن إسحاق : وقد سألت الزهرى عن هؤلاء الآيات فيمن نزلت ؟ فقال : مازلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن فى النجاشى وأصحابه ، والآيات نزلت فى سورة المائدة يقول الله ﴿ذلك بأن فيهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون﴾ إلى قوله ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾

قال ابن هشام : وحدثنى خالد بن قرة بن خالد السدوسى وغيره من مشايخ بكر بن وائل من أهل العلم أن أعشى بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل ، واسم الأعشى ميمون بن قيس ، خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام . فقال يمدح رسول الله ﷺ :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا … وبتّ كما بات السليم مسهّدا
وما ذاك من عشق النساء وإنما … تناسيت قبل اليوم صحبة مهددا
ولكن أرى الدهر الذى هو خائن … إذا أصلحت كفّاى عاد فأفسدا
كهولا وشبانا فقدت وثروة … فلله هذا الدهر كيف ترددا
وما زلت أبغى المال مذ أنا يافع … وليدا وكهلا حين شبت وأمردا
وأبتذل العيس المراقيل تعتلى … مسافة ما بين النُّجير فصرخدا
ألا أيها ذا السائلى أين يممت … فإن لها فى أهل يثرب موعدا
فإن تسألى عنى فيا رب سائل … حفىٍّ عن الأعشى به حيث أصعدا
أجدّت برجليها النجاء وراجعت … يداها خنافا لينا غير أحردا
وفيها إذا ما هجرت عجرفية … إذا خلت حرباء الظهيرة أصيدا
وأما إذا ما أدلجت فترى لها … رقيبين جديا ما يغيب وفرقدا
وآليت لا آوى لها من كلالة … ولا من حفى حتى تلاقى محمدا
متى ما تناخى عند باب ابن هاشم … تراحى وتلقى من فواضله ندى

نبي يرى ما لا يرون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غدا
أجدك لم تسمع وصاة محمد نبيّ الإله حيث أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزوّدا
ندمت على أن لا تكون كمثله فترصد الأمر الذي كان أرصدا
فإياك والميتات لا تقربنها ولا تأخذن سهماً حديداً لتفصدا
وذا النصب المنصوب لا تنسكنّه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
ولا تقربنّ جارة كان سرها عليك حراما فانكحن أو تأبدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنه لعاقبة واصدق وفك المقيدا
وسبح على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولا تسخرن من بائس ذي ضرورة ولا تحسبن المال للمرء مخلدا

فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره ، فأخبره أنه جاء يريد رسول الله ﷺ ليسلم ، فقال له : يا أبا بصير إنه يحرّم الزنا . فقال الأعشى : والله إن ذلك لأمر ما لي فيه من أرب . فقال له : يا أبا بصير فإنه يحرم الخمر . فقال الأعشى : أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات ، ولكني منصرف فأتروى منها عامي هذا . ثم آتيه فأسلم . فانصرف فمات من عامه ذلك ، ولم يعد الى رسول الله ﷺ

فصل

ولما اشتد البلاء من قريش على رسول الله ﷺ بعد موت عمه أبي طالب من سفهاء قومه وتجرأوا عليه وكاشفوه بالأذى كما تقدم ، خرج إلى الطائف ، ورجا أن يؤووه وينصروه على قومه . ويمنعوه منهم ، ودعاهم إلى الله ، فلم ير من يؤوى ولم ير ناصراً ، ونالوه مع ذلك بأشد الأذى ونالوا منه ما لم ينل قومه ، وكان معه زيد بن حارثة مولاه ، فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه ، فقالوا : اخرج من

بلادنا ، وأغروا به سفهاءهم . قال موسى بن عقبة : ورجموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضب نعلاه بالدماء . زاد غيره : وكان إذا أذلقته الحجارة قعد الى الأرض فيأخذونه بعضديه ويقيمونه ، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى لقد شج فى رأسه شجاجاً ، فانصرف راجعاً من الطائف الى مكة محزوناً ، وفى مرجعه ذلك دعا بالدعاء المشهور « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوّتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس. أنت أرحم الراحمين ، ورب المستضعفين ، وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ الى عدوّ بعيد يتجهّمنى ، أو إلى عدوّ ملّكته أمرى إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى غضبك ، أو يحل بى سخطك ، لك العُتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » أورده ابن اسحاق ، وذكر أنه دعا به حين أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فلما اطمأن دعا بهذا الدعاء . ورواه الطبرانى عن عبد الله بن جعفر قال : لما توفى أبو طالب خرج النبى ﷺ ماشيا إلى الطائف ، فدعاهم الى الإسلام فلم يجيبوه ، فأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال « اللهم أشكو اليك» فذكره . وقوله « يتجهمنى » بتقديم الجيم على الهاء أى يلقانى بالغلظة والوجه الكريه . فأرسل اليك ربه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة ، وهما الجبلان اللذان هى بينهما ، فقال « بل أستأنى بهم ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا » أخرجاه فى الصحيحين من حديث عائشة

قال ابن اسحق فى روايته : فلما رآه ابنا ربيعة ورأيا ما لقى من ثقيف تحركت له رحمهما ، فبعثا اليه مع غلامهما عدّاس النصرانى قطف عنب ، فلما وضع ﷺ يده فى القطف قال : بسم الله ثم أكل ، ثم نظر عداس إلى وجهه وقال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة . فقال له ﷺ : من أى البلاد أنت ، وما دينك ؟ قال : نصرانى من أهل نينوَى قال : من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى ؟ قال عداس : وما يدريك ؟ قال :

ذاك أخى ، وهو نبى مثلى . فأكب عداس على يديه ورأسه ورجليه يقبلهما . قال يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك ياعداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : ياسيدى ما فى الأرض خير من هذا ، فقد أخبرنى مالا يعلمه إلا نبى : قالا : ويحك ياعداس لا يصرفنك عن دينك ، فان دينك خير من دينه

فلما نزل بنخلة فى مرجعه قام يصلى فى جوف الليل ، فصرف الله اليه نفراً من الجن فاستمعوا قراءته ، وكانوا من أهل نصيبين ، فاستمعوا له ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ . فلما فرغ من الصلاة ولّوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا به وأجابوا إلى ما سمعوا ، فقص الله خبرهم عليه فقال تعالى ﴿ وإذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ﴾ الآيات . قال الحافظ ابن كثير : وقد ذكر ابن إسحق خبر خروجه عليه السلام الى أهل الطائف ودعائه إياهم وأنه لما انصرف عنهم بات بنخلة فقرأ تلك الليلة القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين . قال وهذا صحيح ، لكن قوله إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر ، فان الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء ، ويدل عليه حديث ابن عباس عند أحمد قال : كان الجن يستمعون للوحى فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا فيكون ما سمعوه حقا وما زادوه باطلا ، وكانت النجوم لا يرمىٰ بها قبل ذلك ، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب منه ، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبث جنوده ، فاذا بالنبى ﷺ يصلى بين جبلى نخلة فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض . رواه النسائى . قال وخروجه ﷺ الى الطائف بعد موت عمه

وروى ابن أبى شيبة عن عبد الله بن مسعود قال : هبطوا على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا أنصتوا ، فأنزل الله ﴿ وإذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ﴾ الآيات . فهذا — مع رواية ابن عباس — يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا الى قومهم ، ثم بعد ذلك

وفدوا اليه أرسالا قوما بعد قوم وفوجا بعد فوج . انتهى

وأقام رسول الله ﷺ بنخلة أياما . فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ يعنى قريشا . فقال : يازيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر دينه . ثم انتهى الى مكة ، فأرسل رجلا من خزاعة الى المطعم بن عدى ، أدخل فى جوارك ؟ فقال : نعم . ودعا بنيه وقومه فقال : البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت ، فإنى قد أجرت محمدا . فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة ، حتى انتهى الى المسجد الحرام . فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى : يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمدا ، فلا يهيجه منكم أحد . فانتهى رسول الله الى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف الى بيته والمطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته

وذكر ابن اسحق أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يدخل مكة بعد رجوعه من الطائف أرسل الى الأخنس بن شُريق : أدخل فى جوارك ؟ فقال : إنى حليف ، والحليف لا يجير . فبعث الى سهيل بن عمرو فقال : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب ، فبعث الى المطعم فأجابه الى ذلك . انتهى

فصل

قال العلماء : وجعل رسول الله ﷺ يدعو الى الله ، فأسلم الطفيل بن عمرو الدوسى ودعا قومه الى الإسلام ، ودعا رسول الله ﷺ أن يجعل له آية فجعل الله فى وجهه نورا ، فقال : يارسول الله أخشى أن يقولوا هذه مَثُله . فدعا له رسول الله ﷺ فصار النور فى سَوطه ، فهو يعرف بذى النور . فأسلم بعض قومه . فأقام الطفيل فى بلاده الى أن هاجر بعد الخندق ما بين السبعين والثمانين بيتا من قومه ، فوافوا رسول الله ﷺ بخيبر . ذكر محمد بن اسحق أنه أسهم لهم ، وأنه كان عند رسول الله ﷺ بالمدينة حتى قبض الله رسوله فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين فسار معهم حتى فرغوا من طليحة الأسدى ومن أرض نجد كلها ، ثم سار مع المسلمين الى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل ، فرأى رؤيا

هو متوجه الى اليمامة ، فقال لأصحابه : إنى قد رأيت رؤيا فعبروها لى ، إنى رأيت ن رأسى حلق ، وأنه خرج من فمى طائر ، وأنه لقيتنى امرأة فأدخلتنى فرجهـــا أرى ابنى يطلبنى طلبا حثيثا ، ثم رأيته حبس عنى . قالوا خيرا . قال : أما أنا فقد أولتها . الوا ماذا ؟ قال فأما حلق رأسى فوضعه ، وأما الطير الذى خرج من فمى فروحى ، وأما رأة التى أدخلتنى فى فرجها فالأرض تحفر فأغيب فيها ، وأما طلب ابنى إياى ثم حبسه نى فإنى أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابنى . فقتل رحمه الله شهيدا باليمامة ، وجرح ابنه راحة شديدة . ثم استبسل فيها ثم قتل عام اليرموك شهيدا فى زمن عمر رضى الله عنهما

فصل

ثم أسرى برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام الى بيت المقدس اكبا على البراق صحبة جبريل عليهما السلام ، فنزل هناك وصلى بالأنبياء إماما ، وربط براق بحلقة باب المسجد ثم عُرج به تلك الليلة من بيت المقدس الى السماء الدنيا ، فاستفتح جبريل ففتح لهما ، فرأى هناك آدم أبا البشر فسلم عليه ، فرحب به ورد عليه السلام أقرّ بنبوته ، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه ، وأرواح الأشقياء عن شماله . ثم عرج الى السماء الثانية فاستفتح له فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم ، فلقيهما وسلم ليهما ، فردّا عليه السلام ورحبا به وأقرا بنبوته . ثم عرج به الى السماء الثالثة ، فرأى بها يوسف الصديق ، فسلم ورحب به . ثم عرج به الى السماء الرابعة ، فرأى فيها إدريس ، سلم عليه ورحب به . ثم عرج به الى السماء الخامسة ، فلقى فيها هرون بن عمران ، فسلم عليه رحب به وأقرّ بنبوته . ثم عرج به الى السماء السادسة ، فلقى فيها موسى ، فسلم عليه رحب به وأقرّ بنبوته . فلما جاوزه بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال : إن غلاما بعدى دخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى . ثم عرج به الى السماء السابعة ، فلقى فيها براهيم ، فسلم عليه ورحب به وأقرّ بنبوته . ثم رفع الى سِدْرة المنتهى . ثم رفع له البيت لمعمور . ثم عرج به الى الجبار جل جلاله ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ،

فأوحى إلى عبده ما أوحى ، وفرض عليه خمسين صلاة . فرجع حتى مرَّ على موسى فقال : بمَ أُمرت ؟ قال : بخمسين صلاة . فقال : إن أمتك لا يُطيقون ذلك ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فالتفت إلى جبريل كأن يستشيره فى ذلك ، فأشار أن نعم إن شئت . فعلا جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى وهو فى مكانه . هذا لفظ البخارى فى صحيحه فى بعض الطرق ، فوضع عنه عشرا . ثم نزل حتى مرَّ بموسى فأخبره ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف . فلم يزل يتردَّد بين موسى وبين ربه تعالى حتى جعلها خمساً . فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف ، فقال : قد استحييت من ربى ، ولكن أرضى وأسلِّم . فلما نفذ نادى منادٍ قد أمضيت فريضتى ، وخففت عن عبادى

واختلف الصحابة رضى الله عنهم : هل رأى ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه . وصح عنه أنه قال : رآه بفؤاده . وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك وقالا : إن قوله ﴿ ولقد رآه نزلة أُخرى ﴾ إنما هو جبريل . وصح عن أبى ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال « نور ، أنَّى أراه » ؟ أى حال بينى وبين رؤيته النور ، كما فى اللفظ الآخر « رأيت نوراً » . وعند ابن خزيمة عن أبى ذر قال : رآه بقلبه ، ولم يره بعينه . وبهذا يتبين مراده فى حديث أبى ذر بذكر النور ، أى أن النور حال بينه وبين رؤيته له ببصره ، ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب لا مجرد حصول العلم ، لأنه ﷺ كان عالما بالله على الدوام ، بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التى حصلت له خلقت فى قلبه كما تخلق الرؤية بالعين لغيره . وروى ابن خزيمة عن أنس قال : رأى محمد ربه . وإسناده قوى . وروى يونس عن ابن اسحق عن داود بن الحصين قال : سأل مروان أبا هريرة : هل رأى محمد ربه ؟ قال : نعم . وفى تفسير عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى ، وذكر إنكار عائشة أنه رآه ، قال الزهرى ، ليست عندنا أعلم من عباس . وفى تفسير ابن سلام عن عروة ، أنه كان إذا ذكر إنكار عائشة للرؤية يشتد عليه : وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن أنه حلف أن محمدا رأى ربه . وممن أثبت الرؤية لنبينا ﷺ الإمام أحمد بن حنبل ، فروى الخلال فى كتاب السنة عن المروزى :

قلت لأحمد إنهم يقولون إن عائشة قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم الفرية ، فبأى معنى تدفع قولها ؟ قال : يقول النبي ﷺ « رأيت ربى » قول النبي أكبر من قولها . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمى اتفاق الصحابة على أنه لم يره . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضا لهذا ، ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال « رأيت ربى تبارك وتعالى » ولكن لم يكن هذا فى الإسراء ، ولكن كان بالمدينة لما احتبس عنهم فى صلاة الصبح ثم أخبرهم عن رؤية ربه تلك الليلة . وعلى هذا بنى الإمام أحمد فقال : نعم رآه ، فان رؤيا الأنبياء حق ولا بد . ولكن لم يقل أحمد إنه رآه يقظة . ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه . ولكن مرة قال : رآه ، ومرة قال : رآه بفؤاده . فحكيت عنه روايتان . وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه — يعنى بعينى رأسه — وهذه نصوصه موجودة ليس فيها ذلك . ومن العلماء من جمع بين حديثى عائشة وابن عباس وقال : إن عائشة أنكرت رؤية العين ، واحتجت بقوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ وابن عباس ذكر رؤية الفؤاد ، ولا منافاة بينهما . ومنهم من جعلهما قولين مختلفين . وأكثر أهل السنة يرجحون قول ابن عباس لما فيه من الإثبات ، ومن قال إن النبي ﷺ رآه بعينه فى الدنيا فهو أيضا غالط قائل قولا لم يقله أحد من الصحابة ولا الأئمة . والمنقول فى رؤية العين فى الدنيا عن النبي ﷺ كله كذب موضوع باتفاق أهل العلم ، وكذلك عن أحمد فإنه لم يقل قط إنه رآه بعينه . وأما أحاديث المعراج فليس فى شىء منها ذكر رؤيته البتة أصلا ، فالواجب اتباع الآثار الثابتة فى ذلك . وما كان عليه السلف والأئمة هو إثبات مطلق الرؤية بالفؤاد . انتهى كلامه

فصل

فلما أصبح رسول الله ﷺ فى نومه أخبرهم بما أراه الله من آياته الكبرى ، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم ، ومرّ به أبو جهل عدوّ الله فجاء حتى جلس اليه ، فقال له كالمستهزئ هل كان من شىء ! قال : نعم . قال : وما هو ؟ قال أسرى بى الليلة ، قال : إلى أين ؟

قال . الى بيت المقدس . قال : ثم أصبحت بين ظهر انينا ؟ قال : نعم . قال : فلم يُرِهِ أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه اليه . قال : إن دعوتُ قومك أتحدثهم بما حدثتنى به ؟ قال : نعم . قال : يامعشر بنى كعب بن لؤى . فانقضت اليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا اليهما . فقال : حدّث قومك بما حدثتنى : فقال رسول الله ﷺ : إنى أسرى بى الليلة . قالوا : إلى أين ؟ قال : الى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم . فمن بين مصفق ، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً . فقال المطعم بن عدى : كل أمرك قبل اليوم كان تماماً غير قولك [هذا] . أنا أشهد أنك كاذب . نحن نضرب أكباد الإبل الى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً ، تزعم أنك أتيته فى ليلة ! واللات والعزّى لا أصدقك . فقال أبو بكر : يامطعم بئس ما قلت لابن أخيك ، جبهته وكذبته . أنا أشهد أنه صادق . فقالوا : يامحمد ، صف لنا بيت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ؟ وفى القوم من سافر اليه . فذهب ينعت لهم بناؤه كذا هيئته وكيف قربه من الجبل ؟ وفى القوم من سافر اليه . فذهب ينعت لهم : بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا . فما زال ينعت لهم حتى التبس عليه النعت ، فكرب كرباً ما كرب مثله ، فجىء بالمسجد حتى وضع دون دار عقيل أو عقال . فقالوا : فكم المسجد [من باب] ؟ ولم يكن عدّها . فجعل ينظر اليه ويعدها باباً باباً ويعلمهم ، وأبو بكر يقول : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب . فقالوا لأبى بكر : فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فبذلك سمى أبو بكر « الصديق » . ثم قالوا : يامحمد ، أخبرنا عن عيرنا . فأخبرهم عنها فى مسراه ورجوعه ، أخبرهم عن وقت قدومها ، وعن البعير الذى يقدمها . وكان الأمر كما قال . فرموه بالسحر وقالوا : صدق الوليد . ولم يزدهم ذلك إلا ثبوراً ، وأبى الظالمون إلا كفوراً

فصل

عن الزهرى قال : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة . وكذا قال عروة . وقال السدّى

بستة عشر شهراً ، وقال ابن عبد البر وغيره : كان بين الإسراء والهجرة سنة وشهران . والصحيح أن الإسراء مرة واحدة ، وقيل مرتان : مرة يقظة ومرة مناماً ، وأرباب هذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك وقوله « ثم استيقظت » وبين سائر الروايات . ومنهم من قال مرتين قبل الوحى لقوله فى حديث شريك : وذلك قبل أن يوحى اليه . ومرة بعد الوحى كما دلت عليه سائر الأحاديث . وقد صرح بعض من المتأخرين بأنه عليه السلام أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط . ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء ، ومن ظفر بهذا المسلك فانه ظفر بشىء تخلص به من الإشكالات . فهذا بعيد جداً ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ، قاله ابن كثير فى التفسير . وقال صاحب الهدى رحمه الله . والصواب الذى عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة . ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه مراراً كيف ساغ لهم أنه فى كل مرة تفرض عليه الصلاة خمسين ، ثم يتردد بين ربه وموسى حتى تصير خمساً فيقول : أمضيت فريضتى ، وخففت عن عبادى . ثم يعيدها فى المرة الثانية الى خمسين ثم يحطها عشراً عشراً . وقد غلّط الحفاظ شريكا فى ألفاظ من حديث الإسراء ، ومسلم أورد المسند منه ثم قال : فقدم وأخر وزاد ونقص ، ولم يسرد الحديث ، وأجاد رحمه الله . انتهى . وحكى القاضى عياض عن الزهرى أنه كان بعد المبعث بخمس سنين ، ورجحه القرطبى والنووى واحتج بأنه لا خلاف أن خديجة رضى الله عنها صلت معه بعد فرض الصلاة ، ولا خلاف أنها توفيت قبل الهجرة إما بثلاث وإما بخمس ، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء . وتعقب بأن موت خديجة بعد المبعث بعشر سنين على الصحيح فى رمضان ، وذلك قبل أن تفرض الصلاة . ويؤيده إطلاق حديث عائشة بأن خديجة توفيت قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، ويلزم منه أن يكون موتها قبل الإسراء وهو المعتمد . وأما تردده فى سنة وفاتها فيرده جزم عائشة بأنها توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين قاله الحافظ ابن حجر وقيل إن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة ، قاله ابن حزم وادعى فيه الإجماع . وذكر النووى فى فتاويه أنه كان ثالث عشر ربيع الآخر ، وقال فى شرح

مسلم : فى ربيع الأول ، وقيل كان ليلة السابع والعشرين من رجب واختاره الحافظ عبد الغنى بن سرور المقدسى . والله أعلم

فصل

فى مبدأ الهجرة التى فرق الله فيها بين أوليائه وأعدائه وجعلها مبدأ لإعزاز دينه ونصر عبده ورسوله

قال الترمذى : حدثنى محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة ويزيد بن رومان وغيرهما قالوا : أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفياً ، ثم أعلن فى الرابعة فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين ، يوافى الموسم كل عام يتبع الناس فى منازلهم وفى المواسم بعكاظ ومجنة وذى المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلم يجد أحداً ينصره ولا يجيبه ، حتى ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول : يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم ، فاذا متم كنتم ملوكا فى الجنة ، وأبو لهب وراءه يقول : لا تطيعوه فانه صابىء كذاب . فيردون على رسول الله ﷺ أقبح الرد ويؤذونه ويقولون : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك ، وهو يدعوهم إلى الله ويقول : اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا . قال : وكان ممن سمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم وعرض نفسه عليهم بنو عامر بن صعصعة ومحارب بن خصفة وفزارة وغسان ومرة وحنيفة وسُليم وعبس وبنو نصر وبنو البكاء وكندة وكلب والحارث بن كعب وعذرة والحضارمة . فلم يستجب منهم أحد . انتهى . وذكر بعض أهل السير عن ابن عباس قال : حدثنى على بن أبى طالب قال : لما مر رسول الله ﷺ على قبائل العرب، خرج هو وأبو بكر الصديق رضى الله عنه وأنا معه ، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر إليهم — وكان رجلا نسابة — فسلم عليهم ، فردوا عليه . فقال : من القوم ؟ قالوا من ربيعة . فقال من هامتها أم لهازمها ؟ قالوا : من هامتها العظمى ، قال وأى هامتها العظمى أنتم ؟ قالوا : ذهل الأكبر . قال . فمنكم

عوف الذى يقال فيه « لا حُرّ بوادى عوف » ؟ قالوا لا ، قال : فمنكم بسطام بن قيس أبو اللواء ومنتهى الأحيا ؟ قالوا : لا . قال : فمنكم جساس بن مرّة حامى الذمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا . قال : فمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟ قالوا : لا . قال : فمنكم المزدلف صاحب العمامة ؟ قالوا : لا . قال : فأنتم أخوال الملوك من كندة ؟ قالوا : لا ، قال : فأنتم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا : لا . قال : فلستم ذهل الأكبر ، أنتم ذهل الأصغر . فقام اليه غلام من بنى شيبان قد بقل وجهه يقال له دغفل فقال له : يا هذا إنك قد سألتنا فأخبرناك ولم نكذبك شيئاً ، فمن الرجل ؟ قال أبو بكر : من قريش . فقال بخ بخ أهل الشرف والرئاسة ، فمن أى القرشيين أنت ؟ قال : من ولد تيم بن مرة . فقال الفتى أمكنت والله الرامى من سواء الثغرة ؟ أمنكم قصى الذى جمع القبائل من فهر وكان يدعى فى قريش مُجَمِّعاً ؟ قال : لا ؟ قال : فمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف ؟ قال : لا . قال : فمنكم شيبة الحمد عبد المطلب مطعم طير السماء ، الذى كان كالقمر يضىء فى الليلة الداجنة الظلماء ؟ قال : لا . قال : فمن أهل الإفاضة بالناس أنت ؟ قال: لا . قال : فمن أهل الحجابة ؟ قال: لا . قال : فمن أهل السقاية أنت ؟ قال : لا . قال : فمن أهل الندوة أنت ؟ قال : لا . قال : فمن أهل الرفادة أنت ؟ قال : لا . فاجتذب أبو بكر زمام ناقته راجعا إلى رسول الله ﷺ ، فقال الغلام :

صادف در السيل دراً يدفعه ... يهيضه حيناً وحيناً يصدعه

والله لو شئت أخبرتك من أى قريش أنت ؟ فتبسم رسول الله ﷺ . فقال على . يا أبا بكر ، وقعت من الأعرابى على باقعة . فقال : أجل يا أبا حسن ، ما من طامة إلا وفوقها طامة ، والبلاء موكل بالمنطق . قال السهيلى (١) : وزاد قاسم بن ثابت تكملة للحديث قال : ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار . فتقدم أبو بكر فسلم ، قال على : وكان أبو بكر فى كل خير مقدماً ، فقال : ممن القوم ؟ فقالوا من شيبان بن ثعلبة ، فالتفت

---

(١) ج ١ ص ٢٦٤

أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال : بأبى أنت وأمى ، هؤلاء غرر فى قومهم ، وفيهم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة ومثنى بن حارثة والنعمان بن شريك . ومفروق قد غلبهم جمالا ولسانا ، وكان له غديرتان تسقطان على تريبتيه ، فكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر ، فقال أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ فقال مفروق : إنا لنزيد على الألف . كيف المنعة فيكم ؟ ولن تغلب الألف من قلة . فقال مفروق : علينا الجد والجهد ولكل قوم حد . فقال أبو بكر : وكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ فقال مفروق إنا لأشد ما نكون غضباً لحين نلقى ، وإنا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله ، يديلنا مرة ويديل علينا أخرى . لعلك أخو قريش . فقال له أبو بكر : أو قد بلغكم أنه رسول الله فها هو ذا . فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، فالى م تدعو اليه يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله ﷺ فقال : أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله وإلى أن تؤوونى وتنصرونى ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد . فقال مفروق : وإلى م تدعو اليه أيضاً يا أخا قريش ؟ فقال رسول الله ﷺ ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ الآية فقال مفروق : والى م تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ الآية فقال مفروق : دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك . وكأنه أراد أن يشرك فى الكلام هانىء بن قبيصة فقال : وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا ، فقال هانىء : قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش ، وإنى أرى أنّ تركنا ديننا واتباعا إياك على دينك لمجلس جلسته الينا ليس له أول ولا آخر لوهنٌ فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة ، وإنما تكون الزلة مع العجلة ، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً ، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر . وكأنه أحب أن يشرك فى الكلام المثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا .

قال ابن اسحق : فلما قدموا المدينـــــة الى قومهم ذكروا رسول الله ، ودعوهم الى

فقال المثنى : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة فى تركنا ديننا واتباعنا إياك فى مجلس جلسته الينا ليس له أول ولا آخر ، وإنا إنمـا نزلنا بين صريان اليمامة والسماوة . فقال رسول الله ﷺ ما هذان الصريان ؟ فقال أنهار كسرى ومياه العرب ، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول ، وأما ما كان من مياه العرب فذنبه مغفور وعذره مقبول ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينـا كسرى ، لا نحدث حدثاً ولا نؤوى محدثاً . وإنى أرى أن هذا الأمر مما تـكرهه الملوك ، فان أحببت أن نؤويك وننصرك ممـا يلى مياه العرب فعلنا . فقال رسول الله ﷺ : ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق ، فإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثـكم الله أرضهم وديارهم ويفرشكم نساءهم ، أتسبحون الله وتقدسونه ؟ فقال النعمان بن شريك : اللهم لك ذا . فتلا رسول الله ﷺ ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ ثم نهض النبى فأخذ بيدى أبى بكر فقال : يا أبا بكر ، يا أبا حسن ، أية أخلاق فى الجاهلية ما أشرفها ، بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض ، وبها يتحاجزون فيما بينهم . قال : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج ، فما نهضنا حتى بايعوا النبى ﷺ وكانوا صدقاً صبراً . انتهى

فصل

قال ابن اسحاق : فلما أراد الله سبحانه إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز موعده له ، فخرج رسول الله ﷺ الى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عنـد العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا ، قال فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله ﷺ قال : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا

تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم الى الله وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . قال وكان مما صنع الله به فى الإسلام أن يهوداً كانوا معهم فى بلادهم كانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد عزوهم ببلادهم ـ فكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن قد أظلّ زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله أنه لَلنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنّكم اليه . فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى الله أن يجمعهم بك . فسنقدم عليهم وندعوكم ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين الى بلادهم قد آمنوا وصدقوا

قال ابن اسحاق . وهم فيما ذكر لى ستة نفر من الخزرج ، منهم من بنى النجار أسعد ابن زرارة وهو أبو أمامة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عفراء ، ومن بنى زريق ابن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج رافع بن مالك ابن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق ، ومن بنى سلمة قطبة بن عامر بن حديدة ، ومن بنى حرام بن كعب عقبة بن عامر ، ومن بنى عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة جابر ابن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان بن عبيد . انتهى . وليس بجابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام . قلت : قال بعضهم ومن أهل العلم بالسير من يسقط جابر بن رئاب ويجعل فيهم عبادة بن الصامت . فقال لهم النبى ﷺ : أتمنعون ظهرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟ فقالوا : يا رسول الله إنما كانت بعاث عام الهول يوم من أيامنا اقتتلنا به ، فان تقدم ونحن كذا لا يكون عليك اجتماع ، فدعنا حتى نرجع الى عشائرنا لعل الله يصلح ذات بيننا وندعوهم الى ما دعوتنا اليه ، فعسى الله أن يجمعهم عليك ، فان جمعهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك ، وموعدك الموسم العام القابل ، وانصرفوا إلى المدينة

الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ .
حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر ، فلقوه بالعقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب . ثم عدهم ابن إسحق فذكر الستة الأول خلا جابر بن عبد الله بن رئاب فلم يحضرها ، والسبعة تتمة الاثنى عشر : معاذ بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عفراء أخو المذكور ، وذكوان بن عبد قيس الزرقى ، وقيل إنه رحل إلى رسول الله ﷺ الى مكة فسكنها معه فهو مهاجرى أنصارى ، قتل يوم أحد وعبادة بن الصامت بن قيس . وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة البلوى . والعباس بن عباده بن نضلة من بنى سالم . فهؤلاء من الخزرج . ومن الأوس رجلان : أبو الهيثم بن التيهان من بنى عبد الأشهل وعويم بن ساعدة . فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء ، أى وفق بيعتهم التى نزلت بعد ذلك عند فتح مكة . قال عبادة بن الصامت : بايعنا رسول الله ﷺ على أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف . والسمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق حيث كنا لا نخاف فى الله لومة لائم . قال عليه الصلاة والسلام « فان وفيتم فلكم الجنة ، ومن غشى عن ذلك شيئا كان أمره الى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه . أخرجه البخارى فى صحيحه بأخصر من هذا فيما رأيت . وفى رواية له : قال عبادة إنى من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ، بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئا ولا نزنى ولا نقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا ننتهب نهبة ولا نعصى ، بالجنة ان فعلنا ذلك ، وإن غشينا من ذلك شيئا كان قضاء ذلك إن الله ، انتهى . وفى رواية له : ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له وطهور ، ومن ستر الله عليه فذلك الى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له

وقال أبو الزبير عن جابر : إن النبى ﷺ لبث عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم فى المواسم ومجنة وعكاظ وفى منازلهم من منى « من يؤوينى ومن ينصرنى حتى أبلغ رسالة

ربى وله الجنة ، فلا يجد أحدا ينصره ولا يؤويه ، حتى إن الرجل ليرتحل من مصر واليمن الى ذوى رحمه فيأتيه قومه فيقولون له : احذر غلام قريش لا يفتنك . ويمشى بين رجالهم يدعوهم الى الله وهم يشيرون اليه بالأصابع ، حتى بعثنا الله من يثرب فيأتيه الرجل منا فيؤمن به يقرئه القرآن ، فينقلب الى أهله فيسلمون بإسلامه ، وحتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، وبعثنا الله اليه فائتمرنا ، وأجمعنا وقلنا : حتى متى رسول الله ﷺ يطرد فى جبال مكة ويخاف ؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه فى الموسم ، فوعدناه بيعة العقبة ، فقال له عمه العباس : يا ابن أخى ، ما أدرى ما هؤلاء القوم الذين جاءوك ، إنى ذو معرفة بأهل يثرب . فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين ، فلما نظر العباس فى وجوهنا قال : هؤلاء القوم لا نعرفهم ، هؤلاء أحداث . فقلنا : يارسول الله ، على ما نبايعك ؟ قال « على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن تقوموا فى الله لا تأخذكم فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » فقمنا نبايعه فأخذ بيده أسعد بن زرارة — وهو أصغر السبعين — فقال : رويدا يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب اليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فأما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، وأما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذركم عند الله . فقالوا : يا أسعد أمط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها فقمنا اليه رجلا رجلا فأخذ علينا البيعة يعطينا بذلك الجنة . رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ، وصححه الحاكم وابن حبان . ثم انصرفوا الى المدينة فأظهر الله الإسلام

وكان أسعد بن زرارة يجمع بالمدينة بمن أسلم ، وكتبت الأوس والخزرج الى النبى ﷺ ابعث الينا من يقرئنا القرآن ، فبعث اليهم مصعب بن عمير وعمرو بن أم مكتوم الأعمى ، فنزلا على أبى أمامة أسعد بن زرارة . وروى عبد بن حميد حدثنا عبد الرزاق عن

معمر عن أيوب عن ابن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة ، وهم الذين سموا الجمعة . قالت الأنصار : لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك ، فهلم فلنجعل يوما نجتمع فيه ونذكر الله ونصلي ونشكر الله كما قالوا ، فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى واجعلوا يوم العروبة . فاجتمعوا الى أسعد ابن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين ، فصلى بهم الجمعة حين اجتمعوا اليه ، فذبح لهم شاة فتغدّوا وتعشوا من شاة ، وذلك لقلتهم ، فأنزل في ذلك بعد ﴿ فاذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله ﴾ . قال السهيلي : ومع توفيق الله لهم فيبعد أن يكون ذلك من غير إذن من النبي ﷺ . ثم ذكر ما رواه الدارقطني عن ابن عباس قال : أذن رسول الله بالجمعة قبل أن يهاجر ، ولم يستطع رسول الله ﷺ أن يجمع بمكة ولا يبدى لهم ، فكتب الى مصعب بن عمير أن يجمع بهم . . الحديث . وكانوا أربعين رجلا . فأسلم على يدى مصعب بن عمير خلق كثير من الأنصار ، وأسلم في جماعتهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد : الرجال والنساء ، ولم يبق منهم أحد إلا أسلم ، حاشا الأصيرم — وهو عمرو بن ثابت بن قيس — فإنه تأخر إسلامه الى يوم أحد ، فأسلم يومئذ واستشهد ، ولم يسجد لله سجدة . وأخبر ﷺ أنه من أهل الجنة . ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة

ثم رجع مصعب إلى مكة في العام المقبل ، وقدم على رسول الله ﷺ معه في ذى الحجة أوسط أيام التشريق منهم سبعون رجلا ، وهي العقبة الثالثة . وقال ابن سعد : يزيدون رجلا العام خلق كثير من الأنصار من المسلمين والمشركين ، وزعيم القوم البراء ابن معرور ، فلما كانت ليلة العقبة الثلث الأول من الليل تسلل الى رسول الله ﷺ منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان . نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار وأسماء ابنة عمرو بن عدى إحدى نساء بني سلمة

وفي حديث كعب بن مالك عند ابن اسحق قال : فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول

الله ﷺ ، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال : يامعشر الخزرج — قال وكانت العرب يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج ، خزرجها وأوسها — إن محمداً منا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه ، فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده . قال فقلنا له : سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . قال فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . قال فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق ، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ، ورثناها كابرا عن كابر . قال فاعترض القوم — والبراء يكلم رسول الله ﷺ — أبو الهيثم بن التيهان فقال : يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا ، ونحن قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم . أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . قال ابن هشام : والهدم الحرمة ، أى ذمى ذمتكم وحرمتى حرمتكم . قال كعب بن مالك فى حديثه : وقد كان قال رسول الله ﷺ : أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيبا حتى يكونوا على قومهم بما فيهم ؛ فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس . وهم أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر وكان إسلامه تلك الليلة ، وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، وعبادة بن الصامت . فهؤلاء تسعة من الخزرج . ومن الأوس ثلاثة : أسيد بن الحضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن عبد

المنذر . وقيل أبو الهيثم بن التيهان مكانه . قال كعب فى حديثه : فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : ياأهل الجُباجب — والجباجب المنازل (١) — هل لكم فى مذمم والصبأة معه ، قد اجتمعوا على حربكم . فقال رسول الله ﷺ : هذا أزب العقبة ، هذا ابن أزيب ، أتسمع أى عد ، والله والله لأفرغن لك . ثم قال رسول الله ﷺ : ارفضوا الى رحالكم . قال فقال له العباس بن عبادة بن نضلة : والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا . قال فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا الى رحالكم . قال فرجعنا الى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا ، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض الينا أن تشب الحرب بيننا وبينهم منكم . قال فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء وما علمناه . قال : وصدقوا ، لم يعلموا . قال وبعضنا ينظر الى بعض . قال : وقام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى وعليه نعلان له جديدتان ، وقال قلت له كلمة كأنى أريد أن أشرك القوم بها فى ما قالوا : يا أبا جابر ألا تستطيع أن تتخذ — وأنت سيد من ساداتنا — مثل نعلى هذا الفتى من قريش ؟ قال فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما الىّ وقال : والله لتنتعلنهما . قال يقول أبو جابر : مه ، أحفظت والله الفتى ، فاردد اليه نعليه . قال قلت : والله لا أردها ، فأل صالح ، والله لئن صدق الفأل لأسلبنه . انتهى . وجعل عبد الله بن أبىّ يقول : هذا باطل ، وما كان هذا ، وما كان قومى ليفتئتوا علىّ بمثل هذا ، لو كنت بيثرب ما صنع قومى هذا حتى يؤمرونى . فرجعت قريش من عندهم ، ثم وجدوا الخبر قد كان . فخرجوا فى طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيبا ، فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه وربطوا يديه الى عنقه

---

(١) جمع جبجب (بالضم) : المستوى من الأرض . وهى هنا منازل منى

بنسع رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه فيعذبونه بجمته وكان كثير شعر ، فجاء جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل والحارث بن حرب أمية فخلصاه من أيديهم ، وكان يمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلاده إذا مروا بتجارتهم . وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا اليه ، فاذا هو قد طلع عليهم ، فرحل القوم جميعا الى المدينة . وقال ضرار بن الخطاب بن مرداس :

تداركت سعداً عنوة فأسرته ... وكان شفائى لو تداركت منذرا
ولو نلته طلّت دماء جراحه ... وكان حقيقاً أن يهان ويهدرا

قال ابن اسحاق فأجابه حسان بن ثابت فيهما فقال :

لست إلى سعد ولا المرء منذر ... إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا
فلولا أبو وهب لمرّت قصائد ... الى شرف البرقاء يَهْوِينَ حُسَّرا
أتفخر بالكتان لما لبسته ... وقد يلبس الأنباط ريطاً مقصراً
[فلا تك كالوسنان يحلم أنه ... بقرية كسرى أو بقرية قيصرا](1)
ولا تك كالثكلى وكانت بمعزل ... عن الثكل لو كان الفؤاد تفكرا
ولا تك كالشاة التى كان حتفها ... بحفر ذراعيها فلم ترض محفرا
ولا تك كالعاوى وأقبل نحره ... ولم يخشه سهم من النبل مضمرا
فانّا ومن يهدى القصائد نحونا ... كمستبضع تمرا الى أهل خيبرا

فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها ، وفى قومهم بقايا من شيوخ على دينهم من الشرك ، منهم عمرو بن الجموح وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ ، وكان عمرو بن الجموح سيدا من سادات بنى سلمة وشريفاً من أشرافهم ، وكان قد اتخذ فى داره صنما من خشب يقال له « مناة » كما كانت الأشراف يصنعون ، ويتخذه

---

(١) سقط من الأصل ، وأكملناه من سيرة ابن هشام

إلهاً يعظمه ويطهره ، فلما أسلم فتيان بنى سلمة ـ معاذ بن جبل ، وابنه [1] معاذ بن عمرو ـ فى فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة ، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك ، فيحملونه فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة وفيها عذر الناس منكساً على رأسه ، فاذا أصبح عمرو قال : ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة ؟ قال : ثم يعود ويلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال : أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه . فاذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك ، فيغدو فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى ، فيغسله ويطهره ويطيبه ، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك ، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال : إنى والله ما [أعلم من] صنع بك ما ترى ، فان كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك . فلما أمسى ونام عدوا عليه وأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر من عذر الناس ، ثم غدا عليه عمرو فلم يجده فى مكانه الذى كان فيه ، فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكساً مقروناً بكلب . فلما رآه أبصر شأنه ، وكلمه من أسلم من قومه ، فأسلم يرحمه الله وحسن إسلامه ، فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف ـ وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره ويشكر الله تعالى الذى أنقذه مما كان فيه من العماء والضلالة ـ فقال :

والله لو كنتَ إلهاً لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر فى قَرَنْ

أفٍ لملقاك إلهاً مستدن ... الآن فتشناك عن سوء الغَبَنْ

الحمـــد لله العلى ذى المنن ... الواهب الرزاق ديان الدين

هو الذى أنقذنى من قبل أن ... أكون فى ظلمة قبر مرتهن

[بأحمد المهدى النبى المؤتمن [2]]

---

(١) أى ابن عمرو بن الجموح

(٢) سقط من الأصل ، وأكمل من السيرة لابن هشام

فصل

قال ابن إسحاق : فلما أذن الله لرسوله فى الحرب ، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى اليهم من المسلمين ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة اليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال : إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها . فخرجوا أرسالا ، وأقام رسول الله ﷺ ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من قريش من بنى مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قدم على رسول الله ﷺ من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً . وحبست عنه امرأته أم سلمة ، ثم كان أول مقدمها بعد أبى سلمة عامر بن ربيعة حليف بنى عدى بن كعب معه امرأته ليلى بنت أبى خيثمة ، ثم عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة حليف بنى أمية بن عبد شمس ، احتمل بأهله وبأخيه عبد الله بن جحش وهو أبو أحمد ، وكان أبو أحمد رجلا ضرير البصر ، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ، وكان شاعراً . وكانت عنده الفارعة بنت أبى سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ، فغلقت دار بنى جحش هجرة ، فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام وهم مصعدون إلى مكة ، فنظر اليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها ليس فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها … يوماً ستدركها النكباء والحوب [1]

كل امرئ بلقاء الموت مرتهن … كأنه غرض للموت منصوب

وكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام ، وقد أوعبوا إلى المدينة مع رسول الله ﷺ

---

(١) الحوب : التوجع ، وقيل الحاجة ، ويقال الإثم أيضاً

ونساؤهم : عبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد وعكاشة بن محصن وشجاع وعقبة بن وهب وأربد بن جهيرة ومنقذ بن نباتة وسعيد بن قيس ومحرز بن نضلة ويزيد بن رقيش وقيس بن جابر وعمرو بن محصن ومالك بن عمرو وصفوان بن عمرو وغيرهم ، ومن نسائهم زينب بنت جحش أم المؤمنين وأم حبيبة بنت جحش وكانت تحت عبد الرحمن بن عوف – وهي التي كانت تستحاض – وحمنة بنت جحش التي كانت تحت مصعب بن عمير – وكانت تستحاض أيضاً – وجذامة بنت جندل وأم قيس بنت محصن وأم حبيب بنت ثمامة وآمنة بنت ثمامة . وقال أبو أحمد بن جحش في ذلك شعراً :

لو حلفت بين الصفا أم أحمد ومروتها بالله برت يمينها
لنحن الأولى كنا بها ثم لم نزل بمكة حتى عاد غثاً سمينها
بها خيمت غنم بن دودان وابتنت وما أن غدت غنم وخف قطينها
الى الله تغدو بين مثنى وواحد ودين رسول الله بالحق دينها

ونزل عمر بن الخطاب ومن لحق به من أهله وقومه وأخوه زيد بن الخطاب وعمرو وعبد الله ابنا سراقة بن المعتمر وخنيس بن حذافة السهمي وكان صهرة على ابنته حفصة خلف عليها رسول الله ﷺ بعده . وسعيد بن زيد وواقد بن عبد الله التميمي حليف لهم وخولى بن خولى ومالك بن أبي خولى حليفان لهم وبنو البكير أربعتهم : إياس بن البكير وعاقل وخالد حلفاؤهم من بنى سعد نزلوا على رفاعة بن عبد المنذر بقباء ثم تتابع المهاجرون ، فنزل طلحة بن عبيد الله بن عثمان وصهيب بن سنان على خبيب بن أساف أخى بلحارث بن الخزرج بالسنح ، ويقال بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة أخى بنى النجار .
قال ابن هشام : وبلغنى أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى ، أتخلون سبيلى ؟ قالوا نعم . قال : فانى قد جعلت لكم مالى ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح

صهيب ، ربح صهيب

قال ابن إسحاق ونزل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو مرثد كناز بن حصين وابنه مرثد الغنويان حليفا حمزة بن عبد المطلب وأنسة وأبو كبشة موليا رسول الله ﷺ على كلثوم بن هدم أخى بنى عمرو بن عوف بقباء ، ويقال بل نزلوا على سعد بن خيثمة ويقال بل نزل حمزة على أسعد بن زرارة أخى بنى النجار ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب وأخواه الطفيل والحصين ابنا الحارث ومسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب وسويبط ابن سعد بن حريملة أخو بنى عبد الدار وطليب بن عمير أخو بنى عبد بن قصى وخباب مولى عتبة بن غزوان على عبد الله بن مسلمة أخى بلعجلان بقباء ، ونزل عبد الرحمن بن عوف فى رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع أخى بلحارث بن الخزرج ، ونزل الزبير بن العوام وأبو سبرة ابن أبى رهم بن عبد العزى على منذر بن محمد بن عقبة ، ونزل مصعب بن عمير على سعد بن معاذ أخى بنى عبد الأشهل فى دار بنى عبد الأشهل ، ونزل أبو حذيفة بن عتبة وسالم مولاه وكان سائبة لثبيتة بنت يعار بن زيد سيبته فانقطع الى أبى حذيفة بن عتبة فتبناه فقيل سالم مولى أبى حذيفة . ويقال كانت ثبيتة بنت يعار تحت أبى حذيفة فأعتقت سالما سائبة فقيل سالم مولى أبى حذيفة . ونزل عتبة بن غزوان على عباد بن بشر أخى بنى عبد الأشهل ، ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر أخى حسان بن ثابت فى دار بنى النجار فلذلك كان حسان يحب عثمان ويبكيه حين قتل

فصل

فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم وساقوا الذرارى والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج فعرفوا أن الدار دار منعة ، وأن القوم أهل حلقة وبأس وشوكة . فخافوا خروج رسول الله ﷺ اليهم ولحوقه بهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة ، ولم يتخلف أحد من ذوى الرأى والحجى منهم ليتشاوروا فى أمره

قال ابن اسحق : فحدثنى من لا أتهم من أصحابنا عن عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد

ابن جبير عن ابن عباس قال : . لما اجتمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة ليتشاوروا فيها فى أمر رسول الله ﷺ ، فاعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل عليه بت له فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : من الشيخ ؟ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً و نصحاً . قالوا : أجل فادخل . فدخل معهم ، وقد اجتمع فيها أشراف قريش ، فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، وإنا والله لا نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً . قال فتشاوروا ، ثم قال قائل منهم . احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله . زهير والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم . فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتموه دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثرونكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره . فتشاوروا فى أمره ثم قال قائل منهم . نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فاذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم اليكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد ، أديروا فيه رأياً غير هذا . فقال أبو جهل : والله إن لى فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه . فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم . قال يقول الشيخ النجدى . القول ما قال الرجل ، هذا الرأى لا رأى غيره . فتفرق القوم على ذلك وهم

مجمعون له ، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال : لاتبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه . فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلى بن أبى طالب . نم على فراشى وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر فنم عليه ، فانه لا يخلص اليك شىء تكرهه ، وكان رسول الله ﷺ ينام فى برده ذلك إذا نام

قال ابن إسحق : فحدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال : اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام ، فقال وهم على بابه : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون فيها . قال فخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب فى يده ثم قال . نعم أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم . وأخذ الله على أبصارهم عنه فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس ﴿ يس والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ﴾ إلى قوله ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ حتى فرغ من هؤلاء الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمداً . قال : خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه التراب ، وانطلق لحاجته . أفما ترون ما بكم ؟ قال فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فاذا عليه تراب ، ثم يطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ . فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علىٌ عن الفراش ، فقالوا . والله لقد كان صدقنا الذى كان حدثنا . وقال غير ابن إسحق : وهم أبو جهل والحكم ابن أبى العاص وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث وأمية بن خلف وربيعة بن الأسود وطعيمة بن عدى وأبو لهب وأبىّ بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج . وفى رواية ابن أبى

حاتم مما صححه الحاكم من حديث ابن عباس : فما أصاب رجلا منهم حصاة إلا قتل يوم بدر كافراً

قال ابن إسحق : وأنزل فى ذلك مما اجتمعوا له ذلك اليوم ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ الآية . وقوله ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾

فصل

قال ابن إسحق : وأذن الله لرسوله عند ذلك فى الهجرة إلى المدينة ، قال ابن عباس بقوله ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ فروى الترمذى وصححه عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ بمكة ، ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله عليه ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ وقال الحسن وقتادة : ﴿ مدخل صدق ﴾ يعنى المدينة ﴿ وأخرجنى مخرج صدق ﴾ يعنى مكة . وقال قتادة : علم نبى الله أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل الله سلطاناً نصيراً لكتاب الله ولحدود الله ولفرائض الله ولإقامة دين الله ، فان السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم . وذكر الحاكم أن خروجه عليه الصلاة والسلام كان بعد العقبة بثلاثة أشهر أو قريباً منها ، وذكر الأموى فى مغازيه عن ابن إسحق : كان مخرجه من مكة بعد العقبة بشهرين وليال . قال : وخرج لهلال ربيع الأول ، وقدم المدينة لاثنتى عشرة خلت منه . قال الحاكم : تواترت الأحاديث أن خروجه يوم الإثنين ودخوله المدينة يوم الإثنين . إلا أن محمد بن موسى الخوارزمى قال : خرج من مكة يوم الخميس وخروجه من الغار كان ليلة الإثنين ، لأنه أقام فيه ثلاث ليال : ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد ، وخرج أثناء ليلة الإثنين ، وأخبر علياً بمخرجه ، وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس . وفى الصحيح عن عائشة قالت : قال النبى ﷺ

المسلمين : إنى رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ، وهما الحرتان . فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان بأرض الحبشة إلى المدينة . وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : على رسلك ، فانى أرجو أن يؤذن لى . فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى ؟ قال : نعم ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وقد علف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر ، قالت عائشة : فبينما نحن جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة ، قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعاً — فى ساعة لم يكن يأتينا فيها — فقال أبو بكر فدى له أبى وأمى : والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر ، فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له ، فدخل فقال لأبى بكر : أخرج مَن عندك . فقال : إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله . قال : : فانى قد أُذن لى فى الخروج ، فقال أبو بكر : الصحبة بأبى يا رسول الله . قال : نعم . قال : فخذ بأبى أنت يارسول الله إحدى راحلتى هاتين . قال رسول الله ﷺ : بالثمن . قالت عائشة : فجهزناهما أحسن الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطته بها على فم الجراب ، فبذلك سميت « ذات النطاقين » . وأقام رسول الله فى بيت أبى بكر إلى الليل ، ثم لحقا بغار ثور فى جبل ثور . وروى أنهما خرجا من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر ليلا إلى الغار ، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله ابن أبى بكر وهو غلام ثقف لقن ، فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش كبائت ، فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين يذهب ساعة من العشاء فيبيت عندهما يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالى الثلاث ، وكان دليلهم عبد الله بن أريقط الليثى هادياً خريتاً والخريت الماهر بالهداية ، استأجراه وأمناه فدفعا اليه راحلتيهما ووعداه غار ثور بعد ثلاث ، وكان على دين قومه . وذكر الحاكم فى مستدركه عن عمر قال : خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر إلى الغار ، فجعل يمشى مرة عن يمينه ومرة عن يساره ومرة عن أمامه ومرة خلفه ، فقال له رسول الله ﷺ ما هذا يا أبا بكر ؟ ما أعرف هذا

من خلفك : قال : يارسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ومرة عن شمالك لا آمن عليك . فقال : يا أبا بكر : لو كان شيء أحببتَ أن يكون بك دوني ؟ قال : نعم والذي بعثك بالحق . انتهى . وكان رسول الله ﷺ يمشي تلك الليلة على أطراف قدميه كي يخفى أثره حتى حفيت قدماه ، فحمله أبو بكر وهو يشتد به حتى أتى به الغار ، فأنزله وقال : يارسول الله دعني أدخل قبلك ، فإن كان فيه حية أو شيء كان بي دونك . فقال : ادخل ، فدخل أبو بكر وجعل يلتمس بيده ، وكلما رأى جحراً قال بثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، قال فبقي الجحر فوضع عقبه خشية أن يخرج على النبي ﷺ منه شيء يؤذيه ، وكان فيه حيات وأفاع ، ثم دخل رسول الله ﷺ . فلما أصبح قال له النبي ﷺ : أين ثوبك يا أبا بكر : فأخبره بالذي صنع ، فرفع النبي ﷺ يديه وقال : اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي في الجنة . فأوحى الله اليه : إن الله قد استجاب لك

وجدت قريش في طلبهما وخرجوا يقتصون أثر رسول الله ﷺ وأبي بكر ، وأخذوا معهم القافة حتى وصلوا إلى الغار . وفي مسند البزار : أن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار ، وأن ذلك مما صد المشركين عنه . فلما أتوا الغار طارت الحمامتان ورأوا البيض ونسج العنكبوت فقالوا : لو دخل ها هنا لتكسر البيض ولم يكن عليه نسج العناكب ، فصرفهم الله عز وجل بذلك عنه . ففي الصحيحين عن أنس أن أبا بكر قال : نظرت إلى أقدام المشركين فوق رأسنا ونحن في الغار فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه أبصرنا . فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ لا تحزن إن الله معنا . وروى أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال : إن قتلتُ فانما أنا رجل واحد ، وإن قتلتَ أنت هلكت الأمة . فعندها قال له رسول الله ﷺ ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ يعني بالمعونة والنصر ، فأنزل الله سكينته — وهي أمنة تسكن عندها القلوب — على أبي بكر ، لأنه كان منزعجاً ، وأيده بجنود لم تروها ، يعني الملائكة ليحرسوه في الغار ، أو ليصرفوا وجوه الكفار

وأبصارهم عن رؤيته ، وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود ، فهو سبحانه على كل شيء قدير لطيف لما يشاء ، إن شاء ربط العالم بخيط عنكبوت ، وإن شاء بأسباب غير ذلك ، ومكثا في الغار ثلاث ليال حتى خمدت عنهما نار الطلب

وفي حديث عائشة فأتاهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين صبح ثلاث ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة فأخذ بهما الدليل طريق السواحل ، وسار الدليل أمامهما وعين الله تكلؤهما وتأييده يصحبهما وإسعاده يرحلهما وينزلها . ولما يئس المشركون من الظفر بهما جعلوا لمن جاء بهما دية كل واحد منهما ، فجد الناس في الطلب ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون

وفي المتفق عليه من حديث البراء عن أبي بكر قال : ارتحلنا من مكة فأحيينا أو سرينا ليلتنا ويومنا ، حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة ، فضربت هل أرى من ظل فآوى اليه ، فاذا أنا بصخرة فأتيتها فاذا بقية ظلها ، فسويته لرسول الله ﷺ ، وفرشت له فروة ، ثم قلت له : اضطجع يارسول الله فاضطجع . ثم خرجت أنظر ما حولي هل أرى أحدا من الطلب ، فاذا أنا براعي غنم يسوق غنمه الى الصخرة يريد منها الذي أردنا . فسألته لمن أنت ياغلام؟ فقال : لرجل من قريش ، فسماه فعرفته ، فقلت : هل في غنمك من لبن ؟ قال : نعم . قلت . فهل أنت حالب لنا ؟ قال : نعم . فأمرته فاعتقل شاة من غنمه ، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار ثم أمرته أن ينفض كفيه ، فقال هكذا فضرب إحدى كفيه بالأخرى ، فحلب لي كثبة من لبن ، وقد جعلت لرسول الله إداوة على فمها خرقة فصببت على اللبن حتى برد أسفله ، فانطلقت به إلى النبي ﷺ ، فوافقته وقد استيقظ ، فقلت : اشرب يارسول الله . فشرب حتى رضيت . ثم قلت : قد آن الرحيل ، فارتحلنا والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك المدلجي على فرس له ، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يارسول الله ، فقال : لا تحزن إن الله معنا . فدعا عليه رسول الله فارتطمت به فرسه الى بطنها ، أرى في جلد من الأرض ، شك زهير . فقال . إني أراكما قد دعوتما عليّ ، فادعوا الله لي ، فالله لكما أن أراد عنكما الطلب ، فدعا له النبي ﷺ فنجا ، فجعل لا يلقى أحدا إلا قال :

قد كفيتم ، ما هٰهنا . ولا يلقى أحدا إلا رده

وفى حديث ابن شهاب قال : أخبرنى عبد الرحمن بن مالك بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول . جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره . فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال . ياسراقة إنى قد رأيت آنفا أسودة بالساحل ، أراها محمدا وأصحابه . قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا . ثم لبثت فى المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى من وراء أكمة فتحبسها على ، فأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت ، فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها ، فدفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم ، فعثرت بى فرسى ، فخررت عنها ، فقمت فأهويت بيدى الى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام ، فاستقسمت بها : أضرهم ، أم لا ؟ فخرج الذى أكره . فركبت فرسى وعصيت الأزلام تقرب بى ، حتى إذا سمعت رسول الله وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها . ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام ، فخرج الذى أكره ، فناديتهم بالأمان . فقفوا ، فركبت فرسى حتى جئتهم ، ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له . إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى ولم يسألانى إلا أن قالا : أخف عنا ، فسألته أن يكتب لى كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أدم ، ثم مضى رسول الله ﷺ . انتهى حديث الزهرى . فقيل : إن الكتاب كان معه الى يوم فتح مكة ، فجاء بالكتاب فوفى له رسول الله وكان يوم وفاء وبر ، فكان أول النهار جاهدا عليهما ، وآخره حارسا لهما

فصل

ثم مضى رسول الله ﷺ فيمن معه فمروا بخيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة جلدة برزة تحتبى بفناء الخيمة ثم تطعم وتسقى من مر بهـ . فسألاها : هل عندها شيء يشترونه ؟ فقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى ، والشاء عازب ، وكانت سنة شهباء ، فنظر رسول الله ﷺ الى شاة فى كسر الخيمة فقال . ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ فقالت هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم . فقال : هل بها من لبن ؟ قالت : هى أجهد من ذلك . قال . أفتأذنين لى أن أحلبها . قالت : نعم ، بأبى وأمى ، إن رأيت بها حليبا فاحلبها . فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال : اللهم بارك لها فى شاتها ، فتفاجت فدرت واجترت . فدعا بإناء لها يُربض الرهط فحلب فيه حتى علته الرغوة ، فسقاها فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب ﷺ آخرهم . فشربوا جميعا عللا بعد نهل ، ثم حلب فيه ثانيا حتى ملأ الإناء فغادره عندها ، ثم ارتحلوا عنها ، فقلما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هزلا ، فلما رأى اللبن عجب وقال : من أين لك هذا والشاء عازب ولا حلوبة فى البيت ؟ فقالت لا والله ، إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت . قال . والله إنى لأراه صاحب قريش الذى تطلبه ، صفيه لى يا أم معبد . فقالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة حسن الخلق لم تعبه ثجلة — ويروى نحلة بالنون والخاء — ولم تزر به صعلة كأن عنقه إبريق فضة . وسيم جسيم ، فى عينيه دعج . وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صحل ، أحور أكحل أزج أقرن شديد سواد الشعر ، فى عنقه سطع وفى لحيته كثاثة ، اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما به وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات نظم ينحدرن ، حلو المنطق فصل ، لا نزر ولا هذر ، أجهر الناس وأجمله من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب ، ربعة لا تشنؤه عين من طول ولا تقتحمه من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم قدرا له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإن أمر تبادروا الى أمره ، محفود محشود ، لا عابس

لا مفند. فقال : هذا والله صاحب قريش الذى تطلب ، وذكر لنا من أمره ما ذكر. لو كنت أنا وافقته لالتمست أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت الى ذلك سبيلا

قالت أسماء بنت أبى بكر. ولما خفى علينا أمر رسول الله ﷺ أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام ، فخرجت اليهم فقال. أين أبوك ؟ فقلت : والله لا أدرى أين أبى. فرفع أبو جهل يده وكان فاحشا خبيثا فلطم وجهى لطمة خرج منها قرطى. قالت : ثم انصرفوا ، فمضى ثلاث ليال ما ندرى أين توجه رسول الله ﷺ ، حتى أتى رجل من أسفل مكة يغنى بأبيات والناس يسمعون صوته ولا يرونه ، وهو ينشد هذه الأبيات :

جزى الله رب الناس خير جزائه … رفيقين حلا خيمتَىْ أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به … فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيال قصى ما زوى الله عنكم … به من فعال لا يجارى وسؤدد
فما حملت من ناقة فوق رحلها … أبر وأوفى ذمة من محمد
وأكسى لبرد الخال قبل ابتذاله … وأعطى لرأس السابح المتجرد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم … ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها … فإنكمو إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت … له بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهنا لديها بحالب … يرددها فى مصدر ثم مورد

قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا أين توجه رسول الله ﷺ. رواه ابن اسحق والطبرانى وغيرهما. فلما سمع بذلك حسان بن ثابت قال يجاوب الهاتف :

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم … وقد سر من يسرى اليهم ويغتدى
ترحل عن قوم فزالت عقولهم … وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم … وأرشدهم ، من يتبع الحق يرشد
وقد نزلت منه على أهل يثرب … ركاب هدى حلت عليهم بأسعد

فهل يستوى ضلال قوم تسفهوا عمى ، وهداة يهتدون بمهتد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله فى كل مسجد
وإن قال فى يوم مقالة غائب فتصديقها فى ضحوة اليوم أو غد
ليهن أبا بكر سعادة جده بصحبته ، من يسعد الله يسعد

ويروى أن الشاة التى لمس رسول الله ﷺ ضرعها وحلبها بقيت عند أم معبد حتى كان زمن الرمادة فى سنة ثمان عشرة من الهجرة فى خلافة عمر رضى الله عنه فهلكت ، قالت أم معبد : وكنا نحلبها صبوحا وغبوقا وما فى الأرض قليل ولا كثير . أخرجه ابن سعد من طريق الواقدى . ثم إن أم معبد هاجرت الى النبي ﷺ وأسلمت

ولقى النبي ﷺ فى أثناء الطريق الزبير بن العوام فى ركب من المسلمين قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابا بيضا

فصل

قال ابن شهاب فى حديثه عن عروة : وبلغ المسلمين خروج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ، فجعلوا يغدون كل غداة الى الحرة فينظرون حتى يردهم حر الظهيرة . فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا الى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم ينظر لأمر يريده ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودى أن نادى بأعلى صوته : يامعشر العرب ، هذا جدكم الذى تنتظرون ، فبادر المسلمون الى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين ثانى عشر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتا ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس حينئذ رسول الله ﷺ . انتهى وكبر المسلمون فرحا بقدومه

وسمعت الوجبة والتكبير فى بنى عمرو بن عوف . وخرج المسلمون للقائه ، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة ، وأحدقوا به مطيفين حوله ، والسكينة تغشاه ، والوحى ينزل عليه ، والله مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير ، فسار حتى نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف ، فنزل على كلثوم بن الهدم ، وقيل على سعد بن خيثمة ، ونزل أبو بكر بالسنح على حبيب بن أساف أخى بنى الحارث بن الخزرج ، وقيل على خارجة بن زيد ، وأقام على رضى الله عنه بمكة حتى أدى ودائع كانت عند رسول الله ﷺ للناس ثم لحق بالمدينة ، ونزل مع النبى ﷺ بقباء أياما ، فأقام فى بنى عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة ، وأسس مسجد قباء ، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة ، فلما كان يوم الجمعة ركب بأمر الله له ، وفى حديث أنس عند البخارى فأرسل إلى بنى النجار فجاءوا متقلدين لسيوفهم ، قال : وكأنى أنظر الى رسول الله ﷺ وأبو بكر على ردفه وملأ بنى النجار حوله . انتهى . فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فجمع بهم فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، ثم ركب ناقته وأرخى زمامها لا يحركها وهى تنظر يمينا وشمالا ، فلم تزل ناقته سائرة ، ولا يمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوه فى النزول عليهم ويأخذون بخطام راحلته : هلم الى العوذ والعدة والسلاح والمنعة . فقال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة فلم تزل سائرة به حتى وصلت الى موضع مسجده اليوم فبركت ، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلا ثم التفتت ورجعت فبركت فى موضعها الأول فنزل عنها ، وذلك فى بنى النجار أخواله ، وكان ذلك من توفيق الله لها ، فانه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك ، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ فى النزول عليهم ، وبادر أبو أيوب الأنصارى الى رحله فأدخله ، فجعل رسول الله ﷺ يقول « المرء مع رحله » . وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته فكانت عنده . وفى رواية أنس عند البخارى : فقال نبى الله ﷺ : أى بيوت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يارسول الله ، هذه دارى ، وهذا بابى . قال : فانطلق فهيئ لنا مقيلا قال : قوما على بركة الله . فلما جاء نبى الله جاء عبد الله بن سلام يسأله عن أشياء قال إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى . ما أول أشراط الساعة ، وما أول

طعام يأكله أهل الجنة ، وما بال الولد ينزع الى أبيه أو إلى أمه . قال أخبرنى به جبريل آنفا . قال ابن سلام . ذاك عدو اليهود من الملائكة . قال : أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فاذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد الى أبيه وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وأنك جئت بحق . وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وعالمهم وابن عالمهم ، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىَّ ماليس فىَّ . فأرسل نبى الله الى اليهود فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله ﷺ . يامعشر اليهود ويلكم اتقوا الله ، فوالذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا وأنى جئتكم بحق ، فأسلموا . قالوا : ما نعلمه . قالوا ذلك للنبى ﷺ ثلاث مرار ، قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا ذاك سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وابن عالمنا . قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم . قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم. قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا ، حاشا لله ما كان ليسلم . قال : يا ابن سلام أخرج عليهم . فقال : يامعشر اليهود اتقوا الله فو الله الذى لا إله إلا هو إنكم تعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق . فقالوا : كذبت . وقالوا : شرّنا وابن شرنا ونقصوه . فقال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله : فأخرجهم رسول الله ﷺ

ومن مقدمه ﷺ أرخ التاريخ فى زمن عمر إلى يومنا هذا ، فروى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد قال : ما عدُّوا من مبعث النبى ، ولا من وفاته ، ما عدوا إلا من مقدمه المدينة

وقال البراء : أول من قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرئان الناس القرآن ، ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين راكباً ، ثم جاء رسول الله ﷺ ، فما رأيت الناس فرحوا بشىء فرحهم به ، حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون : هذا رسول الله ، قد جاء رسول الله . وقال

أنس : شهدته يوم دخل المدينة فما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا ، وشهدته يوم مات ، فما رأيت يوماً قط كان أقبح ولا أظلم من يوم مات . فقام ﷺ فى منزل أبى أيوب حتى بنى مسجده وحجرته وبعث رسول الله ﷺ وهو فى منزل أبى أيوب زيدَ بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة ، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه وسودة بنت زمعة زوجته وأمامة بن زيد وأمه وأم أيمن . وأما زينب فلم يمكنها زوجها أبو العاص بن الربيع من الخروج ، وخرج عبد الله بن أبى بكر بعيال أبى بكر وفيهم عائشة فنزلوا فى بيت حارثة بن النعمان . وفى الصحيح عن أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير ، قالت فخرجت وأنا مُتم فأتيت المدينة فنزلت بقباء ، ثم أتيت النبى ﷺ فوضعته فى حجره ثم دعا بتمرة فمضغتها ثم تفل فى فيه ، فكان أول شىء دخل فى جوفه ريق رسول الله ﷺ . ثم حنكه بتمرة ، ثم دعا له وبرّك عليه ، وكان أول مولود ولد فى الإسلام بالمدينة . وفيه عن عائشة قالت : أول مولود ولد فى الإسلام بالمدينة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهم

فصل

فى بناء المسجد

قال الزهرى فى حديثه عن عروة . بركت ناقة رسول الله ﷺ عند موضع مسجده ، وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين ، وكان مربدا لسهيل وسهل غلامين يتيمين من الأنصار ، وكان فى حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله ﷺ : هذا إن شاء الله المنزل . ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً ، فقالا : يارسول الله بل نهبه لك ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً . وفى حديث أنس فى الصحيح . ثم أرسل إلى بنى النجار فقال . يابنى النجار ثامنونى حائطكم هذا ، فقالوا . لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله . قال وكان فيه ما أقول لكم كانت فيه قبور المشركين وكانت فيه خرب وكان فيه نخل ، فأمر رسول الله ﷺ

بقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسويت ، وبالنخل فقطع ، قال فصفوا النخل قبلة المسجد . قال وجعلوا عضادتيه حجارة . قال فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقول :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة ، فانصر الأنصار والمهاجرة

وفى حديث الزهرى عن عروة : وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن فى بنيانه ويقول وهو ينقل اللَّبِن :

هـذا الحمال لا حمال خيبر   هذا أبرُّ ربنـا وأطهر

ويقول . اللهم إن الأجر أجر الآخرة   فارحم الأنصـار والمهاجرة

فتمثل ببيت شعر رجل من المسلمين لم يسم لى . انتهى . وقال غيره : ووضع عليه الصلاة والسلام ، فوضع الناس وهم يقولون :

لئن قعدنا والرسول يعمل   لذاك منا العمل المضلل

وآخرون يقولون :

لا يستوى من يعمر المساجدا   يدأب فيهـا قائماً وقاعـدا

ومن يرى عن التراب حائدا

وجعلت قبلته إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب : باب فى مؤخره ، وباب يقال له باب الرحمة ، والباب الذى يدخل منه عليه السلام . وجعل طوله مما يلى القبلة إلى مؤخرة مائة ذراع وفى الجانبين مثل ذلك أو دونه ، وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع ، وجعل عمده الجذوع ، وسقفه بالجريدة ، وجعل عضادتيه الحجارة . وقيل له . ألا تسقفه ؟ فقال : لا عريش كعريش موسى : وبنى بيوتا إلى جنبه باللبن وسقفها بالجريد والجذوع

فلما فرغ من البناء بنى بعائشة رضى الله عنها فى البيت الذى بناه شرقى المسجد شارعا إلى المسجد ، وهو مكان حجرته اليوم ، وجعل لسودة بيتا آخر

وفى الصحيح عن عائشة قالت : تزوجنى النبى ﷺ وأنا بنت ست سنين ، فقدمنا المدينة فنزلنا فى بنى الحارث بن الخزرج ، فوعكتُ فتمزق شعرى ، فأتتنى أم رومان — وإنى لفى أرجوحة ومعى صواحب لى — فصرختْ بى ، فأتيتها ولا أدرى ما تريد بى ، فأخذتْ بيدى حتى وقفتنى على باب الدار وإنى لأنهج ، حتى سكن نَفَسى ، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهى ورأسى ، ثم أدخلتنى الدار ، فاذا نسوة من الأنصار ، فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر ، فأسلمتنى اليهن وأصلحن من شأنى ، فلم يرعنى إلا رسول الله ﷺ ، فأسلمتنى اليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين

وفيه عن عروة قال : توفيت خديجة قبل مخرج النبى ﷺ إلى المدينة بثلاث ، فلبث سنتين أو قريبا من ذلك ، ونكح عائشة وهى بنت ست سنين ، وبنى بها وهى بنت تسع سنين . قال أبو عمرو وكان نكاحه عليه السلام لها فى شوال ، وابتنى بها فى شوال ، وكانت تحب أن تدخل النساء من أهلها فى شوال على أزواجهن ، وكانت أحب نساء رسول الله ﷺ اليه ، وكانت إذا هويت الشىء تابعها عليه ، ولم يتزوج بكراً غيرها . وكانت مدة مقامها معه عليه السلام تسع سنين . ومات عنها ولها ثمان عشرة سنة . وكانت فقيهة عالمة فصيحة ، كثيرة الحديث عن رسول الله ﷺ . انتهى

وكان فى مؤخر المسجد موضع مظلل يأوى اليه المساكين يسمى « الصفّة » ، وكان عليه السلام يدعوهم بالليل فيفرقهم على أصحابه ، ويتعشى طائفة منهم معه

فصل

ثم آخى رسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دار فى أنس بن مالك ، وكانوا تسعين رجلا : نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام ، إلى وقعة بدر . فلما أنزل الله ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾ رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة . وقد قيل إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ، واتخذ فيها عليا أخا لنفسه ، والثبت

الأول ، فآخى بين جعفر بن أبى طالب وهو غائب بالحبشة ومعاذ بن جبل، وآخى بين أبى بكر وخارجة بن زيد ، وآخى بين عمر بن الخطاب وعِتْبان بن مالك من بنى سالم . وآخى بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع ، وآخى بين الزبير بن العوام وبين سلمة بن سلامة بن وَقش وقيل كعب بن مالك السلمى ، وقيل بل آخى بين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك ، وآخى بين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت ، وآخى بين سعيد بن زيد وبين أبىّ بن كعب ، وآخى بين مصعب بن عمير وبين أبى أيوب ، وآخى بين أبى حذيفة ابن عتبة وبين عباد بن بشر الأشهلى ، وآخى بين عمار بن ياسر وبين حذيفة بن اليمان العبسى حليف بنى عبد الأشهل ، ويقال بل ثابت بن قيس بن الشماس ، وآخى بين أبى ذر الغفارى وبين المنذر بن عمرو وهو نقيب بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وآخى بين حاطب بن أبى بلتعة حليف بنى أسد بن عبد العزى وبين عويم بن ساعدة أخى بنى عمرو ابن عوف ، وآخى بين ، سلمان الفارسى وأبى الدرداء عويمر بن ثعلبة . وآخى بين بلال وبين أبى رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمى ، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين ، وكان أبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين

قال ابن إسحاق : وهلك فى تلك الأشهر أبو أمامة أسعد بن زرارة والمسجدُ يبنى ، أخذته الذبحة أو الشهقة ، وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن يحيى ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة أن رسول الله ﷺ قال : بئس الميت أبو أمامة ليهود ومنافقى العرب . يقولون : لو كان نبياً لم يمت صاحبه ، ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئاً . وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أنه لما مات اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله ﷺ ـ وكان أبو أمامة نقيبهم ـ فقالوا : يا رسول الله إن هذا الرجل قد كان منا حيث قد علمت ، فاجعل لنا رجلا مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم . فقال لهم رسول الله ﷺ : أنتم أخوالى وأنا بما فيكم ، وأنا نقيبكم . وكره رسول الله ﷺ أن يخص بها بعضهم دون بعض ، فكان من فضل بنى النجار ـ الذى يعدون على قومهم ـ أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم ، والله أعلم

فصل

قال ابن إسحاق : فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة واجتمع اليه إخوانه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام وقامت الحدود وفرض الحلال والحرام ، وكان رسول الله ﷺ حين قدم المدينة إنما يجتمع الناس للصلاة حين مواقيتها لغير دعوة ، فهمّ رسول الله ﷺ أن يجعل بوقاً كبوق اليهود الذى يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ، فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة ، فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة الأذان ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه طاف بى هذه الليلة طائف ، مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فى يده ، فقلت : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟ قال قلت : ندعو به إلى الصلاة . فقال : أفلا أدلك على خير من هذا ؟ قلت : بلى نا هو ؟ قال تقول : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله ، شهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله ، حَىَّ على الصلاة حى على الصلاة ، حىَّ على الفلاح حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . فلما أخبر بها رسول لله ﷺ قال : إنها لرؤيا حقٌّ إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فانه ندى صوتاً منك . فلما أذن بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو فى بيته فخرج وهو يجر رداءه وهو يقول . يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى . فقال رسول الله ﷺ : فلله الحمد . قلت : رواه أبو داود بإسناد صحيح . وقد استشكل إثبات حكم الأذان برؤيا عبد الله لأن رؤيا غير الأنبياء لا يبنى عليها حكم شرعى . وأجيب احتمال مقارنة الوحى لذلك ، ويؤيده ما رواه عبد الرزاق وأبو داود فى المراسيل من طريق عبيد بن عمير الليثى أحد كبار التابعين أن عمر لما رأى الأذان جاء ليخبر النبى ﷺ فوجد الوحى قد ورد بذلك ، فما راعه إلا أذان بلال ، فقال له النبى ﷺ « سبقك بذلك الوحى » . وفى الصحيح عن أنس قال : لما كثر المسلمون ذكروا أن يعلموا وقت الصلاة

بشيء يعلمونه ، فذكروا أن يوروا ناراً ، أو يضربوا ناقوساً ، فذكروا اليهود والنصارى، فأمر بلال أن يشفع الأذان وأن يوتر الإقامة . وفيه عن ابن عمر : كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها ، فتكلموا يوماً فى ذلك ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم : بل بوقاً مثل بوق اليهود ، فقال أولا تبعثون رجلا منكم ينادى بالصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ « قم يا بلال فناد بالصلاة » انتهى

قال بعض أهل السير ، ولما كان بعد شهر من مقدمه عليه السلام زيد فى الحضر ركعتان ركعتان ، وتركت صلاة الفجر لطول القراءة فيها ، وصلاة المغرب لأنها وتر النهار، وأقرت صلاة السفر . وفى البخارى عن عائشة فرضت الصلاة ركعتين ركعتين ، ثم جاء ﷺ المدينة ففرضت أربعاً وتركت صلاة السفر على الفريضة الأولى

فصل

قال ابن إسحق : وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ ، فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس ، ولم يوعب من مكة أهل هجرة بأهليهم وأموالهم إلى الله وإلى رسوله إلا أهل دور يسمون بنى مظعون من بنى جمح وبنو جحش بن رئاب حلفاء بنى أمية وبنو البكير من بنى سعد بن ليث حلفاء بنى عدى بن كعب ، فإن دورهم أغلقت بمكة هجرة . ولما خرج بنو جحش من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة أخى بنى عامر بن لؤى ، فلما بلغ بنى جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ ، فقال له : أما ترضى يا عبد الله أن الله يعطيك بها داراً فى الجنة ؟ قال : بلى . قال : فذلك لك . فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة كلمه أبو أحمد فى دارهم فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فقال الناس لأبى أحمد : يا أبا أحمد ، إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا فى شىء من أموالكم أصيب منكم فى الله ، فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ ، وقال :

أبلغ أبا سفيان عن   أمر عواقبه ندامه
دار ابن عمك بعتها   تقضى بها عنك الغرامة
وحليفكم بالله رب   الناس مجتهد القسامه
اذهب بها ، اذهب بها   طُوِّقتها طوق الحمامه

فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة ، حتى
نى مسجده ومساكنه ، واستجمع له إسلام هذا الحى من الأنصار ، فلم تبق دار من دور
لأنصار إلا أسلم أهلها ، إلا ما كان من خطمة وواقف ووائل وأمية ، وتلك أوس الله ـ
هم حى من الأوس ـ فانها أقاموا على شركهم ، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن
لأسلت وهو صيفى وكان شاعراً لهم يسمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام ، فلم
زل على ذلك حتى مضى بدر وأحد والخندق . قال ابن عبد البر عن ابن إسحق : إنه
سلم يوم الفتح بعد أن صار إلى مكة مع قريش ، وذكر الزبير بن بكار أنه لم يسلم

قال ابن إسحق : فلما اطمأنت برسول الله ﷺ داره ، وأظهر الله بها دينه ، قال
بو قيس صرمة بن أبى أنس أخو بنى النجار ـ وهو الذى كان قد ترهب ولبس المسوح
فارق الأوثان كما قدمنا من ذكره ، ثم أسلم فحسن إسلامه ، وهو شيخ كبير ، وكان قوالا
الحق معظما فى جاهليته ـ فقال حين أسلم يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام ، وما خصهم
ه من نزول رسول الله عليهم :

ثوى فى قريش بضع عشر حجة   يذكّر لو يلقى صديقاً مواتيا
ويعرض فى أهل المواسم نفسه   فلم ير من يؤوى ، ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه   فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقا واطمأنت به النوى   وكان له عونا من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه   وما قال موسى إذ أجاب المناديا

وأصبح لايخشى من الناس واحداً — قريباً ، ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من جلّ مالنا — وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلم أن الله لا شىء غيره — ونعلم أن الله أفضل هاديا

وفى رواية :

ونعلم أن الله لا رب غيره — وأن كتاب الله أصبح هاديا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم — جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
أقول إذا أدعوك فى كل بيعة — تباركت قد أكثرت لاسمك داعيا
أقول إذا جاوزت أرضاً مخوفة — حَنَانَيْكَ لا تظهر علىّ الأعاديا
فطأ معرضا إن الحتوف كثيرة — وإنك لا تبقى لنفسك باقيا
فو الله ما يدرى الفتى كيف يتقى — إذا هو لم يجعل له الله واقيا
ولا تحفل النخل المقيمة ربها — إذا أصبحت رياً وأصبح ثاويا

فصل

ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة كما تقدم ، وأيده الله بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التى كانت بينهم ، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر ، وبذلوا نفوسهم دونه ، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج ، وكان أولى من أنفسهم ، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة ، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب والله يأمرهم بالصبر والعفو والصفح ، حتى قويت الشوكة ، واشتد الجناح ، فأذن لهم حينئذ فى القتال ولم يفرض عليهم ، فقال تعالى ﴿ أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا ﴾ قال غير واحد من السلف كابن عباس ومجاهد وعروة ابن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة : هذه أول آية نزلت فى الجهاد . وفى سنن النسائى والترمذى عن ابن عباس قال : لما خرج النبى ﷺ قال أبو بكر : أخرجوا

نبيهم ، إنا لله وإنا اليه راجعون ليهلكن . فأنزل الله ﴿ أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ الآية . زاد الإمام أحمد في روايته . وهي أول آية نزلت في القتال . انتهى . وعلل الإذن بأنهم ظُلموا ، وكانوا يأتون النبي ﷺ ما بين مضروب ومشجوج ، فيقول لهم : اصبروا ، فاني لم أؤمر بالقتال . حتى هاجر فأذن له في القتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية . قال ابن اسحاق : أي إني إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظُلموا ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أنهم يعبدون الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . يعني رسول الله ﷺ

ثم أنزل الله ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ﴾ أي لا يفتن مؤمن عن دينه ، ويكون الدين لله أي حتى يعبدوا الله لا يعبدوا معه غيره

وقد قالت طائفة : إن هذا الإذن كان بمكة والسورة مكية ، وهذا غلط لوجوه : أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال ، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة . الثاني أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم ، فانه قال ﴿ الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ . الثالث أنه خاطبهم في آخرها بقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ والخطاب بذلك كله مدني ، وأما الخطاب بيا أيها الناس فمشترك

ثم فرض عليهم القتال — بعد ذلك — لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ ، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة ، وكان القتال محرماً ، ثم مأذوناً فيه ، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين ، إما فرض عين على أحد القولين أو فرض كفاية على المشهور ، والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب وإما باللسان وإما بالمال وإما باليد ، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع الأربعة . أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية ، وأما الجهاد بالمال ففي وجوبه قولان والصحيح وجوبه لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء

فصل

وكان ﷺ يستحب القتال أول النهار كما يستحب الخروج للسفر أوله ، فاذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهبّ الرياح وينزل النصر ، وكان يبايع أصحابه فى الحرب على أن لا يفرّوا ، وربما بايعهم على الموت ، وبايعهم على الجهاد كما بايعهم على الإسلام ، وبايعهم على الهجرة قبل الفتح ، وبايعهم على التوحيد والتزام طاعة الله ورسوله وبايع نفراً من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً ، وكان السوط يسقط من يد أحدهم فينزل فيأخذه ولا يقول لأحد ناولنى إياه . وكان يشاور أصحابه فى الجهاد ولقاء العدو أو تخير المنازل ، وفى المسند عن أبى هريرة : ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ . وكان يتخلف فى ساقتهم فى المسير فيزجى الضعيف ويردف المنقطع ، وكان أرفق الناس بهم فى السير. وكان إذا أراد غزوة ورى بغيرها ، وكان يقول «الحرب خُدعة» ، وكان يبعث العيون يأتونه بخبر عدوه ، ويطلع الطلائع ويبث الحرس . وكان إذا لقى عدوه وقف ودعا واستنصر وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله . وخفضوا أصواتهم . وكان يرتب الجيش والمقاتلة ويجعل فى كل جنبة كفؤاً لها ، وكان يبارز بين يديه بأمره ، وكان يلبس للحرب عدة ، وربما ظاهر بين درعين ، وكان له الألوية ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً ثم قفل . وكان ربما يبيت عدوه وربما فاجأهم نهاراً ، وكان يحب الخروج بكرة يوم الخميس ، وكان يستحب للرجل أن يقاتل تحت راية قومه ، وكان إذا لقى العدو يقول : « اللهم مُنزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وزلزلهم . اللهم أنزل نصرك ، اللهم أنت عضدى ونصيرى ، بك أقاتل » وكان إذا اشتد البأس وحمى الحرب وقصده العدو يعلم بنفسه ويقول « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ، وكان البأس إذا اشتد اتقوا به ، وكان أقربهم إلى العدو ، وكان يجعل لأصحابه شعاراً فى الحرب يعرفون به إذا تكلموا ، وكان يحب الخيلاء فى الحرب وقال : إن منها ما يحب الله ، ومنها ما يبغضه الله . فأما الخيلاء التى يحبها فاختيال

الرجل نفسه عند اللقاء واختياله عند الصدقة ، وأما التي يبغض الله فاختياله في البغي والفجور . وقاتل مرة بالمنجنيق نصبه على أهل الطائف . وكان ينهى عن قتل النساء والولدان ، وكان ينظر في المقاتلة فمن رآه أنبت قتله ومن لم ينبت استحياه . وكان إذا بعث سرية يوصيهم بتقوى الله ويقول : سيروا بسم الله ، قاتلوا من كفر بالله ، ولا تمثلوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً . وكان ينهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو . وكان يأمر أمير سريته أن يدعو عدوه قبل القتال إما إلى الإسلام والهجرة ، أو الإسلام دون الهجرة ويكونوا كأعراب المسلمين ليس لهم في الفيء نصيب ، أو بذل الجزية . فإن أجابوا اليه قبل منهم ، وإلا استعان بالله وقاتلهم . وكان إذا ظفر بعدوّه أمر منادياً فجمع الغنائم كلها ، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها ، ثم أخرج خمس الباقي فوضعه حيث أراه الله وأمر به من مصالح المسلمين ، ثم يرضخ من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد ، ثم قسم الباقي بالسوية بين الجيش : للفارس ثلاثة أسهم له سهم وسهمان لفرسه ، وللراجل سهم . هذا هو الصحيح الثابت عنه ، وكان ينفل من صلب الغنيمة بحسب ما يراه من المصلحة ، وقيل : بل كان النفل من الخمس ، وقيل — وهو أضعف الأقوال — بل كان من خمس الخمس ، وجمع لسلمة بن الأكوع في بعض مغازيه بين سهم الراجل والفارس فأعطاه خمسة أسهم لعظم غنائه في تلك الغزوة . وكان يسوى بين الضعيف وغيره في القسمة ماعدا النفل . وكان إذا أغار في أرض العدو أو بعث سرية بين يديه فما غنمه أخرج خمسه ونفلها ربع الباقي وقسم الباقي بينهم وبين سائر الجيش ، وإذا رجع فعل ذلك ونفلها الثلث . ومع ذلك كان يكره النفل ويقول : ليرد قويّ المؤمنين على ضعيفهم . وكان له سهم من الغنيمة يدعى « الصفى » إن شاء عبداً وإن شاء فرساً يختاره قبل الخمس ، وقالت عائشة : وكانت صفية من الصفى ، رواه أبو داود . وكان سيفه ذو الفقار من الصفى . وكان يسهم لمن غاب لمصلحة المسلمين . وكانوا يستأجرون الأجير للغزو على نوعين : أحدهما أن يخرج الرجل ويستأجر من يخدمه في سفره ، والثاني أن يستأجر من ماله من يخرج للجهاد ، ويسمون ذلك الجعائل ، وفيها قال النبي ﷺ « للغازى أجره ، وللجاعل أجره وأجر الغازى » .

وكانوا يتشاركون فى الغنيمة على نوعين أيضاً : أحدهما شركة الأبدان ، والثانى أن يدفع الرجل إلى الرجل بعيره أو فرسه يغزو عليها على النصف مما غنم ، حتى ربما اقتسما السهم فأصاب أحدهما قدحه والآخر نصله وريشه . وقال ابن مسعود . اشتركت أنا وعمار وسعد فيما نصيب يوم بدر ، فجاء سعد بأسيرين ولم أجىء أنا وعمار بشىء . وكان يبعث السرية فرساناً تارة ورجالة أخرى ، وكان لا يسهم لمن قدم من المدد بعد الفتح ، وكان المسلمون يصيبون فى مغازيهم العسل والعنب والطعام فيأكلونه ولا يرفعونه فى المغانم . قال ابن عمر : إن جيشاً غنموا فى زمن رسول الله ﷺ طعاماً وعسلا فلم يؤخذ منهم الخمس . رواه أبو داود

فصل

وكان ينهى فى مغازيه عن النهبى والمثلة وقال « من انتهب نهبة فليس منا » ، وأمر بالقدور التى طبخت من النهب فأكفئت . وروى البخارى فى صحيحه فى باب ما يكره من ذبح الإبل والغنم فى المغانم عن رافع قال : كنا مع النبى ﷺ بذى الحليفة فأصاب الناس جوع وأصبنا إبلا وغنما ـ وكان النبى ﷺ فى أخريات الناس ـ فعجلوا فنصبوا القدور ، فأمر بالقدور فأكفئت . . الحديث . وذكر أبو داود عن رجل من الأنصار قال خرجنا مع رسول الله ﷺ فأصاب الناس مجاعة شديدة وجهد ، وأصابوا غنما فانتهبوها ، وإن قدورنا لتغلى إذ جاء رسول الله يمشى على قوسه فأكفأ قدورنا بقوسه ، ثم جعل يرمل اللحم بالتراب ثم قال « إن النهبة ليست بأحل من الميتة ، وإن الميتة ليست بأحل من النهبة » . وكان يشدد فى الغلول جداً ويقول « عار ، ونار ، وشنار على أهله يوم القيامة» . ولما أصيب غلامه مدعم قال بعض الصحابة : هنيئاً له بالجنة . قال « كلا والذى نفسى بيده . إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من المغانم من المقاسم لتشتعل عليه نارا » فلما سمع ذلك المسلمون جاء رجل بشراك أو شراكين ، فقال النبى ﷺ « شراك أو شراكان من نار » وكان إذا أصاب غنيمة أمر بلالا فنادى فى الناس فيجيئون مغانمهم ،

فيخمسها ويقسمها . فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شعر ، فقال : ما منعك أن تجىء به ؟ فاعتذر ، فقال : كن أنت تجىء به يوم القيامة فلن أقبله عنك . وأمر بتحريق متاع الغالّ وضربه ، وأحرقه الخليفتان الراشدان بعده ، فقيل : هذا منسوخ بسائر الأحاديث التى ذكرت ، فانه لم يجىء التحريق بشىء منها ، وقيل وهو الصواب : إن هذا من باب التعزير وهو العقوبات المالية الراجعة إلى اجتهاد الأئمة بحسب المصلحة ، فانه حرق وترك ، وكذلك من بعده . وكان هديه فى الأسارى أنه كان يمنّ على بعضهم ويقتل بعضهم ويفادى بعضهم بالمال وبعضهم بأسرى المسلمين ، وقد فعل ذلك كله بحسب المصلحة

فصل

قال ابن إسحاق : ونصبت أحبار يهود العداوة لرسول الله ﷺ بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله به العرب من أخذه رسوله منهم . قلت : وقد ذكر غيره أن رسول الله ﷺ قد كان وادعهم وكتب بينه وبينهم كتابا ، وكانوا ثلاث قبائل . بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة . فحاربته الثلاث ، فمنّ على بنى قينقاع ، وأجلى بنى النضير ، وقتل بنى قريظة وسبى ذريتهم ونساءهم . ونزلت سورة الحشر فى بنى النضير ، وسورة الأحزاب فى بنى قريظة . وبادر حبرهم وعالمهم وسيدهم وابن سيدهم عبد الله بن سلام فدخل فى الإسلام كما تقدم ، وكان من بنى قينقاع ، وأبى عامتهم إلا الكفر والعناد

قال ابن إسحاق : وظاهرهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان على جاهليته فكانوا أهل نفاق وعلى دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام ، واتخذوه جُنّة من القتل . وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النبى ﷺ ، وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان القرآن ينزل عليه فيما يسألونه ، إلا قليلا من المسائل فى الحلال والحرام كان المسلمون يسألونه عنها . منهم : حُيى بن أخطب وأخوه ياسر بن أخطب وجُدَىّ بن أخطب وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع بن أبى الحُقيق

وسلام بن أبى الحقيق أبو رافع الأعور ـ وهو الذى قتله أصحاب رسول الله ﷺ بخيبر ـ والربيع بن الربيع بن أبى الحقيق وعمرو بن جحاش وكعب بن الأشرف ـ وهو من طيء ثم أخو بنى نبهان ـ وأمه من بنى النضير فهؤلاء من بنى النضير. وعبد الله بن صوريا الأعور ولم يكن فى زمانه بالحجاز أعلم منه بالتوراة وابن صلوبا ، ومخيريق وكان خيرهم وكان حبراً عالما وكان غنيا كثير الأموال وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد فى علمه ، وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أحـد وكان يوم السبت قال : يامعشر اليهود ، والله إنـكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا : إن اليوم يوم السبت ، قال : لاسبت لـكم . ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد ، وعهد إلى من وراءه من قومه إن قتلت فى هذا اليوم فأموالى لمحمد يصنع فيها ما أراه الله . فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل ، فـكان رسول الله ﷺ فيما بلغنى يقول : مخيريق خير يهود . وقبض رسول الله ﷺ أمواله فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها

وحدثنى عبد الله بن أبى بكر قال : حدثت عن صفية بنت حُيي أنها قالت : كنت أحب ولد أبى اليه وإلى عمى أبى ياسر ، ولم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه . قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف غدا عليه أبى حُيي بن أخطب وعمى أبو ياسر بن أخطب مغلسين . قالت : فلم يرجعا حتى كان مـــع غروب الشمس . قالت : فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا . قالت : فهششت اليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلىّ واحد منهما مع ما بهما من الغم . وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى حيي : أهُو ، أهُو ، قال : نعم والله . قال : تعرفه وتثبته ؟ قال : نعم . قال : فما فى نفسك ؟ قال : عداوته والله ما بقيت

قال ابن اسحاق : وكان ممن يسمى لنا من المنافقين من الأوس والخزرج زُوَىٌّ بن الحارث والحارث بن سويد بن الصامت . قال ابن حزم : قتله رسول الله ﷺ قوداً . وكان أخوه خلاد بن سويد من فضلاء المسلمين . وكانت لأخيهما الجلاس بن سويد نزعة ثم لم يُرَ منه إلا خير وصلاح وإسلام إلى أن مات . قلت : يريد ما ذكره ابن إسحاق

أنه قال : لئن كان ما يقول محمد حقا لنحن شر من الحمير . فأنزل الله فيه ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ . قال ابن اسحاق : فزعموا أنه تاب فحسنت توبته . ونبتل بن الحارث وهو الذى قال له رسول الله ﷺ « من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث » وكان رجلا جسيما أدلم ثائر الرأس أحمر العينين أسفع ، وبجاد ابن عثمان بن عامر وأبو حبيبة بن الأزعر وهو أحد أصحاب مسجد الضرار . وعباد بن حنيف وكان أخوه سهل من خيار المسلمين ، ونجرج وهو ممن بنى مسجد الضرار ، وعمرو ابن خذام وعبد الله بن نبتل وجارية بن عامر بن العطاف . قال ابن حزم : وقد ذكر ابناه زيد ومجمع ولم يصح عن مجمع إلا الخير والقرآن والإسلام ، لكنه كان أبوه قدمه ليصلى بهم فى مسجد الضرار ، وذكر ابن اسحق أنه قال لعمر : والله يا أمير المؤمنين ما علمت بشىء من أمرهم . ووديعة بن ثابت وهو ممن بنى مسجد الضرار . قال وهو الذى قال : إنما كنا نخوض ونلعب . وخذام بن خالد وهو الذى أخرج مسجد الضرار من داره ، وبشر ورافع ابنا زيد ومربع بن قيظى وأخوه أوس بن قيظى وحاطب بن أمية ابن رافع وكان له ابن من خيار المسلمين يقال له زيد بن حاطب . وقزمان حليف لهم فقاتل يوم أحد قتالا شديداً فأخبر النبى ﷺ فقال : هو من أهل النار ، فعجب الناس من ذلك ، فلما اشتد به الأمر قتل نفسه

قال ابن إسحاق : ولم يكن فى بنى عبد الأشهل منافق ولا منافقة ، إلا أن الضحاك ابن ثابت كان يتهم بذلك . ومن الخزرج ثم من بنى النجار رافع بن وديعة وزيد بن عمرو وعمرو بن قيس وقيس بن عمرو . ومن بنى سلمة الجد بن قيس وهو الذى قال : يامحمد ائذن لى ولا تفتنى ومن بنى عوف بن الخزرج عبد الله بن أبىّ بن سلول ، وكان رأس المنافقين واليه يجتمعون وكان ابنه عبد الله من صلحاء المسلمين . وكان قوم من اليهود يتعوذون بالإسلام وهم يبطنون الكفر ، منهم سعد بن حنيف وزيد بن اللصيت ونعمان بن أوفى وعثمان بن أوفى ، ورافع بن حريملة وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ فيما بلغنا حين مات: قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين ، ورفاعة بن زيد بن التابوت وسلسلة بن برهام

وكنانة بن صوريا . وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم ، ففى هؤلاء من المنافقين — من أحبار يهود ، ومن الأوس والخزرج — نزل صدر سورة البقرة فيما بلغنى

وكان فيما بلغنى عن عكرمة مولى ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بنى سلمة : يامعشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته . فقال سلام بن مشكم أحد بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه ، وما هو بالذى نذكره لكم فأنزل الله فى ذلك ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ وقال ابن صلوبا لرسول الله ﷺ : يا محمد ما جئتنا بشىء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك لها . فأنزل الله فى ذلك من قوله ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد : يامحمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه ، وفجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك ، فأنزل الله فى ذلك من قولهما ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴾ الآية . وكان حُيى بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود حسداً للعرب ، إذ خصهم الله برسوله ﷺ ، فكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ الآية

قال ابن إسحاق : ودعا رسول الله ﷺ اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته ، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف : بل نتبع يامحمد ما وجدنا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم منا وخيراً منا ، فأنزل الله فى ذلك ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ الآية

قال ابن إسحاق : ومرّ شأس بن قيس — وكان شيخاً قد عتا عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم — على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من إلفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة فى هذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . فأمر فتى شاباً من يهود كان معه فقال : اعمد اليهم واجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك أبو أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى فقتلا جميعاً . قلت : وفى الصحيح عن عائشة قالت : وكان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم فى دخولهم فى الإسلام . قال ابن إسحاق : ففعل الفتى ، فتكلم القوم عند ذلك وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب — أوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحارث بن الأوس ، وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج — فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها جذعة ، فغضب الفريقان جميعاً وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة · والظاهرة الحرة . السلاح ، السلاح . فخرجوا إليها ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : يامعشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله . فأنزل الله فى شأس بن قيس وما صنع ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً ﴾ الآية . وأنزل الله فى أوس بن قيظى وجبار

ابن صخر ومن كان معهما من قومهما ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ الآيات ، إلى قوله ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم ﴾ والآيات بعدها

قال ابن إسحاق : فقدم رسول الله ﷺ المدينة كما حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة وسيد أهلها عبد الله بن أبىّ لا يختلف عليه فى شرفه من قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره ، ومعه فى الأوس رجل هو فى قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر عبد بن عمرو بن صيفى بن النعمان وهو أبو حنظلة الغسيل يوم أُحد ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وكان يقال له الراهب ، فقال رسول الله ﷺ لا تقولوا الراهب ، ولكن قولوا الفاسق ، كما حدثنى محمد بن أبى أمامة عن بعض آل حنظلة بن أبى عامر ، فشقيا بشرفهما وضرهما ، وكان قوم عبد الله قد نظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكا . فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل كارها مضراً على نفاقه وضغنه

وأما أبو عامر فأبىٰ إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام ، فخرج إلى مكة ببضعة عشر رجلا ، وكان أبو عامر أتى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة قبل أن يخرج إلى مكة فقال : ماهذا الدين الذى جئت به ؟ قال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم . قال : فأنا عليها . فقال له رسول الله ﷺ : إنك لست عليها . قال بلى ، إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ماليس منها . قال مافعلتُ ، ولكنى جئت بها بيضاء نقية . قال : الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً . يعرّض برسول الله ﷺ ، أى إنك جئت بها كذلك ، فقال رسول الله ﷺ : أجل فمن كذب يفعل الله به ذلك ، فكان هو ذلك عدو الله ، خرج إلى مكة ، فلما فتحت خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها

وأما عبد الله بن أبىّ فأقام على شبهة فى قومه متردداً حتى غلبه الإسلام فدخل فيه كارها

قال ابن إسحاق : فحدثنى محمد بن مسلم الزهرى عن عروة بن الزبير عن أسامة بن زيد قال : ركب رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة يعوده من شكوى أصابته ـ على حمار عليه إكاف فوقه قطيفة فدكية مختطمة بحبل من ليف ـ وأردفنى رسول الله خلفه ، قال فمر بعبد الله بن أبى وهو فى ظل « مزاحم » أطمه ، وحوله رجال من قومه ، فلما رآه رسول الله ﷺ تذمم من أن يجاوزه حتى ينزل ، فنزل فسلم ، ثم جلس فتلا القرآن ودعا إلى الله وذكر بالله وحذر وبشر وأنذر ، قال وهو زام لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته قال : ياهذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا . فاجلس فى بيتك فمن جاءك فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تَغْتَّه به ولا تأته فى مجلسه بما يكره . قال : قال عبد الله بن رواحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين : بلى فاغشنا به وائتنا فى مجالسنا دورنا ، فهو والله مما نحب ، ومما أكرمنا الله به وهدانا له . فقال عبد الله حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل   تذل ويصرعك الذين تصارع

وهل ينهض البازى بغير جناحه   وإن جذ يوما ريشه فهو واقع

قال ابن هشام : البيت الثانى عن غير ابن إسحاق

قال ابن اسحاق فى حديثه عن الزهرى عن عروة عن أسامة قال : وقام رسول الله ﷺ فدخل على سعد بن عبادة وفى وجهه ما قال عبد الله بن أبى عدو الله ، قال : والله رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئا كأنك سمعت شيئا تكرهه ؟ قال : أجل ، ثم أخبره ا قال ابن أبى فقال سعد : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له لخرز لنتوجه ، فانه ليرى أن قد سلبته ملكا

قلت : وأخرجه البخارى فى صحيحه بنحوه : أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى ل أخبرنا عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره . فذكر الحديث أبسط من رواية ن إسحاق ، وفيه : وأردف أسامة بن زيد وراءه . وفيه : وذلك قبل وقعة بدر ، وقبل

أن يسلم عبد الله . وفيه : وإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين ، والمشركين عبدة الأوثان ، واليهود . وفيه : فلما غشيت القوم عجاجة الدابة خمَّر عبد الله بن أبيّ أنفه بردائه وقال : لا تغبروا علينا . وفيه : فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبى ﷺ يخفضهم حتى سكنوا . وفيه قال سعد بن عبادة : اعف عنه واصفح ، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذى أنزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يتوجوه فيعصبونه بالعصابة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك شرق بذلك ، فذلك الذى فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله ﷺ . وكان النبى ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى . قال الله عز وجل : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور ﴾ وقال تعالى ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً ﴾ إلى قوله ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ وكان النبى ﷺ يتأول فى العفو ما أمره الله حتى أذن الله فيهم ، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل الله صناديد كفار قريش قال ابن أبيّ ومن معه من المشركين عبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه . فبايعوا رسول الله ﷺ وأسلموا

فصل

قال ابن إسحاق : وحدثنى هشام بن عروة وعمر بن عبد الله بن عروة عن أبيه عروة ابن الزبير عن عائشة قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم . قالت : فصرف الله ذلك عن نبيه . قالت : فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبى بكر مع أبى بكر فى بيت واحد فأصابتهم الحمى ، فدخلتُ عليهم أعودهم ، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ، وبهم مالا يعلمه إلا الله من شدة الوعك ، فدنوت من أبى بكر فقلت له : كيف تجدك يا أبة ؟ فقال :

كل امرئ مصبح فى أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

قالت فقلت : والله ما يدرى أبى ما يقول

قالت : ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرىء مجاهد بطوقه كالثور يحمى جلده بروقه

قالت فقلت : والله ما يدرى عامر ما يقول

قالت : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ، ثم رفع عقيرته فقال :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بفخ وحولى إذخر وجليل
وهل أردَنْ يوماً حياض مجنة وهل يبدوَن لى شامة وطفيل

قالت عائشة : فذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم فقلت : إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى . قال فقال رسول الله ﷺ « اللهم حبب الينا المدينة كما حببت الينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مُدِّها وصاعها ، وانقل وباءها إلى مهيعة » ومهيعة الجحفة

فصل

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة صار الكفار ثلاثة أقسام : قسم صالحهم على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة ، وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول اليه أمره . ومن هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ تهيأ لحربه ، وقام فيما أمره الله به من جهاد عدوهم وقتال من أمره الله به ممن يليه من المشركين ، مشركى العرب . فأقام بعد قدومه المدينة بقية شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر والجماديين ورجباً وشعبان ورمضان وشوالا وذا القعدة وذا الحجة والمحرم ، ثم خرج غازياً على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه المدينة فى صفر ، واستعمل على المدينة سعد بن عبادة حتى بلغ ودان — وهى غزوة الأبواء — يريد

قريشا وبنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فوادع فيها بنى ضمرة وعقد ذلك معه سيد بنى ضمرة مخشى بن عمرو الضمرى ، وكان سيدهم فى زمانه ذلك ، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً ، فأقام بها بقية صفر وصدراً من ربيع الأول . وهى أول غزوة غزاها بنفسه . وذكر البخارى فى صحيحه عن أبى إسحاق أولها الأبواء ، وليس بينهما اختلاف لأن الأبواء أو ودان مكانان متقاربان

فلما انصرف رسول الله ﷺ بعث عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبدمناف فى ستين أو ثمانين راكبا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة ، فلقى بها جمعا عظيما من قريش فلم يكن بينهم قتال ، إلا أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم فكان أول سهم رمى به فى سبيل الله ، وفر يومئذ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرانى حليف بنى زهرة وعتبة بن غزوان بن جابر المازنى وكانا قديمى الإسلام إلا أنهما لم يتمكنا من الوصول إلى المسلمين إلا يومئذ

قال ابن إسحاق : وكانت راية عبيدة أول راية عقدها رسول الله ﷺ فى الإسلام

وبعث عليه الصلاة والسلام فى مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص فى ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، فلقى أبا جهل ابن هشام بذلك الساحل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى ، وكان موادعا للفريقين جميعا ، فانصرف القوم بعضهم عن بعض

قال ابن إسحاق : وبعض الناس يقول كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ فى الإسلام ، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معا فشبه ذلك على الناس ، قلت . وقدم صاحب الهدى بعث حمزة وعبيدة . وبعث سعد بن أبى وقاص على غزوة الأبواء . والله أعلم

غزوة بُوَاط : ثم خرج رسول الله ﷺ فى ربيع الآخر وهو صدر العام الثانى من مقدمه المدينة واستعمل على المدينة السائب بن مظعون يريد قريشا حتى بلغ بواط من ناحية

رضوَى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً ، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى

ثم غزا غزوة العشيرة ، خرج رسول الله ﷺ فى جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وخرج فى خمسين ومائة ــ ويقال فى مائتين ــ من المهاجرين ولم يكره أحد من الخزرج ، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها ويتعرضون عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام ، وكان قد جاءه الخبر بفصولها من مكة وفيها أموال لقريش ، فبلغ العشيرة وقيل العشيراء بالمد وقيل العسيرة بالمهملة وهى من ناحية ينبع ، فوجد العير قد فاتته بأيام ، وهذه هى العير التى خرج فى طلبها حين رجعت من الشام وهى التى وعده الله إياها ، أو ذات الشوكة ووفى له بوعده ، وفيها وداع بنى مدلج وحلفاءهم بنى ضمرة

وبعث رسول الله ﷺ سعد بن أبى وقاص وثمانية رهط من المهاجرين ، فخرج حتى بلغ الخرار من أرض الحجاز ، فرجع ولم يلق كيداً

غزوة بدر الأولى : قال ابن إسحاق : فلم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم من غزوة العشيرة إلا ليالى قلائل لا تبلغ العشر ، حتى أغار كرز بن جابر الفهرى على سرح المدينة فاستاقه ، فخرج رسول الله ﷺ فى طلبه ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة حتى بلغ وادياً يقال له سفوان فى ناحية بدر ففاته كرز ، فرجع رسول الله ﷺ الى المدينة ولم يلق حرباً

بعث عبد الله بن جحش ، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها جمادى الآخرة ورجباً وشعبان ، وبعث عليه الصلاة والسلام فى رجب المذكور عبد الله بن جحش الأسدى الى نخلة ، على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة ، فى اثنى عشر رجلا من المهاجرين كل اثنين يعتقبان على بعير ، فوصلوا إلى بطن نخلة يرصدون عيراً لقريش . وفى هذه السرية سمى عبد الله بن جحش أمير المؤمنين ، وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً وأمره

أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فلما فتح الكتاب وجد فيه « إذا نظرت إلى كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة بين مكة والطائف فترصد بها عيراً لقريش وتعلم لنا من أخبارهم » فقال ، سمعاً وطاعة ، وأخبر أصحابه بذلك وأنه لا يستكرههم ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع . فمضوا كلهم . فلما كان فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما ، فتخلفا فى طلبه ، ونفذ عبد الله ومن معه حتى نزل بنخلة ، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة فيها عمرو بن الحضرمى وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة . فتشاور المسلمون فيهم وقالوا نحن فى آخر يوم من رجب الشهر الحرام ، فان قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم . ثم أجمعوا على ملاقاتهم ، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى فقتله ، وأسروا عثمان والحكم ، وأفلت نوفل فأعجزهم . ثم قدموا بالعير والأسيرين

قال ابن إسحاق : وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه : إن لرسول الله مما غنمنا الخمس ، فكان ذلك أول خمس فى الإسلام ، وأول قتيل فى الإسلام ، وأول أسير فى الإسلام. فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال : ماأمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط فى أيدى القوم وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين ، واشتد تعنت قريش وإنكارهم ذلك . وزعموا أنهم وجدوا مقالا وقالوا : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام . وتفاءلت اليهود على رسول الله بذلك فقالوا : عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله ، عمرو عمرت الحرب ، والحضرمى حضرت الحرب ، وواقد وقدت الحرب ، فجعل الله ذلك عليهم لا لهم ، فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسوله ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أشد من القتل ﴾ يقول سبحانه وتعالى : هذا الذى أنكرتموه عليهم وإن كان كبيراً فما ارتكبتموه أنتم من الكفر والصد عن سبيله وعن بيته وإخراج المسلمين الذين هم أهله والشرك الذين أنتم

عليه والفتنة التى حصلت منكم أكبر عند الله من قتالهم فى الشهر الحرام . وأكثر السلف فسروا الفتنة ههنا بالشرك ، وفسرت بتعذيبهم المؤمنين وفتنتهم إياهم عن دينهم ، والمقصود أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف ولم يبرئ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال فى الشهر الحرام ، بل أخبر أنه كبير ، وأن ماعليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال فى الشهر الحرام ، فهم أحق بالذم والعقوبة والعيب

قال ابن إسحاق : فلما نزل القرآن بذلك فرج الله عن المسلمين ، وقبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين ، ففادت قريش الأسيرين ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه وأقام عند رسول الله حتى قتل يوم بئر معونة ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً . فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمعوا فى الأجر فقالوا : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله فيهم ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون الله ﴾ الآية فقال أبو بكر ، ويقال بل عبد الله بن جحش :

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشد

صدودكم عما يقول محمد ... وكفر به ، والله راء وشاهد

وإخراجكم من مسجد الله أهله ... لئلا يرى لله فى البيت ساجد

فانا وإن عيرتمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغ وحاسد

سقينا من ابن الحضرمى رماحنا ... بنخلة لما أوقد الحرب واقد

دما وابن عبد الله عثمان بيننا ... ينازعه غلّ من القد عاند

فصل

فلما كان فى شعبان من هذه السنة حولت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة على سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، وقيل على ثمانية عشر ، وقيل على ستة

عشر شهراً ، ولم يقل أحد أكثر ولا أقل . قال ابن حزم : وقد روى أن أول من صلى نحو الكعبة سعيد بن المعلى الأنصارى ، سمع رسول الله ﷺ يخطب بتحويل القبلة فقام فصلى ركعتين . انتهى . وكان ﷺ يحب أن يصرف إلى الكعبة ، وقال لجبريل : وددت أن أصرف وجهى عن قبلة اليهود ، فقال : إنما أنا عبد ، فادع ربك وسله . فجعل يقلب وجهه فى السماء يرجو ذلك ، فنزل عليه ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء ﴾ الآية

وفى البخارى أنه ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت . وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم ، فأنزل الله ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ الآية

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : بينما الناس يصلون الصبح فى مسجد قباء إذ جاءهم رجل فقال : إن النبى ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة ، ألا فاستقبلوها . وكان وجه الناس إلى الشام فاستداروا بوجوههم إلى الكعبة ، فقال بعض العلماء : وفى هذا دليل أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به ، وإن تقدم نزوله ، لأنهم لم يؤمروا بالإعادة . قال فى الهدى . وكان فى جعل القبلة إلى بيت المقدس ثم تحويلها الى الكعبة حِكَمٌ عظيمة ومحنة للمسلمين والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، فأما المسلمون فقالوا : سمعنا وأطعنا ، وقالوا آمنا به كل من عند ربنا ، وهم الذين هدى الله ولم تكن كبيرة عليهم . وأما المشركون فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا . وأما اليهود فقالوا : خالف قبلة الأنبياء . وأما المنافقون فقالوا : ما يدرى محمد أين يتوجه ، إن كانت القبلة الأولى حقاً فقد تركها ، وإن كانت الثانية هى الحق فقد كان على باطل . وكثرت أقاويل السفهاء من الناس . وكانت كما قال الله ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾

وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ليرى من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، فأنزل الله جواب السفهاء ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ أى إن الحكم والتصرف والأمر كله لله ، فحيث ما وجهنا توجهنا ، ولو وجهنا كل يوم مرات إلى جهات عديدة فنحن عبيده وفى تصرفه وخدامه . وأكد سبحانه الأمر بذلك مرة بعد مرة ، وأمر حيث ما كان رسوله ، ومن حيث خرج ، وأخبر أن الذى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم هداهم لهذه القبلة ، وأنها هى القبلة التى لهم وهم أهلها لأنهم أوسط الأمم وهى أوسط القبل وأفضلها ، فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم . كما اختار لهم أفضل الرسل وأفضل الكتب ، وأخرجهم فى خير القرون . وخصهم بأفضل الشرائع ، ومنحهم خير الأخلاق ، وأسكنهم خير الأرض ، وجعل منازلهم فى الجنة خير المنازل ، وموقفهم فى الجنة خير المواقف على تل عال والناس تحتهم ، فسبحان من يختص برحمته من يشاء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أحمد من حديث عائشة « إن اليهود لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها . وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام آمين » وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك لئلا يكون للناس عليهم حجة ، ولكن الظالمين الباغين يحتجون عليهم بتلك الحجج التى ذكرت ، ولا تعارض الرسل إلا بها وبأمثالها من الحجج الداحضة . أخبر سبحانه أنه فعل ذلك ليتم نعمته عليهم وليهديهم ، ثم ذكرهم نعمته عليهم بإرسال رسوله إليهم وإنزال كتابه عليهم ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه ، ثم أمرهم بذكره وشكره ، ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به وهو الصبر والصلاة وإنه مع الصابرين

فصل

قال ابن سعد والواقدى بأسانيدهما عن عائشة وابن عمر وأبى سعيد الخدرى قالوا : نزل فرض شهر رمضان بعد ما حولت القبلة بشهر فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً

من قدومه عليه الصلاة والسلام ، وزكاة الفطر قبل العيد بيومين أن يخرج عن الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير أو صاعاً من زبيب أو مُدَّين من بُرٍّ . انتهى . وقال عمر : فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر على الذكر والأنثى والحر والمملوك صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير . فعدل الناس به نصف صاع من بر ، قال الدمياطي : وذلك قبل أن تفرض زكاة الأموال . وقيل إن الزكاة فرضت فيها ، وقيل قبل الهجرة والله أعلم . ويدل عليه ما رواه أحمد والنسائي وابن ماجه عن قيس بن سعد قال : أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت الزكاة لم يأمرنا ولم ينهنا ، ونحن نفعله . قال صاحب الفروع : وإسناده جيد

غزوة بدر الكبرى

وهي أكرم المشاهد ، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله ودفع فيه الشرك وأهله ، وهذا مع قلة عدد المسلمين وكثرة العدوّ ، مع ما كانوا فيه من سوابغ الحديد والعدة الكاملة والخيول المسوَّمة والخيلاء الزائدة . فأعزّ الله رسوله ، وأظهر وحيه وتنزيله ، وبيض وجه النبي ﷺ وقبيله ، وأخزى الشيطان وجيله ، وأخبر النبي ﷺ أن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم . وفي الصحيح عن معاذ بن رفاعة الزرقي ـ وكان بدرياً ، وكان أبوه شهد العقبة ـ قال . جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدُّون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين ، أو كلمة نحوها . قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة ، فكان رافع من أهل العقبة ، وكان رافع يقول لابنه : ما يسرني أني شهدت بدراً بالعقبة

وكان خروجهم يوم السبت لاثني عشر خلت من رمضان ، على رأس تسعة عشر شهراً ، وقيل لثمان خلون منه ، واستخلف على المدينة أبا لبابة ، وخرج معه الأنصار ، ولم تكن قبل ذلك خرجت معه ، وكانت من غير قصد من المسلمين اليها ولا ميعاد ، كما قال تعالى ﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ بلغه خبر العير

المقبلة من الشام مع أبى سفيان فيها أموال عظيمة لقريش ، فندب أصحابه اليهم ، وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدو ، وقال : هذه عير قريش فيها أموال ، فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها . فخف بعض الناس وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً ، فأمر من كان حاضراً ظهره بالنهوض ، فخرج مسرعاً فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، وكانوا على سبعين بعيراً يتعقبونها ، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان : فرساً المقداد ، وفرساً للزبير بن العوام . فكان رسوله الله ﷺ وعلى بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد الغنوى على بعير ، فلما بلغ أبا سفيان مسيره عليه الصلاة والسلام استأجر ضمضم ابن عمرو الغفارى أن يأتى قريشاً بمكة فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد اعترض لعيرهم فى أصحابه ، فنهضوا مسرعين فى قريب من ألف مقاتل ، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير ، ولم يتخلف أحد من أشرافهم ، إلا أبا لهب وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة كان له دَين بذلك ، وحشدوا فيمن حولهم من العرب ، ولم يتخلف من بطون قريش سوى عدى بن كعب

وخرجوا من ديارهم كما قال الله تعالى ﴿ بطراً ورئاء الناس ﴾ وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن نكون كعير ابن الحضرمى ؟

ولما أجمعوا على المسير ذكروا ما بينهم وبين بنى بكر بن عبد مناة من الحرب وقالوا : إنا نخشى أن نؤتى من خلفنا ، فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك وكان من أشرافهم فقال : أنا لكم جار أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهون

فخرجوا سراعاً وخرج رسول الله ﷺ فيمن خف معه من أصحابه ، واستعمل على الصلاة بالناس عمرو بن أم مكتوم ، ثم رد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة ،ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير وكان أبيض ، وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان إحداها مع على بن أبى طالب والأخرى مع رجل من الأنصار ، قيل وكانتا سوداوين ، وجعل على الساقة قيس بن أبى صعصعة أخا بنى مازن من بنى النجار ، وكانت راية الأنصار مع سعد

ابن معاذ ، فسلك طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ، ثم على العقيق ، ثم على ذى الحليفة ، ثم على أولات الجيش ، ثم على تُربان ، ثم على ملل ، ثم على غميس الحمام ، ثم على صخرات اليمام ، ثم على السيالة ، ثم على فج الروحاء ، ثم على شنوكة ، حتى إذا كان بعرق الظبية لقوا رجلا من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبراً ، ونزل رسول الله ﷺ سجسج وهى بئر الروحاء ، ثم ارتحل منها حتى إذا كان بالمنصرف ترك طريق مكة يساراً وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدراً ، فسلك فى ناحية منها حتى جزع واديا يقال له رحقان ، بين النازية وبين مضيق الصفراء ، ثم علا المضيق ثم انصب به ، حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسبس بن عمرو الجهنى حليف بنى ساعدة وعدى بن أبى الزغباء الجهنى حليف بنى النجار يتجسسان الأخبار عن أبى سفيان وعيره ثم رحل عليه الصلاة والسلام فأخبر عن جبلى الصفراء أن اسمهما مسلح ومخرى ، وسأل عن أهله فقيل : بنو النار وبنو حراق بطنان من غفار ، فترك رسول الله ﷺ المرور بينهما وأخذ ذات اليمين على وادى ذفران وجزع ، ثم نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن الأسود فقال : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير ثم قال رسول الله ﷺ : أشيروا علىّ أيها الناس ، وإنما يريد الأنصار . وروى ابن مردويه وابن أبى حاتم عن أبى أيوب الأنصارى قال : قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة : إنى قد أخبرت عن عير أبى سفيان أنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج اليها لعل الله يغنمناها ؟ قلنا : نعم . فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا : ماترون فى القوم ، فإنهم قد أخبروا بخروجكم ؟ فقلنا : لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكن أردنا العير . ثم قال : ماترون فى قتال القوم ؟ فقلنا مثل ذلك . فقال المقداد . . وذكر تمام الحديث . ثم

استشارهم ثالثاً ، فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم ، وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم . فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . فقال له : فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر على بركة الله . فسرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك . ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ، قال فى عيون الأثر . روينا من طريق مسلم أن الذى قال ذلك سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وإنما يعرف ذلك عن سعد بن معاذ . واختلف فى شهود سعد بن عبادة بدراً فلم يذكره ابن عقبة ولا ابن إسحاق فى البدريين ، وذكره الواقدى والمدائنى وابن الكلبى منهم . انتهى

ثم ارتحل عليه الصلاة والسلام ، ثم نزل قريباً من بدر ، فركب هو ورجل من أصحابه . قال ابن هشام : هو أبو بكر الصديق حتى وقف على شيخ من العرب ، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه ، وما بلغهم عنهم ، فقال : لا أخبركما حتى تخبرانى من أنتما . فقال له رسول الله ﷺ إذا أخبرتنا أخبرناك . قال أو ذاك بذاك ؟ قال : نعم . قال : فانه بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فان كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا — المكان الذى به رسول الله — وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فان كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا المكان الذى به قريش . فلما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : نحن من ماء . ثم انصرف عنه . قال يقول الشيخ : من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟ ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى

أصحابه . فلما أمسى بعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص – فى نفر من أصحابه – إلى ماء بدر يلتمسون الخبر ، فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بنى الحجاج وعريض بن يسار غلام بنى العاص بن سعيد فأتوا بهما فسألوهما لمن أنتما؟ ورسول الله ﷺ قائم يصلى ، فقالا نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبى سفيان ، فضربوهما حتى إذا لقوهما قالا : نحن لأبى سفيان ، فتركوهما . وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه ثم سلم وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذبا كم تركتموهما ، صدقا والله . إنهما لقريش ، أخبرانى عن قريش . قالا : هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، والكثيب العقنقل ، فقال لهما رسول الله ﷺ : كم القوم؟ قالا كثير ، قال ما عدتهم . قالا ما ندرى . قال : كم تنحرون كل يوم؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . قال رسول الله ﷺ : القوم ما بين التسعمائة والألف . ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا : عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وأبو البخترى بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر وطعيمة بن عدى بن نوفل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود . فأقبل رسول الله على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها

وخفض أبو سفيان فلحق بساحل البحر ، ولما رأى أنه قد نجا وأحرز العير كتب إلى قريش أن ارجعوا فانكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم . فأتاهم الخبر وهم بالجحفة فهموا بالرجوع ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نقدم بدرا فنقيم به ، ونطعم من حضرنا من العرب ، وتخافنا العرب بعد ذلك . وأشار الأخنس بن شريق عليهم بالرجوع فعصوه ، فرجع هو وبنو زهرة ، فلم يشهد بدراً زهرى . فاغتبطت بنو زهرة بعد برأى الأخنس ، فلم يزل فيهم مطاعاً معظما . وكان حليفاً لهم . وأرادت بنو هاشم الرجوع ، فاشتد عليهم أبو جهل وقال : لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع

وسار رسول الله ﷺ حتى نزل أدنى ماء من مياه بدر ، وسبق قريشاً إلى بدر ، ومنع قريشاً من السبق اليه مطر عظيم أرسله الله تعالى مما يليهم ولم يصب منه المسلمين إلا لبَّد لهم دهس الوادى وأعانهم . فنزل عليه الصلاة والسلام على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة ، فأتاه الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح فقال : يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يارسول الله إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بنا حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ونغور ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملأه فنشرب ولا يشربون . فاستحسن رسول الله ﷺ هذا الرأى وفعله

وقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ، ألا نبنى لك عريشاً تسكن فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فان أظهرنا الله وأعزنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا . فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أن نلقى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك . فأثنى رسول الله خيراً ودعا له بخير . ثم بنى لرسول الله عريش فكان فيه ، ومشى رسول الله ﷺ على موضع الوقعة فعرض على أصحابه مصارع رءوس الكفر من قريش مصرعا مصرعا يقول : هذا مصرع فلان إن شاء الله ، هذا مصرع فلان إن شاء الله . قال عمر : فو الذى بعثه بالحق نبيا ما عدا واحد منهم مضجعه الذى حده رسول الله ﷺ . أخرجه مسلم فى صحيحه

قال ابن إسحاق : وقد ارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت ، فلما رآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل وهو الكثيب الذى جاءوا منه إلى الوادى قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها تجادلك وتكذِّب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم أحنهم الغداة

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا فى حوض رسول الله ، منهم حكيم ابن حزام ، فقال رسول الله ﷺ : دعوهم ؛ فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل . إلا ما كان من حكيم بن حزام فانه لم يقتل وأسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، وكان إذا اجتهد فى يمينه قال : لا والذى نجانى من يوم بدر

ولما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحى فقالوا : احزر لنا أصحاب محمد . فجاء بفرسه حول العسكر فقال : ثلاث مائة يزيدون قليلا أو ينقصونه ، ولكن أمهلونى حتى أنظر للقوم كمين أو مدد . فضرب فى بطن الوادى حتى أبعد فلم ير شيئاً . فرجع اليهم فقال : ما رأيت شيئاً ، ولكنى قد رأيت يامعشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت . قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم ، فاذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم ، فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس فأتى عتبة بن ربيعة فأشار عليه أن يرجع الناس ولا يكون حرب . فوافقه عتبة بن ربيعة . وقام عتبة فى الناس خطيباً ، فأشار عليهم بالرجوع ، فأبى أبو جهل ذلك ، وساعده المشركون

وبات رسول الله ﷺ إلى جذم شجرة هناك ، وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، فلما أصبحوا أقبلت قريش فى كتائبها واصطف الفريقان

قال ابن إسحاق : وقال فتية من قريش وكانوا خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم ، فلما رأوا قلة أصحاب محمد وكثرة عدوهم قالوا : غر هؤلاء دينهم . قال : وبلغنى أن الشيطان معهم أيضاً لا يفارقهم . قال : فذكر لى أنهم كانوا يرونه فى كل منزل فى صورة سراقة بن مالك لا ينكرونه ، حتى إذا التقى الجمعان فر عدو الله ونكص على عقبيه فذهب فأوردهم ثم أسلمهم حين رأى الله أيد رسوله والمؤمنين بالملائكة وقال : إنى أرى ما لا ترون . الآية . وكان كما قال حسان :

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم لو يعلمون يقين العلم ما ساروا
دلّاهُمُ بغرور ثم أسلمهم إن الخبيث لمن والاه غرارُ
وقال إنى لكم جار فأوردهم شر الموارد فيه الخزى والعار

وخرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة حتى نصلوا من الصف ، فخرج اليهم فتية من الأنصار وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث ـ وأمهما عفراء ـ وعبد الله بن رواحة فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : مالنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله ﷺ . قم ياعبيدة بن الحارث وقم ياحمزة وقم يا على ، فلما قاموا ودنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ قال عبيدة : عبيدة ، وقال حمزة : حمزة وقال على : على . فقالوا أنتم أكفاء كرام . فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز على الوليد . فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، فكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذففا عليه ، واحتملا صاحبهما فجراه إلى أصحابه فمات بالصفراء

وفى الصحيح عن على قال : فينا أنزلت هذه الآية ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم﴾ وفيه عن أبى ذر أنه كان يقسم قسما انزلت هؤلاء الآيات فى هؤلاء الرهط الستة يوم بدر . وفيه عن على قال : أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الرحمن يوم القيامة

وقال ابن اسحاق : وتزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : إذا أكثبوكم ـ يعنى أكثروكم ـ فارموهم [1] واستبقوا نبلكم

قال : وعدل رسول الله ﷺ الصفوف ، ورجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر الصديق وليس معه غيره ، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما

---

(١) أكثبوكم : قربوا منكم ، والكثب : القرب

يقول « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد » وأبو بكر يقول : يارسول الله يكفيك بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ماوعدك

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر فى العريش معه الصديق أخذت رسول الله سنة من النوم ، ثم استيقظ متبسما فقال : أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثناياه النقع . ثم خرج من باب العريش وهو يتلو ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ . وفى رواية : فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله ، قد ألححت على ربك ، وهو يثب فى الدرع فخرج وهو يقول ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ . وفى رواية ابن إسحاق : فقال رسول الله : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع . يريد الغبار . وفى رواية مسلم عن ابن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر ، فاستقبل النبى ﷺ القبلة ، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لى ما وعدتنى . وفيه : فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبى الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فانه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ فأمده الله بالملائكة . قال ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، فنظر إلى المشرك أمامه مستلقياً فنظر اليه فاذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع ، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال : صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة ، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . وفى رواية ابن سعد عن عكرمة قال : كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدرى من ضربه ، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربها

قال ابن إسحاق : ثم رمى مهجع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل فكان أول قتيل

من المسلمين ، ثم رمى حارثة بن سراقة أحد بني النجار وهو يشرب من الحوض فأصاب نحره فقتل فكان أول قتيل من الأنصار . ثم حرض رسول الله ﷺ الناس على القتال وقال : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة . فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة وفى يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، فما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله

وذكر ابن سعد وابن إسحاق أن أبا جهل قال لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض: اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرفه ، فأحنه الغداة . فكان هو المستفتح على نفسه . وأخرجه النسائى من حديث صالح بن كيسان عن الزهرى عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير . ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصى فاستقبل بها قريشاً ثم قال : شاهت الوجوه . ثم نفحهم بها ، وأمر أصحابه فقال : شدوا ، فكانت الهزيمة ، فقتل الله فيها من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرافهم . قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس : رفع رسول الله ﷺ [يديه] فقال « يارب ، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً » فقال له جبريل : خذ قبضة من تراب . فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة ، فولوا مدبرين

ذكر مقتل عدو الله أبى جهل

روى البخارى فى الصحيح عن عبد الرحمن بن عوف قال : إنى لفى الصف يوم بدر إذ التفت فاذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، إذ قال لى أحدها سراً من صاحبه : ياعم أرنى أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخى فما تصنع به ؟ قال أخبرت أنه يسب رسول الله . قال : والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا . فتعجبت لذلك . قال وغمزنى الآخر فقال لى مثلها . فلم أنشب

أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس ، فقلت : ألا ترَيان ؟ هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه . قال فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فقال : أيكما قتله ؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتلته . قال : هل مسحتما سيفيكما ؟ فقالا : لا . فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين فقال : كلاكما قتله . وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح . والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء . وفى رواية : فتمنيت أن أكون بين أضلع [واحد] منهما . وفى رواية : فما سرنى أنى كنت بين رجلين مكانهما : وفى الصحيح عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : من ينظر ما صنع أبو جهل ؟ فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد . وقال أأنت أبا جهل ! وقال أحمد بن يونس : أأنت أبو جهل . فأخذ لحيته وقال : هل فوق رجل قتلتموه أو رجل قتله قومه . وفى رواية ابن علية : أنت أبا جهل . هكذا قالها أنس . قال وقال أبو مجلز قال أبو جهل : فلو غير أكار قتلنى . وذكر ابن إسحاق فى السيرة قال عبد الله ابن مسعود : فوجدته بآخر رمق ، فعرفته ، فوضعت رجلى على عنقه . قال : وقد كان ضبث بى [1] مرة بمكة فآذانى ولكزنى ، ثم قلت له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ قال . وبماذا أخزانى ، أعمد من رجل قتلتموه . أخبرنى لمن الدائرة ؟ قال قلت : لله ورسوله . وزعم رجال من بنى مخزوم أن عبد الله بن مسعود كان يقول . قال لى : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعى الغنم . قال : ثم احتززت رأسه ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله هذا رأس عدو الله أبى جهل . قال فقال : آلله الذى لا إله غيره ؟ قال : وكانت يمين رسول الله . قال قلت : نعم والذى لا إله غيره . ثم ألقيت برأسه بين يدى رسول الله ، فحمد الله . وفى رواية غير ابن إسحاق فقتله عبد الله ثم أتى النبى ﷺ فقال : قتلته . فقال : الله الذى لا إله غيره ؟ فرددها ثلاثاً . ثم قال : الله أكبر ، الحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده : انطلق بى فأرنيه : فانطلقنا فأريته إياه ، فقال : هذا فرعون هذه الأمة

---

(١) أى قبض على ولازمنى

وأسر عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف وابنه علياً ، فأبصره بلال ـ وكان يعذبه أمية بمكة ـ فقال : رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا . ثم خرج حتى وقف عند مجلس من مجالس الأنصار فقال : يامعشر الأنصار ، أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا أمية ، فخرج فريق من الأنصار واشتد بهما عبد الرحمن بن عوف يحرزها منهم فأدركوهم ، فشغلهم عن أمية بابنه ففرغوا منه ، ثم لحقوها . فقال له عبد الرحمن : ابرك ، فبرك ، فألقى عليه نفسه فضربوه بالسيوف من تحته حتى قتلوه وأصاب بعض السيوف رجل عبد الرحمن بن عوف . وقال أمية قبل ذلك : من الرجل منكم المعلم فى صدره بريش النعام ؟ فقال : ذاك حمزة بن عبد المطلب . قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل . وكان مع عبد الرحمن أدراع قد استلبها ، فلما رآه أمية قال له : أنا خير لك من هذه الأدراع . فألقاها وأخذ بيده ويد ابنه وأمية يقول : ما رأيت كاليوم قط ، أما لكم حاجة فى اللبن ؟ فلما قتلته الأنصار كان يقول : يرحم الله بلالا ، فجعنى بأدراعى وبأسيرى . وكان رسول الله ﷺ قد أخبر بقتله قبل ذلك وأخبره بذلك سعد بن معاذ لما قدم مكة معتمراً ونزل على أمية ، فكان أمية إذا قدم المدينة نزل على سعد ، فرآه أبو جهل يطوف فقال : من هذا الذى يطوف بالكعبة ؟ فقال سعد : أنا سعد . فقال أبو جهل : تطوف بالكعبة آمنا وآويتم محمداً وأصحابه ؟ فقال : نعم . فتلاحيا بينهما ، فقال أمية لسعد : لا ترفع صوتك على أبى الحكم فإنه سيد أهل الوادى . فقال سعد : والله لئن منعتنى أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام . قال فجعل أمية بن خلف يقول لسعد : لا ترفع صوتك ، وجعل يمسكه . فغضب سعد فقال : دعنا عنك ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يزعم أنه قاتلك . قال : إياى ؟ قال : والله ما يكذب محمد . وفى رواية : فإنى سمعت رسول الله يقول : إنهم قاتلوك . قال : بمكة ؟ قال : لا أدرى . ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً ، فرجع إلى امرأته فقال : ما تعلمين ما قال أخى اليثربى ؟ قالت : وما قال ؟ قال : زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلى . قالت . فوالله ما يكذب محمد . فلما جاء الصريخ وخرجوا إلى بدر قالت له امرأته . أما ذكرت ما قال أخوك اليثربى ؟ قال :

فأراد أن لا يخرج ، فقال له أبو جهل : إنك من أشراف الوادى . فسر يوما أو يومين . فسار معهم حتى قتله الله . رواه البخارى فى صحيحه

وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن فأعطاه النبى ﷺ جذلا من حطب فقال : دونك هذا! فلما أخذه عكاشة وهزه عاد فى يده سيفا طويلا ، فلم يزل عنده يقاتل به حتى قتل أيام أبى بكر ، قتله طليحة الأسدى شهيداً

وفى الصحيح أن الزبير لقى عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج فى السلاح لا يرى منه إلا الحدق ، فحمل عليه الزبير بحربته فطعنه فى عينه فمات ، فوضع رجله على الحربة ثم تمطى ، وكان الجهد أن نزعها وقد انثنى طرفها ، فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه إياها . فلما قبض رسول الله ﷺ أخذها ، ثم طلبها أبو بكر فأعطاه إياها ، فلما قبض أبو بكر سأله إياها عمر فأعطاها إياها ، فلما قبض عمر أخذها ثم طلبها عثمان فأعطاه إياها ، فلما قبض وقعت عند آل على فطلبها عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قتل

قال ابن إسحاق : ولما وضع المسلمون أيديهم فى العدو يقتلون ويأسرون ، وسعد بن معاذ واقف على باب الخيمة التى فيها رسول الله ﷺ — وهى العريش — متوشحاً فى ناس من الأنصار ، ورأى رسول الله فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : كأنك تكره ما يصنع الناس ؟ فقال : أجل والله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بالمشركين ، وكان الإثخان فى الحرب أحبَّ إلى من استبقاء الرجال

قال ابن إسحاق : وكان الفتية الذين قتلوا ببدر فنزل فيهم من القرآن فيما ذكر لنا قوله تعالى ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ﴾ الآية فتية مسمين من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى : الحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب ، ومن بنى مخزوم أبو قيس الفاكه بن المغيرة ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلى بن أمية بن خلف من بنى جمح ، والعاص بن منبه من بنى سهم ، وذلك أنهم كانوا أسلموا ورسول الله ﷺ بمكة ، فلما هاجر رسول الله ﷺ حبسهم آباؤهم

وعشائرهم بمكة وفتنوهم فافتتنوا ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فأصيبوا جميعاً

ثم إن رسول الله ﷺ أمر بما فى العسكر مما جمع الناس فجمع ، فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه : هو لنا ، وقال الذين كانوا يقاتلون العدو : والله لولا نحن ما أصبتموه ، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم . وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ مخافة أن يخالف اليه العدو : والله ما أنتم أحق به ، لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله أكتافهم ، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولكنا خفنا على رسول الله كرة العدو فقمنا دونه ، فما أنتم بأحق به منا

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الرحمن بن الحارث وغيره عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبى أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه على السواء . انتهى

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى فقال . بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وخذلتمونى ونصرنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس . ثم أمر بهم فسحبوا إلى قليب من قلب بدر فطرحوا فيه . وفى الصحيح عن أبى طلحة أن نبى الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث . وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر فى اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا : ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفير الركى فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يافلان ابن فلان . أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ، فانا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قال فقال عمر : يارسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها . فقال النبى ﷺ : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخا ونقمة وحسرة وندامة . وفيه عن ابن عباس ﴿ الذين بدلوا

نعمة الله كفراً ﴾ قال : هم والله كفار قريش . قال عمرو هم قريش ، ومحمـــــد نعمة الله ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ قال : النار يوم بدر . انتهى

قال ابن اسحاق : ثم بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية بما فتح الله عليه وعلى المسلمين ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة . قال أسامة بن زيد : فأتانا الخبر — حين سوينا على رقية بنت رسول الله التى كانت عند عثمان بن عفان ، وكان رسول الله ﷺ خلفنى عليها مع عثمان — أن زيد بن حارثة قد قدم . قال فجئته وهو واقف بالمصلى وقد غشيه الناس وهو يقول : قتل عتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وزمعة بن الأسود وأبو البخترى العاص بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، قال قلت : يا أبة أحق هذا ؟ قال : نعم والله يا ابنى . ثم قفل رسول الله إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين وفيهم عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث ، واحتمل رسول الله ﷺ معه النفل الذى أصيب من المشركين ، وجعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو ابن عوف من بنى النجار ، حتى إذا كان بالصفراء قسم الغنائم وضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة . ثم لما نزل بعرق الظبية ضرب عنق عقبة بن أبى معيط ، فقال عقبة حين أمر رسول الله بقتله : من للصبية يا محمد ! قال : النار . فقتله عاصم بن ثابت الأنصارى ، ويقال على بن أبى طالب

ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة مؤيداً مظفراً منصوراً قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة : وحينئذ دخل عبد الله بن أبى المنافق وأصحابه الإسلام

قال ابن إسحاق : حدثنى ابن وهب أخو بنى عبد الدار أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال : استوصوا بالأسارى خيرا . قال فكان أبو عزيز ابن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه فى الأسارى ، قال فقال أبو عزيز : مر بى أخى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرنى فقال شد يدك به ، فإن أمه ذات

متاع ، لعلها تفديك منه . قال : وكنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بنا ، ما تقع فى يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحنى بها . قال فأستحى فأردها عليهم فيردها على ما يمسها . فلما قال أخوه مصعب لأبى اليسر ـ وهو الذى أسره ـ ما قال قال له أبو عزيز : يا أخى هذه وصاتك ؟ فقال له مصعب : إنه أخى دونك . فسألت أمه عن أغلى ما فدى به قرشى ، فقيل لها : أربعة آلاف درهم ، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها

قال بعض العلماء : ولما ولى عمر بن الخطاب وثاق الأسرى شد وثاق العباس ، فسمعه النبى ﷺ وهو يئن فلم يأخذه النوم ، فبلغ الأنصار فأطلقوا العباس ، فكأن الأنصار فهموا رضاء رسول الله ﷺ بفك وثاقه ، وسألوه أن يتركوا له الفداء . فقالوا ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه ، فقال لا تدعون منه درهما . وفى حديث ابن عباس عند ابن إسحق أنه ﷺ قال : ياعباس افد نفسك وابنى أخويك عقيل بن أبى طالب ونوفل ابن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو . قال : إنى كنت مسلماً ، ولكن القوم استكرهونى . قال : الله أعلم بما تقول : إن يكن ماتقول حقاً فالله يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا . قال ما ذاك عندى يا رسول الله . قال : فأين المال الذى دفنته أم الفضل فقلتَ : إن أصبت فالمال الذى دفنته للفضل وعبد الله وقثم ؟ قال : والله يا رسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا شىء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل ، فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى عشرين أوقية من مال كان معى ، قال رسول الله : ذاك شىء أعطانا الله منك . ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه ، وأنزل الله فيه ﴿ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ الآية

فصل

وقال الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ ما تقولون فى هؤلاء الأسارى ؟ قال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك ،

واستبقهم لعل الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : يارسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة يارسول الله أنت فى واد كثير الحطب ، فأضرم الوادى عليهم ثم ألقهم فيه . قال فسكت رسول الله فلم يرد عليهم شيئا . ثم قام فدخل ، فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر . وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول ابن رواحة . ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى بن مريم قال ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . وإن مثلك يا عمر مثل موسى قال ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ . وإن مثلك يا ابن رواحة كمثل نوح قال ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا ﴾ أنتم عالة فلا يفلتن أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق . قال ابن مسعود : قلت يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فانه يذكر الإسلام . فسكت رسول الله ﷺ . فما رأيتنى فى يوم أخوف أن تقع على حجارة من السماء منى فى ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله ﷺ : إلا سهيل بن بيضاء فأنزل الله عز وجل ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾ الآيات . رواه أحمد والترمذى وابن أبى حاتم . وفيه : فنزل القرآن بقول عمر ، وصححه الحاكم . قال ابن عباس قال عمر : فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت . فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان ، قلت يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ، فان وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ : أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة . شجرة قريبة من النبى ﷺ . وأنزل الله تعالى ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى — إلى قوله — عذاب عظيم ﴾ رواه ابن أبى حاتم

قال ابن اسحق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب فإنه أشار على رسول الله بقتل الأسرى ، وسعد بن معاذ قال : الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال . فقال رسول الله : لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ . وقال سفيان الثورى عن هشام هو ابن حسان عن محمد ابن سيرين عن عبيدة عن على قال : جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : خيِّر أصحابك فى الأسارى ، إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفداء على أن يقتل منهم عاما قابلا مثلهم . قالوا : الفداء ويقتل منا . رواه الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه . وفى رواية عن عبيدة مرسلا وفيه : فنادى النبى ﷺ فى أصحابه فجاءوا — أو من جاء منهم — فقال : هذا جبريل يخيركم بين أمرين . أن تقدموهم فتقتلوهم وبين أن تفادوهم ويستشهد فى قابل منكم بعدتهم ، فقالوا بل نفاديهم ونتقوى به عليهم ويدخل قابلا منا الجنة سبعون . انتهى.

وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألف درهم ، وعن عامر الشعبى قال . أسر رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيرا ، وكان يفاديهم على قدر أموالهم ، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن عنده فداء دفع اليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم ، فإذا حذقوا فهو فداؤه . وممن منَّ عليه رسول الله ﷺ المطلب بن حنطب وصيفى بن أبى رفاعة وأبو عزة الجمحى ، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحدا وكان محتاجا ذا بنات فقال : يارسول الله لقد عرفت مالى من مال ، وإنى لذو حاجة وذو عيال ، فامنن على ، فمن عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحدا ، ثم أسره ثانية فقال يا رسول الله أقلنى ، فقال : والله لا تمسح عارضك بمكة تقول خدعت محمد مرتين ، اضرب عنقه يا زبير ، فضرب عنقه . وممن من عليه رسول الله ﷺ أبو العاص بن الربيع زوج زينب ابنته بعد أن بعثت زينب بنت رسول الله بفدائه ، وكان رسول الله قد أخذ عليه أو وعد رسول الله ﷺ أن يخلى سبيل زينب ، فلما خرج أبو العاص إلى مكة بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار فقال : كونا ببطن ياجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيانى بها . فخرجا ، فلما قدم أبو العاص مكة

أمرها باللحوق بأبيها ، وقدم مكرز بن حفص فى فداء سهيل بن عمرو وكان الذى أسره مالك بن الدخشم وكان سهيل أعلم من شفته السفلى ، وذكر ابن اسحق أن عمر بن الخطاب قال : يارسول الله انزع ثنيتى سهيل بن عمرو يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدا . فقال رسول الله ﷺ : لا أمثل فيمثل الله بى وإن كنت نبيا . وبلغنى أن رسول الله ﷺ قال لعمر فى هذا : إنه عسى أن يقوم مقاما لاتذمه . وكان عمرو بن أبى سفيان أسيرا فى يدى رسول الله ، فقيل لأبى سفيان : افد عمرا ابنك ، فقال : يجمع على دمى ومالى . قتلوا حنظلة ، وأفدى عمرا ، دعوه فى أيديهم يمسكونه ما بدا لهم . فبينا هو كذلك إذ خرج سعد بن النعمان أخو بنى عمرو بن عوف معتمرا ، فعدا عليه أبو سفيان فحبسه بابنه عمرو ، وقد كان عهد قريش لا يعرضون لأحد جاء حاجا أو معتمرا إلا بخير ، ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروه خبره وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان فيفكوا به صاحبهم ، ففعل رسول الله ﷺ ، فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد .

فصل

قال ابن اسحق : وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى فقالوا : ماوراءك ؟ قال : قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف وزمعة بن الأسود ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البخترى بن هشام . فلما جعل يعد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد فى الحجر : والله إن يعقل هذا فاسألوه عنى . قالوا : مافعل صفوان بن أمية ؟ قال : هاهو ذا جالس فى الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا

وفى حديث أبى رافع : لما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر كبت الله أبا لهب وأخزاه ، فقام يجر رجليه بشر حتى جلس . فبينا هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب قدم ، قال فقال أبو لهب : هلم إلىّ ، فعندك لعمرى

الخبر . قال فجلس اليه والناس قيام فقال : يا ابن أخى ، أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟ قال : والله ماهو إلا أن لقينا قوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا . وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجالا بيضا على خيـل بلق بين السماء والأرض لايقوم لها شىء . قال أبو رافع وكان غلاما للعباس : وكان الإسلام قد دخلنا وسرنا ذلك ، تلك والله الملائكة . فرفع أبو لهب يده فضربنى فى وجهى ضربة شديدة ، فقامت أم الفضل إلى عمود فضربت به فى رأس أبى لهب وقالت : استضعفته أن غاب عنه سيده ؟ قال : فوالله ما عاش إلا سبع ليالى حتى رماه الله بالعدسة — وهى قرحة تتشاءم بها العرب — فتباعد عنه بنوه حتى قتله الله ، وبقى ثلاثة أيام لا تقرب جنازته ، ولا يحاول دفنه . فلما خافوا السبة فى تركه حفروا له ثم دفعوه بعود فى حفرته وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه . وذكر قاسم بن ثابت فى دلائله أن قريشا لما توجهت إلى بدر مر هاتف من الجن على مكة فى اليوم الذى وقع به المسلمون وهو ينشد بأبعد صوت ولا يرى شخصه :

أراد الحنيفيون بدرا وقيعــه ... سينقض منها ركن كسرى وقيصرا
أبادت رجالا من قريش وأبرزت ... خرائد يضربن الترائب حسرا
فيا ويح من أمسى عدوّ محمدا ... لقد جار عن قصد الهدى وتحيرا

فقال قائلهم : من الحنيفيون ؟ قالوا : محمد وأصحابه ، يزعمون أنهم على دين إبراهيم الحنيف . ثم لم يلبث أن جاءهم الخبر .

قال ابن اسحق : فلما انقضى أمر بدر أنزل الله فيها سورة الأنفال بأسرها

وجملة من حضر بدرا من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، من المهاجرين ستة وثمانون ، ومن الأوس أحد وستون ومن الخزرج مائة وسبعون . قالوا : وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج — وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة وأصبر عند اللقاء — أن منازلهم كانت فى عوالى المدينة ، وجاء النفير بغتة ، وقال النبى ﷺ : لا يتبعنا إلا من كان ظهره

حاضرا فاستأذنه رجال ظهورهم فى عوالى المدينة ، أيستأنى لهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم ، وكان عثمان رضى الله عنه تخلف على امرأته رقية بنت رسول الله ، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه من الغنيمة وأجره ، فهو بدرى . وطلحة بن عبيد الله وكان بالشام فى تجارة فضرب له رسول الله بسهمه وأجره . وكان سعيد بن زيد أيضا غائبا بالشام ، فضرب له رسول الله بسهمه وأجره

فصل فى تسمية من شهد بدرا من المسلمين

مرتبا على حروف المعجم

محمد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وأبو عبيدة وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف

(ا) أُبَىّ بن كعب النجارى ، أبى بن ثابت ، أوس بن ثابت النجارى أخو حسان ، أوس بن خولى الخزرجى ، أوس بن الصامت ، أسعد بن يزيد بن الفاكه الزرقى ، أنس بن معاذ النجارى ، أنسية مولى رسول الله ، أنس بن قتادة بن ربيعة الأوسى ، الأرقم بن أبى الأرقم ، أربد بن جبير ، أميرة وهو أبو سليط بن عمرو النجارى ، إياس بن البكير الليثى حليف بنى عدى ، إياس بن أوس بن عتيك الأوسى

(ب) بشير بن البراء بن معرور السلمى ، بشير بن سعد بن ثعلبة وهو أبو النعمان ، بشير بن عبد المنذر أبو لبابة اشتهر بكنيته ، بلال بن رباح المؤذّن ، بجير بن أبى بجير العبسى حليف لبنى عوف ، بحاث بن ثعلبة بن خزمة البلوى حليف لبنى الخزرج ويقال نحاب بالنون ، بسبس بن عمرو الذبيانى حليف الخزرج

(ت) تميم بن يعار الخزرجى ، تميم مولى بنى غنم ، تميم مولى خراش بن الصمة

(ث) ثابت بن الجذع ، ثعلبة الأنصارى ، ثابت بن عمرو بن زيد النجارى ، ثابت ابن خالد بن عمرو النجارى ، ثابت بن هزم البلوى حليف الأنصار ، ثابت بن خنساء

النجاري ذكر الواقدي أنه شهدها ، ثابت بن عبيد الأنصاري ، ثابت بن هزال الأنصاري ، ثعلبة بن غنمة الأنصاري ، ثعلبة بن عمرو بن محصن بن عمرو بن عتيك النجاري ، ثعلبة بن حاطب بن عمرو الأنصاري ، قال ابن عبد البر وهو مانع الصدقة فيما قال قتادة وسعيد بن جبير انتهى . قلت : ذكره أبو محمد بن حزم فيمن شهد بدرا وقال : قد قال قوم إنه منع الزكاة فنزلت فيه ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ الآيات ، قال : وهذا باطل لأن شهوده بدرا يبطل ذلك بلا شك . انتهى

(ج) جابر بن عبد الله بن رئاب ، جابر بن خالد بن مسعود النجاري ، جابر بن عتيك ويقال جبر الأوسي ، جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ذكر النجاري أنه شهدها كان ينقل الماء لأصحابه ، قال ابن عبد البر ذكره بعضهم في البدريين ولا يصح لأنه قد روى عنه أنه قال : لم أشهد بدرا ولا أحدا منعني أبي ، جبار بن صخر بن أمية السلمي ، جبير بن إياس بن خالد ابن مخلد الزرقي ، جبر بن صيتا [1] كلهم من الأنصار

(ح) حمزة بن عبد المطلب ، الحارث بن أنس بن رافع ، الحارث بن أوس بن معاذ بن أخي سعد ، الحارث بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس الأوسي ، الحارث بن خزمة أبو خزيمة وقيل ابن خزيمة بن عدى الأنصاري الخزرجي ، الحارث بن عتيك بن النعمان النجاري ، الحارث بن زيد بن عبد ربه بن ثعلبة الخزرجي ، الحارث هو أبو الأعور بن ظالم بن عبس بن حرام النجاري ، الحارث بن حاطب الأنصاري ردّه رسول الله ﷺ من الروحاء في شيء أمره به وضرب له بسهمه وأجره ، الحارث بن الصمة رده أيضا من الروحاء حين كسر وضرب له بسهمه وأجره ، الحارث بن عرفجة الأوسي ذكره فيهم موسى بن عقبة والواقدي وابن عمارة . الحارث بن قيس بن خالد بن مخلد الزرقي ، حارثة بن النعمان بن نقيع بن زيد النجاري ، حارثة بن سراقة بن الحارث النجاري واستشهد ، حارثة بن حمير الأشجعي حليف بني سلمة ، حارثة بن مالك بن غضب بن جشم الزرقي ذكره الواقدي فيهم ، حارثة بن النعمان بن رافع ، حريث بن زيد بن ثعلبة

(١) كذا

الخزرجى ، حبيب بن سعد وقيل بن أسود بن سعد وقيل بن أسلم مولى للأنصار ، الحصين ابن الحارث بن المطلب أخو عبيدة ، حاطب بن عمرو بن عتيك الأوسى ولم يذكره ابن إسحق ، حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود العامرى القرشى ذكره ابن عقبة وابن إسحق والواقدى ، حاطب بن أبى بلتعة اللخمى حليف قريش ويقال إنه من مذحج ، حرام بن ملحان بن خالد بن زيد بن حرام النجارى ، حباب بن المنذر بن الجموح بن زيد ابن حرام السلمى

(خ) خالد بن زيد بن كليب أبو أيوب النجارى ، خالد بن البكير الليثى ، خالد ابن قيس بن مالك بن العجلان الزرقى ، خلاد بن رافع بن مالك بن العجلان الزرقى ، خلاد بن سويد بن ثعلبة الخزرجى ، خلاد بن عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام السلمى ، خليدة بن قيس بن النعمان السلمى ، خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطمى الأوسى ، خزيمة بن أوس بن يزيد بن أصرم ذكره ابن عقبة فيهم ، خباب بن الأرتّ التميمى ، خراش بن الصمة بن عمرو بن الجموح بن حرام السلمى الخزرجى ، خباب مولى عتبة ابن غزوان ، خبيب بن عدى الأوسى ، خبيب بن أساف الخزرجى ، خارجة بن زيد الخزرجى ، خارجة بن حمير الأشجعى حليف الأنصار ، خريم بن فاتك الأسدى صحح البخارى وغيره شهوده . خولى بن أبى خولى العجلى ويقال الجعفى حليف بنى عدى ابن كعب ، خنيس بن حذافة السهمى ، خوات بن جبير بن النعمان بن أمية بن امرىء القيس الأوسى وقيل إنه أصاب ساقه حجر فى الطريق فرجع فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره ، خليفة بن عدى الزرقى الأنصارى ذكره ابن عقبة وابن إسحق فيهم

(د) دقة بن إياس بن عمرو الأنصارى

(ذ) ذكوان بن عبد قيس بن خلدة الزرقى ، ذو الشمالين واسمه عمير بن عبد عمرو ابن غبشان الخزاعى حليف بنى زهرة واستشهد

(ر) رافع بن مالك بن العجلان الزرقى ذكره ابن عقبة فيهم وقيل رافع بن المعلى ابن لوذان بن حارثة الخزرجى واستشهد ، رافع بن عنجدة وهى أمه وأبوه عبد الحارث

الأوسى ، رافع بن سهل بن رافع الأنصارى ذكره بعضهم فيهم ، رافع بن زيد ويقال ابن يزيد الأوسى ، رفاعة بن عمرو بن زيد بن عمرو بن ثعلبة الخزرجى ، رفاعة بن رافع ابن مالك بن العجلان الزرقى ، رفاعة بن عبد المنذر أبو لبابة الأوسى ، رفاعة بن الحارث ابن رفاعة بن الحارث بن سواد هو أحد بنى عفراء ذكره ابن إسحق فيهم وأنكر الواقدى وغيره شهوده ، ربيعة بن أكثم بن سخبرة الأسدى ، الربيع بن إياس بن غنم الخزرجى ، ربعى بن رافع بن زيد بن حارثة بن الجد بن العجلان البلوى ، رخيلة بالجيم والحاء والخاء ثلاثة أقوال

(ز) زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى مولى رسول الله ﷺ ، زيد بن سهل ابن الأسود بن حرام أبو طلحة النجارى ، زيد بن أسلم بن ثعلبة بن عدى بن العجلان البلوى حليف بنى عمرو ، زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب ، زيد بن المزين بن قيس الخزرجى ، زيد بن عاصم بن كعب بن منذر النجارى ، زيد بن وديعة بن عمرو الخزرجى ، الزبير بن العوام ، زياد بن لبيد بن ثعلبة الزرقى ، زياد بن عمرو ويقال ابن بشر أخو ضمرة حليف الأنصار ومولى لبنى ساعدة ، زياد بن كعب بن عمرو بن عدى الجهنى ، زاهر ابن حرام الأشجعى

(س) سعيد بن زيد بن عمرو ضرب له رسول الله بسهمه وأجره على قول من قال إنه لم يشهدها ، سعد بن أبى وقاص الزهرى ، سعد بن معاذ سيد الأوس ، سعد بن خيثمة الأنصارى واستشهد ، سعد بن الربيع الخزرجى ، سعد بن مالك بن خالد الخزرجى والد سهل ابن سعد الساعدى ذكره الواقدى أنه خرج فمات فضرب له رسول الله ﷺ بأجره وسهمه ، سعد بن عبادة ذكره بعضهم ولم يذكره ابن عقبة وابن إسحق ، سعد بن عبيد بن النعمان الأوسى ، سعد بن زيد بن الفاكه ، سعد بن خولى حليف لبنى عامر بن لؤى ، سعد ابن خولى مولى حاطب بن أبى بلتعة من مذحج وقيل من الفرس ، سعد بن خولة العامرى القرشى عند بعضهم وعند بعضهم حليف لهم ، سعد بن عثمان بن خلدة الزرقى يكنى أبا عبادة ، سعد بن زيد الأوسى ذكره ابن إسحق فيهم ، سهل بن قيس بن أبى كعب السلمى ،

سهل بن عتيك بن النعمان النجارى ، سهل بن حنيف بن واهب بن العكيم الأوسى ، سهل بن عدى ، سليم بن عمرو بن حديدة ويقال ابن عامر السلمى ، سليم بن الحارث ابن ثعلبة النجارى ، سليم بن ملحان النجارى ، سليم بن قيس بن فهد النجارى ، سليم أبو كبشة مولى النبى ﷺ ، سلمة بن أسلم بن حريش الأوسى ، سلمة بن حاطب بن عمرو ابن عتيك الأنصارى ، سلمة بن سلامة بن وقش الأوسى ، سلمة بن ثابت بن وقش الأوسى ، سالم بن معقل مولى أبى حذيفة ، سماك بن حرشه أبو دجانة الخزرجى ، سماك بن سعد أخو بشير بن سعد الخزرجى ، سنان بن أبى سنان الأسدى ، سنان بن صيفى بن صخر السلمى ، سهيل بن رافع النجارى وهو الذى كان له ولأخيه مسجد رسول الله ﷺ مربدا قاله ابن عقبة ، سهيل بن عمرو بن أبى عمرو ، سهل بن بيضاء القرشى الفهرى ، سليط ابن عمرو أخو سهيل بن عمرو العامرى ذكره ابن عقبة فيهم ، سليط بن قيس بن عمرو النجارى ، سراقة بن كعب بن عمرو بن عبد العزى النجارى ، سراقة بن عمرو بن عطية النجارى ، سبيع بن قيس الخزرجى ، سواد بن زيد ويقال ابن زريق السلمى ، سواد ابن غَزِيَّةَ البلوى أو النجارى ، سويبط بن سعد بن حرملة العبدى القرشى ، السائب ابن مظعون أخو عثمان ، السائب بن عثمان بن مظعون ، سفيان بن بشر بن زيد

(ش) شريك بن عبد عمرو بن قيظى الأوسى ، شماس بن عثمان المخزومى ، شجاع ابن أبى وهب الأسدى

(ص) صهيب بن سنان الرومى ، صفوان بن بيضاء المخزومى واستشهد ، صالح مولى رسول الله ﷺ يقال له شقران ذكره بعضهم

(ض) الضحاك بن حارثة السلمى ، الضحاك بن عبد عمرو بن مسعود النجارى ، ضمرة بن عمرو أخو بسبس

(ط) طلحة بن عبيد الله ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره ، والطفيل ابن مالك بن خنساء السلمى ، والطفيل بن النعمان بن مالك بن خنساء . وليس فى حرف الظاء أحد

(ع) عبد الله أبو بكر الصديق، عبد الله بن مسعود، عبد الله أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى، عبد الله بن رواحة الخزرجى، عبد الله بن جحش الأسدى، عبد الله بن ثعلبة ابن خزمة البلوى حليف الخزرج، عبد الله بن الجد بن قيس السلمى، عبد الله بن جبير ابن النعمان الأوسى، عبد الله بن ربيع بن قيس الخزرجى، عبد الله بن زيد بن ثعلبة الخزرجى، عبد الله بن طارق البلوى، عبد الله بن كعب بن عمرو النجارى، عبد الله ابن مظعون الجمحى، عبد الله بن عبد الله بن أبىّ الخزرجى، عبد الله بن عبد مناف ابن النعمان السلمى، عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر السلمى، عبد الله بن عنبس ويقال عبيس الخزرجى، عبد الله بن عبس ولم ينسبوه وقالوا هو من حلفاء الخزرج، عبد الله بن قيس بن خالدة النجارى، عبد الله بن قيس بن صخر السلمى، عبد الله بن سعيد ابن العاص بن أمية، عبد الله بن سراقة بن المعتمر القرشى العدوى ذكره ابن إسحق فيهم، عبد الله بن سهيل بن عمرو العامرى، عبد الله بن سلمة البلوى، عبد الله بن سهل الأشهلى، عبد الله بن مخرمة العامرى القرشى، عبد الله بن حمير الأشجعى، عبد الله ابن عرفطة، عبد الله بن عبيد، عبد الله بن النعمان بن بلدمة السلمى، عبد الله بن عمير الخزرجى، عبد الله بن عامر البلوى، عبد الرحمن بن عوف، عبد الرحمن بن كعب أبو ليلى الأنصارى، عبد الرحمن بن جبير بن عمرو الأوسى، عبد الرحمن بن عبد الله ابن ثعلبة البلوى، عبد الرحمن بن سهل الأنصارى قال ابن عبد البر يقال إنه شهدها عبيد ابن أوس بن مالك الأوسى يقال له مقرن، عبيد بن أبى عبيد الأوسى، عبيد بن زيد ابن عامر بن العجلان، عبد بن قيس بن عامر الزرقى، عبيدة بن الحارث بن المطلب واستشهد، عبد يا ليل بن ثابت الليثى حليف بنى عدى بن كعب، عبد ربه بن حق الأوسى الخزرجى الساعدى، عبادة بن الصامت الخزرجى، عبادة بن قيس بن زيد الخزرجى، عباد بن بشر الأوسى، عباد بن عبيد بن التيهان الأوسى، عباد بن قيس الزرقى، عباد ابن قيس بن عبسة بن أمية الخزرجى، عباد بن عبادة بن الخشخاش البلوى، عمر ابن الخطاب، عمار بن ياسر، عمير بن الحمام بن الجموح السلمى واستشهد، عمير بن أبى

وقاص أخو سعد واستشهد ، عمير — والأكثرون يقولون عمرو — بن عوف مولى سهيل ابن عمرو ، عمير بن عامر بن مالك بن الخنساء النجاري كنيته أبو داود ، عمير بن معبد ابن الأزهر الأنصاري ذكره بعضهم ، عمير بن حرام بن عمرو بن الجموح السلمي ، عمير ابن الحارث بن ثعلبة بن الحارث السلمي ، عمرو بن معاذ أخو سعد ، عمرو بن أبي سرح القرشي الفهري ، عمرو بن غزية بن عمرو بن ثعلبة النجاري ، عمرو بن طلق بن زيد السلمي ، عمرو بن قيس بن زيد النجاري ذكره بعضهم ، عمرو بن ثعلبة بن وهب بن عدي النجاري ، عمرو بن الحارث الفهري ذكره ابن عقبة ، عمرو بن إياس بن زيد بن جشم حليف للأنصار ، عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس ذكره ابن عقبة فيهم ، عمرو بن سراقة بن المعتمر القرشي العدوي ، عمرو بن الحارث بن نصير بن أبي شداد الفهري ذكره بعضهم ، عامر بن عبد الله بن الجراح أبو عبيدة ، عامر بن أبي وقاص أخو سعد ، عامر بن البكير الليثي ، عامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي ، عامر بن عبد عمرو أبو جنة الأوسي ، عامر بن سلمة البلوي ، عامر بن الحارث الفهري ويقال عمرو ، عامر بن ثابت بن أبي الأقلح أخو عاصم . عامر بن أمية بن زيد بن الخشخاش النجاري ، عامر بن مخلد بن الحارث النجاري ، عويمر بن أشقر بن عوف ، عمارة بن حزم أخو عمرو ابن حزم النجاري ، عمارة بن أبي حسن النجاري ، عثمان بن عفان ضرب له بسهمه وأجره ، عثمان بن مظعون ، علي بن أبي طالب ، عقبة بن وهب ويقال أبي وهب الأسدي ، عقبة ابن وهب بن كلدة الغطفاني حليف الخزرج ، عقبة بن عامر بن نابي بن زيد بن حرام السلمي ، عقبة بن عثمان بن خلدة بن مخلد الزرقي ، عتبة بن غزوان المازني حليف بني نوفل ، عتبة بن عبد الله بن صخر بن خنساء السلمي ، عتبة بن ربيعة البهراني حليف للأنصار ذكره بعضهم فيمن شهدها ، عياض بن زهير الفهري ، عوف بن أثاثة المعروف بمسطح المطلبي ، عوف بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عفراء واستشهد ، عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأوسي ، عاصم — ويقال عامر — بن العكبر حليف للأنصار ذكره ابن عقبة فيهم ، عاصم بن قيس بن ثابت بن النعمان الأوسي ، عاصم بن عدي البلوي وقيل بل رده رسول

الله وضرب له بسهمه وأجره ، عصمة بن الحصين بن وبرة بن خالد بن العجلان الخزرجى ، عصمة الأشجعى حليف لهم ذكره ابن عقبة فيمن شهدها ، عصيمة الأسدى حليف لبنى النجار ، عصيمة الأشجعى حليف لهم ، عدى بن الزغباء الجهنى ، عطية بن نويرة بن عامر الزرقى ، عائذ بن ماعص بن قيس الزرقى ، عبس بن عامر بن عدى السلمى ، عكاشة ابن محصن الأسدى ، عوذ بن عفراء ، عتبان بن مالك الخزرجى ذكره أكثرهم ، عتيك — ويقال عبيد — بن التيهان الأوسى ، عنترة مولى سليم بن عمرو وقيل هو من بنى سليم ابن منصور ، عاقل بن البكير الليثى واستشهد ، عليفة بن عدى بن عمرو الزرقى كذا قال ابن هشام بالعين وقال ابن إسحق خليفة بالخاء ، عويم بن ساعدة الأوسى

(غ) غنام بن أوس الزرقى

(ف) فروة بن عمرو بن ودقة الزرقى ، الفاكه بن بشر بن الفاكه بن زيد ابن خلدة الزرقى

(ق) قيس بن مخلد بن ثعلبة النجارى ، قيس بن محصن بن خالد بن مخلد الزرقى ، قيس بن أبى صعصعة النجارى ، قيس بن سكن بن قيس النجارى ، قيس بن عمرو ابن قيس ذكره بعضهم ، قتادة بن النعمان بن زيد الأوسى ، قطبة بن عامر بن حديدة السلمى ، قدامة بن مظعون الجمحى

(ك) كعب بن عمرو بن عباد أبو اليسر السلمى ، كعب بن زيد النجارى ، كعب ابن حمار — وقيل جماز — وهو أخو سعد الجهنى ، كثير بن عمرو من بنى سليم حليف بنى أسد ذكره ابن إسحق وفى رواية زياد ممن شهدها ، كناز بن الحصين أبو مرثد الغنوى

(ل) لقيط بن عصر البلوى ، لبدة بن قيس بن النعمان السلمى ذكره ابن الكلبى فيهم

(م) محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ ، محمد بن مسلمة الأوسى ، معاذ بن جبل الخزرجى ، معاذ بن الحارث هو ابن عفراء ، معاذ بن عمرو بن الجموح السلمى ، معاذ ابن ماعص الزرقى ذكره ابن الكلبى ، محمود بن مسلمة أخو محمد ذكره ابن الكلبى فيهم ، مالك بن التيهان أبو الهيثم البلوى حليف لبنى عبد الأشهل وقيل إنه من أنفسهم ، مالك

ابن عميلة بن السباق بن عبد الدار القرشى ، مالك بن قدامة بن عرفجة الأوسى ، مالك ابن رافع بن مالك بن العجلان ، مالك بن عمرو من بنى سليم حليف لبنى عبد شمس ، مالك بن أبى خولى حليف الأنصار ، مالك بن ربيعة أبو أسيد الساعدى ، مالك بن أمية ابن عمرو من بنى سليم حليف بنى أسد ، مالك بن الدخشم الأوسى ، مالك بن نميلة وهى أمه وأبوه ثابت المزنى حليف الأوس ، مالك بن مسعود الساعدى ، معقل بن المنذر السلمى ، مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، معمر بن الحارث بن معمر الجمحى ، محرز بن نضلة الأسدى ، محرز بن عامر النجارى ، معوذ بن الحارث وهو ابن عفراء ، معوذ بن عمرو بن الجموح السلمى ، معن بن عدى أخو عاصم البلوى ، مسعود بن عبد سعد الأوسى ، مسعود بن الربيع ويقال ابن ربيعة من بنى الهون بن خزيمة ، مسعود بن سعد بن قيس بن خلدة الزرقى ، مسعود بن خلدة الزرقى ، مسعود بن أوس بن زيد النجارى ، مسعود أبو محمد ، معبد ابن قيس بن صخر بن حرام السلمى ، معبد بن عباد بن قشير أبو خميصة الخزرجى ، معبد ابن وهب العبدى ، المنذر بن عمرو بن خنيس الساعدى ، المنذر بن محمد بن عقبة الأوسى ، المنذر بن قدامة الأوسى ، المنذر بن عرفجة الأوسى ، معتب بن حمراء الخزاعى ويقال البلوى ، معتب بن بشير ويقال ابن قشير بن مليل الأوسى ، مغيث بن عبيد البلوى ، مرارة بن ربيع ويقال ابن الربيع الأوسى[١] ، مصعب بن عمير ، المقداد بن عمرو الكندى ، مبشر ابن عبد المنذر الأوسى واستشهد ، المجذر بن زياد البلوى ، مليل بن وبرة بن خالد ابن العجلان الخزرجى ، مهجع بن صالح العكى مولى عمرو استشهد ، مدلاج بن عمرو

(ن) نوفل بن ثعلبة بن عبد الخزرجى ، النعمان بن عبد عمرو بن مسعود النجارى ، النعمان بن عصر بن الربيع البلوى ، نعيمان[٢] بن عمرو بن رفاعة النجارى ، النعمان بن مالك

---

(١) كذا ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب أن مرارة شهد بدراً ، وصحح أبو بكر الأثرم وغيره أنه لم يشهدها وأن قول الزبيرى فى حديث كعب بن مالك فى الصحيحين أنه شهدها غلط من الزبيرى كما سيأتى التنبيه عليه إن شاء الله فى غزوة تبوك (عن هامش الأصل) .

(٢) المزاح

ابن ثعلبة الخزرجى ، النعمان بن يسار مولى لبنى سلمة ، النعمان بن ثابت ، النعمان بن أبى جذمة ، نصر بن الحارث بن عبد الأوسى

(و) وهب بن سرح بن سعد بن ربيعة بن هلال الفهرى ، وهب بن محصن الأسدى ، واقد بن عبد الله التميمى حليف بنى عدى ، ورقة بن إياس بن عمرو بن غنم الخزرجى ، وديعة بن عمرو الجهنى حليف بنى النجار

(ه) هانى بن نيار أبو بردة البلوى ، هلال بن المعلى بن لوذان الخزرجى ، هلال ابن أبى خولى عمرو بن زهير الجعفى حليف الخطاب بن نفيل ذكره ابن عقبة وابن الكلبى ، هبيل بن وبرة الأنصارى ذكر ابن المنذر عن عروة أنه شهدها

(ى) يزيد بن الحارث بن قيس بن مالك الخزرجى واستشهد ، يزيد بن المنذر بن سرح ابن خناس السلمى ، يزيد بن رقيش بن رئاب بن يعمر الأسدى ، يزيد بن عامر بن حديدة أبو المنذر السلمى ذكره موسى وغيره ، يزيد بن ثابت بن الضحاك أخو زيد ذكره بعضهم

وممن يعرف بكنيته ولا يعرف اسمه : أبو كبشة مولى رسول الله ، أبو حذيفة بن عتبة أبو الحمراء مولى الحارث بن رفاعة

أبو حرثة بن أوس ، أبو سبرة ، أبو مليل بن الأزعر

وقال حمزة بن عبد المطلب فى يوم بدر وبعضهم ينكرها لحمزة :

ألم تر أمراً كان من عجب الدهر	وللحين أسباب مبيّنة الأمر
وما ذاك إلا أن قوماً أقادهم	فحانوا تواصوا بالعقوق وبالكفر
عشيّة راحوا نحو بدر بجمعهم	فكانوا رهوناً للرّكيّة من بدر
وكنا طلبنا العير لم نبغ غيرها	فساروا إلينا فالتقينا على قدر
فلما التقينا لم تكن مثنوية	لنا غير طعن بالمثقّفة السمر
وضرب ببيض يختلى الرأس حدها	مشهرة الألوان بينة الإثر
ونحن تركنا عتبة الغى ثاويا	وشيبة فى قتلى تجرجم فى الجفر

وعمرو ثوى فيمن ثوى من حماتهم فشقت جيوب النائحات على عمرو
جيوب نساء من لؤى بن غالب كرام تفرّ عن الذوائب من فهر
أولئك قوم قتلوا فى ضلالهم وخلوا لواء غير محتضر النصر
لواء ضلال قاد إبليس أهله فخاس بهم إن الخبيث إلى غدْر
وقال لهم إذ عاين الأمر واضحاً برئتُ إليهم ما بىَ اليوم من صبر
فإنى أرى ما لا ترون وإننى أخاف عقاب الله والله ذو قَسْر
فقدمهم للحين حتى تورطوا وكان بما لم يخبر القوم ذا خبر
فكانوا غداة البئر ألفاً وجمعنا ثلاث مئين كالمسدمة الزُّهْر
وفينا جنود الله حين يُمدنا بهم فى مقام ثم مستوضح الذكر
فشدّ بهم جبريل تحت لوائنا لدى مأزق فيه مناياهمُ تجرى

فأجابه الحارث بن هشام بن المغيرة فقال :

ألا يا لقوم للصبابة والهجر وللحزن منى والحرارة فى الصدر
وللدمع من عينىّ جودا كأنه فريد هوى من سلك ناظمة يجرى
على البطل الحلو الشمائل إذ ثوى رهين مقام للركية من بدر
فلا تبعدَنْ يا عمرو من ذى قرابة ومن ذى ندام كان ذا خُلُق غَمْرْ
فإن يك قوم صادفوا منك دولة فلا بد للأيام من دول الدهر
فقد كنت فى صرف الزمان الذى مضى تريهم هواناً منك ذا سُبُل وعر
فإلا أمت يا عمرو أتركك ثائراً ولا أبق بقيا فى إخاء ولا صهر
وأقطع ظهراً من رجال بمعشر كرام عليهم مثل ماقطعوا ظهرى
أغرهم ما جمعوا من وشيظة[1] ونحن الصميم فى القبائل من فهر
فيال لؤىّ ذببوا عن حريمكم وآلهة لا تتركوها لذى الفخر
توارثها آباؤكم وورثتم أواسيها والبيت ذا السقف والستر

---

(١) الوشيظة : الأتباع

فما الحليم قد أراد هلاككم فلا تعذروه آل غالب من عذر
وجدّوا لمن عاديتمو وتوازروا وكونوا جميعاً فى التأسى وفى الصبر
لعلكم أن تثأروا بأخيكم ولا شىء إن لم تثأروا بذوى عمرو
بمطردات فى الأكف كأنها وميض تُطير الهام بينة الأثر
كأن مدبّ الذرّ فوق متونها إذا جردت يوماً لأعدائها الخزر

قال ابن هشام : أبدلنا فيها كلمتين مما روى ابن إسحاق وهما « الفخر » و « فما الحليم » لأنه نال فيها من النبى ﷺ

وقال ضرار بن الخطاب الفهرى :

عجبت لفخر الأوس والحين دائر عليهم غدا والدهر فيه بصائر
وفخر بنى النجار إن كان معشر أصيبوا ببدر كلهم ثَمّ صابر
فإن تك قتلى غودرت من رجالنا فإنا رجالا بعدهم سنغادر
وتردى بنا الجرد العناجيج وسطكم بنى الأوس حتى يشفى النفس ثائر
ووسْط بنى النجار سوف نكرّها لها بالقنا والدارعين زوافر
فنترك صرعى تعصب الطير حولهم وليس لهم إلا الأمانىّ ناصر
وتبكيهم من أهل يثرب نسوة لهن بها ليل عن النوم ساهر
وذلك أنا لا تزال سيوفنا بهن دم ممن يحاربن مائر
فإن تظفروا فى يوم بدر فإنما بأحمد أمسى جدكم وهو ظاهر
وبالنفر الأخيار هم أولياؤه يحامون فى اللأواء والموت حاضر
يعدّ أبو بكر وحمزة فيهمُ ويدعى على وسط من أنت ذاكر
أولئك لا من نتجت فى ديارها بنو الأوس والنجار حين تفاخر
ولكن أبوهم من لؤى بن غالب إذا عدت الأنساب كعب وعامر
هم الطاعنون الخيل فى كل معرك غداة الهياج الأطيبون الأكابر

فأجابه كعب بن مالك أخو بنى سلمة :

عجبت لأمر الله والله قادر ... على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقى معشراً ... بغوا وسبيل البغى بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم ... من الناس حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحاول غيرنا ... بأجمعها كعب جميعاً وعامر
وفينا رسول الله والأوس حوله ... له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بنى النجار تحت لوائه ... يمشون فى الماذِىِّ والنقع ثائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد ... لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره ... وأن رسول الله بالحق ظاهر
وقد عُرِّيت بيض خفاف كأنها ... مقاييس يزهيها لعينك شاهر
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا ... وكان يلاقى الحينَ من هو فاجر
فكب أبو جهل صريعاً لوجهه ... وعتبة قد غادرنه وهو عاثر
وشيبة والتيمى غادرن فى الوغى ... وما منهما إلا بذى العرش كافر
فأمسوا وقود النار فى مستقرها ... وكل كفور فى جهنم صائر
تلظى عليهم وهى قد شبّ حميها ... بزبر الحديد والحجارة ساجر
وكان رسول الله قد قال أقبلوا ... فولوا وقالوا إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به ... وليس لأمر حمّه الله زاجر

وقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى يبكي قتلى بدر ، وتروى للأعشى بن زرارة التميمى :

ماذا على بدر وماذا حوله ... من فتية بيض الوجوه كرام
تركوا نبيهاً بينهم ومنبهاً ... وابنى ربيعة خير خصم فئام
والحارث الفياض يبرق وجهه ... كالبدر جلَّى ليلة الإظلام
والعاصىَ بن منبِّه ذا مرَّة ... رمحاً تميماً غير ذى أوصام
تنمى به أعراقه وجدوده ... ومآثر الأخوال والأعمام

وإذا بكى باك فأعول شجوه ... فعل الرئيس الماجد ابن هشام
حيا الإله أبا الوليد ورهطه ... رب الأنام وخصه بسلام

فأجابه حسان بن ثابت :

ابك بكت عيناك ثم تبادرت ... بدم تعلُّ غروبها سجّام
ماذا بكيت به الذين تتابعوا ... هلا ذكرت مكارم الأقوام
وذكرت منا ماجداً ذا همة ... سمح الخلائق صادق الإقدام
أعنى النبي أخا المكارم والندى ... وأبرّ من يولى على الأقسام
فلمثله ولمثل ما يدعو له ... كان الممدح ثم غير كهام

وقال حسان أيضاً :

تبلت فؤادك فى المنام خريدة ... تشفى الضجيع ببارد بسام
كالمسك تخلطه بماء سحابة ... أو عاتق كدم الذبيح مدام
نُفُجُ الحقيبة بوصُها متنضِّد ... بلهاء غير وشيكة الأقسام
بنيت على قَطَن أجَمَّ كأنه ... فضلا إذا قعدت مَدَاك رُخام(١)
وتكاد تكسل أن تجىء فراشها ... فى جسم خَرْعَبَة(٢) وحسن قوام
أما النهار فلا أفتر ذكرها ... والليل توزعنى بها أحلامى
أقسمت أنساها وأترك ذكرها ... حتى تغيَّب فى الضريح عظامى
بل من لعاذلة تلوم سفاهة ... ولقد عصيت على الهوى لوّامى
بكرت علىّ بسحرة بعد الكرى ... وتقارب من حادث الأيام
زعمت بأن المرء يكرب عمره ... عدمٌ لمعتكر من الإصرام
إن كنتِ كاذبة الذى حدثتنى ... فنجوتُ منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طِمِرّةٍ ولجام

(١) القطن : الساق . المداك : الحجر الذى يسحق عليه الطيب

(٢) الخرعبة : اللينة الناعمة

تذرُ العناجيج الجياد بقفرة ... مَرّ الدموك بمحصد ورجام[1]
ملأت به الفرجين فارمدّت به[2] ... وثوى أحبّتـــه بشر مقام
وبنو أبيـه ورهطه في معرك ... نصر الإله به ذوى الإسـلام
طَحَنَتهمُ والله ينفـذ أمره ... حرب يشب سـعيرها بضرام
لولا الإله وجريها لتركْنَه ... جَزَرَ السباع ودُسْنه بحوام
من بين مأسور يُشَـدُّ وثاقه ... صقر إذا لاقى الأسـنة حام
ومُجَدّل لا يستجيب لدعوة ... حتى تزول شـوامخ الأعلام
بالعار والذل المبين إذا رأى ... بيض السيوف تسوق كل همّام
بيدَىْ أغرّ إذا انتمى لم يُخزه ... نسبُ القِصار سميدع مقـدام
بيض إذا لاقت حديداً صممت ... كالبرق تحت ظلال كل غمام

قال ابن هشام : فأجابه الحارث بن هشام فقال :

الله يعلم ما تركـت قتالهم ... حتى حبوا مُهرى باشقر مزبد
ووجدت ريح الموت من تلقائهم ... في مأزق والخيل لم تتبـــدد
وعرفت أنى إن أقاتل واحداً ... أُقتل ولا ينـكى عدوى مشهدى
فصـددت عنهم والأحبـة فيهـم ... طمعـاً لهم بعقـاب يوم مفسد

وكان الأصمعى يقول : هذا أحسن ما قيل فى الاعتذار . وقال خلف الأحمر : أحسن ما قيل فى ذلك أبيات هبيرة بن أبى وهب المخزومى :

لعمرك ما وليـــت ظهرى محمداً ... وأصحابه جبناً ولا خيفـة القتـل
ولـكننى قلبـت أمرى فلم أجد ... لسيفى مساغاً إن ضربت ولا نبلى
وقفت فلمـا خفت ضيعـة موقفى ... رجعت بعـود كالهزبر إلى الشبل

---

(١) العناجيج : الحسان ، الدموك : البكرة فيها الحبل

(٢) ارمدت : أسرعت

وغزا الحارث بن هشام أحداً مع المشركين ، ثم أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه ، وكان من فضلاء الصحابة وخيارهم ، وكان من المؤلفة قلوبهم

وكان فراغ رسول الله ﷺ من بدر فى عقب رمضان وأوائل شوال . وفى أول شوال صلى صلاة الفطر

غزوة بنى سُليم

وفى أوائل شوال ، وقيل بعد بدر بسبعة أيام ، وقيل فى نصف المحرم سنة ثلاث ، خرج عليه الصلاة والسلام يريد بنى سُليم ، فبلغ ماء يقال له قرقرة الكدر ، وهى أرض ملساء ، والكدر طير فى لونها كدرة ، فأقام بها ثلاث ليال وقيل عشراً فلم يلق حرباً ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة ، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى وقيل ابن أم مكتوم ، وحمل اللواء على بن أبى طالب ، وقيل إنه أصاب لهم نعما يزيد على خمسمائة وغلاماً يقال له يسار فأعتقه ، ورجع ولم يلق كيداً . وكان بلغه أن بهذا الموضع جمعاً من بنى سليم وغطفان فسار إليهم فلم يجد فى المحال أحداً

غزوة السويق

قال ابن إسحق : ثم غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق وكان نذر أن لا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً ، فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبر يمينه حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب من المدينة على بريد أو نحوه ، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل ، فأتى حُيى بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخاف ، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم وكان سيد بنى النضير فى زمانه ذلك وصاحب كنزهم ، فاستأذن عليه فأذن فقراه وسقاه وبطن له من خبر الناس ، ثم خرج فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالا من قريش إلى المدينة فأتوا ناحية فحرقوا فى أصوار من نخل بها ، ووجدوا رجلا من الأنصار وحليفاً له فى حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين ، ونذر بهم رسول الله ﷺ فخرج فى طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعاً ، وقد فاته

أبو سفيان وأصحابه ، وطرحوا كثيراً من أزوادهم يتخففون منها للنجاء ، فأخذها المسلمون ، فسميت غزوة السويق ، فقال المسلمون : يا رسول الله أتطمع أن لنا غزوة[1] ؟ قال : نعم

وفى ذى الحجة من هذه السنة صلى رسول الله ﷺ العيد وأمر بالأضحية . وفيها مات عثمان بن مظعون . وفيها تزوج على بفاطمة وبنى بها بعد تزوجها بسبعة أشهر ونصف ، وتزوجها وهى ابنة خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ، وسنه يومئذ نحو إحدى وعشرين وخمسة أشهر ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت

غزوة غطفان

وهى غزوة ذى أَمَر بفتح الهمزة والميم ، وسماها الحاكم غزوة أنمار ، وهى بناحية نجد ، وكانت لثنتى عشرة مضت من ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة . وسببها أن جمعاً من بنى ثعلبة ومحارب تجمعوا يريدون الإغارة ، جمعهم دعثور بن الحارث المحاربى ، وسماه الخطيب غورث وغيره عورك ، وكان شجاعاً . فندب رسول الله ﷺ المسلمين ، وخرج فى أربعمائة وخمسين فارساً ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان . فلما سمعوا بمهبطه هبطوا فى رءوس الجبال فأصابوا رجلا منهم يقال له جبار من بنى ثعلبة ، فأدخل على رسول الله ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم وضمه إلى بلال ، وأصاب النبىَّ ﷺ مطر ، فنزع ثوبيه ونشرهما على شجرة ليجفّا واضطجع تحتها وهم ينظرون ، فقالوا : قد انفرد محمداً فعليك به ، فأقبل ومعه سيف حتى قام على رأسه فقال : من يمنعك منى اليوم ؟ فقال ﷺ : الله . فدفع جبريل فى صدره فوقع السيف من يده فأخذه النبى ﷺ فقال : من يمنعك منى ؟ قال : لا أحد ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام ، وأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم ﴾ الآية . ويقال كان ذلك فى ذات الرقاع . ثم رجع ﷺ ولم يلق كيداً . وكانت غيبته إحدى عشرة ليلة

---

(١) أى ثواب الجهاد

غزوة نجران

وتسمى غزوة بنى سُلَيم من ناحية الفرع بفتح الفاء والراء . وسببها أنه بلغه عليه الصلاة والسلام أن بها جمعاً كثيراً من بنى سليم ، فخرج فى ثلاث مائة رجل من أصحابه ، فوجدهم قد تفرقوا فى مياههم ، فرجع ولم يلق كيداً . وكان قد استعمل على المدينة ابن أم مكتوم كما قاله ابن هشام ، وكانت غيبته عشر ليال . وقيل إنه خرج يريد قريشاً ، ذكره ابن إسحاق

(سرية زيد بن حارثة) إلى القرْدَة بالقاف المفتوحة والراء الساكنة ، وقيل بالفاء وكسر الراء ، اسم ماء من مياه نجد . وسببها كما قاله ابن إسحاق أن قريشاً خافوا من طرقهم التى كانوا يسلكون إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان ، فسلكوا طريق العراق ، وكان فيهم أبو سفيان بن حرب ومعهم فضة كثيرة ، فالقيهم زيد ومن معه على ماء يقال له القردة ، فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال ، فقدم بها على رسول الله ﷺ . وعند ابن سعد : وكان مبعثه على رأس ثمانية وعشرين شهراً من الهجرة فى مائة راكب يعترض عيراً لقريش ، فيها صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى ومعهم مال كثير وآنية فضة فأصابوها ، وقدموا بالعير على رسول الله ﷺ ، وخمّسها فبلغ الخمس قيمة عشرين ألف درهم

غزوة بنى قينقاع

بطن من يهود المدينة لهم شجاعة وصبر . قال ابن سعد : وكان يوم السبت النصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة ، وكانوا أول من نقض العهد . قال ابن إسحاق : وكان من حديث بنى قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بنى قينقاع ثم قال : يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم . قالوا : يا محمد إنك ترى أنا قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس . قال فحدثنى مولى لآل زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير

أو عن عكرمة عن ابن عباس قال : ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيهم ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ الآية

وكان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب جلست إلى صائغ يهودى ، فراودها على كشف وجهها فأبت ، فعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فصاحت ، فضحكوا منها . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله . فشدت اليهود على المسلم فقتلوه . ووقع الشر بين المسلمين وبين بنى قينقاع ، فسار إليهم النبى ﷺ بعد أن استخلف أبا لبابة بن عبد المنذر فحاصرهم أشد الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة ، وكان اللواء بيد حمزة بن عبد المطلب ، وكان أبيض . فقذف الله فى قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ على أن له أموالهم وأن لهم النساء والذرية . فأمر عليه السلام المنذر بن قدامة بتكتيفهم ، وكلم عبدُ الله بن أبىّ بن سلول رسول الله ﷺ فيهم وألحّ عليه من أجلهم فقال : خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم . وأمر أن يجلوا من المدينة وتركهم من القتل . وتولى ذلك عبادة بن الصامت ، فلحقوا بأذرعات ، فما كان أقل بقاءهم ، وخمست أموالهم ، فأخذ رسول الله ﷺ صفيه الخمس وفض بقية أخماسه على أصحابه ، فكان أول ما خمس بعد بدر . ذكر ذلك ابن سعد . قال فى عيون الأثر : كذا وقع فى رواية « صفيه الخمس » والمعروف أن الصفى غير الخمس . وعن الشعبى قال : كان لرسول الله ﷺ سهم يدعى « الصفى » قبل الخمس . وعن عائشة قالت : كانت صفية من الصفى . فلا أدرى أسقطت الواو[1] أم كان هذا قبل حكم الصفى . انتهى والله أعلم

وكانت بنو قينقاع حلفاء لعبد الله بن أبىّ وعبادة بن الصامت ، فتبرأ عبادة من حلفهم فقال : يا رسول الله أتبرّأ إلى الله ورسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله ، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم . ففيه وفى عبد الله أنزل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود

---

(١) فتكون الرواية « صفيه والخمس »

والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾ إلى قوله ﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ وكانوا أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع ، وكانوا صاغة وتجاراً ، ولم يكن لهم أرضون

سرية كعب بن الأشرف

ذكر ابن سعد أنها كانت لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين من مهاجره عليه الصلاة والسلام

قال ابن إسحاق : وكان من حديث كعب بن الأشرف أنه لما أصيب أصحاب القليب يوم بدر وقدم زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل السافلة وعبد الله بن رَواحة إلى أهل العالية يبشران بالفتح قال كعب ـ وكان رجلا من طيء، ثم أحد بنى نبهان ، وكانت أمه من بنى النضير ـ أحقٌّ هذا ؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هؤلاء الرجلان ؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لَبطن الأرض خير من ظهرها . فلما أيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى ، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار ويبكى عَلَى أصحاب القليب ، ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم . وذكر ابن عائذ عن الوليد بن مسلم عن عبد الله ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة قال: ثم انبعث عدو الله يهجو رسول الله والمسلمين ويمدح عدوهم ويحرضهم عليهم ، فلم يرض بذلك حتى ركب إلى قريش فاستغواهم على رسول الله ، فقال له أبو سفيان والمشركون : أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ وأى دينينا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق ؟ فقال : أنتم أهدى منهم سبيلا وأفضل . فقال رسول الله ﷺ : من لنا بابن الأشرف ، فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا ، وقد خرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا ، وقد أخبرنى الله بذلك ، ثم قدم أخبث ما كان ينتظر قريشاً تقدم عليه فيقاتلنا . ثم قرأ على المسلمين ما أنزل الله فيه : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ الآية

وروى البخارى فى الصحيح عن جابر بن عبد الله قال رسول الله ﷺ : من لكعب

ابن الأشرف ، فإنه قد آذى الله ورسوله ؟ فقام محمد بن مَسلمة فقال : يا رسول الله أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال : فأذن لى أن أقول شيئاً . قال : قل فأتاه محمد بن مسلمة فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنانا . قال : وأيضاً والله لتملنّه . قال : فإنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين . فقال : نعم : ارهنونى . فقالوا : أى شىء تريد ؟ قال : ارهنونى نساءكم . قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال : فأرهنونى أبناءكم . قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين ؟ هذا عار علينا ، ولكنا نرهنك اللأمة — قال سفيان : يعنى السلاح — فواعده أن يأتيه ، فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة ، فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم ، فقالت له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟ قال : إنما هو محمد بن مسلمة ، وأخى ورضيعى أبو نائلة . وقال غير عمرو : قالت : أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم . فقال : إنما هو أخى محمد بن مسلمة ، ورضيعى أبو نائلة . إن الكريم لو دُعى إلى طعنة أجاب . قال : ويدخل محمد بن مسلمة برجلين . قيل لسفيان : سماهم عمرو ؟ قال : سمى بعضهم . قال عمرو : جاء معه برجلين . وقال غير عمرو : أبو عبس ابن جبير والحارث بن أوس وعبادة بن بشر . قال عمرو : فقال : إذا ما جاء فإنى قائل بشعره فأشمه ، فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه . وقال مرة ثم أشمكم . فنزل إليهم متوشحاً وهو ينفح ريح الطيب فقال : ما رأيت كاليوم ريحاً ، أى أطيب . وقال غير عمرو : قال عندى أعطر نساء العرب ، وأكمل العرب . قال عمرو فقال : أتأذن لى أن أشم رأسك ؟ قال : نعم . فشمه ثم أشمّ أصحابه ثم قال : أتأذن لى قال : نعم ، فلما استمكن منه قال : دونكم . فقتلوه . ثم أتوا النبى ﷺ فأخبروه . انتهى . وفى رواية ابن سعد : فلما قتلوه وبلغوا بقيع الغرقد كبروا . وقد قام عليه السلام تلك الليلة يصلى ، فلما سمع تكبيرهم كبر وعرف أن قد قتلوه . فلما انتهوا إليه قال : أفلحت الوجوه . قالوا : ووجهك يا رسول الله . ورموا برأسه بين يديه . فحمد الله عَلَى قتله ، وأصاب ذباب السيف الحارث بن أوس فجرح ونزف الدم ، فتفل عليه الصلاة والسلام عَلَى جرحه فلم يؤذه بعد .

زاد ابن إسحاق فى روايته : فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعد ، والله فليس بها يهودى إلا وهو خائف على نفسه . وقال رسول الله ﷺ : من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه . فوثب محيصة بن مسعود على ابن سبينة رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله ، وكان حويصة بن مسعود إذ ذاك لم يسلم وكان أسنَّ من محيصة ، فلما قتله جعل حويصة يقول : أى عدو الله أقتلته ؟ قال : أما والله لرب شحم فى بطنك من ماله . قال محيصة : فقلت : والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقك . قال : فوالله إن كان لأول إسلام حويصة . قال : أو الله لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى ؟ قال : نعم والله . قال : فوالله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب . فأسلم حويصة

غزوة أحد

وهو جبل مشهور بالمدينة على أقل من فرسخ منها ، وسمى بذلك لتوحده وانقطاعه عن جبال أخر هناك ، ويقال له ذو عينين . قال فى القاموس : بكسر العين وبفتحها مثنى ، جبل بأحد ، وهو الذى قال فيه عليه الصلاة والسلام : أحد جبل يحبنا ونحبه ، وكانت عنده الوقعة المشهورة فى شوال بالاتفاق يوم السبت لأحد عشر ليلة خلت منه ، وقيل لسبع ليال خلون منه ، وقيل فى نصفه ، وعن مالك : بعد بدر بسنة ، وعنه أيضاً : كانت عَلَى أحد وثلاثين شهراً من الهجرة

وكان سببها كما ذكره ابن إسحاق عن شيوخه ، وموسى بن عقبة عن ابن شهاب ، وأبو الأسود عن عروة وابن سعد قالوا ، ومن قال معهم : إن قريشاً لما رجعوا من بدر إلى مكة وقد أصيب أصحاب القليب . ورجع أبو سفيان بعيره . قال عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل فى جماعة ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم وأبناؤهم يوم بدر : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ـ يعنون عير أبى سفيان ومن كانت له فى تلك العير تجارة ـ لعلنا أن ندرك منه ثأراً . فأجابوا لذلك ، فباعوها وكانت ألف بعير والمال خمسين ألف دينار ، وفيهم كما قال ابن إسحاق وغيره أنزل

الله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ﴾

ولما اجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً يخبر رسول الله ﷺ بخبرهم ، وسار بهم أبو سفيان حتى نزل بهم بطن الوادى من قبل أحد مقابل المدينة ، وكانوا قريباً من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش ، وجاءوا معهم بنسائهم لئلا يفروا ، وكان ذلك فى شوال من السنة الثالثة . فلما سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا قال رسول الله للمسلمين : إنى قد رأيت والله خيراً : رأيت بقراً تذبح ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلماً ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة . فأما البقر فهى ناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم الذى فى ذباب سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا بشرّ مقام فامكثوا ، فإنْ دخل القوم الأزقة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت . ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أبىّ وكان هو الرأى ، فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر فقالوا : يا رسول الله كنا نتمنى هذا اليوم ، أخرج إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم . فصلى عليه الصلاة والسلام بالناس الجمعة ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد ، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم . ففرح الناس بذلك . ثم صلى بالناس العصر وقد حشدوا وحضر أهل العوالى ، ثم دخل عليه السلام بيته ومعه صاحباه أبو بكر وعمر فعمماه وألبساه ، وصف الناس ينظرون خروجه ، فقال لهم سعد بن معاذ وأسيد ابن حضير : استكرهتم رسول الله على الخروج ، فردوا الأمر إليه . فخرج رسول الله ﷺ وقد لبس لأمته — وهى بالهمز وقد يترك تخفيفا الدرع — وتقلد السيف فندموا جميعاً على ما صنعوا فقالوا : ما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ما شئت ، فقال : ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه

وفى حديث ابن عباس عند أحمد والنسائى وصححه الحاكم نحو حديث ابن إسحق

وعقد ﷺ ثلاثة ألوية : لواء بيد أسيد بن حضير ، ولواء للمهاجرين بيد على بن أبى

طالب وقيل بيد مصعب بن عمير ، ولواء الخزرج بيد الحباب بن المنذر وقيل بيد سعد ابن عبادة . وفى المسلمين مائة دارع . وخرج السعدان أمامه يعدوان دارعين . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وعلى الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة ، وأدلج عليه السلام فى السحر وكان قد رد جماعة من المسلمين لصغرهم ، منهم أسامة بن زيد وابن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وعرابة بن أوس وعمرو بن حزم . انتهى . هكذا ذكر جماعة من أهل السير منهم ابن إسحق أن البراء بن عازب ممن رده رسول الله فى ذلك اليوم ، وحديثه فى البخارى يدل على شهوده القتال ذلك اليوم . انتهى . وأجاب من رآه مطيقا ، وكان منهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج ولهما خمس عشرة سنة ، وكان المسلمون ألف رجل ويقال تسع مائة والمشركون ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وثلاثة آلاف بعير ، ونزل عليه السلام بأحد ورجع عنه عبد الله بن أبى بنحو ثلث العسكر فيمن تبعه من قومه وقال : يخالفنى ويسمع من غيرى ، فتبعهم عبد الله بن عمرو ابن حرام والد جابر يوبخهم ويحرضهم على الرجوع ويقول : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . فرجع عنهم وسبهم . وسأله قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود فأبى ، فسلك حرة بنى حارثة وقال : من رجل يخرج بنا على القوم من كثب ؟ فخرج به بعض الأنصار حتى سلك فى حائط لبعض المنافقين وكان أعمى ، فقام يحثو التراب فى وجوه المسلمين ويقول : لا أحل لك أن تدخل فى حائطى إن كنت رسول الله . فابتدره القوم ليقتلوه فقال : لا تقتلوه فهذا أعمى القلب والبصر . ونفذ رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى وجعل ظهره إلى أحد ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم ، فلما أصبح يوم السبت تعبأ للقتال وهو فى سبعمائة فيهم خمسون فارسا ، وجعل رسول الله ﷺ على الرماة وكانوا خمسين رجلا عبد الله بن جبير وقال : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، كذا فى البخارى من حديث البراء . وفى حديث ابن عباس عند أحمد والطبرانى والحاكم أنه ﷺ أقامهم فى موضع ثم قال :

أحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرفوا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا . وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو ، وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين وتعبّت قريش فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل . وقال ابن إسحق : وقال رسول الله ﷺ من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشه فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحنى . قال : أنا آخذه بحقه يا رسول الله . فأعطاه إياه . وكان رجلا شجاعا يختال عند الحرب . فلما رآه عليه السلام يتبختر قال : إنها لمشية يبغضها الله ورسوله إلا فى هذا الموطن

فاقتتل الناس حتى حميت الحرب ، فقاتل أبو دجانة حتى أمعن فى الناس ، وقاتل حمزة ابن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله قتالا شديداً حتى قتل أرطاة بن عبد شرحبيل بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار ، والتقى حنظلة الغسيل وأبو سفيان بن حرب فلما علاه حنظلة رآه شداد بن الأسود بن شعوب الليثى فقتله ، فقال ﷺ : إن حنظلة لتغسله الملائكة . فسألوا امرأته جميلة أخت عبد الله بن أبىّ فقالت : خرج وهو جنب . فقال عليه السلام : لذلك غسلته الملائكة . وبذلك تمسك من قال من العلماء إن الشهيد يغسل إذا كان جنبا اقتداء بالملائكة

وكان أول من بدر من المشركين يومئذ أبو عامر الفاسق ، وكان رأس الأوس فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام شرق به وجاهر رسول الله بالعداوة ، فخرج من المدينة وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ كما تقدم ، ووعدهم أن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه ، وكان أول من لقى المسلمين يومئذ فنادى قومه وتعرف إليهم فقالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق فقال : لقد أصاب قومى بعدى شر . ثم قاتل المسلمين قتالا شديدا . وكان شعار المسلمين : أمت أمت . وأبلى أبو دجانة وطلحة بن عبيد الله وأسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب والنضر بن أنس وسعد بن الربيع ، وكانت الدولة أول النهار للمسلمين فسوهم بالسيوف فانهزم عدو الله وولوا مدبرين حتى انتهوا

إلى نسائهم . وفى حديث البراء عند البخارى فى الصحيح : فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل يرفعن سوقهن قد بدت خلاخيلهن . قال البراء ، فقال أصحاب عبد الله بن جبير : الغنيمة الغنيمة ، ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟ فقال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟ قالوا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين . وفى حديث عائشة عند البخارى أيضاً : لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة ، فصاح إبليس : أى عباد الله أخراكم ، أى احترزوا من ورائكم . فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم ، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان فقال : أى عباد الله أبى . قالت : فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه . فقال حذيفة : يغفر الله لكم . قال عروة : فوالله ما زالت فى حذيفة بقية خير حتى لحق بالله . وذكر غير البخارى أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه ، فقال حذيفة : تصدقت بديته على المسلمين . فزاد ذلك حذيفة خيراً عند النبى ﷺ . وعند أحمد والحاكم من حديث ابن عباس أنهم لما رجعوا اختلطوا بالمشركين والتبس العسكران فلم يتميزوا فوقع القتل فى المسلمين بعضهم من بعض . وفى رواية غيرها : ونظر خالد بن الوليد ومن معه إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخيل ، وتبعه عكرمة بن أبى جهل فحملوا على من بقى من النفر الرماة فقتلوهم وأميرهم عبد الله ابن جبير . وعند ابن إسحق عن الزبير أنه قال : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير ، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه خلوا ظهورنا للخيل فأتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قتل ! فانكفأنا وانكفأ القوم علينا بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم ، ولم يزل اللواء صريعا حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به ، وكان اللواء مع صواب غلام لبنى أبى طلحة حبشى ، وكان آخر من أخذه منهم فقاتل به حتى قطعت يداه ثم برك عليه فأخذ اللواء بصدره وعنقه حتى قتل عليه وهو يقول : اللهم هل أعزرت ؟ يقول أعذرت . وانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو ، كان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم بالشهادة ، حتى خلص العدو إلى رسول الله

ﷺ فدق بالحجارة حتى وقع لشقه وأصيبت رباعيته وشج فى وجهه وكلمت شفته السفلى ، وكان الذى أصابه عتبة بن أبى وقاص ، وسقط رسول الله ﷺ فى حفرة من الحفر التى كان أبو عامر الفاسق يكيد بها فأخذ على بيده ، واحتضنه طلحة بن عبيد الله ، وكان الذى تولى أذاه عبد الله بن قمئة وهو الذى شجه فى وجهه ، وفى الطبرانى أنه هو الذى شج رسول الله ﷺ وكسر رباعيته فقال : خذها وأنا ابن قمئة . فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه : أقمأك الله ، فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة

وعند ابن عائذ من طريق الأوزاعى : بلغنا أنه لما خرج رسول الله ﷺ يوم أحد أخذ شيئاً فجعل ينشف دمه وقال : لو وقع شىء منه على الأرض لنزل عليهم العذاب من السماء ثم قال : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . وقال نافع بن جبير : سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتى من كل ناحية رسول الله ﷺ وسطها كل ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ : دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، ورسول الله ﷺ إلى أحد ، ثم جاوزه ، فعاتبه فى ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته ، أحلف بالله أنه منا ممنوع ، فخرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك . وروى ابن إسحق عن حميد الطويل عن أنس قال : كسرت رباعية النبى ﷺ وشج فى وجهه وجعل الدم يسيل على وجهه وجعل يمسح الدم ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم ﴾ الآية . ورواه مسلم بنحوه . ورواه أحمد والترمذى والنسائى من طرق عن حميد به . وفى الصحيحين عن سعد قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما بياض كأشد القتال ، وما رأيتهما قبل ولا بعد . وفى رواية لهما : يعنى جبريل وميكائيل . وفى رواية لهما : رأيت عن يمين النبى ﷺ وشماله رجلين .. الحديث . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ يوم أحد : هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب . وفى البخارى من حديث البراء : لم يبق معه ﷺ إلا اثنا عشر رجلا ، فذلك إذ يدعوهم الرسول فى أخراهم . وفى صحيح مسلم أنه ﷺ أفرد

يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش . فلما رهقوه قال : من يردهم عنا وله الجنة . فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ ما أنصفنا أصحابنا . يروى بفتح الفاء وبإسكانها . انتهى . ثم جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه ، وترس أبو دجانة عليه بظهره والنبل يقع وهو لا يتحرك ، وحينئذ قال رسول الله ﷺ لسعد بن أبى وقاص : ارم فداك أبى . أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية عن سعد قال : سلَّ لى رسول الله ﷺ كنانته وقال : ارم فداك أبى وأمى . وفيهما عن أبى عثمان قال : لم يبق مع النبى ﷺ فى بعض تلك الأيام التى يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله وسعد . وفى البخارى عن قيس قال : رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى ﷺ يوم أحد . وفى صحيح ابن حبان عن عائشة قالت قال أبو بكر الصديق : لما كان يوم أحد انصرف الناس عن النبى ﷺ ، فكنت أول من فاء إلى النبى ﷺ فرأيت بين يديه رجلا يقاتل عنه ويحميه ، فقلت كن طلحة فداك أبى وأمى ، فلم أنشب أن أدركنى أبو عبيدة بن الجراح ، وإذا هو يشتد كالطير حتى لحقنى ، فدفعنا إلى النبى ﷺ ، فإذا طلحة بين يديه صريعاً ، فقال النبى ﷺ : دونكم أخاكم فقد أوجب ، وقد رُمى النبى ﷺ فى وجنته ورمى فى جبهته حتى غابت حلقتان من حلق المغفر فى جبهته ، فذهبت لأنزعها فقال أبو عبيدة : نشدتك الله يا أبا بكر إلا تركتنى . قال فأخذ بفيه فجعل ينضنضه كراهية أن يؤذى النبى ﷺ ، ثم استل السهم فندرت ثنية أبى عبيدة ، ثم ذهبت آخذ الأخرى فقال أبو عبيدة : نشدتك الله يا أبا بكر إلا تركتنى : قال فأخذ بفيه فجعل ينضنضه ثم سله فندرت ثنية أبى عبيدة الأخرى ، ثم قال النبى ﷺ : دونكم أخاكم قد أوجب قال فأقبلنا على طلحة نعالجه وقد أصابه بضع عشرة ضربة . وقيل نشبت حلقتان من حلق المغفر فى وجهه فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما حتى سقطت ثناياه من شدة غوصها فى وجهه : ورواه أبو داود الطيالسى حدثنا ابن المبارك عن إسحق بن يحيى ابن طلحة بن عبيد الله أخبرنى عيسى بن طلحة عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذاك يوم كله لطلحة . ثم أنشأ يحدث فذكر نحوه ، وفيه : إن أبا عبيدة

استخرج الحلقتين ، وكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتما . وامتص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته ، فقال ﷺ : مجه . فقال : والله لا أمجه أبداً . ثم أدبر يقاتل ، فقال النبى ﷺ : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا . فقتل شهيداً . وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قتل ، وكان الذى قتله ابن قمئة وهو يظنه رسول الله ، فصاح ابن قمئة : إن محمداً قتل . وأعطى رسول الله اللواء بعده على بن أبى طالب فقاتل قتالا شديداً . وصرخ الشيطان : إن محمداً قد قتل . فوقع ذلك فى قلوب كثير من المسلمين . ومر أنس بن النضر بقوم قد ألقوا بأيديهم فقال . يا قوم ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله . فقال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل الناس ، ولقى سعد بن معاذ فقال : يا سعد إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد . ثم استقبل المشركين وقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعنى المسلمين ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعنى المشركين . ثم قاتل حتى قتل فما عرفه إلا أخته ببنانه . ووجدوا به سبعين ضربة . أخرجه البخارى من حديث أنس . ووجدوا يومئذ بعبد الرحمن بن عوف نحو عشرين جراحة ، بعضها فى رجله فعرج منها إلى أن مات . ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه فقال : يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل ؟ فقال : إن كان قتل فقد بلَّغ ، فقاتلوا عن دينكم . فنزلت ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ الآية . وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين ، وكان أول من عرفه كعب بن مالك الشاعر ، فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله . فأشار إليه رسول الله أن اصمت . فلما عرفه المسلمون لاذوا به ونهضوا معه إلى الشعب ، وفيهم أبو بكر وعمر وعلى وطلحة والزبير والحارث بن الصمة الأنصارى وغيرهم

قال ابن إسحق فلما أسند رسول الله ﷺ فى الشعب أدركه أبىّ بن خلف على جواد له زعم عدو الله أنه يقتل عليه رسول الله ، فلما اقترب منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة فلما أخذها منه انتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر

البعير ، ثم استقبله عليه السلام فطعنه بها طعنة وقع بها عن فرسه ولم يخرج لها دم ، فكسر ضلعا من أضلاعه . فلما رجع إلى قريش قال : قتلني والله محمد ، أليس قد قال لي بمكة أنا أقتلك ، فوالله لو بصق علي لقتلني . فمات عدو الله بسرف . رواه البيهقي وأبو نعيم ، ولم يذكر فكسر ضلعا من أضلاعه . وفي رواية أبي الأسود عن عروة : فاحتمله أصحابه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له : ما أجزعك ، إنما هو خدش . فذكر لهم قول رسول الله ﷺ : بل أنا أقتل أبيا . ثم قال : والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا جميعاً . فمات إلى النار . وقد رواه موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري عن ابن المسيب بنحوه

قال ابن إسحق : ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى فم الشعب ملأ علي بن أبي طالب درقته من المهراس — قيل هو صخرة منقورة تسع كثيراً ، وقيل هو اسم ماء بأحد — فجاء به رسول الله ﷺ ليشرب منه فوجد له ريحا فعافه ، وغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه وهو يقول : اشتد غضب الله على من دمّى وجه نبيه . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الزهري عن عثمان الجزري عن مقسم أن رسول الله ﷺ دعا على عتبة بن أبي وقاص حين كسر رباعيته ودمى وجهه وقال : اللهم لا تحل عليه الحول حتى يموت كافراً ، فما حال عليه الحول حتى مات كافراً إلى النار . وفي الصحيحين عن سهل أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال : والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ومن كان يسكب الماء ، كانت فاطمة ابنته تغسله وعلي بن أبي طالب يسكب الماء . فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فاستمسك الدم

قال ابن إسحق : فبينا رسول الله ﷺ في الشعب ، معه أولئك النفر من أصحابه ، إذ علت عالية من قريش الجبل ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم لا ينبغي لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه حتى أهبطوهم من الجبل ، ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة من الجبل ليعلوها ، وقد كان بدّن رسول الله وظاهر بين درعين ، فلما ذهب ينهض لم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها ، فقال رسول الله

ﷺ كما حدثني يحيى بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال : سمعت رسول الله ﷺ يومئذ يقول : أوجب طلحة حين صنع برسول الله ما صنع

قال ابن هشام : وذكر عمر مولى عفرة أن النبي ﷺ صلى الظهر يوم أحد قاعداً من الجراح ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً . وانهزم قوم من المسلمين يومئذ فبلغ بعضهم إلى الخلوب دون الأعوص ، منهم عثمان بن عفان وعثمان بن عقبة الأنصارى ، فغفر الله ذلك لهم ، ونزل القرآن بالعفو عنهم بقوله : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ الآية .
واشتغل المشركون ونساؤهم بقتلى المسلمين يمثلون بهم ويقطعون الآذان والأنوف والفروج ويبقرون البطون . وبقرت هند بنت عتبة عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها

ولما أراد أبو سفيان الانصراف أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : أنعمت فعال ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، أعلُ هبل.

وفى حديث البراء عند البخارى فى صحيحه : فأصيب منا سبعون قتيلا ، فأشرف أبو سفيان فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال : لا تجيبوه . فقال : أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ فقال : لا تجيبوه . فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال : لا تجيبوه . فقال : إن هؤلاء قد قتلوا . فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت يا عدو الله ، قد أبقى الله ما يخزيك . وفى رواية : إن الذين عددتَ لأحياء ، وقد أبقى الله لك ما يسوءك ، فقال : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، إنكم ستجدون فى القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى . ثم أخذ يرتجز : اعل هبل . فقال رسول الله ﷺ : ألا تجيبونه ؟ قالوا يا رسول الله ما نقول ؟ قال قولوا : الله أعلى وأجل . ثم قال : لنا العزّى ولا عزى لكم . فقال رسول الله ﷺ : ألا تجيبونه ؟ قالوا يا رسول الله ما نقول ؟ قال قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . انفرد به البخارى .
وفى رواية الإمام أحمد عن ابن عباس قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال . قال عمر : لا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار . وفى رواية عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ هو الذى أجابه فى ذلك ، وأنه قال : لا سواء ، أما قتلانا فأحياء يرزقون ، وأما قتلاكم ففى النار يعذبون . وفيه قال فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده.

فلا كتبها فلم تستطع أن تأكلها ، فقال رسول الله ﷺ : أكلت شيئاً ؟ قالوا لا . قال : ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة النار

وروى الإمام أحمد وابن أبى حاتم والبيهقى والحاكم فى المستدرك عن ابن عباس قال : ما نصر الله النبى ﷺ فى موطن كما نصره يوم أحد ، فأنكرنا ذلك عليه ، فقال ابن عباس : بينى وبين من أنكر ذلك كتاب الله ، إن الله يقول فى يوم أحد : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ يقول ابن عباس : والحس القتل ، ﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم ﴾ الآية . وإنما عنى بهذا الرماة . ولقد كانت الدولة لرسول الله ﷺ أول النهار حتى سقط من أصحاب لواء المشركين تسعة أو سبعة الحديث وفيه أن عمر قال : يا رسول الله ألا أجيبه ؟ قال : بلى . فلما قال اعلُ هبل قال عمر : الله أعلى وأجل . قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، وإن الحرب سجال ، قال عمر : لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار . قال : إنكم تزعمون ذلك فقد خبنا وخسرنا انتهى . قال فى الهدى فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته وبشركه تعظيما للتوحيد وإعلاما بعزة من عبد المسلمون وقوة جانبه وأنه لا يغلب ، ونحن جنده وحزبه ، ولم يأمرهم بإجابته حين قال : أفيكم محمد ، أفيكم ابن أبى قحافة ، أفيكم عمر ؟ بل قد روى أنه نهاهم عن إجابته لأن كلمهم لم يكن برد بعد فى طلب القوم ونار غيظهم بعد متوقدة ، فلما قال لأصحابه أما هؤلاء فقد كفيتموهم حمى عمر بن الخطاب واشتد غضبه وقال : كذبت يا عدو الله . وكان فى هذا الإعلام من الادلال والشجاعة وعدم الجبن والتعرف إلى العدو فى تلك الحال ما يؤذنهم بقوة العزم وبسالتهم ، وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا ، وأنه وقومه جديرون بعد بالخوف منهم ، وقد أبقى لهم ما يسوءهم منهم . وكان فى الأعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة بعد ظنه وظن قومه أنهم أصيبوا من المصلحة وغيظ العدو وحزنه والفت فى عضده ما ليس فى جوابه حين سألهم عنهم واحداً بعد واحد ، وكان سؤاله عنهم ونعيهم لقومه آخر سهام العدو وكيده فصبر له النبى ﷺ حتى استوفى كيده ثم انتدب له عمر فرد سهامه عليه ، وكان ترك الجواب أولى وأحسن ، وذكره ثانياً أحسن . وأيضاً فإن فى ترك إجابته حين سألهم عنهم إهانة له وتصغيراً لشأنه ،

فلما منته نفسه موتهم فظن أنهم قد قتلوا وحصل له بذلك من الكبر والإعجاب ما حصل كان ذاك في جوابه إهانة له وتحقيراً وإذلالا ، ولم يكن هذا مخالفاً لقول النبي ﷺ : لا تجيبوه ، فإنه إنما نهى عن إجابته أولا لما سأل : أفيكم محمد ، أفيكم فلان ؟ ولم ينه عن إجابته لما قال : أما هؤلاء فقد قتلوا . وبكل حال فلا أحسن من ترك إجابته أولا ولا أحسن من إجابته ثانياً ، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم

وأنزل الله عليهم النعاس في غزوة بدر وأحد ، والنعاس في الحرب والخوف دليل على الأمن وهو من الله ، وفي الصلاة ومجالس الذكر والعلم من الشيطان . ففي الصحيح عن قتادة عن أنس قال : قال أبو طلحة : كنت ممن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه . وفيه عن أنس قال : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يدي النبي مجوب عليه بحجفة له ، وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل فيقول : انثرها لأبي طلحة ، ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة : بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك . ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وأنهما لمشمرتان ، أرى خدم سوقهما تنقزان بالقرب . وقال غيره : تنقلان القرب على متونهما تفرغانه على أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنه ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنها وتجيئان فتفرغانه في أفواه القوم ، ولقد وقع السيف من يد أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثا . انتهى

قال ابن إسحق : ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدراً العام القابل . فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : قل نعم ، هو بيننا وبينكم موعد

ثم بعث رسول الله ﷺ على بن أبي طالب وقال : اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون ؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن كانوا ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة . والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم . قال على : فخرجت في أثرهم أنظر ما يصنعون ،

فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة ، وفرغ الناس لقتلاهم وأخذوا ينقلون موتاهم بعد انصراف قريش ، فأمر رسول الله ﷺ بأن يدفنوا فى مضاجعهم ، وأن لا يغسلوا ، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم

وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان الظفرى ، فأتى بها رسول الله ﷺ وعينه على وجنته ، فردها رسول الله ﷺ ، فكانت أصح عينى قتادة وأحسنهما

ذكر شهداء أُحد

وكان ممن استشهد من المسلمين يوم أُحد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، قتله وحشى مولى نوفل ، وأعتق لذلك ، رماه بحربة فوقعت ثنيته . ثم إن وحشياً أسلم ، وقتل بالحربة بعينها مسيلمة الكذاب يوم اليمامة زمن أبى بكر الصديق . وفى حديث جعفر بن أمية الضمرى فى الصحيح عن وحشى قال : إن حمزة قتل طعيمة ابن عدى بن نوفل ببدر ، فقال لى مولاى جبير بن مطعم : إن قتلت حمزة بعمى فأنت حر . قال : فلما خرج الناس عام عينين — وعينين جبل بجبال أحد بينه وبينه واد — فلما أن خرج الناس خرجتُ مع الناس إلى القتال ، فلما أن اصطفوا للقتال خرج سباع فقال : هل من مبارز ؟ قال : فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال : يا سباع ، يا ابن أم أنمار مقطعة البظور ، أتحادُّ الله ورسوله ؟ قال : ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب . فكمنتُ لحمزة تحت صخرة ، فلما دنا منى رميت بحربتى فأضعها فى ثُنَّته حتى خرجت من بين وركيه . قال : فكان ذلك آخر العهد به . فلما رجع الناس رجعت معهم فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام . ثم خرجت إلى الطائف ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسلا ، وقيل إنه لا يهيج الرسل . قال فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ، فلما رآنى قال : أنت وحشى ؟ قلت : نعم . قال : أنت قتلت حمزة ؟ قلت : قد كان من الأمر ما بلغك . قال : فهل تستطيع أن تغيّب وجهك عنى ؟ قال : فخرجت . فلما قبض رسول الله ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب قلت : لأخرجن إلى مسيلمة لعلى أقتله

فأ كافىء به حمزة . قال : فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان . فإذا رجل قائم في ثلمة جدار كأنه جمل أورق ثائر الرأس ، قال : فرميته بحربتى فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه . قال : ووثب عليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته . قال عبد الله بن الفضل : فأخبرنى سليمان بن يسار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول : قالت جارية على ظهر بيت : وا أمير المؤمنين ! قتله العبد الأسود . ورواه ابن إسحاق في السيرة بإسناد الصحيح بأبسط منه . قال : فلما خرج وفد الطائف ليسلموا تعيت على المذاهب فقلت ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد ، فوالله إنى لفى ذلك من همى إذ قال رجل : ويحك ، إنه ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه ويشهد شهادة الحق . فلما قال ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة ، فلم يرعه إلا بى قائماً على رأسه أشهد شهادة الحق . فلما رآنى قال : وحشى ؟ قلت : نعم يا رسول الله . قال : اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ؟ قال : فحدثته كما حدثتكما . فلما فرغت من حديثى قال : ويحك ، غيب عنى وجهك فلا رأيتك . قال : فكنت أتنكب رسول الله ﷺ لئلا يرانى حتى قبضه الله . قال ابن هشام : فبلغنى أن وحشياً لم يزل يحد في الخمر حتى خلع من الديوان ، فكان عمر بن الخطاب يقول : لقد علمت أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة . وروى الدارقطنى بإسناد على شرط الشيخين عن سعيد بن المسيب قال : كنت أتعجب لقاتل حمزة كيف ينجو ؟ حتى أنه مات غريقاً في الخمر . وروى ابن شاذان من حديث ابن مسعود : ما رأينا رسول الله باكياً قط أشد من بكائه على حمزة ابن عبد المطلب ، وضعه في القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشغ من البكاء . . الحديث . قيل : والنشغ الشهيق حتى يبلغ به الغشى . وروى البغوى في معجمه أنه كان ﷺ إذا صلى على جنازة كبر عليها أربعاً ، وكبر على حمزة سبعين تكبيرة . وقد روى أنس بن مالك أن شهداء أحد لم يغسلوا ، ودفنوا بدمائهم ، ولم يصل عليهم . أخرجه أحمد وأبو داود ، فيحمل أمر حمزة على التخصيص . ومن صلى عليه غيره على أنه جرح حال الحرب ولم يمت حتى انقضت الحرب

ودفن حمزة هو وابن أخته عبد الله بن جحش فى قبر واحد

ومنهم مصعب بن عمير قتله ابن قمئة الليثى وشماس بن عثمان المخزومى . ومن الأوس عمرو بن معاذ أخو سعد بن معاذ ، والحارث بن أنيس ، وعمارة بن زياد بن السكن ، وسلمة وعمرو ابنا ثابت بن وقش ، وصيفى بن قيظى ، وحباب بن قيظى ، وعباد ابن سهل ، والحارث بن أوس بن معاذ بن أخى سعد ، واليمان والد حذيفة حليف لهم ، وإياس بن أوس ، وعبيدة بن عمرو ، وعبيد بن التيهان ، وحبيب بن زيد بن تيم ، ويزيد بن حاطب ، وأبو سفيان بن الحارث ، وحنظلة الغسيل ، وقيس بن يزيد ، ومالك ابن أمية ، وأنيس بن قتادة ، وأبو حبة بن عمرو أخو سعد بن خيثمة لأمه ، وعبد الله ابن جبير أمير الرماة ، وأبو خيثمة والد سعد . ومن حلفائهم عبد الله بن سلمة ، وسبيع ابن حاطب ، وعمير بن عدى . ومن الخزرج عمرو بن قيس ، وابنه قيس ، وثابت ابن عمرو ، وعامر بن مخلد ، وأبو هبيرة بن الحارث ، وعمرو بن مطرف ، وأوس ابن ثابت أخو حسان ، وأنس بن النضر ، وقيس بن مخلد ، وكيسان مولى لهم ، وحارثة ابن زيد ، وسعد بن الربيع ، وأوس بن الأرقم ، ومالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى ، وسعيد بن سويد ، وعتبة بن منيع ، وثقف بن فردة ، وعبد الله بن عمرو ابن وهب ، وضمرة حليف لهم ، ونوفل بن عبد الله ، والعباس بن عبادة بن نضلة ، والنعمان بن مالك ، والمجذر بن زياد البلوى ، وعبادة بن الخشخاش ، وعبد الله بن عمرو ابن حرام والد جابر ، وعمرو بن الجموح دفنا فى قبر واحد وكانا صديقين جداً ، وابنه خلاد بن عمرو ، وأبو أيمن مولى عمرو بن الجموح ، وسليم بن عمرو ، ومولاه عنترة ، وسهل بن قيس بن أبىّ بن كعب ، وذكوان بن عبد قيس ، وعبيد بن المعلى بن لوذان ، فجميعهم خمسة وستون رجلا . وممن ذكر أيضاً فى شهداء أحد من الأوس : مالك بن نميلة حليف لهم ، والحارث بن عدى الخطمى . ومن الخزرج مالك بن إياس ، وعمرو بن إياس فيكونون سبعين رجلا رضى الله عنهم . وقتل من الكفار اثنان وعشرون رجلا

غزوة حمراء الأسد

قال أهل المغازى وكانت وقعة أحد يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثالثة من الهجرة كما تقدم ، فلما كان من الغد يوم الأحد أذن مؤذن رسول الله ﷺ فى الطلب للعدو ، وعهد رسول الله أن لا يخرج معه أحد إلا من حضر المعركة يوم أحد ، فاستأذنه جابر بن عبد الله فى أن يفسح له فى الخروج معه ففسح له فى ذلك ، فخرجوا على ما بهم من الجهد والجراح ، وإنما خرج عليه السلام مرهباً للعدوّ ومتجلداً ، فبلغ حمراء الأسد ، وهى على ثمانية أميال من المدينة ، ومر برسول الله ﷺ معبد بن أبى معبد الخزاعى ، وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله ﷺ مسلمهم وكافرهم ، ومعبد يومئذ مشرك ، فقال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك . ثم خرج حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا على الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا : أصبنا حد أصحابه وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج فى أصحابه عليكم فى جمع لم أر مثله قط ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ما صنعوا . قال : ويلك ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل . فساء ذلك أبا سفيان ومن معه . ومر ركب من عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة للميرة . قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة وأحملكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير إليه وأصحابه لنستأصل بقيتهم . فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه . فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل . وفى الصحيح عن ابن عباس قال : حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار . وقالها محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً . وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ . وفيه عن عائشة : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول ﴾

الآية . قال عروة قالت عائشة : يا بن أختى كان منهم أبوك الزبير وأبو بكر لما أصاب نبى الله ما أصاب فانصرف عنه المشركون وخاف أن يرجعوا فقال : من يذهب فى أثرهم ، فانتدب منهم سبعون رجلا كان فيهم أبو بكر والزبير . انتهى

قالوا : فأقام رسول الله ﷺ بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة يوم الجمعة ، وقد غاب خمساً وظفر عليه السلام بمخرجه ذلك بمعاوية بن المغيرة بن أبى العاص جد عبد الملك بن مروان لأمه فأمر بضرب عنقه صبراً

قال الحافظ مغلطاى : وحرمت الخمر فى شوال ويقال سنة أربع

بعث الرجيع

وحديث عضل والقارة . والرجيع بفتح الراء وكسر الجيم اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان كانت الوقعة بالقرب منه فسميت . وعضل بفتح المعجمة بطن من بنى الهون ابن خزيمة بن مدركة ، والقارة بالقاف وتخفيف الراء بطن من الهون أيضاً . قال ابن دريد : القارة أكمة سوداء كأنهم نزلوا عندها فسموا بها . قالوا : وقدم على رسول الله فى صفر فى آخر تمام السنة الثالثة من الهجرة نفر من عضل والقارة ، فذكروا للنبى ﷺ أن فيهم إسلاماً ، ورغبوا أن يبعث معهم نفراً من المسلمين يفقهونهم فى الدين ، فبعث رسول الله ﷺ ستة رجال من أصحابه : مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وخالد ابن البكير الليثى ، وعاصم بن ثابت من الأوس ، وخبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة البياضى ، وعبد الله بن طارق حليف لبنى ظفر . وأمّر رسول الله ﷺ مرثداً ، حتى إذا صار بالرجيع غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلا . وفى الصحيح عن أبى هريرة قال : بعث النبى ﷺ سرية وأمر عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلا نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة . فقالوا : هذا تمر يثرب . فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم ، فلما انتهى

عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد ، وجاء القوم فأحاطوا بهم . فقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا . فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا رسولك . فقاتلوهم فرموهم حتى قتلوا عاصماً فى سبعة نفر بالنبل ، وبقى خبيب وزيد ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق ، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم ، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها . فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، فأبى أن يصحبهم فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل ، فقتلوه . وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة ، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث يوم بدر ، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته ، قالت فغفلت عن صبى لى فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه ، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك منى وفى يده الموسى فقال : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت أفعل ذلك إن شاء الله . وكانت تقول : ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة وإنه لموثق فى الحديد ، وما كان إلا رزقاً رزقه الله . فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال : دعونى أصلى ركعتين . ثم انصرف إليهم فقال : لولا أن تروا أن ما بى جزع من الموت لزدت . وكان أول من سنّ الركعتين عند القتل ، وقال : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً ثم قال :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى شق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله فإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزّع

ثم قام عقبة بن الحارث فقتله . وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشىء من جسده يعرفونه ، وكان قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر ، فبعث الله عليه مثل الظلّة من الدبر فحمته من رسلهم ، فلم يقدروا منه على شىء . وفى رواية فى الصحيح : بعث رسول الله عشرة رهط سرية عيناً ، واستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب ، وأخبر النبى ﷺ خبرهم ، وما أصيبوا . انتهى

ووقع فى رواية أبى الأسود عن عروة : فلما وضعوا فى خبيب السلاح نادوه وناشدوه : أتحب أن محمداً مكانك ؟ قال : والله ، ما أحب أن يفدينى بشوكة فى قدمه

والدبر بفتح المهملة وسكون الموحدة : الزنابير ، وهى ذكور النحل . وكان عاصم ابن ثابت قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً ، فكان عمر لما بلغه خبره يقول : يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه فى حياته

سرية المنذر بن عمرو إلى بئر معونة

وهو موضع ببلاد هذيل بين مكة وعسفان ، فى صفر على رأس أربعة أشهر من أحد . وكان سببها كما قال ابن إسحاق وغيره أن أبا مالك المعروف بملاعب الأسنة قدم على رسول الله ﷺ ، فعرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ولم يبعد ، وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك . فقال عليه الصلاة والسلام : إنى أخشى أهل نجد عليهم . قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم ، فبعث المنذر بن عمرو ومعه القراء وهم سبعون وقيل أربعون وقيل ثلاثون ، وفى رواية قتادة فى الصحيح عن أنس أنهم كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل ، وفى رواية ثابت عنه يشترون به الطعام لأهل الصفة ويتدارسون القرآن بالليل ، فساروا حتى إذا نزلوا بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان بكتابه ﷺ إلى عدو الله عامر ابن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ، وفى رواية أنس فى الصحيح : فلما أنفذه الرمح قال : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة . انتهى . ثم استصرخ عليهم بنى عامر فلم يجيبوه وقالوا : نحن لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً ، فاستصرخ قبائل من سليم ورعلا وذكوان وعصية فأجابوه إلى ذلك ، ثم خرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا إلى آخرهم ، إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق ، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً . وأسر عمرو بن أمية الضمرى ، فلما أخبرهم أنه من مضر أخذه عامر

ابن الطفيل وأعتقه عن رقبة زعموا أنها كانت على أمه . وفى الصحيح عن أبى أسامة عن هشام بن عروة فأخبرنى أبى قال : لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمرى قال له عامر بن الطفيل : من هذا ؟ وأشار إلى قتيل ، فقال له عمرو بن أمية : هذا عامر بن فهيرة . قال : لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إنى لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ، ثم وضع . فأتى النبى ﷺ خبرهم فنعاهم فقال : إن أصحابكم قد أصيبوا ، وإنهم قد سألوا ربهم قالوا : ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا . فأخبرهم عنهم . وفى الصحيحين عن أنس : دعا النبى ﷺ على الذين قتلوهم ثلاثين صباحاً ، يدعو على رعل وذكران وبنى لحيان وعصية عصوا الله ورسوله . قال أنس : فأنزل الله فى الذين قتلوا قرآناً قرأناه ثم نسخ بعد ، أى نسخت تلاوته « بلغوا قومنا عنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنه ورضينا عنه » وروى ابن سعد عن أنس : ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة ، وذكر الواقدى أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبى ﷺ فى ليلة واحدة ، ويدل على قربها منها ما فى حديث أنس من تشريك النبى ﷺ بين بنى لحيان وعصية وغيرهم فى الدعاء

غزوة بنى النضير

قال ابن إسحاق وغيره : وكانت فى سنة أربع ، وفى البخارى عن عروة قال : كانت غزوة بنى النضير على رأس ستة أشهر من وقعة بدر . وكان سببها كما قال ابن إسحاق وغيره أن عمرو بن أمية الضمرى لما أعتقه عامر بن الطفيل كما تقدم خرج عمرو إلى المدينة ، فصادف فى طريقه رجلين من بنى عامر معهما عقد وعهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به عمرو ، فقال لهما عمرو : من أنتما ؟ فذكرا له أنهما من بنى عامر فتركهما حتى ناما فقتلهما وظن أنه قد ظفر ببعض ثأر أصحابه ، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ فقال : لقد قتلتَ قتيلين لأدينهما . ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعين بهم فى دية ذينك القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية للجوار الذى كان عقده

لها ، فلما أتاهم عليه السلام يستعينهم قالوا : يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوه على مثل هذا الحال . وكان ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم . فقالوا : من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش فقال : أنا لذلك . قال ابن سعد : فقال سلام بن مشكم : لا تفعلوا ، والله ليخبرن بما هممتم به ، وإنه لنقض العهد الذى بيننا وبينه

قال ابن إسحاق : وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام مظهراً أنه يقضى حاجة وترك أصحابه فى مجلسهم ورجع مسرعاً إلى المدينة . واستبطأ النبىَّ ﷺ أصحابه فقاموا إليه حتى انتهوا إليه فأخبر بما أراد يهود . قال ابن عقبة : وأنزل الله فى ذلك : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم ﴾ الآية . فأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم

قال ابن هشام : واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، ثم سار بالناس حتى نزل بهم فحاصرهم ، فتحصنوا منه فى الحصون ، فقطع النخل وحرقها وخرب ، فنادوه : يا محمد ، قد كنتَ تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها . قال السهيلى : قال أهل التأويل : وقع فى نفوس بعض المسلمين من هذا الكلام شىء ، حتى أنزل الله : ﴿ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ الآية

قال ابن إسحاق : وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبىّ ابن سلول بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا . فقذف الله فى قلوبهم الرعب فلم ينصروهم ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم عن أرضهم ويكف عن دمائهم

وفى الصحيح من حديث ابن عمر أن النبى ﷺ حرق نخل بنى النضير وقطع ، وهى البويرة ، ولها يقول حسان بن ثابت :

وهان على سراة بنى لؤى　　حريق بالبويرة مستطير

فأجابه أبى سفيان بن الحارث :

أدام الله ذلك من صنيع وحرق فى نواحيها السعير

ستعلم أينا منها بنزه ونعلم أى أرضينا تضير

وفى رواية فأنزل الله : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها ﴾ الآية . وفى رواية ابن سعد : فقال لهم رسول الله ﷺ : اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة ، فنزلوا على ذلك ، وكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم ، ثم أجلاهم عن المدينة وحملوا النساء والصبيان ، وتحملوا على ستمائة بعير . قال الحافظ أبو محمد بن حزم وأبو عبد الرحمن رحمهما الله : وحينئذ نزل تحريم الخمر ، فاحتملوا بأهليهم إلى خيبر ، ومنهم من صار إلى الشام . وكان ممن صار إلى خيبر أكابرهم - كحيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق - فدانت لهم خيبر ، فقسم رسول الله ﷺ أموال بنى النضير بين المهاجرين خاصة ، إلا أنه عليه السلام أعطى أبا دجانة وسهيل بن حنيف وكانا فقيرين . وفى قصة بنى النضير نزلت سورة الحشر ، ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان - يامين بن عمرو وأبو سعيد بن وهب - أسلما فأحرزا أموالهما . وقبض رسول الله ﷺ الأموال ولم يقسم منها لأحد ، لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب ، وإنما قذف الله فى قلوبهم الرعب ، فقسمها بين المهاجرين ليرفع بذلك مؤنتهم عن الأنصار إذ كانوا قد قاسموهم الأموال والديار ، وكانت بنو النضر لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث شاء كما فى الصحيحين من حديث عمر فى قصة اختصام على وعباس عند عمر فيما أفاء الله على رسوله من بنى النضير ، وفيه أن عمر قال : إن الله كان خص رسوله فى هذا الفئ بشىء لم يعطه أحد غيره فقال : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ الآية فكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ . وفى رواية للبخارى : وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله

غزوة ذات الرقاع

واختلف فيها متى كانت ؟ فذكر ابن إسحق أنها بعد بنى النضير سنة أربع فى شهر ربيع ، وعند ابن سعد وابن حبان فى المحرم سنة خمس ، قال فى فتح البارى : قد جنح البخارى إلى أنها كانت بعد خيبر ، واستدل لذلك بأمور ، ومع ذلك فذكرها قبل خيبر فلا أدرى هل تعمد ذلك تسليما لأصحاب المغازى أنها كانت قبلها ، أو أن ذلك من اختلاف الروايات عنه ، أو إشارة إلى احتمال أن تكون ذات الرقاع اسماً لغزوتين مختلفتين كما أشار به البيهقى . على أن أصحاب المغازى مع جزمهم بأنها كانت قبل خيبر مختلفون فى زمانها ، قال : والذى ينبغى الجزم به أنها كانت بعد غزوة بنى قريظة ، لأن صلاة الخوف فى غزوة الخندق لم تكن شرعت ، وقد ثبت وقوع صلاة الخوف فى غزوة ذات الرقاع ، فدل على تأخرها بعد الخندق

وسميت « ذات الرقاع » لما روى البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه . فنقبت أقدامنا ونقبت قدماى وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا ، فحدث أبو موسى بهذا الحديث ، ثم كره ذلك قال : ما كنت أصنع بأن أذكره ؟ كأنه كره أن يكون شىء من عمله أفشاه

وكان من خبر هذه الغزوة كما قاله ابن إسحق وغيره أنه ﷺ غزا نجداً يريد بنى محارب وبنى ثعلبة بالمثلثة من غطفان ، لأنه بلغه أنهم جمعوا الجموع ، فخرج فى أربعمائة من أصحابه ، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى ـ وقيل عثمان بن عفان ـ حتى نزل نخلا بالخاء المعجمة ، موضع من نجد من أرض غطفان . قال ابن سعد : فلم يجد فى محالهم إلا نسوة فأخذهن . وقال ابن إسحق : فلقى جمعاً فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب ، وقد أخاف الناس بعضهم بعضاً فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف . قال ابن سعد : وكان ذلك أول ما صلاها

وفى البخارى عن جابر : كنا مع النبى ﷺ بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبى ﷺ . فنزل رسول الله وتفرق الناس فى العضاه يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله تحت شجرة فعلق بها سيفه . قال جابر : فنمنا نومة ، فجاء رجل من المشركين فاخترط سيف رسول الله فقال : أتخافنى ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله . قال جابر : فإذا رسول الله يدعونا ، فجئنا فإذا عنده أعرابى جالس ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده صلتا ، فقال لى : من يمنعك منى ؟ قلت : الله . فها هو ذا جالس . ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ . وفى رواية : وأقيمت الصلاة ، فصلى بطائفة ركعتين ، ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين ، وكان للنبى ﷺ أربع وللقوم ركعتان . وفى رواية أبى عوانة : فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال : من يمنعك منى ؟ قال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ قال الأعرابى : أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . قال : فخلى سبيله ، فجاء إلى قومه . فقال : جئتكم من عند خير الناس . وفى هذه القصة فرط شجاعته ﷺ وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه على الجهال . وفيها حفظ الله له ، وإلا فما الذى أحوج الأعرابى إلى مراجعته مع احتياجه إلى الحظوة عند قومه بقتله

وفى انصرافه ﷺ من هذه الغزوة أبطأ جمل جابر بن عبد الله فنخسه عليه الصلاة والسلام فانطلق متقدما بين يدى الركاب ، ثم قال : أتبيعنيه ؟ فابتاعه منه . وقال : لك ظهره إلى المدينة . فلما وصلها أعطاه الثمن وأرجح ، ووهب له الجمل

غزوة بدر الأخيرة

قال ابن إسحق : ولما قدم رسول الله ﷺ من غزوة ذات الرقاع أقام بها جمادى الأولى إلى آخر رجب ، ثم خرج فى شعبان إلى بدر لميعاد أبى سفيان ، وهو ما سبق أن أبا سفيان قال يوم أحد : الموعد بيننا وبينكم بدر العام القابل . فقال عليه السلام لرجل من أصحابه : قل نعم ، هو بيننا وبينكم موعد . فخرج ﷺ ومعه ألف وخمسمائة

من أصحابه وعشرة أفراس ، واستعمل على المدينة عبد الله بن رواحة ، فأقاموا على بدر ينتظرون أبا سفيان ، وخرج أبو سفيان حتى نزل مجنة من ناحية مرّ الظهران ، ثم بدا له الرجوع فقال : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا . فرجع الناس ، فسماهم أهل مكة جيش السويق يقولون : إنما خرجتم تشربون السويق . وأقام عليه السلام ثمانية أيام ، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا الدرهم درهمين وأنزل الله فى ذلك : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول ﴾ الآية . والصحيح أن هذه الآية نزلت فى شأن حمراء الأسد كما نص عليه العماد بن كثير رحمه الله

غزوة دومة الجندل

وهى مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة أو ست عشرة

وكان سببها أنه بلغه ﷺ أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مر بهم ، فخرج لخمس ليال بقين من ربيع فى ألف من أصحابه ، فكان يسير الليل ويكمن النهار ، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة . فلما دنا منهم لم يجد إلا الغنم والشاء ، فهجم على شيتهم ورعائهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب فى كل وجه ، وجاء الخبر أهل دومة فتفرقوا ، ونزل عليه السلام بساحتهم فلم يلق بها أحداً ، فأقام بها أياماً ، وبث السرايا وفرقها ، فرجعوا ولم يصب منهم أحد

غزوة المريسيع

بضم الراء وسكون التحتانية بينهما مهملة مكسورة وآخره عين مهملة . وهو ماء لبنى خزاعة ، وبينه وبين الفرع يومان ، وتسمى « غزوة بنى المصطلق » بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملة وكسر اللام بعدها قاف ، بطن من خزاعة ، وكانت لليلتين خلتا من شعبان سنة خمس

وسببها أنه بلغه ﷺ أن رئيسهم الحارث بن أبى ضرار سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوه وظعنوا للمسير معه إليه ، وخرج عليه السلام فى بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا فى غزاة قط مثلها ، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت . وخرجت عائشة وأم سلمة . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ أغار على بنى المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء . قيل : وفى هذه الغزوة نزلت آية التيمم . وفى الصحيحين من حديث عائشة : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره فذكرت حديث التيمم ، قال ابن عبد البر فى التمهيد يقال : إنه كان فى غزوة بنى المصطلق ، وجزم بذلك فى الاستذكار ، وسبقه إلى ذلك ابن سعد وابن حبان . وفى البخارى : وقال النعمان بن راشد عن الزهرى : كان حديث الإفك فى غزوة المريسيع

قال أبو محمد بن حزم : وكانت غزوة المريسيع فى شعبان من السنة السادسة ، وأغار عليهم رسول الله ﷺ وهم غارُّون كما تقدم على ماء لهم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل ، فقتل من قتل منهم وسبى النساء والذرية ، ومن السبى كانت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق ، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها ، فأدى رسول الله ﷺ عنها وأعتقها فتزوجها ، وكانت امرأة حلوة من رآها أحبها ، فأعتق المسلمون مائة أهل بيت من بنى المصطلق وقالوا أصهار رسول الله

وفى رجوع رسول الله ﷺ من هذه الغزوة قال عبد الله بن أبىّ : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وذلك لشر وقع بين جهجاه بن مسعود الغفارى أجير عمر بن الخطاب وبين سنان بن وبر الجهنى حليف بنى عوف بن الخزرج ، فنادى الغفارى : يا للمهاجرين ، ونادى الجهنى : يا للأنصار . فقال رسول الله ﷺ : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ وبلغ زيد بن أرقم رسول الله ﷺ مقالة عبد الله بن أبىّ فنزل فى ذلك من عند الله سورة المنافقين ، وتبرأ عبد الله بن عبد الله بن أبىّ من أبيه ، وأتى رسول الله فقال له : يا رسول الله أنت والله الأعز وهو الأذل ، والله لئن شئت

لنخرجنه يا رسول الله ، ووقف لأبيه قرب المدينة فقال : لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله فى الدخول . وقال أيضاً : بلغنى أنك تريد قتل أبى وإنى أخشى إن أمرتَ بذلك غيرى ألا تدعنى نفسى أرى قاتل عبد الله يمشى على الأرض فأقتله وأدخل النار إذا قتلت مؤمناً بكافر ، وقد علمت الأنصار أنى من أبرها لأبيه ، ولكن يا رسول الله إن أردت قتله فرنى بذلك فأنا والله أحمل إليك رأسه . فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، وأخبره أنه لا يسىء إلى أبيه

فصل

وفى مرجع رسول الله ﷺ من غزوة بنى المصطلق قال أهل الإفك ما قالوا عنه فى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها . أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث الزهرى قال : حدثنى عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة أم المؤمنين حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، وكلهم حدثنى طائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا ، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذى حدثنى عن عائشة ، وبعض حديثهم يصدق بعضاً ، وإن كان بعضهم أوعى من بعض . قالوا : قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرجت معه ، قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى ، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أنزل الحجاب ، فكنت أحمل فى هودج وأنزل فيه . فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ودنونا من المدينة قافلين أذن ليلة بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه . قالت : وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه ، وهم يحسبون أنى فيه . وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يُهبّلن ولم يغشهن اللحم ،

إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت به وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلى ، فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان ابن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم ، فعرفنى حين رآنى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمرت وجهى بجلبابى ، ووالله ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وأهوى حتى أناخ راحلته فوطىء يدها ، فقمت إليها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول . قالت : فهلك من هلك . وكان الذى تولى كبر الإفك عبد الله بن أبىّ بن سلول . قال عروة : أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث عنده ، فيقره ويستوشيه . وقال عروة أيضاً : لم يسم من أهل الإفك إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش فى ناس آخرين لا علم لى بهم غير أنهم عصبة كما قال الله . قال عروة : وكانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول : إنه الذى قال :

فإن أبى ووالده وعرضى ٭ لعرض محمد منكم وقاء

قالت عائشة : فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً ، والناس يفيضون فى قول أهل الإفك لا أشعر بشىء من ذلك وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل علىّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ ثم ينصرف . فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر . حتى خرجت حين نقهت فخرجتْ معى أم مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتنا . قالت : وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية قبل الغائط ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا . قالت : فانطلقت أنا وأم مسطح ــ وهى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب ــ فأقبلت أنا

وأم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلا شهد بدراً ؟ فقالت : أى هنتاه ، أو لم تسمعى ما قال ؟ قالت قلت : وما قال ، فأخبرتنى بقول أهل الإفك . قالت : فازددت مرضاً على مرضى ، فلما رجعت إلى بيتى دخل علىّ رسول الله ﷺ ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلت : أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ قالت وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما . قالت : فأذن لى رسول الله ﷺ ، فقلت لأمى : يا أمتاه ماذا يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنية هونى عليك ، فو الله لقلّ ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن عليها . قالت فقلت سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . ثم أصبحت أبكى . قالت : ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يسألها ويستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم لهم فى نفسه من الود ، فقال أسامة . أهلك ، ولا نعلم إلا خيراً . وأما على فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك . قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : هل رأيت من شىء يريبك ؟ قالت له بريرة : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله . وفى رواية أبى أسامة عند البخارى : فانتهرها بعض أصحابه فقال : أصدقى رسول الله حتى أسقطوا لها به . فقالت : سبحان الله ، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر . وبلغ الأمر إلى ذلك الرجل الذى قيل له فقال: سبحان الله ، والله ما كشفت كنف أنثى قط . قالت عائشة : فقتل بعد ذلك شهيداً فى سبيل الله وفى رواية ابن إسحق : فقام إليها علىّ فضربها ضرباً شديداً يقول : أصدقى رسول الله . وفى رواية ابن حاطب عن علقمة فقالت الجارية الحبشية : والله لعائشة أطيب من الذهب ، ولئن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنك الله . قال فعجب الناس من فقهها . وزاد عطاء الخرسانى عن الزهرى : وكانت

أم أيوب الأنصارية قالت لأبى أيوب أما سمعت ما يتحدث الناس؟ فحدثته بقول أهل الإفك ، فقال : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم . وعند ابن إسحق أن امرأة أبى أيوب قالت : يا أبا أيوب ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال : بلى ، وذلك والله الكذب . أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك؟ قالت : لا والله ما كنت فاعلة ، قال : فعائشة خير منك . قالت : فلما نزل القرآن قال الله ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ أى فقالوا كما قال أبو أيوب . وعند الطبرانى بسند صحيح عن عائشة : لما بلغنى ما تكلموا به هممت أن آتى قليباً فأطرح نفسى فيه . وفى رواية ابن إسحاق عنها : فوالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على أبى بكر تلك الأيام والليالى من الهم والغيظ . قال الحافظ ابن حجر : وفى بعض طرق الحديث أن أبا بكر قال . والله ما قيل لنا هذا فى الجاهلية ، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام؟ قال البخارى فى حديثه قالت عائشة : فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر عبد الله بن أبىّ وهو على المنبر فقال : يا معشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى؟ والله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً ، وما يدخل على أهلى إلا معى . قالت فقام سعد أخو بنى عبد الأشهل فقال : يارسول الله أنا أعذرك منه ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة سيد الخزرج ، قالت وكان قبل ذلك رجلا صالحاً ، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل . فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله ، لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . قالت فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر . قالت فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت . وفى رواية أبى أسامة عند البخارى حتى كاد يكون بين الأوس والخزرج شر فى المسجد ،

وما عامت . فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتى مع أم مسطح .. فذكر نحو ما تقدم ، قالت : فبكيت يومى ذلك كله لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . قالت : وأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لى دمع ، حتى أظن أن البكاء فالق كبدى . فبينا أبواى جالسان عندى وأنا أبكى فاستأذنت علىّ امرأة من الأنصار فأذنت لها ، فجلست تبكى معى . قالت : فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى بشىء ، قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة إنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه ، فان العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه . فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله فيم قال . فقال أبى : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله . فقلت لأمى : أجيبى رسول الله فيما قال . فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله . فقلت : وأنا امرأة حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً ، إنى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى بريئة لتصدقنى ، فوالله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ . ثم تحولت فاضطجعت على فراشى . قالت : وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة وأن الله مبرئى ببراءتى ، ولكنى والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحياً يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى . ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى نومه رؤيا يبرئنى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت ، حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق — وهو فى يوم شات — من ثقل القول الذى ينزل عليه زاد ابن جريج فى روايته : قال أبو بكر : فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ أخشى أن ينزل عليه من

السماء ما لا مرد له ، وأنظر إلى وجه عائشة فاذا هو مفيق فيطمعني ذلك فيها . وفي رواية ابن إسحاق : فأما أنا فما فزعت ، قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي ، وأما أبواي فما سري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت أن تخرج أنفسهما فرقا من أن يأتي من الله تحقيق ما يقول الناس . قالت فسري عن رسول الله وهو يضحك ، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال : ياعائشة احمدي الله فقد برأك . وفي رواية للبخاري : أما الله عز وجل فقد برأك . وفي رواية له أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك . قالت : وكنت أشد ما كنت غضباً ، فقال لي أبواي قومي اليه ، فقلت لا والله لا أقوم اليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولكني أحمد الذي أنزل براءتي . لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه . قالت : وأنزل الله ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ العشر الآيات . فلما أنزل الله هذا من براءتي قال أبو بكر — وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره — والله ما أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال . فأنزل الله ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ﴾ الآية . قال أبو بكر : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عنه فقال لزينب : ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت إلا خيراً . قالت وهي التي تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع . وطفقت أختها حمنة محاربة لها فهلكت فيمن هلك . وفي رواية ابن إسحق : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك . ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة — وكانوا ممن أفصح بالفاحشة — فضربوا حدهم

وروى الطبراني من طريق أبي حصين عن مجاهد قالت عائشة لما نزل عذرها قبل أبو بكر رأسها فقلت : ألا عذرتني ؟ فقال : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت ما لا أعلم ؟ وعند أصحاب السنن من طريق ابن إسحق عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن عمرة عن عائشة أن النبي ﷺ أقام حد القذف على الذين تكلموا بالإفك ، لكن

لم يذكر فيهم عبد الله بن أبيّ

وروى ابن جرير عن عائشة أنها قالت : ما سمعت شيئاً أحسن من شعر حسان ، وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة ، قوله لأبى سفيان يعنى ابن الحارث بن عبد المطلب :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء

أتشتمه ولستَ له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

فإن أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء

لسانى صارم لا عيب فيه ... وبحرى لا تكدره الدلاء

فقيل : يا أم المؤمنين هذا [1] قالت : أليس قد أصابه عظيما ، أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف حين الضربة التى ضربها إياه صفوان بن معطل السلمى حين بلغه أنه يتكلم فى ذاك ، فعلاه بالسيف وكاد أن يقتله

قال ابن إسحق : وقال حسان يعتذر إلى عائشة ويمدحها :

حصان رزان ما تزنّ بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

عقيلة حى من لؤى بن غالب ... كرام المساعى مجدهم غير زائل

مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل سوء وباطل

فإن كنتُ قد قلت الذى قد زعمتمو ... فلا رفعت سوطى إلى أناملى

وكيف وودى ما حييت ونصرتى ... لآل رسول الله زين المحافل

له رتب عال على الناس كلهم ... تقاصر عنه سورة المتطاول

فإن الذى قد قيل ليس بلائط ... ولكنه قول امرئ بى ماحل

(١) بياض بالأصل

فصل

فى فوائد وشرح ألفاظ تتعلق بحديث الإفك

قال النووى رحمه الله : الإفك بكسر الهمزة وإسكان الفاء . هذا هو المشهور ، وحكى القاضى فتحهما قال : وهما لغتان كنجس ونجس وهما لغتان وهوالكذب . قوله « آذن » روى بالمد وتخفيف الذال وبالقصر وتشديدها أى أعلم . قولها عقد من جزع ظفار ، أما العقد فمعروف نحو القلادة ، والجزع بفتح الجيم وإسكان الزاى وهو حرز يمانى ، ظفار بفتح الظاء المعجمة وكسر الراء وهى قرية باليمن . قولها : وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبّلن ضبطوه على أوجه أشهرها ضم الياء وفتح الهاء وتشديد الباء أى يثقلن باللحم والشحم ، والثانى يهبلن بفتح الياء والباء بينهما هاء ساكنة ، قال أهل اللغة : يقال هبله اللحم وأهبله إذا أثقله وكثر لحمه وشحمه ، وفى رواية للبخارى لم يثقلن ، وهو بمعناه . والعلقة من الطعام أى القليل . قولها فتيممت منزلى أى قدمته . قوله من وراء الجيش قال الحافظ ابن حجر وقع فى حديث ابن عمر بيان تأخر صفوان ولفظه كان صفوان سأل النبى ﷺ أن يجعله على الساقة ، وكان إذا رحل الناس قام يصلى ثم اتبعهم فمن سقط له شىء أتاه به ، ثم ذكر عن أبى هريرة نحوه ، ويحتمل أن يكون سبب تأخره ماجرت عادته به من غلبة النوم عليه . قولها فاستيقظت باسترجاعه أى انتبهت من نومى بقوله : إنا لله وإنا اليه راجعون . قولها فخمرت وجهى أى غطيته قولها موغرين فى نحر الظهيرة ، الموغر بفتح الغين المعجمة النازل فى وقت الوغرة بفتح الواو وإسكان الغين وهى شدة الحر قاله النووى ، ونحر الظهيرة وقت القائلة ، ونحر كل شىء أوله . وكبره أى معظمه ، وهى بكسر الكاف على القراءة المشهورة . قولها يريبنى بفتح أوله وضمه يقال رابه وأرابه إذا أوهمه وشككه . واللطف بضم اللام وإسكان الطاء ويقال بفتحهما معاً لغتان وهو البر والرفق . قولها ثم يقول كيف تيكم هى إشارة الى المؤنثة كذلكم فى المذكر . ونقهت بفتح القاف وكسرها لغتان حكاهما

الجوهرى ، والفتح أشهر ، والناقة هو الذى أفاق من المرض وبرئ منه وهو قريب عهد به لم يتراجع اليه كمال صحته . قولها تعس مسطح بفتح العين وكسرها لغتان ومعناه عثر وقيل هلك وقيل لزمه الشر وقيل بعد وقيل سقط لوجهه خاصة . والمرط بكسر الميم كساء من صوف وقد يكون من غيره ، قولها أى هنتاه ، أى حرف نداء للبعيد ، وقد يستعمل للقريب حيث ينزل منزلة البعيد ، وهنتاه بفتح الهاء وسكون النون و بعدها مثناة وآخرها هاء ساكنة وقد تضم ومعناها يا هذه ، وقيل يا امرأة وقيل يا بلهاء كأنها نسبت عائشة الى الغفلة على معرفة مكايد الناس وشرورهم . والوضيئة مهموزة ممدودة هى الجميلة الحسنة ، والوضاءة الحسن . لايرقأ لى دمع هو بالهمزة ، أى لا ينقطع ، ولا أكتحل بنوم أى لا أنام

قولها : وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيق الله عليك الخ أشار عليه بفراقها تلويحا لا تصريحا لأنه رآه مصلحة ونصيحة للنبى ﷺ ، وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها وأن لا يلتفت الى كلام الأعداء ، فعلىّ لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه أشار بترك الشك والريبة الى اليقين ليتخلص رسول الله ﷺ من الهم والغم الذى لحقه بكلام الناس ، لأنه رأى انزعاج النبى ﷺ بهذا الأمر فأراد راحة خاطره ، وأسامة لما رأى حب رسول الله لها ولأبيها وعلم من عفتها وبراءتها وحصانتها وديانتها ما هو فوق ذلك وأعظم منه ، وعرف من كرامة رسول الله ﷺ على ربه ومنزلته عنده ودفاعه عنه أنه لا يجعل ربة بيته وحبيبته من النساء وبنت صديقه بالمنزلة التى أنزلها أرباب الإفك ، وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله أكرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة ، فمن قويت معرفته بالله ومعرفة رسوله وقدره عند الله فى قلبه كما قال أبو أيوب وغيره من سادات الصحابة لما سمعوه : سبحانك هذا بهتان عظيم . وتأمل فى تسبيحهم لله وتنزيههم له فى هذا المقام من المعرفة به ، وتنزيهه عما لا يليق أن يجعل لرسوله وخليله وأكرم الخلق عليه امرأة خبيثة بغيا ، فمن ظن به سبحانه هذا وقاه الله ظن السوء ، وعرف أهل المعرفة بالله ورسوله أن المرأة الخبيثة لاتليق إلا بمثلها

كما قال تعالى ﴿ الخبيثات للخبيثين ﴾ ، فقطعوا قطعا لا يشكون فيه أن هذا بهتان عظيم وفرية ظاهرة

فان قيل : فما بال رسول الله ﷺ توقف فى أمرها وسأل عنها وبحث واستشار ، وهو أعرف بالله ومنزلته عنده وبما يليق به ؟ وهلا قال : سبحانك هذا بهتان عظيم كما قال فضلاء الصحابة ؟ فالجواب أن هذا من تمام الحكمة الباهرة التى جعل الله هذه القصة سببا لها وامتحانا وابتلاء لرسوله ولجميع الأمة الى يوم القيمة ، ليرفع بهذه القصة أقواما ويضع بها آخرين ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانا ولا يزيد الظالمين إلا خسارا . واقتضى تمام الابتلاء والامتحان أن حبس عن رسوله الوحى شهرا فى شأنها لتتم حكمته التى قدرها وقضاها ، ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانا وثباتا على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده ، ويزداد المنافقون إفكا ونفاقا ، وتظهر لرسوله والمؤمنين سرائرهم ، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها وتتم نعمة الله عليهم ، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين ، وتيأس من حصول النصر والفرج إلا من الله

قولها أغمصه بفتح الهمزة وكسر الميم وبالصاد المهملة أى أعيبها به ، والداجن الشاة التى تألف البيوت ولا تخرج المرعى . قولها فاستعذر من عبد الله بن أبىّ أى طلب من يعذره أى ينصفه ، وقيل معناه : من يقوم بعذرى إن كافأته على سوء فعاله ، وقيل معنى من يعذرنى : من ينصرنى ، والعذير الناصر ، ويؤيده قول سعد أنا أعذرك منه ، وفى رواية هشام بن عروة عن أبيه عند البخارى ومسلم أشيروا علىّ فى أناس أبنوا أهلى هو بفتح الباء الموحدة الخفيفة والنون المضمومة ، وقد حكى عياض أن فى رواية الأصيلى بتشديد الموحدة وهى لغة ، ومعناه عابوا أهلى واتهموا ، وهو المعتمد لأن الأبن بفتحتين التهمة ، ومنه الحديث الذى فى الشمائل فى مجلسه ﷺ لا تؤبن فيه الحرم ، وحكى عياض أن فى رواية عبدوس بتقديم النون الثقيلة الموحدة قال : وهو تصحيف ، لأن التأنيب هو اللوم الشديد ولا معنى له ههنا . والبرحاء هى بضم الموحدة

وفتح الراء والحاء المهملة والمد وهى الشدة . قولها حتى ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ، معنى ليتحدر : ليتصبب ، وجمان بضم الجيم وتخفيف الميم هو اللؤلؤ ، وقيل حب يعمل من الفضة كاللؤلؤ . وسرّى عن رسول الله أى كشف وأزيل . قوله كنف بفتح الكاف والنون أى ثوبها الذى يسترها وهو كناية عن عدم جماع النساء جميعهن ومخالطتهن . قولها هى التى كانت تساميني أى تفاخرنى وتضاهيني بجمالها ومكانها عند النبى ﷺ ، وهى مفاعلة من السمو وهو الارتفاع . قولها أحمى سمعى أى أحفظه فلا أقول سمعت فيما لم أسمع . قوله وأما المنافق عبد الله بن أبىّ فهو الذى كان يستوشيه ، أى يستخرجه بالبحث والمسألة ، ثم يفشيه ويشيعه ويحركه ولا يدعه يخمد . والله أعلم

وفى الحديث من الفوائد جواز رواية الحديث الواحد عن كلّ واحد قطعة مبهمة . الثانية صحة القرعة بين النساء وفى العتق وغيره . قال أبو عبيد : عمل بها ثلاثة من الأنبياء يونس وزكريا ومحمد ﷺ . قال ابن المنذر : استعمالها كالإجماع قال : ولا معنى لقول من يردّها . الثالثة وجوب الإقراع بين النساء عند إرادة السفر ببعضها . الرابعة أنه لا يجب قضاء مدة السفر للنسوة المقيمات ، وهذا مجمع عليه إذا كان السفر طويلا ، وحكم القصير حكم الطويل على المذهب الصحيح . الخامسة جواز سفر الرجل بزوجته . السادسة جواز غزوهن وركوبهن فى الهوادج . السابعة جواز خدمة الرجال لهن فى ذلك فى الأسفار . الثامنة أن ارتحال العسكر يتوقف على أمر الأمير . التاسعة جواز خروج المرأة لحاجة الإنسان بغير إذن الزوج ، وهذا من الأمور المستثناة . العاشرة جواز لبس النساء القلائد فى السفر كالحضر . الحادية عشرة أن من يركب البعير لا يكلمها إذا لم يكن محرما إلا لحاجة ، لأنهم حملوا الهودج ولم يكلموها . الثانية عشرة فضيلة الاقتصاد فى الأكل للنساء وغيرهن وألا يكثرن منه ، لأن هذا كان حالهم فى زمن النبى ﷺ ، وما كان فى زمنه فهو الكامل الفاضل . الثالثة عشرة جواز تأخر بعض الجيش ساعة ونحوها لحاجة تعرض له فى الجيش إذا لم تكن ضرورة الى الاجتماع . الرابعة عشرة إغاثة الملهوف وعون المنقطع وانقاذ الضائع وإكرام ذوى الأقدار كما فعل

صفوان . الخامسة عشرة استحباب الاسترجاع عند المصائب ، سواء كانت فى الدنيا أو فى الدين ، وسواء كانت فى نفسه أو من يعز عليه . السادسة عشرة تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبى سواء كان صالحا أوغيره . السابعة عشرة جواز الحلف من غير استحلاف إذا كان فيه فائدة . الثامنة عشرة أنه يستحب أن يستر الإنسان مايقال فيه إذا لم يكن فى ذكره فائدة كما كتموا عن عائشة هذا الأمر شهرا . التاسعة عشرة حسن خلقه ﷺ فى ملاطفته أزواجه ومعاشرته لهن بالمعروف . العشرون استحباب ملاطفة الرجل زوجته وحسن المعاشرة تأسيا به ﷺ . الحادية والعشرون أنه إذا عرض عارض بأن سمع عنها شيئا ونحو ذلك يقلل من التلطف ونحوه لتفطن هى أن ذلك لعارض ، فتسأل عن سببه فتزيله . الثانية والعشرون استحباب السؤال عن المريض عند عيادته . الثالثة والعشرون أنه يستحب للمرأة إذا أرادت الخروج لحاجة أن تكون معها رفيقة لها لتأنس بها ولا يعرض لها أحد . الرابعة والعشرون كراهة الإنسان صاحبه وقريبه إذا آذى أهل الفضل أو فعل غير ذلك من القبائح ، كما فعلت أم مسطح فى دعائها عليه . الخامسة والعشرون فضيلة أهل بدر والذب عنهم ، كما فعلت عائشة فى ذبها عن مسطح . السادسة والعشرون لا تذهب لبيت أبويها إلا بإذن زوجها . السابعة والعشرون جواز التعجب بلفظ التسبيح وقد تكرر فى هذا الحديث وغيره . الثامنة والعشرون استحباب مشاورة الرجل بطانته وأهله وأصدقاءه فى ماينوبه من الأمور . التاسعة والعشرون جواز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة لمن له بها تعلق ، وأما غيره فهو منهى عنه ، وهو تجسس وفضول . الثلاثون خطبة الإمام الناس عند نزول أمر مهم . الحادية والثلاثون اشتكاء ولى الأمر إلى المسلمين ممن يعرض له بأذى فى نفسه أو أهله أو غيره ، واعتذاره فيما يريد أن يؤدب به . الثانية والثلاثون فضائل صفوان بن المعطل بشهادة النبى ﷺ بما شهد وبأفعاله الجميلة فى ركاب عائشة وحسن أدبه فى جملة القصة . الثالثة والثلاثون فضيلة سعد بن معاذ وأسيد بن حضير . الرابعة والثلاثون المبادرة الى قطع الفتن والخصومات والمنازعات وتسكين الغضب . الخامسة والثلاثون قبول التوبة والحث

عليها . السادسة والثلاثون تفويض الكلام إلى الكبار دون الصغار لأنهم أعرف . السابعة والثلاثون جواز الاستشهاد بآيات القرآن العزيز ولا خلاف أنه جائز ، قلت بل يستحب . الثامنة والثلاثون التأسى بالأنبياء والصالحين فى البلايا والمصائب وغير ذلك . التاسعة والثلاثون استحباب المبادرة بتبشير من تجددت له نعمة ظاهرة أو اندفعت عنه بلية ظاهرة . الأربعون براءة عائشة من الإفك ، وهى براءة قطعية بنص القرآن العزيز ، فلو تشكك فيها إنسان والعياذ بالله كان كافرا مرتدا بإجماع المسلمين . قال ابن عباس وغيره : لم تزن امرأة نبى من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وهذا إكرام من الله لهم . الحادية والأربعون تجديد شكر الله عند تجدد النعم . الثانية والأربعون فضائل أبى بكر فى قوله ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ﴾ الآية . الثالثة والأربعون استحباب صلة الأرحام وإن كانوا مسيئين . الرابعة والأربعون استحباب العفو والصفح عن المسىء . الخامسة والأربعون استحباب الصدقة والإنفاق فى سبيل الخيرات . السادسة والأربعون أن ذلك سبب لمغفرة الله . السابعة والأربعون أنه يستحب لمن حلف على يمين ورأى خيرا منها أن يأتى الذى هو خير ويكفّر عن يمينه كما فعل أبو بكر . الثامنة والأربعون أن ابن بنت الخالة من ذوى القربى الذين تستحب صلتهم . التاسعة والأربعون فضيلة زينب أم المؤمنين وورعها . الخمسون التثبت فى الشهادة . الحادية والخمسون إكرام المحبوب بمراعاة أصحابه ومن خدمه أو أطاعه كما فعلت عائشة بمراعاة حسان وإكرامه إكراما للنبى ﷺ . الثانية والخمسون الخطبة تبدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله . الثالثة والخمسون أنه يستحب فى الخطب بعد الحمد والثناء والصلاة على النبى والشهادتين أما بعد . الرابعة والخمسون غضب المسلمين عند انتهاك حرمة أميرهم واهتمامهم بدفع ذلك . الخامسة والخمسون جواز سب المتعصب للمبطل ، كما سب أسيد بن حضير سعد بن عبادة لتعصبه للمنافق وقال : إنك منافق تجادل عن المنافقين ، وأراد إنك تفعل فعل المنافقين والله أعلم . السادسة والخمسون أن تعديل النساء بعضهن بعضا مقبول ، لأنه عليه الصلاة والسلام سأل الجارية وزينب .

السابعة والخمسون أن الاعتراف بما فشا من الباطل لا يحل . الثامنة والخمسون أن عاقبة الصبر الجميل فيه الغبطة والعزة فى الدارين . التاسعة والخمسون أن الله قد يبتلى عبده المؤمن بأكره المكروهات عنده وهو خير له لا شر له ، كما قال تعالى ﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم﴾ الآية . الستون أن الإنسان قد يفرح بما فيه هلاكه وخزيه فى الدنيا والآخرة . الحادية والستون أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل . الثانية والستون أن الوحى ما كان يأتيه ﷺ متى أراد لبقائه شهرا لا يوحى اليه . الثالثة والستون أنه لا يعلم الغيب إلا من علمه الله . الرابعة والستون وجوب حد القذف على من أفصح بالفاحشة . الخامسة والستون ترك الحد لما يخشى من تفريق الكلمة كما ترك رسول الله ﷺ حد ابن أبىّ بن سلول . انتهى ملخصا من شرح النووى لمسلم وغيره . والله أعلم

فصل

وقد قال قوم بتعدد ضياع العقد ، منهم محمد بن حبيب الأخبارى فقال : سقط عقد عائشة فى غزوة ذات الرقاع وفى غزوة بنى المصطلق ، واختلف أهل المغازى فى أى هاتين الغزوتين كانت أولا . ومما يدل على تأخر قصة نزول آية التيمم عن قصة الإفك ما روى الطبرانى عن عائشة : لما كان من أمر عقدى ما كان وقال أهل الإفك ماقالوا خرجت مع رسول الله ﷺ فى غزوة أخرى فسقط أيضا عقدى ، وحبس الناس على التماسه ، فقال لى أبو بكر : يابنية فى كل سفرة عناء وبلاء على الناس ، فأنزل الله الرخصة فى التيمم ، وفى إسناده من فيه مقال

وفى البخارى : قال موسى بن عقبة : كانت غزوة المريسيع سنة أربع ، وجزم ابن اسحق وتبعه ابن حزم أنها كانت فى شعبان سنة ست ، وأن قوله فى حديث عائشة فقام سعد بن معاذ وهم ، وأن المقاولة كانت بين سعد بن عبادة وأسيد بن حضير ، قال : وهذا هو الصحيح ، والوهم لا يسلم منه أحد من بنى آدم . قلت : وعلى قول موسى ابن عقبة إنها سنة أربع يزول الإشكال جملة . والله أعلم

غزوة الخندق وهى الأحزاب

واختلفوا فى تاريخها ، فقال موسى بن عقبة : كانت فى شوال سنة أربع ، وقال ابن اسحق وغيره من أهل المغازى سنة خمس . ومال البخارى إلى قول موسى بن عقبة ، وقوّاه بحديث ابن عمر ، قال أبو محمد بن حزم : والصحيح الثابت أنه فى الرابعة بلا شك لحديث ابن عمر : عُرضت على رسول الله ﷺ يوم أُحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردنى ، وعُرضت عليه يوم الخندق وأنا بن خمس عشرة سنة فأجازنى ، فصح أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة

قال ابن اسحق : فحدثنى يزيد بن رومان مولى آل الزبير عن عروة بن الزبير ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك ومحمد بن كعب القرظى والزهرى وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر وغيرهم من علمائنا كل قد اجتمع حديثه فى هذا الحديث عن الخندق وبعضهم يحدث مالا يحدث بعض ، قالوا : إنه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن مشكم بن أبى الحقيق النضرى وحيي بن أخطب وهوذة بن قيس فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم الى حرب رسول الله وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقالت لهم قريش : يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم خير من دينه ، وإنكم أولى بالحق منه ، فهم الذين أنزل الله فيهم ﴿ألم تر إلى الذين أوتو نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾ إلى قوله ﴿وكفى بجهنم سعيرا﴾ . فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ، ثم خرج ذلك النفر حتى أتوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم الى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك ، فخرجت قريش

وقائدهم أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن والحارث بن عوف فى مرة ، ومسعر بن دخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع . فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيبا للمسلمين فى الأجر ، وعمل فيه المسلمون ، فدأب فيه فدأبوا ، وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون بالضعف عن العمل ، ويتسللون الى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة من الحاجة التى لابد منها ذكرها لرسول الله ﷺ واستأذنه باللحوق بحاجته فيأذن له ، فاذا قضى حاجته رجع الى ما كان فيه من عمله رغبة فى الخير واحتسابا له ، فأنزل الله فى أولئك المؤمنين ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ الآية ، ثم قال فى المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا﴾ الآية . انتهى

وكان الذى أشار بالخندق سلمان فقال : يارسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ، ولم تكن تعرفه العرب قبل ذلك

وكانت عدة المشركين فيما ذكر ابن اسحق عشرة آلاف ، وكان المسلمون ثلاثة آلاف قال ابن حزم : وقيل فى تسع مائة فقط ، وهو الصحيح بلا شك . وجعل المسلمون ظهورهم الى سلع ، فنزلوا هنالك والخندق بينهم وبين المشركين

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وأمر عليه السلام بالنساء والذرارى فجعلوا فى الآطام . وفى البخارى عن سهل بن سعد قال : كنا مع النبى ﷺ فى الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا وأكتافنا ، فقال رسول الله ﷺ :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فاغفر للمهاجرين والأنصار

والأكتاد بالمثناة الفوقية جمع كَتِدٍ بفتح فكسر وهو مابين الكاهل الى الظهر .

وفى بعض نسخ البخارى بالباء الموحدة . وهو موجه على أن يكون المراد به مما يلى الكبد من الجنب وفى البخارى أيضا عن أنس : خرج رسول الله ﷺ فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى مابهم من النصب والجوع قال :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرين

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد مابقينا أبدا

وفى البخارى أيضا عن البراء : رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنا الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحه وهو ينقل التراب :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلّينا
فأنزلنْ سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد رغبوا علينا وإن أرادو فتنة أبينا

قال : يمد بها صوته . وفى رواية له أيضا :

إن الأُولى قد بغوا علينا إن أرادوا فتنة أبينا

وفى حديث سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى أنه ﷺ حين ضرب فى الخندق قال :

بسم الإله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا
حبذا ربا وحبذا دينا

وقد وقع فى حفر الخندق آيات من أعلام نبوته : منها ما فى الصحيح عن جابر

قال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة ـ وهى بضم الكاف القطعة الصلبة ـ فجاءوا للنبي ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق . فقام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لانذوق ذواقا ، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيبا أهيلا أو أهيما كذا بالشك من الراوى . وعند الإسماعيلى باللام من غير شك والمعنى أنه صار رملا يسيل ولايتماسك ، وأهيم بمعنى أهيل وقد قيل فى قوله تعالى ﴿ شرب الهيم ﴾ : المراد الرمال التى لايرويها الماء . وقد وقع عند أحمد والنسائى زيادة حسنة بإسناد حسن من حديث البراء قال : لما كان يوم الخندق عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لاتأخذ منها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ ، فجاء وأخذ المعول فقال : بسم الله ، ثم ضرب ضربة وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأنظر قصورها الحمر الساعة . ثم ضرب الثانية فقطع آخر فقال : الله أكبر ، أعطيت فارس ، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن . ثم ضرب الثالثة فقال بسم الله ، فقطع بقية الحجر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى

ومنها ماثبت فى الصحيح فى حديث جابر من تكثير الطعام القليل ، وإشباعه لجميع أهل الخندق . وعند موسى بن عقبة أنهم أقاموا فى عمل الخندق قريبا من عشرين ليلة . وعند الواقدى أربعا وعشرين يوما ، وعند ابن القيم فى الهدى أقاموا شهرا . قال ابن اسحق فى حديثه : وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضيرى حتى أتى كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده على ذلك ، فلما سمع كعب بحيي أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له ، فناداه حيي ويحك يا كعب افتح لى . قال ويحك ياحيي إنك امرؤ مشئوم ، وإنى قد عاهدت محمدا ، وإنك لست بناقض ما بينى وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقا . قال : ويحك افتح لى أكلمك . فقال : ما أنا بفاعل قال : والله إن أغلقت دونى إلا عن جشيشتك أن آكل منها . فأحفظ الرجل ففتح له فقال : ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال

من دومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى الى جانب أحد قد عاهدونى وعاقدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه . قال كعب : جئتنى والله بذل الدهر وبجهام قد هرق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شىء . ويحك ياحيى فدعنى وما أنا عليه فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء . فلم يزل حيى يفتله فى الذروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه عهدا من الله وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك . فنقض كعب عهده ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ فلما انتهى الى رسول الله ﷺ الخبر بعث رسول الله سعدبن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوّات بن جبير وقال : انطلقوا حتى تنظروا أحق مابلغنا عن هؤلاء القوم ؟ فإن كان حقا فالحنوا الى لحنا أعرفه ولا تفتّوا فى أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس . قال فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، ونالوا من رسول الله وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلا فيه حدة ، فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة . ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما الى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة . أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع . فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين . وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال بعضهم : قد كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط . وكان ﷺ يبعث الحرس الى المدينة خوفا على الدرارى من بنى قريظة . وأنزل الله ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ الآيات ، وقال رجال معه ﴿ يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ﴾ وقال بعضهم يارسول الله أن بيوتنا عورة من العدو ، فائذن لنا فنرجع الى ديارنا فانها خارج المدينة . فأنزل الله ﴿ وما هى بعورة ، إن يريدون إلا فرارا ﴾

فلما اشتد البلاء بعث رسول الله ﷺ الى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقم الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة فى ذلك، فبعث رسول الله الى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقالا: يارسول الله أمرا تحبه فنصنعه أم شيئا أمرك الله به لابد لنا من العمل به أم شيئا تصنعه لنا؟ قال: بل شىء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة. فقال له سعد بن معاذ: يارسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان ولا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا به تعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم بحكمه. فقال رسول الله ﷺ: فأنت وذلك. فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا

فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون وعدوّهم محاصروهم، ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب وضرار بن الخطاب أقبلوا على خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق وسلع، وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى اقتحموا منها وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم، وكان عمرو بن عبد ود قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أُحد، فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مكانه، فلما وقف هو وخيله قال: من يبارز؟ فقال له على أنا. فبرز اليه على بن أبى طالب فقال له: ياعمرو إنك كنت قد عاهدت الله أن لا يدعوك أحد من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه. فقال له: أجل. قال له على: فإنى أدعوك الى الله وإلى رسوله وإلى

الإسلام . قال : لاحاجة لى بذلك . قال : فإنى أدعوك الى البراز ، فقال له : يابن أخى ما أحب أن أقتلك . قال له على : ولكنى والله أحب أن أقتلك . فحمى عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علىّ فتنازلا وتجاولا ، فقتله علىٌّ ، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة

ثم إن الله سبحانه ـ وله الحمد ـ صنع أمراً من عنده خذل به العدو ، وذلك أن نعيم بن مسعود الأشجعى أسلم وهو يخفى إسلامه ، فمشى بين الأحزاب وثبط قوما عن قوم ، فاختلفت كلمتهم ، وأرسل الله جندا من الريح على المشركين فجعلت تقوّض خيامهم ولا تدع لهم قِدرا إلا كفأتها ولا طنبا إلا قلعته ولا يقر لهم قرار ، وجندا من الملائكة يزلزلون بهم ويلقون فى قلوبهم الرعب والخوف

وفى البخارى عن عبد الله بن أبى أوفى قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، أهزم الأحزاب . اللهم اهزمهم وزلزلهم » . وروى أحمد عن أبى سعيد قال : قلنا : يارسول الله ، هل من شىء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر . قال « نعم ، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » قال فضرب الله وجوه أعدائنا بالريح . وفى البخارى عن على أن رسول الله ﷺ قال يوم الخندق : ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : حبس المشركون رسول الله ﷺ عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت ، فقال رسول الله ﷺ : «شغلونا عن الصلاة الوسطى .. » الحديث . قال ابن دقيق العيد : الحبس انتهى الى ذلك الوقت ولم تقع الصلاة إلا بعد المغرب . وفى الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش قال : يارسول الله ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس تغرب . فقال النبى ﷺ : وأنا والله ماصليتها . فنزلنا مع النبى ﷺ بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها : فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب . ومقتضى هذه الرواية المشهورة أنه لم يفت غير العصر ، وفى الموطأ الظهر والعصر ، وفى السنن

ومسند أحمد والشافعى أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فصلاهن جميعا . قال النووى : وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياما فكان هذا فى بعض الأيام ، وهذا فى بعضها . قال : وأما تأخيره عليه السلام صلاة العصر حتى غربت الشمس فكان قبل نزول صلاة الخوف . انتهى

ثم أرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم فوجدهم قد تهيأوا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ليلا فأخبره برحيل القوم ، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله قتالهم ، وصدق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده

وفى البخارى عن سليمان بن صرد سمعت النبى ﷺ يقول حين أجلى الله الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير اليهم »

فصل

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة ـ حين انصرف من الخندق يوم الأربعاء هو وأصحابه ووضعوا السلاح ـ جاءه جبريل حين اغتسل وهو ينفض الغبار عن رأسه فقال : وقد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناها . أخرج اليهم . قال : فإلى أين ؟ قال : ههنا ، وأشار بيده إلى بنى قريظة فخرج النبى ﷺ اليهم كما ثبت ذلك فى الصحيح من حديث عائشة ومن حديث ابن عمر قال النبى ﷺ يوم الأحزاب : لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى ، لم يرد منا ذلك . فذكر ذلك للنبى ﷺ فلم يعنف واحداً منهم . انتهى

وعند ابن سعد : ثم سار اليهم فى المسلمين ، وهم ثلاثة آلاف والخيل ثلاثون فرسا ، قال : وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة ، ونزل عليه الصلاة والسلام على بئر من آبار بنى قريظة ، وتلاحق به الناس وقذف الله فى قلوبهم الرعب ،

وحاصرهم رسول الله ﷺ بضعاً وعشرين ليلة ، وعرض عليهم سيدهم كعب بن أسد ثلاث خصال : إما الإسلام ، وإما قتل ذراريهم ونسائهم ثم القتال حتى يموتوا ، وإما تبييت النبي ﷺ وأصحابه ليلة السبت فان المسلمين قد أمنوا منهم . فأبوا كل ذلك ، فأرسلوا إلى رسول الله أن يبعث اليهم أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف ، وكانوا حلفاء الأوس ، فأرسله ، فلما آتاهم قام اليه الرجال وجهش اليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرق لهم وقالوا : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده الى حلقه أنه الذبح . قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله . ثم انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يأت رسول الله حتى ارتبط في المسجد الى عمود من عمده وقال : لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت ، وعاهدت الله أن لا يطأ بني قريظة أبدا ، أو لا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا . فلما سمع رسول الله ﷺ خبره وكان قد استبطأه قال : أما لو جاءني لاستغفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه . فنزلت توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ ، فتولى رسول الله إطلاقه بيده الكريمة ، فنزلت بنو قريظة على حكم رسول الله ، فلما نزلوا على حكمه قال الأوس : يا رسول الله قد فعلت في بني قينقاع ما قد فعلت وهم حلفاء إخواننا الخزرج ، وهؤلاء موالينا . فقال رسول الله ﷺ : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا بلى . قال : فذلك سعد بن معاذ . وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة في المسجد تسكنها رفيدة امرأة صالحة تقوم على المرضى وتداوى الجرحى تحتسب بذلك الأجر ليعوده من قريب ، فأرسل رسول الله ﷺ الى سعد ليؤتى به ليحكم في بني قريظة ، فأتى به على حمار قد وطىء له بوسادة أدم وأحاط به قومه وهم يقولون : يا أبا عمرو ، أحسن في مواليك ، فإنما ولاك رسول الله ذلك لتحسن فيهم . فقال : لقد أبى الله لسعد إلا أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، فرجع بعض من معه الى ديار بني عبد الأشهل ينعى لهم رجال بني قريظة ، فلما أقبل سعد إلى

رسول الله ﷺ قال للمسلمين : قوموا الى سيدكم . فقام المسلمون فقالوا : يا سعد إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت ؟ قالوا نعم . قال : وعلى من ههنا ؟ وأشار به الى الناحية التى فيها رسول الله ﷺ إجلالا له ، قال رسول الله : نعم . قال : فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء . فقال له رسول الله ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . ثم أمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا الى موضع سوق المدينة فخندق بها خنادق ، ثم أمر بهم فضربت أعناقهم فى تلك الخنادق ، وقتل معهم يومئذ حيى بن أخطب والد أم المؤمنين صفية ، وكانوا من الستمائة الى السبع مائة ، وقتل من نسائهم امرأة واحدة ، وهى التى طرحت الرحى على خلاد بن سويد بن الصامت فقتلته . وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنبت ، وترك من لم ينبت ، ووهب رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس ولد الزبير بن باطا ، فاستحياهم منه عبد الرحمن بن الزبير فأسلم وله صحبته ، ووهب أيضا رفاعة بن سموأل القرظى لأم المنذر سلمى بنت قيس من بنى النجار وكانت قد صلت الى القبلتين ، فأسلم رفاعة وله صحبة ، وكان ممن لم ينبت عطية القرظى فاستحيي ، له صحبة . وقسم عليه السلام أموال بنى النضير فأسهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهما ، ووقع للنبى ﷺ من سبيهم ريحانة بنت عمرو فلم تزل فى ملكه حتى مات

فلما تم أمر بنى قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضى الله عنه فمات من جرحه الذى أصابه يوم الخندق ، كما فى الصحيح عن عائشة قالت : أصيب سعد يوم الخندق ، رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرقة رماه فى الأكحل فضرب له النبى ﷺ خيمة فى المسجد ليعوده من قريب ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السلام وهو ينفض رأسه من الغبار فقال له : قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناها . أخرج اليهم . قال النبى ﷺ فأين ؟ فأشار الى بنى قريظة ، فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه فرد الحكم الى سعد قال : فإنى

أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية وأن تقسم أموالهم. قال ابن هشام فأخبرنى أبى عن عائشة أن سعدا قال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلىّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فان كان بقى من حرب قريش شىء فأبقنى له حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتى فيها. فانفجرت من لبته، فلم يرعهم وفى المسجد خيمة من بنى غفار إلا الدم يسيل اليهم فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذى يأتينا من قبلكم؟ فاذا سعد يغدو جرحه دما، فمات منها رحمه الله

وفى الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال «اهتز عرش الرحمن لموت سعد ابن معاذ». وصحح الترمذى من حديث أنس قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال رسول الله ﷺ «إن الملائكة كانت تحمله»

وأخرج ابن سعد وأبو نعيم عن محمد بن المنكدر عن محمد بن شرحبيل بن حسنة قال: قبض إنسان يومئذ من تراب قبره قبضة، فذهب بها، ثم نظر اليها بعد ذلك فاذا هى مسك، قال فقال رسول الله: سبحان الله سبحان الله، حتى عرف ذلك فى وجهه، فقال: الحمد لله، لو كان أحد ناجيا من ضمة القبر لنجا منها، ضم ضمة ثم فرج الله عنه. وعند ابن اسحق عن جابر قال: كنا مع رسول الله ﷺ لما دفن سعد فسبح رسول الله وسبح معه الناس، ثم كبر وكبر معه الناس، فقالوا: يا رسول الله مم سبحت؟ فقال لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه. قال ابن هشام: ومجاز هذا الحديث قول عائشة قال رسول الله ﷺ «إن للقبر ضمة لو كان أحد منها ناجيا لكان سعد بن معاذ». ولسعد يقول رجل من الأنصار:

وما اهتز عرش الله من فقد هالك سمعنا به إلا لموت أبى عمرو

واستشهد من المسلمين يوم الخندق وقريظة سعد بن معاذ وأنس بن أوس وعبد الله بن سهل كلهم من بنى عبد الأشهل، والطفيل بن النعمان وثعلبة بن غنمة وكعب بن

زيد وخلاد بن سويد طرحت عليه امرأة من بنى قريظة رحى فقتلته ، ومات فى الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة

قال ابن اسحق : وأنزل الله فى أمر الخندق وأمر بنى قريظة من القرآن القصة فى سورة الأحزاب يذكر فيها ما نزل من البلاء ويذكر نعمته عليهم وكفايته إياهم حين فرج ذلك عنهم بعد مقالة من قال من أهل النفاق من قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها﴾ الى قوله ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم﴾ الآيتين

بعث عبد الله بن عتيك إلى قتل سلام بن أبى الحقيق

وهو أبو رافع . ولما فتح الله فى الكافر كعب بن الأشرف على أيدى رجال من الأوس كما تقدم ، رغبت الخزرج فى مثل ذلك تريد من الأجر والثناء فى الإسلام ، فتذاكروا أن سلام بن أبى الحقيق من العداوة لرسول الله والمسلمين على مثل حال كعب بن الأشرف ، فاستأذنوا رسول الله فى قتله فأذن لهم ، فخرجوا اليه خمسة نفر كلهم من الخزرج ، وكلهم من بنى سلمة : عبد الله بن عتيك ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة الحارث بن ربعى ، ومسعود بن سنان ، وخزاعى بن الأسود حليف لهم من أسلم ، وأمر عليهم عبد الله بن عتيك ونهاهم عن قتل النساء والصبيان . فنهضوا حتى أتوا خيبر ليلا ، وكان سلام ساكنا فى دار مع جماعة وهو فى علية منها ، فتسوروا الدار ولم يدعوا بابا من مساكنها إلا استوثقوا منه من خارج ، ثم أتوا العلية التى هو فيها فاستأذنوا عليه ، فقالت امرأته : ممن أنتم ؟ قالوا : أناس من العرب نطلب الميرة فقالت لهم : ذاكم صاحبكم ، فدخلوا . فلما دخلوا أغلقوا الباب على أنفسهم فأيقنت المرأة بالشر فصاحت ، فهموا بقتلها ، ثم ذكروا نهى النبى ﷺ عن قتل النساء فأمسكوا عنها ، ثم تعاوروه بأسيافهم وهو راقد على فراشه أبيض فى سواد الليل كأنه قطنة ، ووضع عبد الله بن أنيس سيفه فى بطنه حتى أنفذه ، وعدو الله يقول : قطنى قطنى

ثم نزلوا . وكان عبد الله بن عتيك ضعيف البصر فوقع ، فوثيت رجله وثيا شديدا ، فحمله أصحابه حتى أتوا منهرا من مناهيرهم فدخلوا فيه واستتروا ، وخرج أهل الآطام وأوقدوا النيران فى كل وجه ، فلما أيسوا رجعوا ، فقال المسلمون : كيف لنا أن نعلم أن عدو الله قد مات ؟ فرجع أحدهم ودخل بين الناس ، ثم رجع الى أصحابه فذكرلهم أنه وقف مع الجماعة وأنه سمع امرأته تقول . والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ، ثم قلت : أنى ابن عتيك بهذه البلاد ؟ ثم إنها نظرت فى وجهه فقالت . فاض وإله يهود . قال : فسررت . وانصرف الى أصحابه فأخبرهم بهلاكه ، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه وتداعوا فى قتله فقال عليه السلام . هاتوا أسيافكم . فأتوه بها . فقال عن سيف عبد الله بن أنيس هذا قتله ، أى فيه أثر الطعام

غزوة بنى لحيان

وأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد فتح بنى قريظة بقية ذى الحجة والمحرم وصفرا وشهرى ربيع ، وخرج عليه الصلاة والسلام فى جمادى الأولى فى الشهر السادس من فتح بنى قريظة فى السنة السادسة من الهجرة . قال ابن حزم . كذا قالوا ، والصحيح أنها الخامسة ، قاصدا إلى بنى لحيان مطالبا بثأر عاصم بن ثابت وخبيب بن عدى وأصحابهما المقتولين بالرجيع ، وذلك إثر رجوعه عليه السلام من دومة الجندل ، وأظهر أنه يريد الشام ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران واد بين أمج وعسفان ، وهى منازل بنى لحيان حيث كان مصاب أصحابه أهل الرجيع الذين قتلوا ببئر معونة . فترحم عليهم ، ودعالهم ، فسمعت به بنو لحيان فهربوا فى رءوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد . فلما نزلها رسول الله ﷺ أخطأه من غرتهم ما أراد ، قالوا : لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة ، فخرج فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ، فبعث عليه السلام رجلين من أصحابه وفارسين حتى أتوا كراع الغميم ثم كروا ، ورجع عليه السلام قافلا إلى المدينة

ولم يلق كيدا ، فكان جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول حين وجه راجعا « آيبون ، تائبون ، إن شاء الله لربنا حامدون »

سرية محمد بن مسلمة

قال فى المواهب : إلى بطن من بنى بكر بن كلاب وهم ينزلون بناحية ضرية بالبكرات ، وبين ضرية والمدينة سبع ليال ، لعشر ليال خلون من المحرم ، بعثه فى ثلاثين راكبا ، فلما أغار عليهم هرب سائرهم ، واستاق نعما وشاء ، وقدم المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعه ثمامة بن أثال الحنفى أسيرا ، فربط بأمره ﷺ بسارية من سوارى المسجد . وفى الصحيح عن أبى هريرة قال : بعث النبى ﷺ خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثمامة بن أثال ، فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فخرج اليه النبى ﷺ فقال : ماعندك ياثمامة ؟ فقال : عندى خير يا محمد ، إن تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فاسأل منه ما شئت . فتركه حتى كان الغد ثم قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : ما قلت لك ، إن تنعم تنعم على شاكر . فتركه حتى كان بعد الغد فقال له : ما عندك ياثمامة ؟ قال : عندى ماقلت . قال أطلقوا ثمامة . فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . يا محمد ، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىّ . والله ما كان من دين أبغض إلىّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إلىّ . والله ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إلىّ . وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة ، فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر . فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت . قال لا ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ، ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى ﷺ . وأخرجه مسلم أيضا . وذكر ابن القيم فى الهدى زيادة بعد قوله « حتى يأذن فيها النبى » : وكانت اليمامة ريف مكة . فانصرف إلى بلاده

ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش ، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى لهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله

غزوة الغابة

وتعرف بذى قرَد بفتح القاف والراء ، وهو ماء على بريد من المدينة فى ربيع الأول سنة ست قبل الحديبية ، وعند البخارى أنها كانت قبل خيبر بثلاثة أيام ، ولمسلم نحوه . قال القرطبى لا يختلف أهل السير أن غزوة ذى قرد كانت قبل الحديبية . وقال الحافظ ابن حجر : الذى فى الصحيح أصح مما ذكره أهل السير

وسببها أنه كان لرسول الله ﷺ عشرون لقحة — وهى ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة — ترعى بالغابة فأغار عليها عيينة بن حصن الفزارى ليلة الأربعاء فى أربعين فارسا فاستاقوها وقتلوا الراعى . قال ابن اسحق : وكان فيهم رجل من غفار وامرأة ، قتلوا الرجل وسبوا المرأة ، ونودى : ياخيل الله اركبى . وكان أول ما نودى بها . وكان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمى ، كان ناهضا إلى الغابة ، فلما علا ثنية الوداع نظر إلى خيل الكفار فصاح ، فأنذر المسلمين ، ثم نهض فى آثارهم فأبلى بلاء حسنا عظيما ، ورماهم بالنبل حتى استنقذ ما كان بأيديهم . فلما وقعت الصيحة بالمدينة كان أول من أتى إلى رسول الله ﷺ من الفرسان المقداد بن عمرو ، ثم عباد ابن بشر الأشهلى وأسيد بن حضير أخو بنى حارثة وعكاشة بن محصن ومحرز بن نضلة الأسدى الأخرم وأبو قتادة الحارث بن ربعى وأبو عياش عبيد بن زيد بن صامت الزرقى . فلما اجتمعوا أمر رسول الله ﷺ سعيد بن زيد من بنى عبد الأشهلى ، وقيل إن رسول الله ﷺ أعطى فرس أبى عياش معاذ بن ماعص أو عائذ بن ماعص ، وكان أحكم للفروسية من أبى عياش ، فأول من لحق بهم محرز بن نضلة الأخرم فقتل رحمه الله ، ولحق أبو قتادة فقتل قاتل الأخرم ، وولى المشركون منهزمين ، وبلغ رسول الله ﷺ ماء يقال له ذو قرد ، ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة ، وأقام عليه السلام يوما

وليلة ثم رجع إلى المدينة ، وأقبلت امرأة الغفارى على ناقة رسول الله ، فلما أتت المدينة نذرت أن تنحرها ، فأخبرها رسول الله ﷺ أنه لا نذر لأحد فى معصية الله ولا فيما لا يملك ، وأخذ عليه السلام ناقته

سرية زيد بن حارثة

قالوا وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى العيص ، موضع على أربع ليال من المدينة فى جمادى الأولى سنة ست ، ومعهُ سبعون راكبا ، لما بلغه عليه الصلاة والسلام أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام يتعرض لها ، فأخذها وما فيها ، وأخذوا يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية ، وأسر منهم ناسا منهم أبو العاص بن الربيع ، وقدم بهم المدينة

قال ابن اسحق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن حزم قال : خرج أبو العاص بن الربيع زوج زينب مرجعه من الشام ، وكان رجلا مأمونا ، وكانت معه بضائع لقريش ، فأقبل قافلا ، فلقيته سرية لرسول الله ﷺ فاستاقوا عيره وأفلت ، وقدموا على رسول الله ﷺ بما أصابوا ، فقسمه بينهم . وأتى أبو العاص المدينة فدخل على زينب بنت رسول الله يريد ماله وما كان معه من أموال الناس ، فدعا رسول الله ﷺ السرية وقال : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ولغيره ، وهو فىء الله الذى أفاء عليكم ، فإن رأيتم أن تردوا عليه فافعلوا ، وإن كرهتم فأنتم وحقكم . قالوا : بل نرد عليه يا رسول الله ، فردوا عليه والله ما أصابوا ، حتى إن الرجل يأتى بالشىء والرجل يأتى بالإداوة والرجل بالحبل ، فما تركوا قليلا مما أصابوا ولا كثيرا إلا ردوه عليه . ثم خرج حتى قدم مكة فأدى إلى الناس بضائعهم ، حتى إذا فرغ قال : يامعشر قريش ، هل بقى لأحد منكم مال لم أردّه عليه ؟ قالوا لا فجزاك الله خيرا قد وجدناك وفيا كريما ، قال : والله مامنعنى أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا تخوفا أن تظنوا أنى ما أسلمت إلا لأذهب بأموالكم ، فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله

وذكر موسى بن عقبة أن أسره كان على يد أبى بصير بعـــد الحديبية ، وأنهم أخذوه فيه فى رجال من قريش وأخذوا مامعهم وأسروهم ، ولم يقتلوا منهم أحدا لصهر رسول الله من أبى العاص وهو ابن أخت خديجة بنت خويلد لأمها وأبيها ، فخلوا سبيل أبى العاص ، فقدم على امرأته زينب فكلمها أبو العاص فى أصحابه الذين أسر أبو جندل وأبو بصير وما أخذوا له ، فكلمت رسول الله فى ذلك ، فزعموا أن رسول الله ﷺ قام فخطب فقال : إنا صاهرنا أناسا وصاهرنا أبا العاص ، فنعـــم الصهر وجدناه . وإنه أقبل من الشام فى أصحاب له من قريش فأخذهم أبو جندل وأبو بصير وأخذوا ما كان معهم ولم يقتلوا منهم أحدا ، وإن زينب بنت رسول الله سألتنى أن أجيرهم فهل أنتم مجيرون أبا العاص وأصحابه ؟ فقال الناس نعم . فلما بلغ أبا جندل وأصحابه قول رسول الله ﷺ فى أبى العاص وأصحابه الذين كانوا عنده ردوا عليهم كل شئ أخذ منهم حتى العقال ، وكتب رسول الله إلى أبى جندل وأبى بصير يأمرهم أن يقدموا عليه ويأمر من معهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم ولا يتعرضوا لأحد من قريش وعيراتها ، وقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبى بصير وهو فى الموت ، فمات وهو على صدره ، فدفنه أبو جندل ، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ وأمنت عير قريش وذكر باقى الحديث . قال ابن القيم فى الهدى : وقول موسى بن عقبة أصوب ، وأبو العاص إنما أسلم زمن الهدنة ، وكانت زينب هاجرت قبله وتركته على شركه ، وردها النبى ﷺ بالنكاح الأول ، قيل بعد سنتين وقيل بعد ست سنين وقيل قبل انقضاء العدة ، وفى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : ردها عليه بنكاح جديد سنة سبع

سرية كرز بن جابر الفهرى إلى العرنيين

وهم الذين قتلوا راعى رسول الله ﷺ واستاقوا الإبل فى شوال سنة ست ، قاله الواقدى وابن سعد وابن حبان ، أو فى ذى القعدة بعد الحديبية وهو المذكور فى البخارى

والعرنيون حي من بجيلة . وفى البخارى من عكل وعرينة . وفى الصحيحين عن أنس أن رهطا من عكل وعرينة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يارسول الله إنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف ، فاستوخمنا المدينة . فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود وأمرهم أن يخرجوا فيها فيشربوا من أبوالها وألبانها ، فلما صحوا قتلوا راعى رسول الله واستاقوا الذود وكفروا بعد إسلامهم . وفى لفظ لمسلم : وسملوا عين الراعى . وعند البخارى أنهم كانوا مع أهل الصفة قبل أن يخرجوا إلى الذود . وفى البخارى فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم بها . وفى لفظ فبعث الطلب فى آثارهم فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وتركوا فى ناحية الحرة حتى ماتوا ، وقال أنس : إنما سمل رسول الله ﷺ أعينهم لأنهم سملوا أعين الراعى ، رواه مسلم

وفى حديث أبى الزبير عن جابر فقال رسول الله ﷺ : اللهم عم عليهم الطريق واجعلها عليهم أضيق من [1] فعمى الله عليهم السبيل فأدركوا ، وذكر القصة . وفى البخارى : قال أبو قلابة : فهؤلاء قتلوا وسرقوا وحاربوا الله ورسوله . وفى الترمذى عن ابن سيرين إنما فعل رسول الله ذلك قبل أن تنزل الحدود

وفيها من الفقه جواز شرب أبوال الإبل وطهارة بول مأكول اللحم ، والجمع للمحارب — إذا أخذ المال وقتل — بين قطع يده ورجله ، وأنه يفعل بالجانى كما فعل لأنهم لما سملوا أعين الراعى سمل أعينهم . وقد ظهر بهذا أن القصة محكمة ليست منسوخة ، وإن كانت قبل أن تنزل الحدود فالحدود نزلت بتقريرها لا بإبطالها

غزوة سيف البحر

قال البخارى عن جابر بن عبد الله : بعث رسول الله ﷺ بعثا قبل الساحل وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، وهم ثلاثمائة ، يتلقون عيراً لقريش ، فخرجنا فكنا ببعض الطريق ، ففنى الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع ، فكان مزودَى تمر ، فكان

---

(١) بياض فى الأصل

يقوتنا كل يوم قليلا حتى فى فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة . فقلت : ماتغنى عنكم تمرة ؟ فقال : لقد وجدنا فقدها حين فنيت . وفى لفظ : فأقمنا بالساحل نصف شهر فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط ، فسمى ذلك الجيش جيش الخبط ، فألقى لنا البحر دابة يقال لها العنبر ، فأكلنا منه نصف شهر وادهنا من ودكه حتى ثابت الينا أجسامنا ، فأخذ أبو عبيدة ضلعا من أضلاعه فنصبه فعمد إلى أطول رجل معه ثم أمر براحلة فرحلت فمر تحته ، فقال جابر : وكان رجل من القوم نحر ثلاث جزائر ثم نحر ثلاث جزائر ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم إن أبا عبيدة نهاه . وفى رواية أنه قيس بن سعد . وفى لفظ : فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبى ﷺ فقال : كلوا رزقا أخرجه الله ، أطعمونا إن كان معكم ، فأتاه بعضهم بعضو فأكله

والصحيح أن هذه الغزوة كانت سنة ست قبل الهدنة كما قاله ابن سعد وصاحب الهدى

غزوة الحديبية

بتخفيف الياء وتشديدها ، وهى بئر يسمى المكان بها . قال نافع : كانت سنة ست فى ذى القعدة . قال صاحب الهدى : وهو الصحيح ، وهو قول الزهرى وقتادة وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحق وغيرهم

قالوا وسبب هذه الغزوة أنه ﷺ أرى فى المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام ، وأخذ مفتاح الكعبة ، وطافوا واعتمروا ، وحلق بعضهم وقصر بعضهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، وحسبوا أنهم دخلوا مكة عامهم ذلك ، فأخبر أصحابه أنه معتمر ، فتجهزوا للسفر ، واستنفر العرب ومن حوله من البوادى ليخرجوا معه ، وهو لا يريد الحرب ، ولكنه يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو صدود عن البيت ، فأبطأ كثير من الأعراب ، فغسل النبى ﷺ ثيابه وركب ناقته القصواء واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وخرج منها يوم الإثنين غرة ذى القعدة من السنة السادسة ومعه زوجته أم سلمة فى ألف

وأربعمائة ، ويقال ألف وخمسمائة ، ولم يخرج معه بسلاح إلا سلاح المسافر ، السيوف في القرب . وفى البخارى عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه ، فلما كان بذى الحليفة قلد الهدى ، وأشعر وأحرم منها بعمرة . وبعث عينا له من خزاعة ؛ وسار النبى ﷺ حتى إذا كانوا بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال : إن قريشا جمعوا لك جموعا ، وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ومانعوك . فقال : أشيروا علىّ أيها الناس ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن يأتونا كان الله قد قطع عينا من المشركين وإلا تركناهم محزونين . قال أبو بكر : يارسول الله ، خرجت عامدا لهذا البيت لاتريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه . قال : امضوا على اسم الله . حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبى ﷺ : إن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين ، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيرا لقريش . وسار النبى ﷺ ، حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت راحلته ، فقال الناس : حل حل . فألحت فقالوا : خلأت القصواء خلأت القصواء . فقال النبى ﷺ : ماخلأت القصواء وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل . ثم قال : والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها . ثم زجرها فوثبت به ، قال فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرّضه الناس تبرضا ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش بالرى حتى صدروا عنه ، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . فقال رسول الله ﷺ : أنا لم نجىء لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب

وأضرت بهم ، فان شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس ، فان ظهروا فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا ، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمره . فقال بديل : سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشا فقال : إنا جئناكم من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولا ، فان شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا . فقال سفهاؤهم : لا حاجه لنا أن تخبرنا عنه بشيء ، وقال ذوو الرأى : هات ماسمعته يقول . قال : سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال النبى ﷺ . فقام عروة بن مسعود فقال : أى قوم ، ألستم بالوالد ؟ قالوا بلى . قال : ألست بالولد ؟ قالوا بلى [١] . قال : فهل تتهمونى ؟ قالوا لا . قال : ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ ، فلما بلحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى ؟ قالوا بلى . قال : فان هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعونى آته . فأتاه ، فجعل يكلم النبى ﷺ ، ويقول له النبى ﷺ نحوا من قوله لبديل . فقال عروة عند ذلك : أى محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فوالله إنى لأرى وجوها ، وإنى لأرى أشوابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك [٢] فقال له أبو بكر الصديق : امصص بظر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه ؟ فقال عروة : من هذا ؟ فقالوا أبو بكر ، قال : أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك . قال وجعل يكلم النبى ﷺ ، فكلما تكلم أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبى ﷺ ومعه السيف ومعه المغفر ، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحية النبى ﷺ . قال فرفع عروة رأسه فقال : من هذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة . فقال . أى غدر ، ألستُ أسعى فى غدرتك ؟ وكان

---

(١) كان عروة بن مسعود لسبيعة بنت عبد شمس

(٢) يعنى أنه يرى فى أصحاب النبى ﷺ أخلاط الناس ، ويرى فى المعسكر الآخر وجوه قريش وأهل المكانة فيها

المغيرة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم . فقال النبى ﷺ : أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه فى شئ . ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينه ، قال والله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون اليه النظر تعظيما له . قال فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه مايعظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، ومايحدون النظر اليه تعظيما له . وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه قال النبى ﷺ : هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها . فبعثت له ، واستقبله الناس يلبّون . فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ، ماينبغى لهؤلاء أن يصدُّوا عن البيت . فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، فما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال : دعونى آته . فلما أشرف على النبى وأصحابه قال النبى ﷺ : هذا مكرز وهو رجل فاجر ، فجعل يكلم النبى ﷺ . فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو . قال معمر : فأخبرنى أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل قال النبى ﷺ : قد سهل لكم من أمركم . وفى رواية ابن اسحق : فدعت قريش سهيل بن عمرو فقالوا إذهب إلى هذا الرجل فصالحه . فقال ﷺ : قد أرادت قريش الصلح حين بعث هذا . فلما انتهى إلى النبى ﷺ جرى بينهما الصلح

وذكر ابن اسحق أيضا فى روايته أن رسول الله ﷺ دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى أهل مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال : يارسول الله إنى أخاف قريشا

على نفسى وليس بمكة أحد من بنى عدى بن كعب يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى ، عثمان بن عفان . فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لقتال ولا لحرب ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت معظما لحرمته ، فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فقالت أشراف قريش لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ اليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ . واحتبسته قريش عندها حتى ظن رسول الله والمسلمون أن عثمان قد قتل . قال ابن اسحق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : لا نبرح حتى نناجز القوم . ودعا رسول الله ﷺ إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : لم نبايع رسول الله على الموت ، ولكن بايعناه على أن لا نفر . انتهى . قلت : قال بعضهم : معنى القولين واحد . فبايعه جماعة على الموت ، أى لا نزال نقاتل بين يديك حتى نموت . وبايعه آخرون وقالوا : لا نفر

وذكر وكيع بن الجراح عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى أن أول من بايعه أبو سنان الأسدى ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين ممن حضرها إلا جد بن قيس أحد بنى سلمة ، قال جابر بن عبد الله : وكأنى أنظر اليه لاصقا بإبط ناقته مستترا بها عن الناس . انتهى

وضرب رسول الله ﷺ بيده اليمنى على اليسرى فقال : هذه لعثمان ، وكانت يد رسول الله لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم . وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » انتهى . ولما أبطأ عثمان قال المسلمون : طوبى لعثمان ، دخل مكة وسيطوف بالبيت وحده . فقال النبى ﷺ : ما كان ليطوف وحده . ولما تمت البيعة رجع عثمان ، فقال له المسلمون : اشتفيت يا أبا عبد

الله من الطواف بالبيت . فقال : بئس ما ظننتم بى ، والذى نفسى بيده لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف رسول الله ، ولقد دعتنى قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت . فقال المسلمون : رسول الله كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظنا . وكان عمر بن الخطاب آخذا بيد رسول الله للبيعة ، وكان تحت الشجرة ، وكان معقل بن يسار آخذا بعضها يرفعه عن رسول الله ، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات : فى أول الناس ووسطهم وآخرهم

قال ابن اسحق فى حديثه عن الزهرى : فلما جاء سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ كله وطال بينهما الكلام ، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، فكتبها . ثم قال اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . قال فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . وفى رواية البخارى : فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت ولا قاتلناك . فقال النبى ﷺ : والله إنى رسول الله وإن كذبتمونى ، اكتب محمد بن عبد الله . وفى رواية له ولمسلم : فقال النبى ﷺ لعلى « امحه » . فقال : ما أنا بالذى أمحوه . فقال عليه السلام لعلى : أرنى مكانها . فأراه مكانها فمحاه ، وكتب محمد بن عبد الله . وفى البخارى قال الزهرى : وذلك لقوله « لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » فقال النبى ﷺ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به . فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل . فكتب . وعند ابن اسحق فى روايته : واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن أتى قريشا ممن مع محمـــــد لم يردوه عليهم . وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد من العرب وفى عهده دخل فيه ،

ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش من العرب وعهدهم دخل فيه ، (فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثب بنو بكر وقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم) ، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقروا بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب ، السيوف فى القرب ، لا تدخلها بغيرها ، وفى رواية البخارى قال المسلمون : سبحان الله ، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلىّ . فقال النبى ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد . فقال : إذاً والله لا أصالحك على شىء أبدا . فقال النبى ﷺ : فأجره لى . قال : ما أنا بمجيره لك . قال بلى فافعل . قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز بلى قد أجرناه لك . قال أبو جندل : يا معشر المسلمين أُرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذابا شديدا فى الله . وفى رواية غير البخارى : فقام سهيل إلى سمرة فأخذ منها غصنا وضرب به وجه أبى جندل ضرباً رق عليه المسلمون وبكوا . وهم رواية ابن إسحق يصرخ بأعلى صوته : أُرد إلى المشركين يفتنونى عن دينى ؟ فزاد ذلك الناس على ما بهم . فقال رسول الله : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك عهدا وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم . فوثب عمر بن الخطاب مع أبى جندى يمشى الى جنبه ويقول : اصبر أبا جندل ، فانما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدنى قائم السيف منه ، قال يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه . قال فضن الرجل بأبيه . وفى رواية أنه لما قال سهيل : على من أتاك منا وإن كان على دينك رددته الينا ، قال عمر : يارسول الله أترضى بهذا ؟ فتبسم رسول الله وقال : من جاءنا منهم فرددناه اليهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا ، ومن أعرض عنا وذهب اليهم فلسنا منه وليس منا بل

هم أولى به . وفى رواية ابن اسحق : وأشهد على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل ابن عمرو وسعد بن أبى وقاص ومحمود بن مسلمة ومكرز بن حفص ـ وهو يومئذ مشرك ـ وعلى بن أبى طالب وكان هو كاتب الصحيفة ، وكان رسول الله ﷺ مضطربا فى الحل وكان يصلى فى الحرم

وعند البخارى فقال عمر بن الخطاب : فأتيت نبى الله فقلت : ألستَ نبى الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً ؟ قال رسول الله ﷺ : إنى رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصرى . قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فطوف به ؟ قال : بلى ، فأخبرتك أنك تأتيه العام قلت لا : قال : فانك آتيه ومطوف به . قال فأتيت أبا بكر فقلت : ياأبا بكر ، أليس هذا نبى الله حقا ؟ قال بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ، قال بلى . قلت : فلم نعطى الدنيَّة فى ديننا إذاً . قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق . قلت : أو ليس كان يحدثنا أن سنأتى البيت ونطوف به . قال : بلى ، فأخبرك أنك تتيه وتطوف به العام . قال الزهرى قال عمر : فعملت لذلك أعمالا

فلما فرغ رسول الله ﷺ قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا . قال فوالله ماقام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات . قال فلما لم يقم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها مالقى من الناس ، فقالت له أم سلمة : يانبى الله أتحب ذلك . أخرج ثم لاتكلم أحداً كلمة حتى تنحر بُدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلم أحدا حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما . ثم جاء نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهم — حتى

بلغ ـ عِصَمِ الـكوافر ﴾ . وطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك فتزوج إحداهما معاوية والأخرى صفوان بن أمية . ثم رجع رسول الله ﷺ الى المدينة وأنزل الله عليه سورة الفتح فى مرجعه الى المدينة كما ثبت فى مسلم عن قتادة أن أنساً حدثهم قال : لما نزلت ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ـ الى قوله ـ فوزا عظيما ﴾ مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والـكآبة وقد نحر الهدى بالحديبية قال : لقد أنزلت على آية هى أحب إلىّ من الدنيا جميعا . وعند البخارى عن قتادة عن أنس ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ قال : الحديبية . قال أصحابه : هنيئا مريئا مالنا . فأنزل الله ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ الآية . وفيه عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله كان يسير فى بعض أسفاره وعمر يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثـكلتك أمك عمر نزرت رسول الله ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك . قال عمر : فحركت بعيرى ثم تقدمت أمام المسلمين وخشيت أن ينزل فىّ قرآن ، فما نشبتُ أن سمعت صارخا يصرخ ، قال : فقلت لقد خشيت أن ينزل فى قرآن . فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال : لقد أُنزل على الليلة سورة لهى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس . ثم قرأ ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ . وعن مجمع بن حارث قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا وجدنا رسول الله واقفا عند كراع الغميم وقد جمع الناس يقرأ عليهم ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ الآية ، فقال رجل : يارسول الله أوفتح هو . قال أى والذى نفسى بيده إنه لفتح . أخرجه أحمد وأبو داود

وفى هذه الغزوة أُصابهم مطر ، فلما صلى النبى ﷺ قال : أتدرون ماذا قال ربكم الليلة . قالوا الله ورسوله أعلم . قال « أصبح من عبادى مؤمن وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالـكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بى مؤمن بالـكوكب » أخرجه البخارى . وفى غزوة الحديبية أيضا أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام أو الصدقة أو النسك فى شأن كعب ابن عجرة . وفيها دعا رسول الله ﷺ بالمغفرة للمحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة . وفيها

نحروا البدنة عن سبعة . وفيها أيضا عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة يتوضأ منها ، إذ جهش الناس نحوه فقال : مالكم . فقالوا يا رسول الله ماعندنا ما نشرب ولا ما نتوضأ به إلا مابين يديك . فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه أمثال العيون . أخرجه البخارى عن جابر قال : فشربوا وتوضأوا وكانوا خمس عشرة مائة ، وهذه غير قصة البئر التى تقدمت

وفى حديث معمر عن الزهرى عن عروة عن المسور ومروان بعد قوله فتزوج إحداهما معاوية والأخرى صفوان بن أمية : ثم رجع رسول الله ﷺ الى المدينة فجاء أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا فى طلبه رجلين فقالوا : العهد الذى جعلته لنا ، فدفعه الى الرجلين ، فخرجا حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : أرى سيفك يا فلان جيدا ، فاستله الآخر فقال أجل والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت . قال أبو بصير أرنى أنظر اليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذعرا . فلما انتهى الى النبى ﷺ قال : قتل والله صاحبى ، وإنى لمقتول . فجاء أبو بصير فقال : يانبى الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتنى اليهم ثم أنجانى الله منهم . فقال ﷺ : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك عرف أنه سيردّه إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، قال وتفلت منهم أبو جندل ابن سهيل فلحق بأبى بصير ، فجعل لايخرج من قريش أحد مسلما إلا لحق بأبى بصير ، حتى اجتمع منهم عصابة ، فوالله لايسمعون بعير لقريش خرجت الى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش الى النبى ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل اليهم من أتاه منهم فهو آمن ، فأرسل النبى ﷺ اليهم ، فأنزل الله تعالى ﴿وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾ الآية حتى بلغ ﴿حمية الجاهلية﴾ وكان حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبى الله ، ولم يقروا بيسم الله الرحمن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت انتهى . قال ابن اسحق فى روايته : قال ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين

ألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليما﴾ أى التوحيد
شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله : ثم قال ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا
بالحق﴾ إلى قوله ﴿ فجعل من دون ذلك فتحا قريبا﴾ يعنى صلح الحديبية ، يقول
الزهرى : فما فتح فى الإسلام قبله فتح أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ،
فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس والتقوا فتفاوضوا فى الحديث فلم يكلم
أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ، فلقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى
الإسلام قبل ذلك أو أكثر . انتهى

قالوا : وفى هذه السنة كسفت الشمس ، وفيها ظاهر أوس بن الصامت من امرأته
خولة . وفيها استسقى رسول الله فى رمضان ومطر الناس . وفيها أيضاً حرمت الخمر كما
جزم به غير واحد ، وذكر ابن إسحق أنه كان فى وقعة بنى النضير وهى بعد أحد
وذلك سنة أربع على الراجح

غزوة خيبر

وهى مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ، على ثمانية برد من المدينة تمشى ثلاثة أيام
من جهة الشمال

قال ابن إسحق : خرج ﷺ فى بقية المحرم سنة سبع ، وقيل كانت فى آخر سنة
ست ، وهو منقول عن مالك وبه جزم ابن حزم . قال الحافظ ابن حجر : والراجح ما
ذكره ابن إسحق ، ويمكن الجمع بأن من أطلق سنة ست بناه على أن ابتداء السنة
من شهر الهجرة الحقيقى وهو ربيع الأول . انتهى

وكان الله وعده إياها وهو بالحديبية بقوله ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها
فعجل لكم هذه﴾ يعنى صلح الحديبية ، وبالمغانم الكثيرة فتح خيبر ، فخرج ﷺ
مستنجزاً ميعاد ربه واثقاً بكفايته ونصرته ، وكان معه ألف وأربعمائة راجل ومائتا

فرس ، ومعه أم سلمة زوجته ، وأمر ألا يخرج معه إلا من رغب فى الجهاد ، لا من غرضه عرض الدنيا . واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى

وفى البخارى من حديث سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلا ، فقال رجل من القوم لعامر . ألا تسمعنا من هنياتك . وكان عامر رجلا شاعراً ، فنزل يحدو بالقوم ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلينا

فاغفر فداءً لك ما أبقينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا

وفى رواية أحمد زيادة :

إن الذين قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا

فقال رسول الله ﷺ : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر بن الأكوع . قال : يرحمه الله . قال رجل من القوم : وجبت يا رسول الله ، لولا أن متعتنا به . وفى رواية أحمد : فجعل عامر يرتجز ويسوق الركاب ، وهذه كانت عادتهم إذا أرادوا تنشيط الإبل فى السير ، ينزل بعضهم فيسوقها ويحدو فى تلك الحال ، وكان معلوماً عندهم أنه ما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد. انتهى

وقيل أرسل ابن أبىّ إلى يهود خيبر أن محمداً قصد قصدكم وتوجه إليكم ، فخذوا حذركم ولا تخافوا منه فان عددكم وعدتكم كثيرة ، وقوم محمد شرذمة قليلون عزل لا سلاح معهم إلا قليل . فلما علم ذلك أهل خيبر أرسلوا كنانة بن أبى الحقيق وهوذة ابن قيس إلى غطفان يستمدونهم لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر ، وشرطوا لهم نصف ثمار

خيبر إن هم غلبوا على المسلمين . ولم تقبل غطفان خوفاً من الإسلام . وفى رواية ابن إسحق قبلوا ، فلما نزل المسلمون منزل الرجيع ، وكان بينهم وبين غطفان مسيرة يوم وليلة ، تهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر لإمداد اليهود ، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حساً ولغطاً ، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا . ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين – وكان اسم أحدهما حسيل – ليدلاه على الطريق الأحسن حتى يحول بين أهل خيبر وغطفان ، فقال أحدهما أنا أدلك يا رسول الله ، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة وقال : يا رسول الله هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد . فأمر بأن يسميها له واحداً واحداً ، قال : اسم واحد منها حزن ، فأبى النبى ﷺ من سلوكه . وقال : اسم الآخر شاش ، فامتنع منه أيضاً . وقال : اسم الآخر حاطب ، فامتنع منه أيضاً . قال حسيل : فما بقى إلا واحد ، قال عمر : ما اسمه ؟ قال : مرحب . فاختار النبى ﷺ سلوكه

ولما قدم رسول الله ﷺ خيبر صلى بها الصبح وركب وركب المسلمون ، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم ولا يشعرون ، بل خرجوا لأرضهم ، وقيل إن النوم غلب عليهم تلك الليلة فلم يقم منهم أحد ، حتى إن الديكة لم تصح ، فلما رأوا الجيش قالوا : محمد ، والله محمد والخميس . ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم ، فقال ﷺ كما فى الصحيحين عن أنس : الله أكبر خرجت خيبر ، الله أكبر خربت ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين انتهى . ولما دنا النبى ﷺ وأشرف عليها قال : قفوا ، فوقف الجيش ، فقال : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير مافيها ، ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر مافيها . أقدموا بسم الله . وقاتل النبى ﷺ أهل خيبر وقاتلوه أشد القتال . واستشهد من المسلمين خمسة عشر ، وفتحها الله عليه حصناً حصناً ، وأخذ كنز آل أبى الحقيق الذى كان فى مسك الحمار ، وكانوا

قد غيبوه فى خربة . ولما تيقن ﷺ أن اليهود تحارب وعظ أصحابه وحرضهم على الجهاد ورغبهم فى الثواب وبشر بأن من صبر فله الظفر والغنيمة

روى أن خباب بن المنذر أتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله أم هو الرأى فى الحرب ؟ قال : بل هو الرأى . فقال يا رسول الله إن هذا المنزل قريب جداً من حصن نطأة ، وجميع مقاتلى خيبر فيها ، وهم يدرون أحوالنا ونحن لا ندرى أحوالهم ، وسهامهم تصل إلينا وسهامنا لا تصل إليهم ولا نأمن من بياتهم . وأيضاً هذا بين النخلات ومكان غائر وأرض وخيمة ، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه معسكراً . قال ﷺ : الرأى ما أشرت اليه . وقد جرى مثل هذا فى غزوة بدر

وفى البخارى : وكان على بن أبى طالب تخلف عن النبي ﷺ وكان رمداً فلحق ، فلما بتنا الليلة التى فتحت قال ﷺ : لأعطين الراية — أو ليأخذن الراية — غداً رجلا يحبه الله ورسوله . وفى حديث سهل عند البخارى : ويحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه . فبات الناس يدركون ليلتهم أيهم يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : أين على بن أبى طالب ؟ فقالوا : يارسول الله هو يشتكى عينيه . قال : فأرسلوا اليه . فأتى ، فبصق رسول الله فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية . فقال على : يارسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . قال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم الى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن تكون لك حُمر النعم . وفى حديث سلمة بن الأكوع عند مسلم : فلما أتينا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب   شاكى السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

قال فبرز له عمى عامر فقال :

قد علمت خيبر أنى عامر   شاكى السلاح بطل مغامر

قال فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب فى ترس عامر ، وذهب عامر يسفل له فرجع على نفسه فقطع أكحله فكانت فيها نفسه رحمه الله . قال سلمة : فخرجت فاذا نفر من أصحاب النبى ﷺ يقولون : بطل عمل عامر ، قتل نفسه . قال : فأتيت النبى ﷺ وأنا أبكى فقلت : يارسول الله بطل عمل عامر ؟ فقال رسول الله : من قال ذلك ؟ قلت ناس من أصحابك . قال : كذب من قال ذلك ، بل له أجره مرتين . وفى رواية البخارى ومسلم وجمع بين إصبعيه : أنه لجاهد مجاهد قلّ عربى مشى بها مثله . وفى مسلم : قال سلمة وخرج مرحب فقال :

قد علمت خيبر أنى مرحب   شاكى السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهّب

فقال على رضى الله عنه :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره   كليث غابات كريه المنظره
أوفيهم بالصاع كيل السندره

قال فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه . انتهى . وعند ابن اسحق : لما دنا من حصنهم اطلع يهودى من رأس الحصن فقال : من أنت ؟ قال : أنا على بن أبى طالب . فقال : علوتم وما أنزل على موسى . ثم خرج ياسر أخو مرحب ، فبرز اليه الزبير ، فقالت صفية أمه : يارسول الله يقتل ابنى . فقال : بل ابنك يقتله إن شاء الله . فقتله الزبير رضى الله عنه

قال ابن اسحق : وحاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر فى حصنيهم الوطيح والسلالم حتى إذا أيقنوا بالهلاك سألوه أن يسيرهم ، وأن يحقن دماءهم ، ففعل . وكان رسول الله ﷺ قد حاز الأموال كلها الشق والنطاة والكتيبة وجميع حصونهم إلا ما كان من

ذينك الحصنين . فلما سمع بهم أهل فَدَك أنهم قد صنعوا ما صنعوا بعثوا الى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ويخلوا له الأموال

وكانت خيبر بين المسلمين ، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب . وقال حماد بن سلمة : أخبرنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم الى قصرهم ، فغلب على الزرع والأرض والنخل فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ماحملت ركابهم ولرسول الله الصفراء والبيضاء ، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئا ، فان فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد ، فغيبوا مسكا فيه مال وحلى لحيي بن أخطب كان احتمله معه الى خيبر حين أجليت النضير ، فقال رسول الله ﷺ لعم حيي : مافعل مسك حيي الذى جاء به من النضير؟ قال : أذهبته النفقات والحروب . فقال: العهد قريب والمال أكثر من ذلك . فدفعه ؟ رسول الله ﷺ الى الزبير فمسه بعذاب ، وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال : قد رأيت حييا يطوف فى خربة ههنا . فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك فى الخربة ، فقتل رسول الله ﷺ ابنى أبى الحقيق ـ وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب ـ وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم وقسم أموالهم ، بالنكث الذى نكثوا . وأراد أن يجليهم منها فقالوا : يامحمد دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم . ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لايفرغون يقومون عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وثمر ، ما بدا لرسول الله أن يقرهم . انتهى

قال فى الهدى : ولم يقتل رسول الله إلا ابنى أبى الحقيق للنكث الذى نكثوا ، وأمر بلالا أن يذهب بصفية الى رحله ، فمر بها بلال على وسط القتلى ، فكره ذلك رسول الله وقال : أذهبت منك الرحمة يا بلال ؟ وعرض عليها رسول الله الإسلام فأسلمت واصطفاها لنفسه ، وأعتقها وجعل عتقها صداقها ، وبنى بها فى الطريق وأولم عليها. ورأى بوجهها خضرة فقال : ما هذا؟ فقالت : يا رسول الله رأيت قبل قدومك علينا

كأن القمر زال من مكانه فسقط فى حجرى ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئا ، فقصصتها على زوجى فلطم وجهى وقال : تمنين هذا الملك الذى بالمدينة ؟ وشك الصحابة هل اتخذها سرية أو زوجة ، فقالوا : إن حجبها فهى إحدى نسائه ، وإلا فهى مما ملكت يمينه . فلما ركب جعل ثوبه الذى ارتدى به على ظهرها ووجهها ثم شد طرفه تحته ، فتأخروا عنه فى السير ، وعلموا أنها إحدى نسائه . وفى رواية البخارى عن أنس أنها صارت الى دحية فذكر له جمالها فاصطفاها لنفسه ، فجعل عتقها صداقها . وفى رواية : فقال ﷺ لدحية : خذ جارية من السبى غيرها . وفى رواية لمسلم أنه ﷺ اشتراها منه بسبعة أرؤس

فصل

وفى السنن والمسند أن رسول الله ﷺ لما ظهر على خيبر قسمها على ستة وثلاثين سهما جمع كل سهم مائة سهم ، فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك ، وعزل النصف الباقى لمن نزل به من الوفود والأمور ونوائب المسلمين . هذا لفظ أبى داود . وفى لفظ عزل رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهما وهو الشطر لنوائبه وما ينزل الوطيحة والكتيبة وما أجير معها ، وعزل النصف الآخر قسمه بين المسلمين . وكان سهم رسول الله ﷺ فيما أجير معها . قال فى الهدى قال البيهقى : وهذا لأن خيبر فتح شطر صلحا ، فقسم ما فتح عنوة بين أهل الخمس والغانمين ، وعزل ما فتح صلحا لنوائبه وما يحتاج اليه من أمور المسلمين . قال ابن القيم قلت : وهذا بناء منه على أصل الشافعى أنه يجب قسم الأرض المفتوحة عنوة كما يقسم سائر الغنائم ، فلما لم يجده قسم الشطر من خيبر قال : إنه فتح صلحا . ومن تأمل السير والمغازى حق التأمل تبين له أن خيبر إنما فتحت عنوة ، وأن رسول الله ﷺ استولى على أرضها كلها بالسيف عنوة ، ولو فتح شيئا منها صلحا لم يجعلهم رسول الله فيها ، فانه لما عزم على إخراجهم منها قالوا نحن أعلم منكم ، دعونا نكون فيها ونعمرها لكم بشطر ما يخرج منها . وهذا

صريح جدا فى أنها إنما فتحت عنوة . وقد حصل بين المسلمين واليهود بها من الحرب والمبارزة والقتل بين الفريقين ما هو معلوم . ولكن لما لجأوا الى حصنهم نزلوا على الصلح . والصواب الذى لا شك فيه أنها فتحت عنوة ، والإمام مخير فى أرض العنوة بين قسمها ، ووقفها ، وقسم بعضها وترك البعض ، وقد فعل رسول الله الأنواع الثلاثة : قسم قريظة والنضير ، ولم يقسم مكة ، وقسم شطر خيبر وترك شطرها ، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم ، لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب وكانوا ألفا وأربعمائة ، وكان معهم مائتا فرس لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة . ولم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله كسهم من حضرها . وقسم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم ، هذا هو الصحيح الذى لا ريب فيه . انتهى . قلت : وفى الصحيح عن نافع عن عبد الله بن عمر : كان رسول الله ﷺ لما ظهر على خيبر أراد إخراج اليهود منها ، وكانت الأرض حين ظهر عليها لله ولرسوله وللمسلمين ، وأراد إخراج اليهود منها ، فسألت اليهود رسول الله ﷺ ليقرهم بها وأن يكفوا عملها ولهم نصف الثمر ، وقال لهم رسول الله ﷺ : نقركم بها على ذلك ما شئنا . فقروا بها حتى أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحا . وفى رواية له : عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من زرع أو تمر ، وكان يعطى أزواجه مائة وسق ، منها ثمانون وسق تمر وعشرون وسق شعير . وقسم عمر خيبر خير أزواج النبى ﷺ أن يقطع لهن من الماء والأرض أو يمضى لهن ، فمنهن من اختار الوسق . وكانت عائشة اختارت الوسق . وفى حديث عبد العزيز بن صهيب عن أنس التصريح بأنه كان عنوة ، وبه جزم ابن عبد البر ورد على من قال فتحت صلحا . قال : وإنما دخلت الشبهة على من قال فتحت صلحا بالحصنين اللذين أسلمهما أهلهما لتحقن دماؤهم ، وهو ضرب من الصلح ، لكن لم يقع ذلك إلا بحصار وقتال . انتهى

قال ابن اسحق : وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشق والنطاة والكتيبة ، وكانت فى الشق ونطاه سهمان للمسلمين : وكانت الكتيبة : خمس لله ، وسهم النبى

ﷺ ، وسهم لذوى القربى واليتامى والمساكين ، وطعم أزواج النبى ﷺ ، وطعم رجال مشوا بين رسول الله وبين أهل فدك بالصلح ، وفى الصحيح عن جبير بن مطعم قال : مشيت أنا وعثمان بن عفان الى النبى ﷺ فقلنا : يارسول الله إخواننا بنو هاشم لا ننكر فضلهم علينا ، وأعطيت بنى المطلب من خمس خيبر وتركتنا ونحن بمنزلة واحدة . فقال : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد . قال : ولم يقسم لبنى عبد شمس وبنى نوفل شيئا . وفى رواية قال ابن اسحق : إعبد شمس وهاشم والمطلب إخوة لأم وأمهم عاتكة بنت مرة ، وكان نوفل أخا لأبيهم . انتهى

فصل

وفى هذه الغزوة حرم رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية كما فى البخارى ، ولفظه : فلما أمسى الناس مسى اليوم الذى فتحت عليهم — يعنى خيبر — أوقدوا نيرانا كثيرة ، فقال رسول الله ﷺ : ما هذه النيران ، على أى شىء توقدون ؟ قالوا : على لحم . قال أى لحم ؟ قالوا : لحم الحمر الإنسية . فقال النبى ﷺ : اهريقوها واكسروها . فقال رجل : يارسول الله أو نهريقها ونغسلها . قال : أو ذاك . وفى رواية نهى يوم خيبر عن أكل الثوم وعن لحوم الحمر الأهلية . وفى رواية : نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية ورخص فى الخيل . وفى رواية أنس : جاءه جاء فقال : أكلت الحمر . فسكت . ثم أتى الثانية فقال : أكلت الحمر . فسكت . ثم أتى الثالثة فقال : أفنيت الحمر . فأمر مناديا فنادى فى الناس : إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية ، فإنها رجس

وفى هذه الغزوة نهى ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن بيع المغانم حتى تقسم ، وأن لا توطأ جارية حتى تستبرأ . وفى رواية ابن إسحق عن رويفع قام فينا رسول الله ﷺ يوم خيبر فقال : لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبى حتى يستبرئها ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتى يقسم ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فى ء

المسلمين حتى إذا أعجفها ردها فيه ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فئ المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه

وفى هذه الغزوة أيضا سمّت النبى ﷺ زينبُ بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم كما فى البخارى عن أبى هريرة قال : لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم . . الحديث وفيه أن رسول الله ﷺ قال لليهود : هل جعلتم فى هذه الشاة سما ؟ فقالوا نعم . قال : ما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردنا إن كنت كذابا أن نستريح منك ، وإن كنت نبيا لم يضرك . وفى حديث جابر عند أبى داود أن يهودية من أهل خيبر سمّت شاة مصليّة ثم أهدتها الى رسول الله فأخذ رسول الله ﷺ فأكل منها وأكل رهط من الصحابة معه ، فقال رسول الله ﷺ ارفعوا أيديكم ، وأرسل الى اليهودية فقال : سممت هذه الشاة ؟ فقالت : من أخبرك ؟ قال أخبرتنى هذه فى يدى — الذراع — قالت : نعم ، قلت إن كان نبيا فلن يضره ، وإن لم يكن نبيا استرحنا منه ، فعفا عنها ولم يعاقبها . وتوفى أصحابه الذين أكلوا من الشاة . واحتجم رسول الله على كاهله من أجل الذى أكل من الشاة . وفى مغازى سليمان التيمى أنها أسلمت وقالت : الآن عرفت أنك نبى ، وإنى أشهدك ومن حضر أنى على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . وفى رواية أنه قتلها لما مات بشر بن البراء ، قال البيهقى : يحتمل أن يكون تركها أولا ، ثم لما مات بشر بن البراء من الأكلة قتلها . وبذلك أجاب السهيلى وزاد أنه تركها لأنه كان لا ينتقم لنفسه ، ثم قتلها ببشر قصاصا . واختلف هل أكل النبى ﷺ منها أو لم يأكل ، وأكثر الروايات أنه أكل منها وبقى بعد ذلك ثلاث سنين حتى قال فى وجعه الذى مات فيه . مازلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر ، فهذا أوان انقطاع الأبهر منى . قال الزهرى : فتوفى رسول الله ﷺ شهيدا

وفى هذه الغزوة أيضا قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، معهم الأشعريون عبد الله بن قيس أبو موسى وأصحابه ، وكان فيمن قدم معهم أسماء بنت

عميس . عن أبى موسى قال : بلغنا مخرج النبى ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين اليه أنا وأخوان لى أنا أصغرهما أحدهما أبو رهم والآخر أبو بردة فى بضع وخمسين رجلا من قومى ، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا الى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده . فقال جعفر : إن رسول الله بعثنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا ، فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر فأسهم لنا ، وماقسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئا إلا من شهد معه ، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم له معهم . وكان ناس يقولون لنا : سبقناكم بالهجرة . قال : ودخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبى ﷺ ، فدخل عليها عمر فقال : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس الحبشية . قال : البحرية ؟ قالت أسماء نعم . قال سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم ، فغضبت وقالت . يا عمر كلا والله ، لقد كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم ، وكنا فى دار — أو فى أرض — البعداء البغضاء ، وذلك فى الله وفى رسوله . وايم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ ، ونحن كنا نؤذى ونخاف وسأذكر ذلك لرسول الله ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه . فلما جاء النبى ﷺ قالت يارسول الله إن عمر قال كذا وكذا ، فقال رسول الله . ما قلت له ؟ قالت : قلت له كذا وكذا . قال ليس بأحق بى منكم ، له ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان . قالت : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونى أرسالا يسألونى عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شى هم بأفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ . قالت أسماء : ولقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى

قال أبو بردة عن أبى موسى قال النبى ﷺ : إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار ، ومنهم من إذا لقى الخيل أو قاتل العدو قال : إن أصحابى يأمرونكم أن تنظروهم . أخرجه البخارى وهذا لفظه . وروى أن جعفرا

لما قدم على النبى ﷺ تلقاه وقبل جبهته وقال: والله ما أدرى بأيهما أفرح: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر. ذكره ابن هشام فى السيرة عن الشعبى

ولما جرت المقاسم فى أموال خيبر شبع المسلمون ووجدوا بها مرفقا لم يكونوا وجدوه قبل حتى قال عمر: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر، وعن عائشة قالت: لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر. أخرجه البخارى فى صحيحه

قال موسى بن عقبة: وكانت بنو فزارة ممن قدم على أهل خيبر ليعينوهم، فراسلهم رسول الله ﷺ ألا يعينوهم وأن يخرجوا عنهم ولكم من خيبر كذا وكذا، فأبوا عليه، فلما فتح الله عليه خيبر أتاه من كان ثم من بنى فزارة فقالوا: وعدك الذى وعدتنا. فقال: لكم ذو الرقبة (١). فقالوا: إذاً نقاتلك. فقال موعدكم كذا. فلما سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ خرجوا هاربين

قال الواقدى قال أبو سلم المزنى، وكان قد أسلم وحسن إسلامه: لما نفرنا الى أهلنا مع عيينة بن حصن رجع بنا عيينة، فلما كان دون خيبر عرّسنا من الليل فقرعنا، فقال عيينة: إنى أرى الليلة فى النوم أعطيت ذا الرقبة جبل بخيبر، قد والله أخذت برقبة محمد. فلما قدمنا خيبر قدم عيينة فوجد رسول الله قد فتح خيبر فقال: يامحمد أعطنى ما غنمت من حلفائى فانى أنصرف عنك وعن قتالك. قال: كذبت، ولكن الصياح الذى سمعت نفرك الى أهلك. قال احذنى يا محمد، قال: لك ذو الرقبة. قال وما ذو الرقبة؟ قال الجبل الذى رأيت فى النوم أنك أخذته. فانصرف عيينة. فلما رجع الى أهله جاءه الحارث بن عوف فقال: ألم أقل لك إنك توضع فى غير شئ، والله والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب، يهود كانوا يخبروننا بهذا، أشهد لقد سمعت أبا رافع سلام بن أبى الحقيق قال: إنا نحسد محمدا على النبوة حيث خرجت

---

(١) فى معجم البلدان لياقوت: ذو الرقيبة، وهو جبل مطل على خيبر

من بنى هرون وموسى   (١) مرسل ويهود لا تطاوعنى على هذا . ولنا منه ذبحان واحد بيثرب وآخر بخيابر . قال الحارث قلت لسلام : يملك الأرض جميعا ؟ قال نعم والتوراة التى أنزلت على موسى ، ما أحب أن تعلم يهود بقولى فيه . انتهى

وقدم أبو هريرة المدينة مسلما فوافى سباع بن عرفطة فى صلاة الصبح فسمعه يقرأ ، فى الركعة الأولى ﴿ كهيعص ﴾ وفى الثانية ﴿ ويل للمطففين ﴾ فقال فى صلاته : ويل لأبى فلان ، له مكيالان إذا اكتال اكتال بالوافى ، وإذا كال كال بالناقص . فلما فرغ من صلاته أتى سباع فزوّده حتى قدم على رسول الله ﷺ فكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه سهمانهم

وفى الصحيح عن أبى هريرة قال : افتتحنا خيبر فلم نغنم ذهبا ولا فضة إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط ، ثم انصرافنا مع رسول الله ﷺ الى وادى القرى ومعه عبد له يقال له مدعم أهدى له أحد بنى الصبب ، فبينما هو يحط رحل النبى ﷺ إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد ، فقال الناس هنيئا له الشهادة . فقال رسول الله ﷺ : بل والذى نفسى بيده إن الشملة التى أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا . فجاء رجل حين سمع ذلك بشراك أو بشراكين فقال : هذا شىء كنت أصبته . فقال رسول الله ﷺ . شراك أو شراكان من نار . انتهى

قال فى الهدى . فعبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفّهم ، ودفع لواءه الى سعد ابن عبادة ورايته الى الحباب بن المنذر وراية الى سهل بن حنيف وراية الى عباد بن بشر ، ثم دعا اليهود الى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله فبرز رجل منهم ، فبرز اليه الزبير فقتله . ثم برز آخر فبرز اليه علىّ فقتله . حتى قتل منهم أحد عشر رجلا ، كلما قتل منهم دعا من بقى الى الإسلام وكانت الصلاة تحضر ذلك اليوم فيصلى بأصحابه ، ثم ينصرف فيدعوهم الى الإسلام وإلى

---

(١) بياض بالأصل

الله وإلى رسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح وهى بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنمه الله أموالهم ، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا

وأقام رسول الله ﷺ بوادى القرى أربعة أيام وقسم ما أصاب على أصحابه بوادى القرى ، وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود وعاملهم عليها ، فلما بلغ يهود تيماء ماواطأ عليه رسول الله ﷺ أهـــل خيبر وفدك ووادى القرى صالحوا رسول الله ﷺ وأقاموا بأموالهم ، فلما كان زمن عمر بن الخطاب أخرج يهود خيبر وفدك ولم يخرج أهل تيماء ووادى القرى [1] الى المدينة حجازا وما وراء ذلك من الشام انتهى .

وقال غيره : وذلك أنه بلغه أن النبي ﷺ قال فى وجعه الذى توفى فيه : لا يجتمع بجزيرة العرب دينان ، ففحص عن ذلك حتى وجد الثبت

فصل

قال موسى بن عقبة وغيره : وكان بين قريش رهون عظيمة حين سمعوا بخروج رسول الله ﷺ الى خيبر فمنهم من يقول يظهر محمد وأصحابه ، ومنهم من يقول يظهر الحليفان ويهود خيبر . وكان الحجاج بن علاط السلمى قد أسلم وشهد فتح خيبر ، وكانت تحته أم شيبة أخت بنى عبد الدار بن قصى ، وكان الحجاج مكثرا من المال ، وكانت له معاذر أرض بنى سليم ، فلما ظهر النبى ﷺ على خيبر قال الحجاج : إن لى ذهبا عند امرأتى ، وإن تعلم هى وأهلها بإسلامى فلا مال لى ، فأذن لى أسرع السير وأسبق الخبر ، ولأخبرن أخبارا أدرأ بها عن مالى ونفسى . فأذن له رسول الله ﷺ . فلما قدم مكة قال لامرأته : اخفى على واجمعى ما كان عندك لى من مال ، فإنى أريد أن أشترى من غنائم محمد وأصحابه فانهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم ، وإن محمدا قد أسر وتفرق عنه أصحابه ، وإن اليهود قد أقسموا ليبعثن به الى مكة ثم ليقتلنه بقتلاهم بالمدينة . وفشا ذلك فى مكة ، واشتد على المسلمين وبلغ منهم ، وأظهر المشركون الفرح

---

(١) بياض فى الأصل

والسرور ، وبلغ العباس عم رسول الله زجلة الناس وجلبتهم وإظهار السرور ، فأراد أن يقوم ويخرج فما تحرك ظهره ولم يقدر على القيام ، فدعا ابنا له يقال له قثم وكان شبيه رسول الله ﷺ ، فجعل يرتجز ويرفع صوته لئلا يشمت به أعداء الله :

قثم شبيه ذى الأنف الأشم ذى النعم برغم من رغم

وحشر الى باب داره رجال كثيرون ، منهم المظهر للفرح والسرور ، ومنهم الشامت والمعزى ، ومنهم من به مثل الموت من الحزن والبلاء . فلما سمع المسلمون رجز العباس وتجلده طابت أنفسهم ، وظن المشركون أن قد أتاه ما لم يأتهم . ثم أرسل العباس غلاما له الى الحجاج وقال له : اخل به وقل له : ويلك ما الذى جئت به وما تقول ؟ فالذى وعد الله خير مما جئت به . فلما كلمه قال : اقرىء أبا الفضل السلام وقل له : فليخل لى فى بعض بيوته حتى آتيه ، فان الخبر على ما يسره . فلما بلغ العبد باب الدار قال : أبشر يا أبا الفضل . فوثب العباس فرحا كأنه لم يصبه بلاء قط حين جاءه وقبّل ما بين عينيه وأخبره بقول الحجاج فأعتقه . قال أخبرنى . قال يقول لك الحجاج : اخل به فى بعض بيوتك حتى يأتيك ظهرا . فلما جاءه وخلا به أخذ عليه لتكتمن خبرى ، فوافقه العباس على ذلك ، فقال الحجاج : جئت وقد افتتح رسول الله خيبر وغنم أموالهم وجرت فيها سهام الله ، وإن رسول الله قد اصطفى صفية بنت حيى لنفسه وأعرس بها . ولكن جئت لمالى ، أردت أن أجمعه وأذهب به ، وإنى استأذنت رسول الله ﷺ أن أقول ، فأذن لى ، فأخف علىّ ثلاثا ثم قل ما شئت . قال فجمعت له امرأته متاعه ثم انشمر راجعا . فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فقال : ما فعل زوجك ؟ قالت : ذهب . وقالت : لا يخزيك الله يا أبا الفضل ، لقد شق علينا الذى بلغك . فقال : أجل لا يخزينى الله ، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحب ، فتح رسول الله خيبر ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى رسول الله صفية لنفسه ، وإن كان لك فى زوجك حاجة فالحقى به . قالت : أظنك والله صادقا . قال . فانى والله صادق ، والأمر على ما أقول لك قالت من أخبرك بهذا ؟ قال الذى أخبرك بما أخبرك به . ثم

ذهب حتى أتى مجالس قريش ، فلما رأوه قالوا : هذا والله التجلد يا أبا الفضل ،لا يصيبك إلا خير . قال : أجل لا يصيبنى إلا خير والحمد لله ، أخبرنى الحجاج بكذا وكذا . وسألنى أن أكتم عليه ثلاثا لحاجته . فرد الله ما كان بالمسلمين من كآبة وجزع على المشركين ، وخرج المسلمون من مواضعهم حتى دخلوا على العباس فأخبرهم الخبر ، فأشرقت وجوه المسلمين

فصل

ثم انصرف رسول الله ﷺ من خيبر الى المدينة مؤيدا منصورا ، فلما كان فى سبد الصهباء أعرس بصفية بنت حيي ، فأقام ثلاثة أيام يُبنى عليه بصفية ، ثم صنع حيسا فى نطع صغير ، ثم قال رسول الله ﷺ لأنس بن مالك : آذن من حولك . قال أنس : فدعوت الناس على وليمته على صفية ، وما كان فيها خبز ولا لحم ، وما كان فيها إلا أن أمر بلالا بالأنطاع فبسطت ، فألقى عليها التمر والأقط والسمن وهو الحيس ، فرأيت النبى ﷺ يحوى لها وراءه بعباءة وطأ لها خلفه ، ثم جلس عند بعيره فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته وقد مد الحجاب بينها وبين الناس . قال أنس : فسرنا حتى إذا أشرفنا على المدينة نظر الى أحد فقال : هذا جبل يحبنا ونحبه . ثم نظر الى المدينة فقال : اللهم إنى أحرم ما بين لابتيها بمثل ما حرم إبراهيم مكة ، اللهم بارك لهم فى مدهم وصاعهم . وفى رواية : فلما أشرف على المدينة قال : آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون . فلم يزل يقول ذلك حتى دخل المدينة

وفى مرجعه الى المدينة سار ليلة من الليالى ، حتى إذا كان من آخر الليل نام هو وأصحابه كما فى صحيح مسلم وموطأ مالك عن سعيد بن المسيب عن رسول الله ، وعند مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة ، حتى إذا أدركه الكرى عرس وقال لبلال : اكلأ لنا الليل . وصلى ما قدر له : ونام رسول الله وأصحابه . فلما تقارب الفجر استند بلال الى راحلته مواجه الفجر ، فغلبت بلالا

عيناه ، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس ، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظا ، ففزع رسول الله فقال : أى بلال . فقال بلال : أخذ بنفسى الذى : أخذ ـ بأبى أنت وأمى يا رسول الله ـ بنفسك . فقال : اقتادوا رواحلكم شيئا . ثم توضأ رسول الله ﷺ وأمر بلالا فأقام الصلاة فصلى بهم الصبح ، فلما قضى الصلاة قال من نسى الصلاة فليصلها إذا ذكرها ، فان الله قال ﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾ قال يونس وكان ابن شهاب يقرؤها للذكرى . وفى رواية لمسلم فقال هذا منزل حضرنا فيه الشيطان . وفيه ثم صلى سجدتين ثم أقيمت الصلاة فصلى الغداة . وفيها من الفقه أن من نام عن صلاة أو نسيها فوقتها حين يستيقظ أو يذكرها . وفيها أن السنن تقضى كما تقضى الفرائض ، لأنه قضى سنة الفجر معها وقضى سنة الفجر لما فاتته وحدها ، وكان هديه قضاء السنن الرواتب مع الفرائض . وفيه أن الفائتة يؤذن لها ويقام ، فان فى بعض طرق هذه القصة أنه أمر بلالا فنادى بالصلاة . وفى بعضها أمر بلالا فأذن وأقام . ذكره أبو داود . وفيها قضاء الفائتة جماعة ، وأن قضاءها على الفور ، وإنما أخرها عن مكان معرسهم قليلا لكونه مكانا فيه شيطان وفيه تنبيه على اجتناب الصلاة فى أمكنة الشيطان كالحمام والحش بطريق الأولى . انتهى

وفى صحيح مسلم عن ابن شهاب عن أنس قال لما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر الى المدينة رد المهاجرون الى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم من ثمارهم ، وكان المهاجرون لما قدموا من مكة الى المدينة قدموا وليس بأيديهم شىء ، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار ، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ، ويكفونهم العمل والمؤنة ، وكانت أعطت أم أنس رسول الله عذقا لها . وفى رواية فأمرنى أهلى أن آتى النبى ﷺ فأساله ما كان أهله أعطوه . وكان النبى ﷺ قد أعطاه أم أيمن ، فأتيت النبى ﷺ فأعطانيهن فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وقالت : والله لا يعطيكهن وقد أعطانيهن ، فقال النبى ﷺ : يا أم أيمن اتركيه

ولك كذا وكذا . وتقول : كلا والذى لا إله إلا هو . فجعل يقول : لك كذا لك كذا حتى أعطاها عشرة أمثاله . وفى رواية أعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه

فصل

وأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد مقدمه من خيبر الى شوال ، ويبعث فى خلال ذلك السرايا :

فمنها (سرية أبى بكر الصديق) إلى نجد ، إلى بنى فزارة ، ومعه سلمة بن الأكوع ، فوقع فى سهمه جارية حسناء فاستوهبها منه رسول الله ﷺ وفادى بها أسرى من المسلمين كانوا بمكة ، كما ثبت ذلك فى صحيح مسلم

ومنها (سرية عمر بن الخطاب) فى شعبان سنة سبع ، ومعه ثلاثون رجلا ، فخرج معه دليل من بنى هلال فكان يسير الليل ويكمن النهار ، فأتى الخبر الى هوازن فهربوا ، وجاء عمر الى محالهم فلم يلق أحدا ، فانصرف راجعا الى المدينة

ومنها (سرية بشير بن سعد الأنصارى) الى بنى مرة بفدك ، معه ثلاثون رجلا ، فقتلوا ، وقاتل بشير بن سعد حتى ارتث وقيل قد مات . وقدم ابن زيد الحارثى بخبرهم ، ثم قدم بعده بشير بن سعد

ومنها (سرية الى الحرقات من جهينة) وقيل إن الأمير غالب بن عبد الله الكلبى ، فلما دنا منهم بعث الأمير الطلائع ، فلما رجعوا بخبرهم أقبل حتى إذا دنا منهم ليلا وقد هدأوا فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أوصيكم بتقوى الله وحده لاشريك له ، وأن تطيعونى ولا تعصونى و لا تخالفوا أمرى فإنه لا رأى لمن لا يطاع . ثم رتبهم فقال يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان ، لا يفارق كل منكم صاحبه وزميله . وإياكم أن يرجع أحد منكم فأقول أين صاحبك ؟ فيقول لاأدرى ، فاذا كبرت فكبروا وجردوا السيوف فكبروا فحملوا حملة واحدة وأحاطوا بالقوم وأخذتهم

سيوف الله وفى البخارى عن أسامة بن زيد قال بعثنا رسول الله ﷺ الى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكف الأنصارى عنه وطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبى ﷺ ، فقال يا أسامة ، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ قلت كان متعوذا فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم

ومنها (سرية بشير بن سعد الأنصارى) الى يمن وجبار بفتح الجيم ، وهى أرض لغطفان ويقال لفزارة وعذر ، وبعث معه ثلاثمائة رجل لجمع تجمعوا للإغارة على المدينة ، فساروا الليل وكمنوا النهار ، فلما بلغهم مسير بشير هربوا ، وأصاب لهم نعما كثيرة وأسر رجلين فقدم بهما الى المدينة الى رسول الله فأسلما

وبعث رسول الله ﷺ (سرية قبل نجد) وفيها ابن عمر ، قال فبلغت أسهامنا اثنى عشر بعيرا ، ونفلنا بعيرا فرجعنا بثلاثة عشر بعيرا

ومنها (سرية عبد الله بن رواحة) فى ثلاثين راكبا فيهم عبد الله بن أنيس ، الى البشير بن رزام اليهودى ، لأنه بلغ رسول الله ﷺ أنه يجمع غطفان ليغزوه بهم ، فأتوه بخيبر فذكروا له أن رسول الله أرسلنا اليك ليستعملك على خيبر ، فلم يزالوا به حتى تبعهم فى ثلاثين رجلا مع كل رجل رديف من المسلمين ، فلما بلغوا قرقرة سار — وهى من خيبر على ستة أميال — ندم البشير فأهوى بيده الى سيف عبد الله بن أنيس ، ففطن له عبد الله فزجر بعيره ثم اقتحم عن بعيره يسوق القوم حتى إذا استمكن من البشير ضرب رجله فقطعها ، فاقتحم البشير وفى يده مخرش من شوحط فضرب به وجه عبد الله فشجه مأمومة ، فاتكأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله ، غير رجل من يهود أعجزهم شدا ، ولم يصب من المسلمين أحد ، فقدموا على رسول الله ﷺ فبصق فى شجة عبد الله فلم تقح ولم تؤذه حتى مات

(سرية عبد الله بن حذافة السهمى) ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : نزل

قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ فى عبد الله بن حذافة السهمى ، فبعثه رسول الله ﷺ فى سرية . وفى الصحيحين عن على قال : بعث رسول الله ﷺ رجلا من الأنصار على سرية ، بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، قال فأغضبوه فى شىء ، فقال : اجمعوا لى حطبا ، فجمعوا . فقال : أوقدوا لى نارا ، فأوقدوا . ثم قال : ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لى وتطيعوا ؟ قالوا بلى . قال : فادخلوها . فنظر بعضهم الى بعض وقالوا : إنما فررنا الى رسول الله من النار . قال فسكن غضبه ، وطفئت النار . فلما قدموا على رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له قال « لو دخلوها ماخرجوا منها . إنما الطاعة فى المعروف » قال فى الهدى : وهذا هو عبد الله بن حذافة

عمرة القضاء

قال الحاكم : تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هل ذو القعدة يعنى سنة سبع أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التى صدهم عنها المشركون بالحديبية ، وأن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية ، فلم يتخلف عنهم أحد منهم إلا رجالا استشهدوا بخيبر ورجالا ماتوا ، وخرج معه عليه السلام من المسلمين ألفان ، واستخلف على المدينة أبا رهم الغفارى ، وساق عليه السلام ستين بدنة وأحرم لها من ذى الحليفة ، ولبى ولبى المسلمون معه ، وجعل على هديه ناجية بن جندب الأسلمى ، فلما نزل بمر الظهران وقدم السلاح الى بطن ياجج كيسمع وهو موضع بمكة حيث ينظر الى أنصاب الحرم وخلف عليه أوس بن حولى الأنصارى فى مائتى رجل ، ودخلوا بسلاح الراكب السيوف فى القرب ، وخرجت رؤساء قريش من مكة الى رءوس الجبال لئلا يروه ، عداوة لله ولرسوله ، وقدم رسول الله ﷺ الهدى أمامه فحبس بذى طوى ، وركب ﷺ ناقته القصواء والمسلمون متوشحون السيوف محدقون برسول الله ﷺ يلبون . فلما قدم رسول الله ﷺ أمرهم أن يكشفوا عن المناكب ، وأن يسعوا فى الطواف ليرى المشركون جلدهم وقوتهم ، وكان يكايدهم بكل ما استطاع

وفى البخارى عن ابن عباس قال المشركون : يقدم عليكم وقد وهنتهم حمى يثرب ، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا فى الأشواط الثلاثة وأن يمشوا بين الركنين ، ولم يمنعه أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم . انتهى . وهو أول اضطباع ورمل فى الإسلام . فصف المشركون وقوفا ينظرون اليه ، ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التى تطلعه على الحجون وابن رواحة آخذ بزمام راحلته

وفى الشمائل للترمذى عن أنس أنه ﷺ دخل مكة فى عمرة القضاء ، وابن رواحة يمشى بين يديه وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

ورواه عبد الرزاق من وجهين ، وزاد :

قد أنزل الرحمن فى تنزيله بأن خير القتل فى سبيله
نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله

وأخرجه الطبرانى والبيهقى فى الدلائل ، وفيه :

يارب إنى مؤمن بقيله

وزاد ابن عقبة بعد قوله « قد أنزل الرحمن فى تنزيله » :

فى صحف تتلى على رسوله بأن خير القتل فى سبيله

وزاد ابن اسحق :

يارب إنى مؤمن بقيله إنى رأيت الحق فى قبوله انتهى

قالوا : ولم يزل رسول الله ﷺ يلبى حتى استلم الركن بمحجنه مضطبعا بثوبه ، وطاف على راحلته والمسلمون يطوفون معه قد اضطبعوا بثيابهم . وفى الشمائل فى حديث أنس فقال عمر : يا ابن رواحة ، بين يدى رسول الله تقول شعرا ؟ (١) أسرع فيهم

---

(١) بياض بالأصل

من نضج النبال . انتهى . ثم طاف رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته ، فلما كان الطواف السابع عند فراغه وقد وقف الهدى عند المروة قال : هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحر . فنحر عند المروة وحلق هناك . وكذلك فعل المسلمون . وأمر رسول الله ﷺ ناسا منهم الى أصحابهم ببطن يأجج فيقيموا على السلاح ، ويأتى الآخرون فيقضون نسكهم ، ففعلوا . وأقام رسول الله بمكة ثلاثا . وفى البخارى عن البراء فلما مضى الأجل أتوا عليا فقالوا : قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل . فخرج النبى ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادى : ياعم ، ياعم . فتناولها على فأخذها بيده وقال لفاطمة : دونك بنت عمك . فحملتها . فاختصم فيها على وزيد وجعفر ، فقال على : أنا أحق بها وهى ابنة عمى ، وقال جعفر ابنة عمى وخالتها تحتى ، وقال زيد : بنت أخى . فقضى بها النبى ﷺ خالتها وقال : الخالة بمنزلة الأم . وقال لعلى أنت منى وأنا منك . وقال لجعفر أشبهت خلقى وخُلقى ، وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا . وقال له على : ألا تتزوج بنت حمزة ؟ قال إنها بنت أخى من الرضاعة . انتهى

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة فى عمرة القضاء . وخلف رسول الله أبا رافع ليحمل اليه ميمونة حين يمسى ، وأقام بسرف حتى قدمت ميمونة ومن معها وقد لقوا أذى وعناء من سفهاء المشركين وصبيانهم فبنى بها بسرف ، ثم أدلج وسار حتى قدم المدينة . وقدر الله أن يكون قبر ميمونة بسرف حيث بنى بها ، وهى خالة ابن عباس وخالد بن الوليد . قال ابن عباس وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة وهو محرم ، وبنى بها وهو حلال . وقد استدرك ذلك على ابن عباس وعد من وهمه . قال سعيد بن المسيب : وَهِل ابن عباس وإن كانت خالته ماتزوجها رسول الله إلا بعد ماحل . ووهل بكسر الهاء أى غلط . وفى مسلم عن ميمونة تزوجنى رسول الله ونحن حلالان بسرف . وقال المنذر : إنها آخر من تزوجه ﷺ ، وآخر من مات من أزواجه . والله أعلم

غزوة مؤتة

قالوا : فلما انصرف رسول الله ﷺ من عمرة القضاء أقام بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفر وشهرى ربيع ، وفى صفر من هذه السنة قدم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة الحجبى وأسلموا ، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » . ذكره فى الاستيعاب

ثم بعث رسول الله ﷺ فى جمادى الآخرة من السنة الثامنة من الهجرة بعث الأمراء الى الشام ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان أرسل الحارث بن عمير الأزدى بكتاب الى ملك بصرى ، فلما نزل مؤتة — وهى بضم الميم وهى من عمل البلقاء بالشام دون دمشق — عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقتله ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره ، فأمر رسول الله زيد بن حارثة مولاه على ثلاثة آلاف وقال : إن قتل فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فان قتل فعبد الله بن رواحة . قالوا وعقد لهم لواء أبيض ودفعه الى زيد بن حارثة ، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هنالك الى الإسلام ، فان أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم . وخرج مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف وودعهم ، فبكى ابن رواحة ، فقيل له : مايبكيك ؟ فقال : والله مابى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود . فلما ساروا نادى المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم وردكم صالحين غانمين . فقال ابن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثى ... يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

فلما نزلوا معان من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى

مائة ألف من الروم ، وانضم اليهم من لخم وجذام وبلى مائة ألف ، فلما بلغ المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون فى أمرهم وقالوا : نكتب الى رسول الله نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضى له . فشجعهم عبد الله بن رواحة وقال : والله يا قوم إن الذى تكرهونه للذى خرجتم له تطلبون الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظفر وإما شهادة . فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيهم الجموع بقرية يقال لها مشارف ، فدنا العدو ، وانحاز المسلمون الى مؤتة ، فالتقى الناس ، فتعبأ المسلمون ثم اقتتلوا والراية فى يد زيد بن حارثة فلم يزل يقاتل بها حتى شاط فى رماح القوم وخر صريعا ، وأخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه فعقرها ثم قاتل ، وكان أول من عقر فرسه فى الإسلام عند القتال ، فقطعت يمينه ، فأخذ الراية بيساره فقطعت يساره ، فاحتضن الراية حتى قتل وله ثلاث وثلاثون سنة ، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ويقول :

قسمت يا أنفس لتنزلنه	لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة	مالى أراك تكرهين الجنه
قد طال ما قد كنت مطمئنه	هل أنت إلا نطفة فى شنه

ويقول :

يانفس إن لا تقتلى تموتى	هذا حمام الموت قد صليتِ
وما تمنيتِ فقد أعطيت	إن تفعلى فعلهما هديت

يريد صاحبيه زيداً وجعفر ، ثم قاتل رضى الله عنه حتى قتل . ثم أخذ الراية ثابت ابن أقرم أخو بنى العجلان فقال : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم . فقالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد . فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشى بهم ، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس . وذكر ابن سعد أن

الهزيمة كانت على المسلمين والذى فى صحيح البخارى أن الهزيمة كانت على الروم ، قال فى الهدى : والصحيح ما ذكره ابن اسحق أن كل طائفة انحازت وانحيز عنها . انتهى

روى عن أبى هريرة قال : لما قتل ابن رواحة انهزم المسلمون ، فجعل خالد يدعو أخراهم ويمنعهم عن الفرار وهم لايسمعون ، حتى نادى قطبة بن عامر : أيها الناس ، لئن يقتل الرجل فى حرب الكفار خير من أن يقتل حانت الفرار . فلما سمعوا كلام قطبة تراجعوا

وفى البخارى عن خالد بن الوليد قال : لقد انقطع فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقى فى يدى إلا صحيفة يمانية

وفيه عن أنس أن النبى ﷺ نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة فى الناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان ، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم . وفيه عن ابن عمر كنت فيهم تلك الغزوة فألفينا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى ، ووجدنا ما فى جسده بضعا وتسعين بين طعنة ورمية . وفى رواية فعددت به خمسين طعنة وضربة ليس منها شىء فى دبره . والطبرانى بسند حسن عن عبد الله بن جعفر قال : قال لى رسول الله ﷺ « هنيئا لك أبوك يطير مع الملائكة فى السماء » . وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : رأيت جعفر بن أبى طالب يطير مع الملائكة . أخرجه الترمذى والحاكم . وفى رواية عن ابن عباس أن جعفر يطير مع جبريل وميكائيل له جناحان عوضه الله عن يديه . وإسناده جيد . وفى البخارى عن ابن عمر كان إذا حيا ابن جعفر قال : السلام عليك يابن ذى الجناحين . وفيه عن عائشة : لما جاء النبىَّ ﷺ قتل ابن حارثة وابن رواحة وجعفر جلس يعرف فيه الحزن وأنا أنظر من صاير الباب ، تعنى شق الباب ، فأتاه رجل فقال : إن نساء جعفر . . فذكر بكاءهن . قالت : فأمره أن ينهاهن . قالت : فذهب الرجل ثم أتاه فقال : قد نهيتهن . وذكر أنهن لم يطعنه ، قال : فأمره أيضا فذهب ثم أتاه الثالثة فقال : والله لقد غلبننا .

فزعمت أن رسول الله ﷺ قال : فاحث فى أفواههن من التراب . قالت عائشة : أرغم الله أنفك فوالله ما أنت تفعل وما تركت رسول الله من العناء ، وفى رواية ابن اسحق قالت وربما ضر التكلف أهله . قال موسى بن عقبة : قدم يعلى بن أمية على رسول الله بخبر أهل مؤتة ، فقال له رسول الله : إن شئت فأخبرنى ، وإن شئت أخبرتك . قال : فأخبرنى يارسول الله . فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال : والذى بعثك بالحق ما تركتَ من حديثهم حرفا واحدا لم تذكره . فقال رسول الله ﷺ : إن الله رفع لى الأرض حتى رأيت معتركهم

واستشهد يومئذ من المسلمين : الأمراء ثلاثة ، ومسعود بن أوس ، ووهب بن سعد ابن أبى سرح ، وعبادة بن قيس ، وحارثة بن النعمان ، وسراقة بن عمرو بن عطية ، وأبو كليب وجابر ابنا عمرو بن زيد ، وعمرو وعامر ابنا سعد بن الحارث وغيرهم . رضى الله عنهم أجمعين . انتهى

ولما دنوا من المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون ، ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله مقبل مشيع القوم على دابة فقال : خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر ، فأخذه فحمله بين يديه وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون : يا فرار فررتم فى سبيل الله . فيقول رسول الله : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله . رواه ابن اسحق فى السيرة

غزوة ذات السلاسل

وسميت بذلك لأن المشركين ارتبط بعضهم الى بعض مخافة أن يفروا وقيل لأن بها ماء يقال له السلسل وهى وراء وادى القرى وبينها وبين المدينة عشرة أيام وكانت فى جمادى الآخرة سنة ثمان جزم به فى الهدى ، وقيل كانت سنة سبع جزم به ابن أبى خالد فى كتاب صحيح التاريخ

قال ابن سعد بلغ رسولَ الله ﷺ أن جمعا من قضاعة قد تجمعوا للإغارة على

المدينة وأن يدنوا منها ، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه فى ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسا وأمره أن يستعين بمن مر به من بَلِىّ وعذرة وبلقين ، فسار الليل وكمن النهار ، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعا كثيرا فبعث رافع بن مكيث الجهنى الى رسول الله يستمده ، فبعث اليه أبا عبيدة بن الجراح فى مائتين ، وعقد له لواء ، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر ، وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعا ولا يختلفان ، فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ، فقال عمرو إنما قدمتَ علىّ مددا لى وأنا الأمير . فأطاع له بذلك أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلى بالناس ، وسار حتى وطئ بلاد قضاعة ، فحمل عليهم المسلمون فهربوا فى البلاد وتفرقوا ، وبعث عوف بن مالك الأشجعى بريداً إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقفولهم وسلامتهم . قال الإمام أحمد حدثنا ابن أبى عدى عن داود عن عامر قال : بعث رسول الله ﷺ جيش ذات السلاسل فاستعمل أبا عبيدة على المهاجرين واستعمل عمرو بن العاص على الأعراب وقال لهما : تطاوعا . قال وكانوا أمروا أن يغيروا على بكر ، فانطلق عمرو وأغار على قضاعة لأن بكرا أخواله قال فانطلق المغيرة بن شعبة الى أبى عبيدة فقال : إن رسول الله ﷺ استعملك علينا ، وإن ابن فلان قد اتبع أمر العسر فاله معه أمر . قال أبو عبيدة : إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نتطاوع ، فأنا أطيع رسول الله وإن عصاه عمرو

وفى هذه الغزوة احتلم أمير الجيش عمرو بن العاص ، وكانت ليلة باردة فخاف على نفسه من الماء فتيمم وصلى بأصحابه الصبح ، فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : يا عمرو ، صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فأخبره الذى منعه من الاغتسال وقال : إنى سمعت الله يقول ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا

(سرية أبى قتادة بن ربعى إلى بطن إضم) فيما بين ذى خشب وذى المروة على ثلاثة برد من المدينة فى أول شهر رمضان سنة ثمان ، وذلك أنه عليه السلام لما هم أن يغزو أهل مكة بعث أبا قتادة فى ثمانية نفر سرية الى بطن إضم ، ليظن ظان أنه ﷺ توجه

الى تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار ، فلقوا عامر بن الأضبط فسلم عليهم بتحية الإسلام فقتله محلم بن جثامة فأنزل الله ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا ﴾ الى آخر الآية رواه أحمد . وفى الهدى : وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشىء كان بينه وبينه ، وزاد ابن جرير : فجاء محلم بن جثامة فى بردين فجلس بين يدى رسول الله ﷺ ليستغفر له فقال رسول الله «لاغفر الله لك» فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه ، فما مضت له ساعة حتى مات فلفظته الأرض ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال «إن الأرض تقبل من هو شر منه ، ولكن يريد الله أن يعظكم» ونسب ابن اسحق هذه السرية لأبى حدرد

وبعث أبا حدرد ومعه رجلان الى الغابة لما بلغه ﷺ أن رفاعة بن قيس ـ أو قيس بن رفاعة ـ الجشمى أقبل فى عدد كثير حتى نزلوا الغابة يريد أن يجمع قيسا على محاربة رسول الله ﷺ وكان ذا شرف ، فخرجوا حتى إذا جاءوا قريبا منهم فكمنوا فى ناحية العسكر وخرج رفاعة وقد غشيهم الليل يطلب راعيا لهم قد أبطأ عليهم ، حتى مر بأبى حدرد فنفحه بسهم فوضعه فى فؤاده فاحتز رأسه ، ثم شدوا فى ناحية العسكر وكبروا ، فهرب القوم بكل ما قدروا عليه وما خف من أموالهم ونسائهم وأبنائهم ، واستاق أبو حدرد وصاحباه إبلا عظيمة وغنما كثيرة فجاءوا بها رسول الله ، وجاء أبو حدرد برأسه يحمله ، فأعطاه من الإبل ثلاثة عشر . هذا معنى ما ذكر ابن اسحق

غزوة الفتح

قال فى زاد المعاد : وهو الفتح الأعظم الذى أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحرمه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين من أيدى الكفار والمشركين ، وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا . خرج ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن لنقض قريش العهد الذى وقع بينهم وبين رسول الله بالحديبية كما تقدم ، وذلك فى رمضان سنة ثمان . وفى البخارى : على رأس ثمان ونصف من مقدمه المدينة .

وكان سبب ذلك على ما ذكره إمام أهل المغازى والأخبار محمد بن اسحق بن يسار أن بنى بكر بن عبد مناة كانت بينهم وبين خزاعة حروب قبل الإسلام وقتل ، فلما جاء الإسلام تشاغل الناس به ، فلما كانت الهدنة دخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله وعقده . فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو بكر وأرادوا أن يصيبوا الثأر من خزاعة ، فخرج نوفل بن معاوية فى نفر من بنى بكر فبيت خزاعة على ماء بأسفل مكة يقال له الوتير ، فأصابوا منهم رجالا وتناوشوا واقتتلوا ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفيا ، حتى حازوا خزاعة الى الحرم ، فلما انتهوا اليه قالت بنو بكر : يا نوفل أنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال كلمة عظيمة : لا إله له اليوم ، يابنى بكر أصيبوا ثأركم ، فلعمرى إنكم لتسرفون فى الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟ فقاتلوهم حتى لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى ودار مولى لهم ، وخرج عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكبا ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ يخبرونه بما قد وقع ، ويستنصرونه ، فقام وهو يجر رداءه ويقول (١) إن لم أنصر بما أنصر منه نفسى . وفى معجم الطبرانى الصغير عن ميمونة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول فى متوضئه ليلا : لبيك لبيك (ثلاثا) ، نصرت نصرت (ثلاثا) . فلما خرج قلت : يا رسول الله ، سمعتك تقول فى متوضئك : لبيك لبيك ثلاثا ، نصرت نصرت ثلاثا ، كأنك تكلم إنسانا ، فهل كان معك أحد ؟ فقال : هذا راجز بنى كعب يستصرخنى ويزعم أن قريشا أعانت عليهم بنى بكر . ثم خرج عليه السلام فأمر عائشة أن تجهزه ولا يعلم أحد ، قالت : فدخل عليها أبو بكر فقال : يابنيه ماهذا الجهاز ؟ قالت والله ما أدرى . فقال : والله ما هذا زمان غزو بنى الأصفر ، فأين يريد رسول الله ؟ قالت : والله لاعلم لى . قالت فأقمنا ثلاثا ، ثم صلى الصبح بالناس ، فسمعت الراجز ينشده :

---

(١) بياض بالاصل

يا رب إنى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا فانصر هداك الله نصرا أيدا
وادع عباد الله يأتوا مددا فيهم رسول الله قد تجردا
إن سيم خسفا وجهه تربدا

زاد ابن اسحق :

فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعا وسجدا وهم أذل وأقل عددا

فقال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم . وفى رواية : نصرت نصرت ثلاثا ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء فقال : إن هذه السحابة لتستهل لنصر كعب ، وهم رهط عمرو بن سالم

ثم ندمت قريش على ماصنعت ، وعلموا أن ذلك نقض لما كان بينهم وبين رسول الله ، وقد كان رسول الله ﷺ قال للناس : كأنكم بأبى سفيان قد جاء ليشدد العقد ويزيد فى المدة . ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بنية أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس . فقال : والله لقد أصابك يابنية بعدى شر . ثم خرج حتى أتى رسول الله ، فكلمه فلم يرد عليه شيئا . ثم ذهب الى أبى بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ، فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فقال : أنا أشفع لكم ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به . ثم أتى على بن طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله وعندها الحسن بن على غلام يدب بين يديها فقال : يا على أنك أمس القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، اشفع لى إلى رسول الله . فقال : ويحك

يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . ثم التفت إلى فاطمة فقال : يابنت محمد ، هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟ فقالت : ما بلغ ابنى ذلك ، وما يجير أحد على رسول الله . فقال : يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمر قد اشتدت على ، فانصحنى . قال : والله ما أرى شيئا يغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ قال : لا والله ، ولكن ما أجد لك غيره . فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس ، إنى قد أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق . فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك ؟ قال : أتيت محمدا فكلمته ، فوالله ما رد على شيئا ، ثم ابن أبى قحافة فلم أجد منه خيرا . ثم أتيت ابن الخطاب فوجدته أدنى لعدو . وفى لفظ : أعدى العدو . ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم . وقد أشار على بشىء صنعته ، فوالله ما أدرى هل يغنى شيئا أم لا . قالوا : وبم أمرك . قال : أمرنى أن أجير بين الناس ، ففعلت . قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا . قالوا : ويلك إن زاد الرجل على أن لعب بك

وأمر رسول الله ﷺ بالناس بالجهاز ، وأعلمهم أنه سائر الى مكة وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها . فتجهز الناس ، فكتب حاطب ابن أبى بلتعة كتابا الى أهل مكة بمسير رسول الله ﷺ اليهم . وفى رواية كتب فيه : إن رسول الله ﷺ قد توجه اليكم بجيش كالليل يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو سار اليكم وحده لنصره الله عليكم ، فانه منجز له وعده . فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء . وفى البخارى عن على قال بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فان بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها . وفى رواية : فان بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة فخذوه منها . قال : وكلنا فارس . قال : فادركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ . فقلنا : الكتاب . فقالت : ما معى كتاب . فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتابا ، فقلنا : ما كذب

رسول الله ، لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأت الجد أهوت الى حجزتها وهى محتجزة بكساء فأخرجته ، فانطلقنا بها الى رسول الله ﷺ ، فاذا فيه من حاطب ابن أبى بلتعة الى ناس من المشركين يخبرهم ببعض أمور رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ لحاطب : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : والله مابى إلا أن أكون مؤمنا بالله ورسوله ، أردت أن تكون لى عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . فقال : صدق ، ولا تقولوا له إلا خيرا . فقال عمر دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى أضرب عنقه . فقال : إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم . وفى رواية : فقد وجبت لكم الجنة ، أو فقد غفرت لكم . فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم . وفى رواية له : فأنزل الله السورة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة﴾ الى قوله ﴿سواء السبيل﴾ انتهى

وبعث رسول الله ﷺ الى من حوله من العرب فجلبهم : أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم ، فمنهم من وافاه بالمدينة ، ومنهم من لاقاه بالطريق . وخرج فى عشرة آلاف من المسلمين : واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وقيل أبا رهم الغفارى . وفى البخارى عن ابن عباس : صام النبى ﷺ حتى إذا بلغ الكديد ـ الماء الذى بين قديد وعسفان ـ أفطروا وأفطر الناس معه ، قال الزهرى : وإنما يؤخذ من أمر رسول الله ﷺ الآخر فالآخر ، وفى رواية عن ابن عباس لمسلم عن ابن شهاب : ويرونه الناسخ المحكم . وفى رواية عن ابن عباس : فلم يزل مفطرا حتى انسلخ الشهر . وفى رواية عن ابن عباس : صام رسول الله ﷺ فى السفر وأفطر ، فمن شاء صام ومن شاء أفطر . انتهى

قال ابن اسحق وقد كان العباس عم رسول الله خرج بأهله وعياله مهاجرا مسلما فلقى

رسول الله بالجحفة ، وكان من لقيه بالطريق أبو سفيان بن الحارث بن المطلب ابن عمه وعبد الله ابن أبى أمية بن عمته أخو أم سلمة أم المؤمنين ،لقياه بالأبواء ، فكلمته أم سلمة فيهما فقالت : يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك . قال : لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال . فلما خرج الخبر اليهما بذلك قال أبو سفيان ومعه بنى له : والله ليأذنن لى أو لآخذن بيد ابنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشا وجوعا . فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك رق لهما وأذن لهما . وحكى أبو عمر أن عليا قال لأبى سفيان : ائت رسول الله من قبل وجهه ، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف ﴿تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين﴾ فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا . ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال رسول الله ﷺ ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ فأنشده أبو سفيان أبياتا منها :

لعمرك إنى يوم أحمل راية لتغلب خيلُ اللات خيلَ محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى

هدانىَ هاد غير نفسى فدلنى الى الله من طردته كل مطرد

قال ابن اسحق : فزعموا أن رسول الله ﷺ ضرب صدره وقال : أنت طردتنى كل مطرد قال أبو عمر وحسن إسلامه بعد ذلك ، ويقال : ما رفع رأسه الى رسول الله منذ أسلم حياء منه ، وكان رسول الله ﷺ يحبه وشهد له بالجنة ، وقال: أرجو أن يكون خلفا من حمزة . ولما حضرته الوفاة قال لأهله : لا تبكوا على ، فوالله ما تنطفت بخطيئة منذ أسلمت

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل الظهران عشاء ، فأمر أصحابه فأوقدوا أكثر من عشرة آلاف نار ، ولم يبلغ قريشا مسيره وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم . قال العباس : قلت واصباح قريش ، والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة قبل أن يأتوه

فيستأمنوه إنه لهلاك قريش الى آخر الدهر . قال فركبتُ بغلة رسول الله فخرجت حتى أتيت الأراك ، فقلت لعلى أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رسول الله فيأتوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة . قال فوالله إنى لأسير عليها إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا ، قال يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . قال فعرفت صوته فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتى فقال : أبا الفضل ؟ قلت نعم . قال مالك فداك أبى وأمى ؟ قال قلت : هذا رسول الله فى الناس ، واصباح قريش والله . قال أبوسفيان : فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ قال قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله فأستأمنه لك . فركب خلفى ، ورجع صاحباه . قال فجئت به ، فكلما مررنا بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فاذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا : عم رسول الله على بغلة رسول الله . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام الى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ؟ الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، فركضت البغلة فسبقته بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطىء ، واقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ فأخذت برأسه وقلت : والله لا يناجيه الليلة أحد دونى . فلما أكثر عمر فى شأنه قلت : مهلا يا عمر ، فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بنى عبد مناف ، ولو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا . قال : مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك كان أحب إلىَّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، ومابى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب الى رسول الله ﷺ . قال رسول الله ﷺ : إذهب به يا عباس إلى رحلك ، فاذا أصبحت فأتنى به . فذهبت به إلى رحلى ، فلما أصبحت غدوت به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله

إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد . قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه ففى النفس حتى الآن منها شىء . فقال له العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك . فأسلم وتشهد شهادة الحق ، فقال العباس : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا . قال نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . وأمر رسول الله ﷺ العباس أن يحبسه بمضيق من الوادى عند خطم الجبل تمر به جنود الله فيراها ، ففعل ، فمرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هذه ؟ فأقول سليم ، فيقول : مالى ولسليم . ثم تمر القبيلة فيقول : يا عباس ، من هؤلاء فأقول : مزينة . فيقول : مالى ولمزينة . حتى نفدت القبائل ، ما تمر قبيلة إلا سألنى عنها فأخبرته بهم قال ما لى ولبنى فلان . حتى مر به رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال قلت : هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . ثم قال : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما . قال قلت : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال فنعم إذن . قلت النجاء إلى قومك . وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبى سفيان قال له ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة ، اليوم أذل الله قريشا . وفى رواية البخارى فى الصحيح : فقال أبو سفيان : يا عباس حبذا يوم الذمار . يعنى أن تكون له يد فيحمى قومه . وفى رواية البخارى : وراية النبى ﷺ مع الزبير بن العوام ، فلما مر رسول الله ﷺ بأبى سفيان قال : ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال ما قال ؟ قال قال كذا وكذا . قال كذب سعد ، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة ، قال وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون ، وفى رواية ابن اسحق : فقال عثمان

وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم أعز الله قريشا . ثم أرسل رسول الله ﷺ الى سعد فنزع منه اللواء فدفعه الى قيس ابنه ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار الى ابنه ، وروى أن رسول الله ﷺ لما أخذ الراية دفعها الى الزبير . ومضى أبو سفيان حتى جاء قريشا فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن . قالوا : قاتلك الله وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق بابه فهو آمن ، قال فتفرق الناس الى دورهم وإلى المسجد ، وسار رسول الله ﷺ فدخل مكة من أعلاها ، وضربت هناك القبة . وفى رواية البخارى عن عروة : وأمر رسول الله ﷺ يومئذ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كَدا ، ودخل النبى ﷺ من كدا فقتل من خيل خالد يومئذ رجلان حنش بن الأشقر وكرز بن جابر الفهرى ، قال الحافظ ابن حجر : وهذا يخالف الأحاديث الصحيحة الآتية للبخارى عن ابن عمر وغيره ، أنه ﷺ دخل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفا أسامة بن زيد ، قال وقد ساق موسى بن عقبة سياقا واضحا فقال : وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كدا من أعلى مكة ، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه ، وبعث خالد بن الوليد فى قبائل قضاعة وسُليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت ، وبعث ابن عبادة فى كتيبة الأنصار فى مقدمة رسول الله ﷺ وأمرهم أن يكفوا أيديهم عن القتال ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة وقد جمع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناة وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين استنصرت بهم قريش فقاتلوا خالدا فقاتلهم فانهزموا ، وقتل من بنى بكر نحو من عشرين رجلا ومن هذيل ثلاثة أو أربعة حتى انتهى بهم القتل الى الحزورة الى باب المسجد حتى دخلوا الدور فارتفعت طائفة منهم على الجبال ، وصاح أبو سفيان : من أغلق بابه وكف يده

فهو آمن . قال ونظر رسول الله الى البارقة ، فقال : ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟ فقالوا : نظن أن خالدا قوتل وبدىء بالقتال فلم يكن له بد من أن يقاتلهم . ولمسلم عن أبى هريرة قال : بعث رسول الله ﷺ على إحدى المجنبتين خالد بن الوليد ، وعلى الأخرى الزبير ، وبعث أبا عبيدة على الحسّر أى الذين لا سلاح معهم ، فقال لى : يا أبا هريرة اهتف لى بالأنصار . فهتفت فجاءوا فطافوا به فقال لهم أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم . ثم قال بإحدى يديه على الأخرى احصدوهم حصدا حتى توافونى بالصفا ، فقال أبو هريرة فانطلقنا فما نشاء أن نقتل منهم أحدا إلا قتلناه . قال فجاء أبو سفيان فقال يارسول الله أبيحت خضراء قريش ، لاقريش بعد اليوم ، ثم قال : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فقالت الأنصار بعضهم لبعض : أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة بعشيرته ، قال أبو هريرة وجاء الوحى وكان إذا جاء لا يخفى علينا ، فاذا جاء ليس أحد يرفع طرفه الى رسول الله ﷺ حتى ينقضى الوحى . قال رسول الله : يامعشر الأنصار ، قالوا : لبيك يا رسول الله ، قال قلتم أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ، قالوا : قد كان ذلك ، قال : كلا إنى عبد الله ورسوله . هاجرت الى الله وإليكم ، والمحيا محياكم والممات مماتكم . فأقبلوا يبكون ويقولون : والله ما قلنا الذى قلنا إلا للضن بالله ورسوله . فقال رسول الله : فان الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم الحديث . قالوا ولما انتهى رسول الله ﷺ الى ذى طوى وقف على راحلته معتجرا بشقة برد أحمر وعليه المغفر وهو يقرأ سورة الفتح ويرجع وإنه ليضع رأسه تواضعا لله وشكرا له حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، وخضوعا لعظمته أن أحل له بلده ولم يحله لأحد بعده ، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل ، والعثنون بالعين والمثلثة والنونين بينهما واو هو اللحية أو مافضل منها بعد العارضين كذا فى القاموس ، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا أنه عهد فى نفر سماهم أمرهم بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة : الحويرث بن نفيل وهلال بن خطل وهبار بن الأسود ومقيس ابن صبابة وعبد الله بن أبى سرح وعكرمة بن أبى جهل وقينتان لابن خطل كانتا

تغنيان بهجاء رسول الله ومولاة لبعض بنى المطلب اسمها سارة . فأما ابن خطل فقتله أبو برزة الأسلمى وهو متعلق بأستار الكعبة وقيل قتله الزبير ، وأما الحويرث ومقيس وإحدى القينتين فقتلوا وكان مقيس قد أسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين ، وأما هبار بن الأسود فهو الذى عرض لزينب بنت رسول الله حين هاجرت حتى سقطت على صخرة فأسقطت جنينها ففر أسلم وحسن إسلامه ، واستؤمن رسول الله لسارة وإحدى القينتين فأمنهما فأسلمتا ، وأما ابن أبى سرح فانه أسلم فجاء به عثمان بن عفان فاستأمن له رسوله ﷺ فأمنه بعد أن أمسك رجاء أن يقوم اليه بعض الصحابة فيقتله ، وكان قد أسلم قبل ذلك ثم هاجر ثم ارتد ورجع الى مكة ، وأما عكرمة فاستأمنت له امرأته بعد أن هرب فقدم وأسلم وحسن إسلامه

ثم نهض رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد ، فأقبل الى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم طاف بالبيت وفى يده قوس ، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنها فى عيونها بالقوس ويقول « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد » والأصنام تتساقط على وجوهها ، وكانت مثبتة بالحديد والرصاص

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرما يومئذ فاقتصر على الطواف . قلت كذا ذكر فى الهدى . وفى صحيح مسلم فى حديث أبى هريرة : فلما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلا عليه حتى نظر الى البيت ، فجعل يحمد الله ويدعو ما شاء أن يدعو . انتهى . ثم دعا بعثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة فأمر بها ففتحت فدخلها وفيها الصور ، ورأى صورة إبراهيم وإسمعيل يستقسمان بالأزلام ، فقال : قاتلهم الله ، والله إن استقسما بها قط . ورأى فى الكعبة حمامة من عيدان فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحيت ، ثم أغلق عليه الباب وعلى أسامة وبلال وعثمان بن طلحة فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلى هناك . وفى الترمذى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أراد أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت ،

فأخرجوا صورة ابراهيم وإسماعيل فى أيديهما الأزلام فقال رسول الله : قاتلهم الله ، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط . فدخل البيت وكبر فى نواحيه ولم يصل . ولمسلم عن ابن عباس أخبرنى أسامة بن زيد أن النبى ﷺ لما دخل البيت دعا فى نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج ، فلما خرج ركع فى قبل البيت ركعتين . انتهى

وفى حديث ابن عمر عند مسلم قال بلال : جعل عمودين عن يساره وعمودا عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ثم صلى ، انتهى . ثم دار فى البيت وكبر فى نواحيه ووحد الله ، ثم فتح الباب وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ينظرون ماذا يفعل ، فأخذ بعضادتى الباب وهم تحته فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمىّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتل الخطأ شبه العمد السوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها فى بطونها أولادها . يامعشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب . ثم تلا هذه الآية ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ الآية . ثم قال : يامعشر قريش ، ماتظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم . قال : فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ . اذهبوا فأنتم الطلقاء . ثم جلس فى المسجد . فقام اليه علىّ ومفتاح الكعبة فى يده فقال : يارسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . وفى رواية أن الذى قال ذلك العباس بن عبد المطلب . فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ، فقال : هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم بر ووفاء . وفى رواية : وكان النبى ﷺ يريد أن يدفعه الى العباس فأنزل الله تعالى ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ﴾ الآية . وذكر ابن سعد فى الطبقات عن عثمان بن طلحة قال : كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الإثنين والخميس ، فأقبل النبى ﷺ يريد أن يدخل الكعبة مع الناس

فأغلقت له ونلت منه ، فحلم عنى ثم قال : ياعثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت . فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلت . فقال : بل عمرت وعزت يومئذ . ودخل الكعبة فوقعت كلمته منى موقعا ظننت أن الأمر سيصير الى ما قال ، فلما كان يوم الفتح قال : ياعثمان ائتنى بالمفتاح ، فأتيته به فأخذه ثم دفعه إلىّ وقال : خذوها تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم . ياعثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل اليكم من هذا البيت بالمعروف . قال : فلما وَليت نادانى فقال : ألم يكن الذى قلتُ لك ؟ قال فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة فقلت : بل أشهد أنك رسول الله انتهى . وأمر رسول الله ﷺ بلالا أن يصعد فيؤذّن على الكعبة ، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه . فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته . فقال أبو سفيان : والله لا أقول شيئا ، ولو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء . فخرج عليهم النبى ﷺ فقال لهم : قد علمت الذى قلتم ، ثم ذكر لهم ذلك . فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما أطلع على هذا أحد معنا فنقول أخبرك

وفى البخارى عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح . يا رسول الله أين ننزل غدا ؟ قال النبى ﷺ . وهل ترك لنا عقيل من منزل ؟ وفى رواية وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور ؟ وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب ولم يرث جعفر ولا على شيئا لأنهما كانا مسلمين ، وكان عقيل وطالب كافرين ، وكان عمر بن الخطاب يقول : لايرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر . وفى رواية أخرى قال عليه السلام : منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر ، يعنى به المحصب ، وذلك أن قريشا وكنانة تحالفت على بنى هاشم وبنى المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا اليهم النبى ﷺ كما تقدم

فصل

ثم دخل رسول الله ﷺ دار أم هانئ بنت أبي طالب فاغتسل وصلى ثمان ركعات فى بيتها وكانت ضحى كما فى الصحيحين من حديث أم هانئ . وفى رواية لم أره صلى صلاة قط أخف منها غير أنه أتم الركوع والسجود فظنها من ظنها صلاة الضحى ، وإنما هذه صلاة الفتح . وكان أمر الإسلام إذا فتحوا حصنا أو بلدا صلوا عقيب الفتح هذه الصلاة اقتداء برسول الله وفى هذه القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكرا لله عليه فإنها قالت ما رأيته صلاها قبلها ولا بعدها . وأجارت أم هانئ حموين لها فقال النبى ﷺ : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ وقد كان أخوها على بن أبى طالب أراد أن يقتلهما فأغلقت عليهما باب بيتها وذهبت الى النبى ﷺ فقال لها ذلك

فلما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ فى الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه كما فى البخارى عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث الى مكة : ائذن لى أيها الأمير أحدثك قولا قام به رسول الله الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به ، أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله حرمها ولم يحرمها الناس ، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرا ، فان أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا له : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب . . الحديث

ولمسلم من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة : لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا . وقال يوم الفتح فتح مكة : إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة ، إنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله

الى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا تلتقط ساقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاه . فقال العباس : يارسول الله إلا الإذخر فانه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : إلا الإذخر . وفى رواية له عن أبى هريرة أن خزاعة طابت رجلا من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه ، فأخبر بذلك رسول الله ، فركب راحلته فخطب فقال : إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى ولن تحل لأحد بعدى ، ألا وإنها أحلت لى ساعة من نهار ، ألا وإنها ساعتى هذه حرام ، ولا يخبط شوكها ولا يعضد شجرها ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد ، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين : إما أن يعطى – يعنى الدية – وإما أن يقاد أهل القتيل . قال فجاء رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه فقال : اكتب لى يا رسول الله ، فقال : اكتبوا لأبى شاه . . الحديث

وفى الهدى : وهمّ فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : أفضالة . قال نعم . قال ماذا تحدّث به نفسك ؟ قال : لا شىء كنت أذكر الله . فضحك النبى ﷺ ثم قال : استغفر الله . ثم وضع يده الى صدره فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئا أحب إلىّ منه قال فضالة : فرجعت الى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث اليها فقالت شعرا فأجبتها شعرا :

قالت هلم الى الحديث فقلت لا ... يأبى الإله عليك والإسلام
لو قد رأيت محمدا وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيننا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

وفر يومئذ صفوان بن أمية ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحى رسول الله ﷺ فأمنه وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة ، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر فرده وقال : ياصفوان فداك أبى وأمى ، أذكر الله فى نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان رسول

الله قد جئتك به . فقال : أُغرب عنى فلا تكلمنى . قال : أى صفوان فداك أبى وأمى أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس ابن عمك ، عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك . قال : إنى أخافه على نفسى . قال : هو أحلم من ذلك وأكرم . فرجع معه حتى وقف به على رسول الله فقال : هذا يزعم أنك أمنتنى قال : صدق . قال : فاجعلنى بالخيار شهرين . قال : أنت بالخيار أربعة أشهر

فصل

ثم اجتمع الناس للبيعة ، فجلس لهم رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس ، وعمر ابن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس ، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا . وفى المدارك : روى أن النبى ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء وهو على الصفا وعمر قاعد أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه ، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متنكرة خوفا من رسول الله أن يعرفها لما صنعت بحمزة ، فقال رسول الله ﷺ : أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا ، فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئا . فقال رسول الله ﷺ ولا تسرقن . فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح فأنا أصبت من ماله هنات . فقال أبو سفيان : ما أصبت فهو لك حلال . فضحك رسول الله وعرفها فقال لها : وإنك لهند ؟ قالت : نعم فاعف عما سلف يا نبى الله عفا الله عنك . فقال : ولا يزنين . فقالت : أو تزنى الحرة . فقال : ولا يقتلن أولادهن . فقالت : ربيناهم صغارا وقتلوهم كبارا ، فأنتم وهم أعلم . وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر . فضحك عمر حتى استلقى . فتبسم رسول الله فقال . ولا يأتين ببهتان . فقالت . والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : ولا يعصينك فى معروف . فقالت : والله ماجلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها ، وتقول : كنا منك فى غرور

وفى الصحيح عن مجاشع قال : أتيت النبى ﷺ بأخى بعد الفتح فقلت : يارسول الله جئتك بأخى لتبايعه على الهجرة . قال : ذهب أهل الهجرة بما فيها . فقلت : على أى شىء تبايعه ؟ قال : أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد

قال فى الهدى : وأمر رسول الله ابن أسد الخزاعى فجدد أنصاب الحرم . وبث رسول الله ﷺ سراياه الى الأوثان التى كانت حول الكعبة فكسرت كلها ، منها اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ، ونادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره

سرية خالد بن الوليد الى بنى جذيمة من كنانة

قال ابن سعد : ولما رجع خالد من هدم العزّى ورسول الله مقيم بمكة بعثه الى بنى جذيمة داعيا لهم الى الإسلام ، فخرج فى ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار وبنى سليم فلما انتهى خالد اليهم قال : ماأنتم ؟ قالوا مسلمون صبأنا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد فى ساحتنا وفى صحيح البخارى بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد الى بنى جذيمة فدعاهم الى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون « صبأنا صبأنا » فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم ، ودفع الى كل رجل ممن كان معه أسيرا ، فأمر يوما أن يقتل كل رجل أسيره ، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبى ﷺ فذكروا له فرفع ﷺ يديه وقال : اللهم إنى أبرأ اليك مما صنع خالد مرتين . وفى الهدى : فلما كان فى السحر نادى خالد : من كان معه أسير فليضرب عنقه . فأما بنو سليم فقتلوا من كان بأيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم ، فبلغ النبى ﷺ فقال : اللهم إنى أبرأ اليك مما صنع خالد . وبعث عليا فودى لهم قتلاهم وماذهب منهم ، وكان بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام وشر ، فبلغ النبى ﷺ فقال : مهلا ياخالد ،

دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان أُحُد ذهبا ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته

قال ابن اسحق : وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف ، من سليم سبع مائة وقيل ألف ومن غفار أربعمائة ومن أسلم أربعمائة ومن مزينة ألف وثلاثة نفر وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من تميم وقيس وأسد

وكان مما قيل من الشعر فى يوم الفتح قول حسان بن ثابت :

عفت ذات الأصابع فالجواء ... الى عذراء منزلها خلاء

ديار من بنى الحسحاس قفر ... تعفيها الروامس والسماء

وكانت لا يزال بها أنيس ... خلال مروجها نعم وشاء

فدع هذا ولكن من لطيف ... يؤرقنى إذا ذهب العشاء

لشعثاء التى قد تيمته ... فليس لقلبه منها شفاء

كأن خبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء

إذا ما الأشربات ذكرن يوما ... فهن لطيب الراح الفداء

نوليها الملامة إن ألمنا ... إذا ما كان مغث أو لحاء

ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء

ينازعن الأعنة مصعدات ... على أكتافها الأسل الظماء

نساء بنى أمية صاغرات ... عرتهن المذلة والرداء

تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخمر النساء

فاما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعز الله فيه من يشاء

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء

وقال الله قد أرسلت عبدا | يقول الحق ليس به خفاء
وقال الله قد سيرت جندا | هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا فى كل يوم من معدٍّ | سباء أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافى من هجانا | ونضرب حين تختلط الدماء
ألا أبلغ أبا سفيان عنى | مغلغلة فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً | وعبد الدار سادتها الإماء
هجوتَ محمدا فأجبتُ عنه | وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء | فشركما لخيركما فداء
هجوتَ مباركا برًّا حنيفا | رسول الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم | ويمدحه وينصره سواء
فإن أبى ووالده وعرضى | لِعرض محمد منكم وِقاء
لسانى صارم لا عيب فيه | وبحرى لا تكدره الدلاء

قال ابن هشام : قالها حسان قبل يوم الفتح ، وبلغنى عن الزهرى أنه قال : لما رأى رسول الله ﷺ النساء يلطمن الخيل بالخمر تبسم الى أبى بكر . وقال فى الهدى : كان قد قالها فى عمرة الحديبية وذكرها بهذا اللفظ فيه ، وذكر أكثرها مسلم فى صحيحه

فصل

فى الإشارة الى بعض ما فى هذه الغزوة من الفقه واللطائف

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدى هذا الفتح ، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضا وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة بإظهار دينه والدعوة اليه ، ودخل بسببه بشر كثير فى الإسلام ، ولهذا سماه الله فتحا

وفيها أن أهل العهد إذا حاربوا من هم فى ذمة الإمام صاروا حربا له بذلك ، فله أن يبيتهم فى ديارهم ، ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء . وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة

وفيها انتقاض عهد جميعهم بذلك ، ردئهم ومباشرهم ، إذا رضوا بذلك وأقروا عليه ولم ينكروه ، فان الذين أعانوا بنى بكر بعضهم

وفيها أن رسول الكفار لا يقتل ، فان أبا سفيان ممن جرى عليه حكم انتقاض العهد ولم يقتله رسول الله

وفيها جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلما ، لأن عمر سأله قتل حاطب ولم يقل رسول الله لايحل قتله بل قال : وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر . . الخ

وفيها استحباب إظهار كثرة المسلمين وشوكتهم لرسل العدو كما أمر بإيقاد النيران ، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان حتى عرضت عليه عساكر الإسلام

وفيها البيان الصريح بأن مكة فتحت عنوة كما ذهب اليه جمهور أهــــل العلم ، ولا نعرف فى ذلك خلافا إلا عن الشافعى وأحمد فى أحد قوليه ، وسياق القصة أوضح شاهد لمن تأمله . انتهى ملخصا من الهدى

وفى هذه الغزوة سرقت امرأة من بنى مخزوم فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها كما فى الصحيح عن عروة أن امرأة سرقت فى غزوة الفتح ففزع قومها الى أسامة بن زيد ابن حارثة يستشفعونه. قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله فقال : أتكلمنى فى حد من حدود الله ؟ فقال : أستغفر لى يا رسول الله . فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإنما أهلك الناسَ قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . ثم أمر رسول الله بتلك المرأة فقطعت يدها ، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت . قالت عائشة : فكانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها الى رسول الله ﷺ رواه مسلم . وفيه فقالوا : من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله . . الحديث . وفى رواية له عن عائشة قالت : كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده

ومما وقع فى غزوة الفتح إباحته متعة النساء ثم حرمها قبل خروجه من مكة كما ثبت فى صحيح مسلم عن بسرة الجهنى أنه غزا مع رسول الله ﷺ فتح مكة قال : فأقمنا بها خمس عشرة ليلة ، ثلاثين بين ليلة ويوم . قال فأذن لنا رسول الله ﷺ فى متعة النساء الحديث . وفى رواية فقال : يا أيها الناس إنى قد كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء ، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيمة ، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا . وقال طائفة من العلماء إنها حرمت يوم خيبر ثم أبيحت ثم حرمت ، منهم الشافعى وقال : لا أعلم شيئا أبيح ثم حرم ثم أبيح ثم حرم إلا المتعة ، واحتجوا بما ثبت فى الصحيحين عن على أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر ، وعن لحوم الحمر الإنسية . قلت : وأجيب عن ذلك بأن هذا الحديث صحت روايته بلفظين وهذا أحدهما ، والثانى الاقتصار على نهى النبى ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر ، هذه رواية ابن عيينة عن الزهرى ، قال قاسم بن أصبغ قال سفيان بن عيينة يعنى أنه نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر لا عن نكاح المتعة ، ذكره أبو عمر فى التمهيد ثم قال : على هذا أكثر الناس انتهى . قال فى الهدى . فتوهم بعض الرواة أن يوم خيبر ظرف لتحريمهن فرواه . حرم رسول الله المتعة زمن خيبر ، فجاء بالغلط البين . فإن قيل فأى فائدة فى الجمع بين التحريمين إذ لم يكونا قد وقعا فى وقت واحد ، وأين المتعة من تحريم الحمر ؟ قيل . هذا الحديث رواه على رضى الله عنه محتجا به على ابن عمه عبد الله بن عباس فى المسألتين ، فانه كان يبيح المتعة ولحوم الحمر فناظره علىّ فى المسألتين فقيد تحريم الحمر زمن خيبر وأطلق تحريم المتعة ، فقال : إنك امرؤ تائه ، إن رسول الله ﷺ حرم المتعة ، وحرم لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر والله أعلم

وفى البخارى عن ابن عباس . أقام النبى ﷺ بمكة تسعة عشر يوما يصلى ركعتين . قال ابن عباس . ونحن إذا سافرنا فأقمنا تسعة عشر قصرنا ، وإن زدنا أتممنا . وفيه عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فقال بعضهم : لم تدخل

هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال : إنه ممن قد علمتم . قال فدعاهم ذات يوم ودعانى معهم ما أريته دعانى يومئذ إلا ليريهم منى ، فقال : ما تقولون فى ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ حتى ختم السورة ؟ فقال بعضم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وقال بعضهم . لا ندرى ، ولم يقل شيئا بعضهم . فقال لى : يا ابن عباس أكذلك تقول ؟ قلت لا . قال فما تقول ؟ قلت هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له إذا جاء نصر الله ، والفتح فتح مكة فذاك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا . قال عمر . ما أعلم منها إلا ما تعلم . وفيه عن عائشة قالت . كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده . سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى ، يتأول القرآن . وفى رواية لمسلم سبحانك وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك . قالت : قلت يارسول الله ماهذه الكلمات التى أراك أحدثتها تقولها ؟ قال . جعلتها علامة فى أمتى إذا رأيتها قلتها ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ والفتح فتح مكة الى آخر السورة

غزوة حُنين

قال فى المواهب . وهو واد قرب ذى المجاز ، وقيل مابينه وبين مكة ثلاث ليال قرب الطائف ، وتسمى غزوة أوطاس . قال فى الهدى . وهما موضعان بين مكة والطائف فسميت الغزوة باسم مكانهما.

قال أهل السير . وسببها أن الله لما فتح على رسوله مكة أطاعت له قبائل العرب كلها وأسلموا ، إلا هوازن وثقيف فانهم كانوا عتاة ، فاجتمع أشرافهم فقالوا : إن محمدا قاتله قوم لم يحسنوا القتال ولم يكن لهم علم بالحرب فغلب عليهم ، فانه سيقصدنا ، فقبل أن يظهر ذلك منه سيروا اليه . فقصدوا محاربة المسلمين ، واجتمعت هوازن كلها ، وكان على هوازن رئيسهم مالك بن عوف النضرى ، وعلى ثقيف قائدهم ورئيسهم قارب ابن الأسود ، واتفق معهما نصر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بنى هلال وهم قليل ، ولم يشهد من قيس عيلان إلا هؤلاء ، واجتمعوا فى أربعة آلاف مقاتل ، وخرجوا بأموالهم وأولادهم ونسائهم لئلا يقروا ، وكان فيهم دريد بن الصمة فى بنى

جشم وكان شيخا كبيرا قد عمى من الكبر وكان له مائة وخمسون سنة ، وكان صاحب رأى وتدبير وله معرفة بالحروب ، فساروا حتى انتهوا إلى أوطاس ، فلما نزلوا بأوطاس اجتمع الناس — وفيهم دريد بن الصمة — فلما نزل قال : فى أى واد أنتم ؟ قالوا بأوطاس قال : نعم مجال الخيل ، لاحزن ضرس ، ولا سهل دهس ، قال : مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء ؟ قيل : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم . قال أين مالك ؟ فدعى له ، فقال : يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا اليوم له ما بعده من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء ؟ قال : سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم . قال : راعى ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شىء ؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك . ثم قال : ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدها منهم أحد . قال غاب الجد والجد ، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب ، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب ، فمن شهدها منكم ؟ قالوا عمرو بن عامر وعوف بن عامر ، قال ذانك الجذعان لاينفعان ولا يضران ، يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن فى نحور الخيل شيئا ، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعليا قومهم ، ثم ألق الصبأة على متون الخيل ، فان كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك . قال لا والله لا أفعل إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتطيعُنى يامعشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى . وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى . قالوا أطعناك . قال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى

يا ليتنى فيها جذع   أخبُّ فيها وأضع
أقود وطفاء الزمع   كأنها شاة صدع

وبعث مالك بن عوف عيونا من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم فقال : ويلكم

ماشأنكم؟ قالوا رأينا رجالا بيضا على خيل بلق، والله ما تماسكنا أن أصابنا ماترى. فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد

ولما سمع بهم النبي ﷺ بعث اليهم عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى وأمره أن يدخل فى الناس، فدخل فيهم حتى سمع وعلم ماقد أجمعوا عليه من حرب رسول الله فأتاه وأخبره الخبر

فلما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى هوازن ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعا وسلاحا فأرسل اليه — وهو يومئذ مشرك — فقال: يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا. فقال أغصبا يامحمد؟ فقال بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك. قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ففعل

واستعمل رسول الله على مكة عتاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ومعاذ بن جبل إماما بها ومفقها لمن فيها. قال ابن عبد البر فأقام بها أميراً على مكة حتى قبض رسول الله وأقره أبو بكر، فلم يزل عليها إلى أن مات. وكانت وفاته فيما ذكر الواقدى يوم مات أبو بكر وماتا فى يوم واحد. قال السهيلى قال أهل التعبير: رأى رسول الله ﷺ فى المنام أسيد بن أبى العاص واليا على مكة مسلما فمات على الكفر، وكانت الرؤيا لولده عتاب حين أسلم، فولاه رسول الله على مكة وهو ابن إحدى وعشرين سنة

ثم خرج رسول الله ﷺ عامدا إلى حنين معه ألفان من أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله عليهم، فكانوا إثنى عشر ألفا

وذكر أن رجلا قال يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فخرج من مكة إلى حنين يوم السبت لستٍّ ليال خلون من شوال، وخرج معه ناس من المشركين منهم صفوان بن أمية، فلما كان عشية فجاء فارس فقال:

يارسول الله إنى طلعت جبل كذا وكذا فاذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : تلك غنيمة للمسلمين غدا إن شاء الله . ثم قال : من يحرسنا الليلة ؟ قال أنس بن أبى مرثد الغنوى : أنا يا رسول الله . قال اركب . فركب فرسا له فقال : استقبل هذا الشعب حتى تكون فى أعلاه ، ففعل : فلما أصبح جاء وقال : طلعت الشعبين كلاهما فلم أر أحدا . فقال له رسول الله : هل نزلت الليلة ؟ قال لا إلا مصليا أو قاضى حاجة . فقال رسول الله : فلا عليك أن تعمل عملا بعد هذا . رواه أبو داود

وعن أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بالجاهلية ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها « ذات أنواط » يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما . قال فرأينا ونحن نسير معه إلى حنين سدرة خضراء عظيمة فتنادينا من جنبات الطريق : أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال لهم رسول الله ﷺ : الله أكبر ، قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى أجعل لنا إلها كما لهم آلهة . قال إنكم قوم تجهلون . إنها السنن ، لتركبن سنن من كان قبلكم . رواه الترمذى والإمام أحمد وابن أبى حاتم وابن جرير وابن اسحق فى السيرة وهذا لفظه . قال العلماء فى الكلام على هذا الحديث : فأنكر ﷺ عليهم مجرد مشابهتهم للمشركين فى ذلك ، فكيف بما هو أعظم من ذلك من الشرك بعينه ، فاذا كان العكوف حول هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله ، مع أنهم لا يسألونها ولا يعبدونها ، فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاء به ودعائه والدعاء عنده ، فأى نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون ؟ قال بعض أصحاب مالك وهو أبو بكر الطرطوشى : فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فاقطعوها انتهى .

فلما انتهى النبي ﷺ إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال كان قد سبقهم مالك بن عوف فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي وفرقهم في الطرق والمداخل وحرضهم على قتال المسلمين وأمرهم أن يكمنوا لهم ويرشقوهم أول ما طلعوا ويحملوا عليهم حملة واحدة وقال: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة واحدة. فلما كان وقت السحر عبأ رسول الله ﷺ جيشه وعقد ألويته والرايات وفرقها على الناس، ثم ركب ﷺ بغلته البيضاء دلدل، ولبس درعين والمغفر والبيضة. قال ابن اسحق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال: لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحدارا، وذلك في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأخبائه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيأوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله ذات اليمين ثم قال: إليَّ أيها الناس هلم إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، فلا شيء، حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس إلا أنه قد بقي مع رسول الله نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، منهم أبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه الفضل وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن بن عبيد وقتل يومئذ انتهى.
ولما رأى رسول الله ﷺ تفرقة أصحابه طفق يركض بغلته قبل الكفار، وكان العباس ابن عبد المطلب أخذ بركابه الأيمن، وفي رواية: أن العباس أخذ بركابه الأيمن وأبو سفيان بالأيسر يكفانها إرادة ألا تسرع وهو يقول:

أنا النبي لا كذب　　أنا ابن عبد المطلب

وثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن أبي اسحق عن البراء بن عازب أنه قال له رجل: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله لم يفر، إن هوازن كانوا قوما رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس

على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله على بلغته البيضاء فنزل واستنصر وقال : اللهم أنزل نصرك ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته وهو يقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وفي رواية لمسلم : ولكنه خرج شبان أصحابه وخفافهم حسّراً ليس عليهم سلاح ـ أو كبير سلاح ـ فلقوا قوما رماة لا يكاد يسقط لهم سهم ، جمع هوازن وبني نضر ، فرشقوهم رشقا ما يكادون يخطئون ، فأقبلوا إلى رسول الله ﷺ ورسول الله على بغلته البيضاء ، فنزل واستنصر وقال : اللهم أنزل نصرك . قال البراء : وكنا والله إذا احمر البأس نتقي به ، وإن الشجاع منا الذي يحاذي به . وفي رواية سلمة بن الأكوع عند مسلم وقال عبد الله بن ابراهيم رحمه الله : فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ثم استقبل به وجوههم فقال : شاهت الوجوه . فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا من تلك القبضة فولوا مدبرين . وفي حديث العباس عند مسلم فقال رسول الله : أي عباس ، نادِ أصحاب السمرة . فقال عباس ـ وكان رجلا صيتا ـ فقلت بأعلى صوتي : يا أصحاب السمرة . قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، فقالوا : يالبيك يالبيك . قال فاقتتلوا والكفار ، والدعوة في الأنصار يقولون : يامعشر الأنصار . ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا يابني الحارث بن الخزرج ، يابني الحارث بن الخزرج . فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال : هذا حين حمى الوطيس . قال ثم أخذ رسول الله حصيات فرمى بهن في وجوه [القوم] ثم قال : انهزموا ورب محمد . قال فذهبت أنظر فاذا القتال على هيئته في ما أرى ، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى أحدهم كليلا وأمرهم مدبرا . قال وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم على بغلته . وفي رواية جابر عند ابن اسحق : فقال رسول الله ﷺ : اصرخ : يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة . فأجابوا لبيك لبيك ،

فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه فى عنقه ويأخذ السيف وترسه ثم يؤم الصوت ، حتى اجتمع إلى رسول الله منهم مائة فاستعرض الناس فاقتتلوا . قال جابر بن عبد الله : ما رجعت راجعة الناس حتى وجدوا الأسارى مكتفين بين يدى رسول الله ، والتفت رسول الله إلى أبى سفيان بن الحارث وكان حسن إسلامه وممن صبر يومئذ معه وهو آخذ بثفين بغلته فقال : من هذا ؟ قال ابن عمك يا رسول الله ، وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة أخو بنى عبد الدار وكان أبوه قتل يوم أُحد : قلت اليوم أدرك ثأرى أقتل محمدا ، فأردت رسول الله لأقتله ، فأقبل شئ حتى تغشى فؤادى فلم أطق ذلك وعلمت أنى ممنوع منه . وفى سيرة ابن هشام : فعرفت أنه ممنوع منى . وذكر ابن أبى خيثمة حديث شيبة هذا قال : لما رأيت النبى ﷺ يوم حنين ذكرت أبى وعمى قتلهما حمزة قلت اليوم أدرك ثأرى فى محمد ، فجئته عن يمينه فإذا أنا بالعباس قائما عليه درع بيضاء ، قلت عمه لن يخذله ، فجئت عن يساره فاذا أنا بأبى سفيان بن الحارث قلت ابن عمه لن يخذله ، فجئته من خلفه فدنوت ودنوت حتى لم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف فرفع إلىَّ شواظ من النار كأنه البرق ، فنكصت على عقبى القهقرى ، فالتفت رسول الله فقال : يا شيبة أُدن ، فدنوت ، فوضع يده على صدرى فاستخرج الله الشيطان من قلبى ، فرفعت اليه بصرى فهو أَحب إلىَّ من سمعى وبصرى ، فقال لى : يا شيبة هكذا قاتل الكفار ، فقاتلت معه ﷺ . وفى رواية فمسح صدرى وقال : اللهم أعذه من الشيطان ، فوالله فهو كان ساعتئذ أحب إلى سمعى وبصرى ، وأذهب الله عنى ما كان ، ثم قال : أُدن فقاتل ، فتقدمت بين يديه ، ولو لقيت تلك الساعة أبى أوقعت به السيف . فلما تراجع المسلمون كروا كرة رجل واحد ، فركب بغلته ﷺ فاستوى عليها فخرج فى أثرهم فتفرقوا فى كل وجه ، ورجع إلى معسكره فدخل خباءه ، فدخلت عليه فقال : ياشيبة ، الذى أراد الله بك خير مما أردت لنفسك . ثم حدثنى بكل ما أضمرت فى نفسى مما لم أكن أذكره لأحد قط . قلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قلت : استغفر لى يا رسول الله . قال : غفر

الله لك

قال ابن اسحق : فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال بما فى أنفسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لاتنتهى هزيمتهم دون البحر ، وإن الأزلام لمعه فى كنانته . وصرخ جبلة بن الحنبل أخو صفوان بن أمية لأمه : ألا بطل السحر اليوم . فقال له صفوان بن أمية : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يربّنى رجل من قريش أحبّ إلىّ من أن يربنى رجل من هوازن

ولما انهزمت هوازن استحر القتل فى ثقيف من بنى مالك فقتل منهم سبعون رجلا تحت رايتهم فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة وكانت معه راية ثقيف وكانت راية الأحلاف مع قارب ابن الأسود ، فلما انهزم الناس هرب هو وقومه من الأحلاف فلم يقتل منهم غير رجلين ، ثم أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة ، وتبعت خيل رسول الله من سلك نخلة من الناس ولم تتبع من سلك الثنايا ، فأدرك ربيعة بن رفيع دريد بن الصمة فأخذ بخطام البعير وهو يظن أنه امرأة وذلك أنه كان فى شجار له فأناخ به فاذا شيخ كبير وإذا هو دريد ولا يعرفه الغلام ، فقال له دريد : ماذا تريد بى ؟ قال أقتلك . قال من أنت ؟ قال أنا ربيعة بن رفيع السلمى . ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئا . فقال بئس ما سلحتك أمك ، خذ سيفى من مؤخر الرحل ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فانى كنت كذلك أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أمك أخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب والله يوم منعت فيه نساءك . فزعم بنو سليم أن ربيعة قال : لما ضربته فوقع تكشف ، فاذا عجانه وبطون فخذيه مثل القرطاس من ركوب الخيل عراء ، فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه فقالت : والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثا

سرية أبى عامر الأشعرى

وهو عم أبى موسى الأشعرى . قال ابن اسحق : ابن عمه ، والأول أشهر .

وأوطاس واد معروف بين حنين والطائف . إن رسول الله ﷺ لما فرغ من حنين عقد لواء دفعه إلى أبي عامر الأشعري وأمره على جمع من الأصحاب وبعثه في آثار من توجه قبل أوطاس من فرار هوازن ، فأدرك بعض المنهزمة فناوشوه القتال ، فرمى أبو عامر بسهم فقتل ، فاخذ الراية أبو موسى الأشعري ففتح الله عليه وهزمهم الله . وفي الصحيح عن أبي موسى قال : لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقي دريد بن الصمة ، فقتل دريدا وهزم الله أصحابه . قال أبو موسى : بعثني مع أبي عامر فرمى أبو عامر في ركبته فانتهيت اليه فقلت : يا عم من رماك ؟ فاشار إلى أبي موسى فقال : ذاك قاتلي الذي رماني فقصدت له فلحقته فلما رآني ولى فاتبعته وجعلت أقول له : ألا تستحي ألا تثبت ؟ فكف ، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته ثم قلت لأبي عامر : قتل الله صاحبك . قال فانزع هذا السهم فنزعته فنزا منه الماء . قال : يا بن أخي أقرئ النبي ﷺ مني السلام وقل له استغفر لي . واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيرا ثم مات . فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مرمل وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبه فاخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وأنه قال قل له استغفر لي فدعا بماء فتوضا ثم رفع يديه وقال : اللهم اغفر لعبيدك أبي عامر ، ورأيت بياض أبطيه . ثم قال : اللهم أجعله يوم القيمة فوق كثير من خلقك ومن الناس . فقلت : ولي فاستغفر ، فقال : اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيمة مدخلا كريما . قال أبو بردة إحداها لأبي عامر والأخرى لأبي موسى

فأمر رسول الله ﷺ بالسبي والغنائم أن تجمع ، فجمع ذلك كله وحبس بالجعرانة إلى أن فرغ من غزوة الطائف وكان السبي ستة آلاف رأس والإبل أربعة وعشرون ألفا والغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية فضة ، وكان على الغنائم مسعود بن عمرو الغفاري

قال ابن هشام وأنزل الله في يوم حنين ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ﴾ الآيات

وروى أن المسلمين أخذوا السبايا يوم حنين وأوطاس ، وكانوا يتكرهون نساء السبى إذا كن ذوات أزواج ، فاستفتوا فى ذلك رسول الله فنزلت ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ﴾ يريد ملكت أيمانهم من اللاتى سبين ولهن أزواج كفار فهن حلال للسابين والنكاح مرتفع بالسبى ، قال أبو سعيد : أصبنا سبايا يوم أوطاس ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ، فسألنا النبى ﷺ فنزلت الآية فاستحللناهن . وأمر النبى ﷺ فى سبايا حنين وأوطاس ألا توطأ حامل من السبى حتى تضع حملها ، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة ، فسألوا عن العزل فقال : ليس من كل الماء يكون الولد ، وإذا أراد الله أن يخلق شيئا لم يمنعه شئ

وأخذوا فى جملة السبى الشيماء أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فقالت يارسول الله إنى أختك من الرضاعة . قال: وما علامة ذلك ؟ قالت عضة عضضتنيها فى ظهرى وأنا متوركتك فعرف رسول الله العلامة فبسط لها رداءه فأجلسها عليه ، وفى رواية : ودمعت عيناه ، وخيَّرها وقال: إن أحببت فأقيمى عندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أمتعتك وترجعى إلى قومك فعلت ، قالت : بل تمتعنى وتردنى إلى قومى ، فأسلمت ومتعها رسول الله وردها إلى قومها . فزعم بنو سعد أنه أعطاها غلاما له يقال له مكحول وجارية ، فزوجت أحدهما للآخر ، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية

وقال فى المواهب : جاءته عليه السلام يوم حنين أمه من الرضاعة حليمة السعدية بنت أبى ذئب من هوازن ، وهى التى أرضعته حتى أكملت رضاعه [فالتفت] اليها وبسط لها رداءه فجلست عليه . واختُلف فى إسلامها وإسلام زوجها كما اختلف فى إسلام ثويبة

وفى الصحيح عن أبى قتادة قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين ، فلما التقينا كانت للمسلمين جولة ، فرأيت رجلا من المشركين قد علا رجلا من المسلمين ، فضربه من وراء على حبل عاتقه بسيف فقطعت الدرع ، وأقبل علىّ وضمنى ضمة وجدت منها ريح الموت ثم أدركه الموت فأرسلنى ، فلحقت عمر بن الخطاب فقلت : ما بال الناس

قال : أمر الله . ثم رجعوا . فجلس النبي ﷺ فقال : من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه . فقلت من يشهد لى ؟ ثم جلست . فقال النبي ﷺ مثله ، فقلت : من يشهد لى ؟ ثم جلست . قال ثم قال النبي ﷺ مثله ، فقمت فقال : مالك أبا قتادة ؟ فقال رجل : صدق ، وسلبه عندى فأرضه . فقال أبو بكر : لاها الله إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه . فقال النبي ﷺ : صدق فأعطه فأعطانيه ، فابتعت به مخرفا [1] فى بنى سلمة ، وإنه لأول مال تأثلته فى الإسلام

قالوا : واستشهد من المسلمين يوم حنين أربعة نفر منهم أيمن بن أم أيمن ويزيد بن زمعة بن الأسود وسراقة بن الحارث رجل من الأنصار وأبو عامر الأشعرى ، وقتل من المشركين أكثر من سبعين قتيلا . والله أعلم

غزوة الطائف

قالوا : ولما أراد رسول الله ﷺ المسير إلى الطائف بعث الطفيل بن عمرو الدوسى إلى ذى الكفين صنم من خشب لعمرو بن جمحة ليهدمه ويوافيه بالطائف ، فخرج الطفيل سريعا فهدمه وجعل يحشوه النار ويحرقه ويقول :

ياذا الكفين لستُ من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حشوت النار فى فؤادكا

وانحدر معه من قومه أربعمائة رجل سراعا فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام وقدموا معهم بالمنجنيق والدبابة ـ بالدال المهملة وتشديد الموحدة ـ آلة تتخذ للحرب تدفع أصل الحصن فينقبونه وهم فى جوفه . كذا فى القاموس

قالوا : ولما فرغ رسول الله ﷺ من حنين لعشر من شوال فى السنة الثامنة من الهجرة سار إلى الطائف يريد جمعا من هوازن وثقيف قد هربوا من معركة حنين وتحصنوا بحصن الطائف ، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة فى ألف رجل ،

---

(١) أى حديقة نخل

فسلك عليه الصلاة والسلام فى طريقه إلى الطائف نخلة اليمانية ثم على قرن ثم على بحرة الرغاء من لية فابتنى فيها مسجدا فصلى فيه ؛ وأقاد فيها يومئذ بدم رجل من هذيل قتله رجل من بنى ليث فقتله به وهو أول دم أقيد به فى الإسلام ، ومر فى طريقه بحصن مالك بن عوف فهدمه ، ثم سلك فى طريق فسأل عن اسمها فقيل الضيقة فقال : بل هى اليسرى . ثم خرج منها حتى نزل تحت سدرة قريبا من مال رجل من ثقيف ، فأرسل اليه رسول الله ﷺ إما أن تخرج وإما أن نخرب عليك حائطك ، فأبى أن يخرج فأمر بإخرابه . ثم مضى حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريبا من حصنه فضرب به عسكره ، فرموا المسلمين رميا شديدا كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلا فيهم عبد الله بن أبى أمية ، ورمى يومئذ عبد الله بن أبى بكر الصديق فجرح فاندمل ، ثم انتقض بعد ذلك فمات منه فى خلافة أبيه ، فارتفع ﷺ إلى موضع مسجد الطائف اليوم ووضع عسكره هناك ، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب ، فضرب لهما قبتين ثم صلى بينهما طول حصاره الطائف ، فحاصرهم بضع عشرة ليلة وهو الصحيح ، وقيل بضعا وعشرين ليلة ، وفى حديث أنس عند مسلم فحاصرناهم أربعين ليلة ، ونصب عليهم المنجنيق ورماهم ، وهو أول منجنيق رمى به فى الإسلام ، وأمر ﷺ بقطع أعناب ثقيف وتحريقها فقطعها المسلمون قطعا ذريعا ، ثم سألوه أن يدعها لله وللرحم فقال : إنى أدعها لله وللرحم . ثم نادى مناديه عليه الصلاة والسلام : أيما عبد نزل من الحصن وخرج الينا من الحصن فهو حر ، فخرج منهم بضعة عشر رجلا ، منهم أبو بكرة واسمه نفيع بن الحارث فتسور حصن الطائف وتدلى منه ببكرة مستديرة يستقى عليها فكناه رسول الله « أبا بكرة » فأعتق رسول الله ﷺ من نزل منهم ، ودفع كل رجل إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ، فلما أسلم أهل الطائف تكلم نفر منهم فى أولئك العبيد ، فقال رسول الله ﷺ : أولئك عتقاء الله . ولم يؤذن له فى فتح الطائف سنتئذ

وفى الصحيح عن أم سلمة قالت : دخل على النبى ﷺ وعندى مخنث ، فسمعه

يقول لعبد الله بن أبى أمية : يا عبد الله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غدا فعليك بابنة غيلان ، فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان . فقال النبى ﷺ : لا يدخلن عليكن . وفى رواية له : وهو محاصر الطائف يومئذ

وفى الصحيح أيضا عن عبد الله بن عمرو قال : لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف فلم ينل منهم شيئا قال : إنا قافلون غدا إن شاء الله . فثقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ فقال اغدوا على القتال ، فغدوا فأصابهم جراح فقال : إنا قافلون غدا إن شاء الله ، فأعجبهم ، فضحك النبى ﷺ . وقال سفيان مرة : فتبسم . انتهى

وفقئت عين أبى سفيان بن حرب يومئذ ، فذكر ابن سعد أن النبى ﷺ قال له وهى فى يده : أيهما أحب اليك ، عين فى الجنة أو أدعو الله أن يردها عليك ؟ قال : عين فى الجنة . ورمى بها . وشهد اليرموك فقاتل ، وفقئت عينه الأخرى يومئذ . ذكره الحافظ زين الدين العراقى

وقال ﷺ لأصحابه : قولوا لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . فلما ارتحل قال : قولوا آيبون عابدون ، لربنا حامدون . قال العلماء فانظر كيف كان ﷺ إذا خرج للجهاد يعتد لذلك بجمع الصحابة واتخاذ الخيل والسلاح من وما اليه يحتاج آلات الجهاد والسفر ، ثم إذا رجع عليه الصلاة والسلام يتعرى من ذلك ويرد الأمر كله لمولاه لا لغيره . وانظر إلى قوله عليه السلام وهزم الأحزاب وحده ، فنفى ما تقدم ، ذكره وهذا هو التوكل على الله حقا ، لأن الإنسان وفعله خلق لربه ، فهو الذى خلق ودبر وأعان وأجرى الأمور على أيدى من يشاء ومن اختار من خلقه ، فكلٌ منه واليه ، ولو شاء الله أن يبيد أهل الكفر من غير قتال لفعل ، قال الله تعالى ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ فيثيب الصابرين ويجزل الثواب للشاكرين . ولما قيل له ﷺ : ادع الله على ثقيف قال : اللهم اهد ثقيفا وائت بهم . وذكر أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وهو محاصر ثقيفا : يا أبا بكر إنى رأيت أنى أهديت إلى قعبة مملوءة زبدا فنقرها ديك فهرق مافيها — وكان

أبو بكر ماهرا فى تعبير الرؤيا مشهورا به بين العرب ـ فقال : ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ماتريد . فقال رسول الله : وأنا لأرى ذلك . ثم انصرف رسول الله ﷺ من الطائف مارا على دَحنا ثم على قرن المنازل ثم على نخلة حتى خرج إلى الجعرانة ونزلها وهى إلى مكة أدنى وبها قسم غنائم حنين . وفى هذا السفر أسلم صفوان بن أمية

واستأنى ﷺ بهوازن ـ أى انتظر أن يقدموا عليه مسلمين ـ بضع عشرة ، ثم بدأ يقسم الأموال فقسمها وأعطى المؤلفة قلوبهم قبل الناس وهم سادات العرب من قريش وغيرهم من وجوه القبائل . فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة من الإبل . روى أن أبا سفيان بن حرب جاء إلى النبى ﷺ والأموال من نقود وغيره مجموعة عنده فقال : يا رسول الله أنت اليوم أغنى قريش ، فتبسم ﷺ ، فقال أبو سفيان : حظنا من هذه الأموال . فأمر ﷺ بلالا فأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة ، فقال : حظ ابنى يزيد ، فأعطاه أيضا مائة من الإبل وأربعين أوقية . فقال أبو سفيان فأين حظ ابنى معاوية ، فأمر له أيضا بمائة من الإبل وأربعين أوقية حتى أخذ أبو سفيان يومئذ ثلاثمائة من الإبل ومائة وعشرين أوقية من الفضة . فقال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لأنت كريم فى الحرب والسلم ، هذا غاية الكرم جزاك الله خيرا . وأعطى صفوان بن أمية من الإبل مائة ثم مائة ثم مائة كذا فى الشفا . وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل فسأله مائة أخرى فأعطاه إياها . وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة أخا بنى عبد الدار ـ وهو أخو النضر بن الحارث عدو الله ورسوله ـ أعطاه مائة من الإبل والحارث بن هشام أخا أبى جهل وعبد الرحمن بن يربوع المخزوميين وسهيل ابن عمرو وحويطب بن عبد العزى والعلاء بن حارثة الثقفى وعده بعضهم فى أهل الخمسين والأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى ومالك بن عوف النضرى أعطى كل هؤلاء المسلمين من قريش وغيرهم على مائة بعير ، وأعطى دون المائة رجالا من قريش وغيرهم ،منهم مخرمة بن نوفل وعمير بن وهب وهشام بن عمرو أخو بنى عامر بن لؤى ، قال ابن اسحق لا أحفظ ما أعطاهم إلا أنها دون المائة . وأعطى سعيد بن يربوع

المخزومي وعدى بن قيس السهمى وعثمان بن نوفل خمسين خمسين ، وأعطى عباس بن مرداس إبلا فسخطها كما فى مسلم وقال شعرا :

أتجعل نهبى ونهب العبيـــد بين عُيينـــة والأقرع

فما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع

وما كنتُ دون امرئٍ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

قال فأتم له رسول الله مائة . زاد ابن اسحق فقال رسول الله : اقطعوا عنى لسانه . وممن أعطى رسول الله عددا دون ذلك طليق بن سفيان بن أمية بن عبد شمس وخالد ابن أسيد بن أبى العاص بن أميـة وشيبة بن عثمان بن أبى طلحة وهو الذى أراد الفتك برسول الله كما تقدم ، وأبو السنابل بن بعكك بن الحارث من بنى عبد الدار وزهير بن أبى أمية المخزومى أخو أم المؤمنين أم سلمة وخالد بن هشام بن المغـــيرة المخزومى وهشام بن الوليـد أخو خالد وسفيان بن عبد الأسد بن هلال المخزومى والسائب بن أبى السائب المخزومى ومطيع بن الأسود أخو بنى عدى وأبو جهم بن حذيفة العدوى وأحيحة ين عدى بن خلف الجمحى ، ونوفل بن معاوية من بنى بـكر بن عبد مناة وعلقمة بن علاثة بن عوف وخالد بن هوذة

وقال لرسول الله قائل من أصحابه : أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمرى ، فقال رسول الله ﷺ : أما والذى نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة ، ولـكنى تألفتهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه . وفى الصحيحين عن عبد الله ولفظه لمسلم قال : لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناسا فى القسمة ، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عيينة مثل ذلك وأعطى ناسا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ فى القسمة ، فقال رجل : والله إن هذه القسمة ما عدل فيها ، وما أريد فيها وجه الله . قال فقلت : والله لأخبرنّ رسول الله ، قال فأتيته فأخبرته ، فغضب من ذلك غضبا

شديدا واحمر وجهه حتى تمنيت أنى لم أذكره له ، ثم قال : فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ ثم قال : يرحم الله موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر . قال قلت : لا جرم لا أرفع اليه حديثا بعدها

ولمسلم عن جابر بن عبد الله قال : أتى رجل بالجعرانة منصرفه من حنين وفى ثوب بلال فضة ورسول الله يقبض منها يعطى الناس ، فقال : يا محمد اعدل . فقال : ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل . فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله فأقتل هـذا المنافق ؟ فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى ، إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لايجاوز حناجرهم ، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية . وفى رواية ابن اسحق عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل من بنى تميم يقال له ذو الخويصرة فوقف عليه وهو يعطى الناس فقال :يا محمد قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم . فقال ، أجل فكيف رأيت ؟ قال : لم أرك عدلت . فغضب النبى ﷺ فقال : ويحك إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟ فقال عمر بن الخطاب : ألا نقتله ؟ قال دعه فانه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية ، ينظر فى النصل فلا يوجد فيه شىء ثم فى القِدح فلا يوجد شىء ، ثم فى الفوق فلا يوجد شىء سبق الفرث والدم

وفى الصحيحين عن عبد الله بن زيد أن رسول الله ﷺ لما فتح حنين قسم الغنائم فأعطى المؤلفة قلوبهم ، فبلغه أن الأنصار يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس . وللبخارى : فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس ، فقام رسول الله فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يامعشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى ؟ وعالة فأغناكم الله بى ، ومتفرقين فجمعكم الله بى ؟ ويقولون : الله ورسوله أمن . فقال ألا تجيبونى ؟ فقالوا الله ورسوله أمن . فقال : أما إنكم لو شئتم أن تقولوا كذا وكذا وكذا وكان من الأمر كذا وكذا ـ لأشياء عددها زعم عمرو أنه لا يحفظها ـ فقال ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟

الأنصار شعار والناس دثار ، ولولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعبا وواديا لسلكتُ وادى الأنصار وشعبهم . إنكم ستلقون بعدى أثرة ، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض . وفى رواية أنس فى الصحيحين أن ناسا من الأنصار قالوا : يغفر الله لرسوله ، يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم . قال أنس : فحدثت بذلك رسول الله ، فجمعهم فى قبة من أدم ، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله فقال ما حديث بلغنى عنكم ؟ فقال له فقهاء الأنصار : أما ذوو رأينا فلم يقولوا شيئا ، وأما أناس حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسوله يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، [قال ﷺ] : فانى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم ، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبى إلى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، قالوا يا رسول الله قد رضينا . فقال لهم النبى ﷺ : ستجدون أثرة شديدة ، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فانى على الحوض . قالوا سنصبر . قال أنس : فلم يصبروا . وفى رواية ابن اسحق عن أبى سعيد الخدرى قال : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل . قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدّقتم ولصُدّقتم : أتيتنا مكذَّبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فواسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعاعة من الدنيا تألفتُ بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، أما ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا . ثم انصرف رسول الله وتفرقوا

فصل

وقد كان وفد هوازن قد أسلموا وأتوا رسول الله ﷺ قبل أن يقسم أموالهم ، وهم أربعة عشر رجلا ورأسهم زهير بن صرد ، وفيهم أبو برقان عم رسول الله من الرضاعة ، فسألوه أن يمن عليهم بالسبي والأموال . قال ابن اسحق : حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو أن وفد هوازن أتوا رسول الله وقد أسلموا فقالوا : يارسول الله إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك ، فامنن علينا منّ الله عليك . وقام رجل من هوازن يقال له زهير يكنى أبا صرد فقال : يا رسول الله إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، ولو أنا ملحنا (١) للحارث بن شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين

وفى الصحيح من حديث الزهرى أن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة أخبراه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد اليهم سبيهم وأموالهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : معى من ترون ، وأَحب الحديث إلىّ أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين إما المال وإما السبى . وقد كنت استأنيت بكم – وكان أنظرهم رسول الله بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف – فلما تبين لهم أن رسول الله غير راد اليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا : فانا نختار سبينا . فقام رسول الله فى المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فان إخوانكم قد جاءوا تائبين ، وإنى قد رأيت أن أرد اليهم سبيهم ، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه نعطيه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل . فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : إنا لا ندرى من أذن منكم فى ذلك ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم . فرجع الناس فكلمهم عرفاؤكم ، ثم رجعوا إلى رسول الله فأَخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا . هذا الذى بلغنا عن سبى

---

(١) أى أرضعنا

هوازن . وفى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن اسحق : فقال رسول الله : أما من تمسك بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبى أصيبه فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم

قال ابن اسحق وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن : مافعل مالك ؟ فقالوا هو فى الطائف مع ثقيف . فقال رسول الله ﷺ : أخبروا مالكا إن هو أتى مسلما رددت اليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل . فأتى مالك بذلك ، فخرج اليه من الطائف فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل ، فأسلم وحسن إسلامه . فقال مالك بن عوف النضرى المذكور :

ما إن سمعت ولا رأيت بمثله　　فى الناس كلهم كمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى　　وإذا تشأ يخبرك عما فى غد
وإذا الكتيبة عردت أنيابها　　بالسمهرى وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله　　وسط المباءة خادر فى مرصد

فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، فكان يقاتل بهم ثقيفا لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم

وعن جبير بن مطعم قال : بينما أنا مع رسول الله ومعه الناس مقبلا من حنين علقت برسول الله الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه ، فوقف رسول الله ﷺ فقال : « أعطونى ردائى ، فلو كان عدد هذه العضاة نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا » أخرجه البخارى فى الصحيح . وفى سيرة ابن اسحق أن رسول الله ﷺ قال لهم : أيها الناس ، والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط فان الغلول يكون على أهله عارا وشنارا ونارا يوم القيمة . فجاء رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال : يا رسول الله أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لى من وبر ، فقال : أما نصيبى منها فلك .

قال : إذا بلغت ذلك فلا حاجة لى بها . ثم طرحها من يده

وروى أنه ﷺ لما أراد أن يقسم الغنائم أمر زيد بن ثابت حتى أحضر الناس ، ثم عد الإبل والغنم وقسمها على الناس ، فوقع فى سهم كل رجل أربع من الإبل مع أربعين شاة من الغنم ، وإن كان فارسا فسهمه اثنا عشر بعيرا مع مائة وعشرين شاة من الغنم

قال ابن اسحق : ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة معتمرا ، فلما فرغ رسول الله من عمرته انصرف راجعا إلى المدينة ، وكانت عمرته فى ذى القعدة ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فى بقية ذى القعدة أو فى أول ذى الحجة ، وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج عليه ، وحج بالمسلمين تلك السنة عتاب بن أسيد الذى استعمله رسول الله على مكة وهو ابن نيف وعشرين سنة ، وكان فى غاية الورع والزهد ، وهو أول أمير أقام الحج فى الإسلام

قال ابن حزم : وحسن إسلام المؤلفة قلوبهم حاشا عيينة بن حصن فلم يزل مغمورا وكان خيرهم متفاضلين : فيهم الفاضل المجتهد كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحكيم ابن حزام ، وفيهم خيار دون هؤلاء كصفوان بن أمية وعمير بن وهب ومطيع بن الأسود ومعاوية بن أبى سفيان ، وسائرهم لا يظن بهم إلا الخير . وكان ممن أسلم يوم الفتح وبعده من الأشراف نظراء من ذكرنا ، ووثق عليه الصلاة والسلام بصحة نياتهم فى الإسلام لله فلم يدخلهم فيمن أعطاه ، عكرمة بن أبى جهل وعتاب بن أسيد وجبير ابن مطعم رضى الله عنهم أجمعين

وكان مدة غيبته منذ خرج من المدينة إلى فتح مكة وأوقع بهوازن وحارب الطائف الى أن رجع الى المدينة شهرين وستة عشر يوما . انتهى والله أعلم

وفى هذه السنة أسلم عروة بن مسعود الثقفى ، وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم ما بين ذى القعدة الى انصراف رسول الله من غزوة تبوك سنة تسع فى

رمضان . قال ابن اسحق : وكان من حديث ثقيف أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم من الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل الى المدينة فأسلم وسأله أن يرجع الى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله : إنهم قاتلوك ، وعرف رسول الله أن فيهم نخوة الامتناع الذى كان منهم ، فقال له عروة : يارسول الله أنا أحب اليهم من أبكارهم — ويقال من أبصارهم — وكان فيهم كذلك محببا مجابا مطاعا ، فخرج يدعو قومه الى الإسلام ورجا أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف عليهم على علية له وقد دعاهم الى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه ، فأصابه سهم فقتله ، فقيل له : ما ترى فى دمك ؟ فقال : كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها الله إلىّ ، فليس فىّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم . فزعموا أن رسول الله ﷺ قال : مثله فى قومه كمثل صاحب يس فى قومه

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوه وأسلموا ، وقال بعضهم لبعض : ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع ؟ فائتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا الى رسول الله رجلا كما أرسلوا عروة ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير — وكان فى سن عروة بن مسعود — وعرضوا ذلك عليه ، فأبى أن يفعل ، وخشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة فقال : لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجالا . فأجمعوا أن يرسلوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونون ستة ، فبعثوا الحكم ابن عمرو بن وهب وشرحبيل بن غيلان بن سلمة ، ومن بنى مالك عثمان بن أبى العاص ابن بشر بن عبد دهمان وأوس بن عوف ونمير بن خرشة بن ربيعة ، فخرج بهم عبد ياليل وهو نائب القوم وصاحب أمرهم ، ولم يخرج بهم إلا خشية أن يصنع به مثل ما صنع بعروة لكى يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا الى الطائف رهطه ، فلما دنوا من المدينة وتركوا قناة لقوا بها المغيرة بن شعبة يرعى فى نوبته ركاب أصحاب رسول الله ، وكانت رعيتها نوبا عليهم ، فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفيين ومر يشتد ليبشر رسول

الله ﷺ بقدومهم عليه ، فلقيه أبو بكر الصديق قبل أن يدخل على رسول الله فأخبره عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البيعة والإسلام وأن يشترطوا شروطا ويكتبوا من رسول الله كتابا فى قومهم وبلادهم وأموالهم ، فقال أبو بكر للمغيرة : أقسمت عليك بأن لا تسبقنى الى رسول الله حتى أكون أنا أحدثه ، ففعل المغيرة ، فدخل أبو بكر على رسول الله فأخبره بقدومهم عليه ، ثم خرج المغيرة الى أصحابه فروح الظهر معهم وعلمهم كيف يحيون رسول الله فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية ، ولما قدموا ضرب رسول الله ﷺ قبة عليهم فى ناحية مسجده كما يزعمون ، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله حتى كتبوا كتابهم ، وكان خالد هو الذى يكتب كتابهم بيده ، وكانوا لا يطعمون طعاما يأتيهم من عند رسول الله حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم . وقد كانوا فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية ــ وهى اللات ــ لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ذلك ، فما برحوا يسألونه سنة سنة وهو يأبى عليهم حتى سألوه شهرا واحدا فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى ، وإنما يريدون فى ذلك ــ فيما يظهر ــ أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام ، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدمانها ، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة ، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله ﷺ أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه وأما الصلاة فلا ، فانه لا خير فى دين لا صلاة فيه . فقالوا : يا محمد فسنؤتيكها ولو كانت دناءة . فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله كتابهم أمّر عليهم عثمان بن أبى العاص ، وكان من أحدثهم سنا ، وذلك أنه من أحرصهم على التفقه فى الدين وفى الإسلام ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله إنى رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن

قال ابن اسحق : وحدثنى عيسى بن عبد الله بن عطية بن سفيان بن ربيعة الثقفى عن بعض وفدهم قال : كان بلال يأتينا حين أسلمنا وصمنا مع رسول الله ما بقى من شهر

رمضان بفطورنا وسحورنا من عند رسول الله ، فيأتينا بالسحور وإنا لنقول : إنا لنرى الفجر قد طلع فيقول : قد تركت رسول الله يتسحر لتأخير السحور ، ويأتينا بفطورنا وإنا لنقول ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد ، فيقول : ماجئتكم حتى أكل رسول الله ، ثم يضع يده فى الجفنة فيلت قسمه منها

قال ابن اسحق وحدثنى سعيد بن أبى هند عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عثمان بن أبى العاص قال : كان من آخر ما عهد الىّ رسول الله ﷺ حين بعثنى الى ثقيف أن قال : يا عثمان تجاوز فى الصلاة ، واقدر الناس بأضعفهم ، فان فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة

قال ابن اسحق : فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا الى بلادهم راجعين بعث معهم رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فى هدم الطاغية مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال : ادخل أنت على قومك . وأقام أبو سفيان بماله بذى الهدم ، فلما دخل المغيرة علاها يضربها بالمعول ، وقام قومه دونه بنو معتب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة ، وخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها ، ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس : واهالك واهالك . فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها أرسل الى أبى سفيان ، وحليها مجموع ومالها من الذهب والجزع . وقد كان أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسودقدما على رسول الله ﷺ قبل وفد ثقيف حين قتل عروة يريدان فراق ثقيف وأن لايجامعاهم على شىء أبدا ، فقال لهما رسول الله ﷺ : توليا من شئتما . قالا : نتولى الله ورسوله . فقال رسول الله ﷺ : وخالكما أبا سفيان . قالا : وخالنا أبا سفيان ابن حرب

فلما أسلم أهل الطائف ووجه رسول الله أبا سفيان والمغيرة الى هدم الطاغية سأل رسولَ الله أبو المليح بن عروة أن يقضى عن أبيه عروة دينا كان عليه من مال الطاغية . فقال رسول الله نعم . فقال رسول الله إن الأسود مات مشركا . فقال قارب لرسول الله

لكن تصل مسلما ذا قرابة ، يعنى نفسه ، إنما الدّين على وإنما أنا الذى أطلب به . فأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أن يقضى دين عروة والأسود من مال الطاغية . فلما جمع المغيرة مالها قال لأبى سفيان : إن رسول الله قد أمرك أن تقضى عن عروة والأسود دينهما ، فقضى عنهما . انتهى

فهذه قصة هوازن وثقيف من أولها الى آخرها سقناها كما هى ، وإن كان إسلامهم بعد غزوة تبوك لينتظم أولها بآخرها ليقع الكلام على فقه هذه القصة وأحكامها فى موضع واحد فنقول : فيها من الفوائد والحكم ما ذكره ابن القيم وغيره ، أن الله سبحانه قد وعد رسوله وهو الصادق الوعد أنه إذا دخل مكة دخل الناس فى دينه أفواجا ودانت له العرب بأسرها ، فلما أتم له الفتح المبين واقتضت حكمة الله أن أمسك قلوب هوازن عن الإسلام ، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله والمسلمين ، ليظهر أمر الله وتمام إعزازه لرسوله ونصره لدينه ولتكون غنائمهم شكران أهل الفتح ، وليظهر الله رسوله وعباده وقهره لهذه الشوكة العظيمة التى لم يلق المسلمون مثلها فلا يقاومهم بعد أحد من العرب ، وغير ذلك من الحكم الباهرة التى تلوح للمتأملين وتبدو للمتوسمين . واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولا مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وعُددهم وقوة شوكتهم ليطامن رؤوسا رفعت بالفتح ، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسوله واضعا رأسه منحنيا على فرسه حتى إن ذقنه يكاد أن يمس سرجه تواضعا لربه وخضوعا لعظمته واستكانة لعزته أن أحل له حرمه وبلده ولم يحله لأحد قبله ولا لأحد بعده ، وليبين الله سبحانه لمن قال لن نغلب اليوم من قلة أن النصر إنما هو من عنده وأنه من ينصره فلا غالب له ، ومن يخذله فلا ناصر له ، وأنه هو الذى تولى نصر رسوله ودينه لا كثرتكم التى أعجبتكم فانها لن تغنى عنكم شيئا فوليتم مدبرين ، فلما انكسرت قلوبهم أرسل اليها خلع الجبر مع بريد ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها﴾ ، وقد اقتضت حكمته أن خلع النصر وجوائزه إنما تخلع على أهل الانكسار ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم

أئمة ﴾ الآيتين

ومنها أن الله سبحانه منع الجيش غنائم مكة فلم يغنموا منها ذهبا ولا متاعا ولا سبيا ولا أرضا ، كما روى أبو داود عن وهب بن منبه قال : سألت جابرا هل غنموا يوم الفتح شيئا ؟ قال : لا . وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل والركاب وهم عشرة آلاف وفيهم حاجة الى مايحتاج اليه الجيش من أسباب القوة ، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم وقذف فى قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشائهم وسبيهم معهم نزلا وضيافة وكرامة ولحزبه وجنده ، وتمم القدير سبحانه بأن أطمعهم فى الظفر ، وألاح لهم مبادئ النصر ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا . فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه ، وبردت الغنائم لأهلها ، وجرت فيها سهام الله ورسوله قيل : لا حاجة لنا فى دمائكم ولا فى نسائكم وذراريكم ، فأوحى الله الى قلوبهم التوبة والإنابة فجاءوا مسلمين ، فقيل إن من شكران إسلامكم أن يرد عليكم أبناءكم ونساءكم ، و ﴿ إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾

ومنها أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزاة حنين ، ولهذا يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر ـ بدر وحنين ـ وإن كان بينهما سبع سنين ، وقاتلت الملائكة بأنفسها مع المسلمين فى هاتين الغزاتين ، والنبى ﷺ رمى وجوه المشركين بالحصباء ، وبهذا يتبين أن بهاتين الغزاتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله والمسلمين ، فالأولى خوفتهم وكسرت من حدتهم ، والثانية استفرغت قواهم واستنفدت سهامهم وأذلت جمعهم ، حتى لم يجدوا بدا من الدخول فى دين الله

ومنها أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة وفرحهم بما نالوه من النصر والمغنم ، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم ، وإن كان عين جبرهم ، وعرفهم تمام نعمه عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن ، وأنه لم يكن لهم بهم طاقة ، وإنما نصروا عليهم بالمسلمين ، ولو أفردوا عنهم لأكلهم عدوهم ، إلى غير ذلك من الحكم التى لايحيط بها إلا الله

وفيها من الفقه أن الإمام ينبغى له أن يبعث العيون ومن يدخل بين عدوه ليأتيه بخبرهم وأن الإمام إذا سمع بقصد عدو له وفى جيشه قوة ومنعة لا يقعد لينتظرهم بل يسير اليهم كما سار رسول الله الى هوازن

وفيها أن الإمام يجوز له أن يستعير سلاح الكفار وعدتهم لقتال عدوه

ومنها أن من تمام التوكل استعمال الأسباب لمسبباتها قدرا وشرعا ، فان رسول الله وأصحابه أكمل الخلق توكلا ، وإنما كانوا يلقون عدوهم وهم متحصنون بأنواع السلاح

وفيها كمال خُلقه ﷺ وعفوه عمن همّ بقتله ، ولم يعاجله بل دعا له ومسح صدره حتى عاد كأنه ولى حميم

ومنها ما ظهر من معجزات النبوة فى هذه الغزاة من إخباره لشيبة بما أضمر فى نفسه ، ومن ثباته وقد تولى عنه الناس ، وهو ينوه بذكره ويقول :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وقد استقبلته كتائب المشركين وهو على البغلة التى لا تعد للفر والكر

ومنها إيصال الله قبضته التى رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منه ، وبركته فى تلك القبضة حتى ملأت أعين القوم ، إلى غير ذلك من الآيات ، كنزول الملائكة للقتال حتى رآهم العدو جهرة ورآهم بعض المسلمين

ومنها جواز انتظار الإمام بقسم الغنائم إسلام الكفار ودخولهم فى الطاعة ، فيرد عليهم غنائمهم وسبيهم ، وفى هذا دليل لمن يقول إن الغنيمة إنما تملك بالقسمة لا بمجرد الاستيلاء عليها ، إذ لو ملكها المسلمون بمجرد الاستيلاء لم يستأن بهم النبى ﷺ ليردها عليهم ، وعلى هذا فلو مات من الغانمين أحد قبل القسمة وإحرازها بدار الإسلام رد نصيبه على بقية الغانمين دون ورثته ، وهو مذهب أبى حنيفة

ومنها جواز التنفيل من أربعة أخماس الغنيمة ، وقد نص الإمام أحمد على أن

النفل يكون من أربعة أخماس الغنيمة ، وهذا العطاء الذى أعطاه النبى ﷺ المؤلفة قلوبهم هو من النفل ، نفل به رءوس القبائل والعشائر ليتألفهم به وقومهم على الإسلام فهو أولى بالجواز من تنفيل الثلث بعد الخمس والربع بعده لما فيه من تقوية الإسلام وشوكته وأهله واستجلاب عدوه اليه ، وهكذا وقع ، سواء كما قال بعض هؤلاء الذين نفلهم : لقد أعطانى رسول الله وأنه لأبغض الخلق إلى ، فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الخلق إلىّ ، فما ظنك بعطاء قوّى الإسلام وأهله وأذل الكفر وحزبه ، واستجلب به رءوس القبائل والعشائر الذين إذا غضبوا غضب لغضبهم أتباعهم ، وإذا رضوا رضوا لرضاهم ، فإذا أسلم هؤلاء لم يتخلف أحد من قومهم . فلله ما أعظم موقع هذا العطاء وما أجداه وأنفعه للإسلام وأهله . ومعلوم أن الأنفال لله ولرسوله يقسمها رسوله حيث أمره لا يتعدى الأمر ، فلو وضع الغنائم بأسرها فى هؤلاء لمصلحة الإسلام العامة لما خرج عن الحكمة والمصلحة والعدل . ولما عميت أبصار ذى الخويصرة التميمى وأضرابه عن هذه المصلحة والحكمة قال له قائلهم : اعدل فإنك لم تعدل ، وقال غيره إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله . ولعمر الله إن هؤلاء من أجهل الخلق برسوله وبمعرفته بربه وطاعته له وتمام عدله وإعطائه لله ومنعه لله ، ولله سبحانه أن يقسم الغنائم كما يحب ، وله أن يمنعها الغانمين جملة كما منعهم غنائم مكة وقد أوجفوا عليها بخيلهم وركابهم ، وله أن يسلط عليها نارا من السماء تأكلها ، وهو فى ذلك كله أعدل العادلين وأحكم الحاكمين ، وما فعل من ذلك عبثا ولا قدره سدى ، بل هو عين المصلحة والحكمة والعدل والرحمة ، مصدره كمال علمه وعزته ورحمته . ولقد أتم نعمته على قوم ردهم إلى منازلهم برسوله يقودونه إلى ديارهم وأرضى من لم يعرف قدر هذه النعمة بالشاة والبعير كما يعطى الصغير ما يناسب عقله ومعرفته . ويعطى العاقل اللبيب ما يناسبه ، وهذا فضله وهذا فضله ، وليس هو سبحانه تحت حجر أحد من خلقه فيوجبون عليه بعقولهم ويحرمون ، ورسوله منفذ لأمره . والله أعلم

وفيها أن السلامة من ألسنة الناس غاية لا تدرك كما قال الشافعى ، فعليك

بما يصلحك عند الله ودع عنك الناس ، فاذا كان رسول الله تكلم فيه ونسب إلى الجور والظلم وهو رسول رب العالمين وأعظم الخلق عدلا وأمانة ومع هذا قيل فيه ما قيل ، فكيف يطمع العاقل فى السلامة من الناس ؟

ومنها التأسى بالأنبياء ، والصبر كصبرهم ، لقوله عليه السلام « قد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر »

ومنها — وهى من علامات نبوة نبيا ﷺ — إخباره بخروج الخوارج قبل وقت خروجهم بمدة ، فصار الأمر كما أخبر ﷺ

وفيها أنها تفيدك الخوف العظيم على نفسك ولا تغتر بالهالك ولو كان من أعبد الناس وأزهدهم

وفيها معرفة المؤمن أن كل ما خالف هدى رسول الله ﷺ وهدى أصحابه فهو باطل مردود على صاحبه ، وإن كان قصده رضى الله ، لأن الخوارج لم يقصدوا ببدعتهم إلا رضى الله والجنة ، ولكن لما كان دينهم ومذهبهم خلاف هدى رسول الله وهدى أصحابه كانوا هم شر الخلق والخليقة ، ولهذا حرض النبى ﷺ على قتالهم إذا خرجوا وقال « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » ، وقال « هم شر الخلق والخليقة »

وفيها معرفة المؤمن أن المنتسب الى الإسلام والسنة والزهد والعبادة قد يمرق من الإسلام ، فاذا كان فى زمن النبى ﷺ وخلفائه الراشدين ممن انتسب الى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب الى الإسلام والسنة فى هذه الأزمان قد يمرق أيضا من الإسلام ، وذلك بأسباب : منها الغلو الذى ذمه الله حيث قال فى كتابه ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ﴾ وقال ﷺ « إياكم والغلو ، فانما أهلك من قبلكم الغلو » . ومن ذلك أيضا الغلو فى المخلوق كائنا من كان ، فكل من غلا فى نبى أو رجل صالح كالمسيح أو عزير أو على بن أبى طالب أو عبد القادر أو معروف الكرخى أو غيرهم وجعل فيه نوعا من الإلهية مثل أن يدعوه مع الله أو يستغيث به فى

رخاء أو شدة ليفرج كربته أو يجلب اليه منفعته أو ينذر له ليجلب له خيرا أو يدفع عنه شرا ، أو يذبح له ذبيحة يتقرب بها اليه أو يقول إذا ذبح شاة « باسم سيدى » أو يعبده بالسجود له أو لقبره ، فكل هذا شرك وضلال وغلو فى الدين وجعل إله مع رب العالمين ، يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل كافرا مرتدا ، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده ، ولا يدعى معه آلهة أخرى . وقد عمت البلوى بهذا الأمر فى كثير من البلاد نسأل الله العفو والعافية

ومنها أنه قال ﷺ فى هذه الغزوة « من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه » وقاله قبله فى غزوة أخرى ، فاختلف الفقهاء هل هذا السلب مستحق بالشرع أو بالشرط ، على قولين هما روايتان عن أحمد أحدهما أنه له ـ شرطه الإمام أو لم يشرطه ـ وهو قول الشافعى ، والثانى أنه لا يستحقه إلا بشرط الإمام وهو مذهب أبى حنيفة ، وقال مالك : لا يستحقه إلا بشرط الإمام بعد القتال ، فلو نص قبله لم يجز . ومأخذ النزاع أن النبى ﷺ هو الإمام والحاكم والمفتى وهو الرسول ، فقد يقول الحكم لمنصب الرسالة فيكون شرعا عاما الى يوم القيمة ، وقد يقوله لمنصب الفتوى كقوله لهند « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » فهذه فتيا لا حكم ، وقد يقوله لمنصب الإمامة فيكون مصلحة للأمة فى ذلك الوقت وذلك المكان على تلك الحال فيلزم من بعده من الأمة مراعاة ذلك على حسب المصلحة التى راعاها النبى ﷺ زمانا ومكانا وحالا . ومن ههنا تختلف الأئمة فى كثير من المواضع التى فيها أثر عنه كقوله « من قتل قتيلا فله سلبه » هل قاله بمنصب الإمامة فيكون حكمه متعلقا بالأئمة ، أو بمنصب الرسالة والنبوة فيكون شرعا عاما ؟ وكذلك قوله « من أحيا أرضا ميتة فهى له » هل هو شرع عام لكل أحد أذن فيه الإمام أو لم يأذن له ، أو هو راجع إلى الأئمة فلا تملك بالإحياء إلا بإذن الإمام على قولين : فالأول للشافعى وأحمد فى ظاهر مذهبهما ، والثانى لأبى حنيفة وفرق مالك بين الفلوات الواسعة وما لا يتشاحُّ فيه الناس وبين ما يقع فيه التشاح ، فاعتبر إذن الإمام فى الثانى دون الأول

وقوله ﷺ « عليه بينة » يدل على مسألتين : إحداها أن دعوى القاتل أنه قتل هذا الكافر لا تقبل ، الثانية ثبوت هذه الدعوى بشاهد واحد من غير يمين لحديث أبي قتادة المتقدم فى الصحيح فى قتل الرجل ، وهذا أحد الأقوال فى المسألة وهو وجه فى مذهب أحمد ، والثانى أنه لا بد من شاهد ويمين كاحدى الروايتين عن أحمد ، والثالث لا بد من شاهدين نص عليه أحمد لأنه دعوى قتل فلا تقبل إلا بشاهدين

وفى القصة دليل على مسأله أخرى وهى أنه لا يشترط فى الشهادة التلفظ بلفظ أشهد ، قال فى الهدى : وهذا أصح الروايات عن أحمد فى الدليل ، قال شيخنا : ولا نعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط لفظة الشهادة ، وقد قال ابن عباس : شهد عندى رجال مرضيون وأرضاهم عندى عمر أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح ، ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظة أشهد

وقوله « له سلبه » دليل على أن له سلبه غير مخموس ، وقد صرح بهذا فى قوله لسلمة بن الأكوع لما قتل قتيلا : له سلبه . وفى المسألة ثلاثة مذاهب : هذا أحدها . والثانى يخمس كالغنيمة ، وهذا قول الأوزاعى وأهل الشام ، وهو مذهب ابن عباس لدخوله فى آية الغنيمة . والثالث إن استكثره الإمام خمسه وهو قول اسحق ، وفعله عمر ابن الخطاب رواه عنه ستة فى مبارزة البراء المرزبان ، قال صاحب الهدى : والأول أصح ، فان النبى ﷺ لم يخمس السلب وقال : هو له أجمع ، ومضت على ذلك سنته وسنة الصديق بعده ، وما فعله عمر اجتهاد

وفى الحديث دليل على أنه من أصل الغنيمة ، فان النبى ﷺ قضى به للقاتل ولم ينظر فى قيمته وقدره واعتبار خروجه من خمس الخمس

وفيها جواز نصب المنجنيق على الكفار ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية

ومنها جواز قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يضعفهم ويغيظهم وهو أنكى فيهم

ومنها أن العبد إذا أبق من المشركين إلى المسلمين صار حرا

ومنها استجابة الله دعاء رسوله لثقيف أن يهديهم ويأتى بهم ، وقد حاربوه وقاتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه وقتلوا رسوله الذى أرسله اليهم يدعوهم إلى الله ، ومع هذا كله فدعا لهم ولم يدع عليهم ، وهذا من كمال رحمته ونصيحته

ومنها كمال محبة الصديق وقصده التقرب اليه بكل ما يمكنه ، ولهذا أنشد المغيرة أن يدعه هو يبشر النبى ﷺ بقدوم وفد الطائف ليكون هو الذى فرحه بذلك ، وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثره بقربة من القرب ، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر أخاه ، وقول من قال من الفقهاء لا يجوز الإيثار بالقرب لا يصح ، وقد آثرت عائشة عمر بن الخطاب بدفنه فى بيتها بجوار النبى ﷺ وسألها عمر ذلك فلم تكره له السؤال ولا لها البذل ، وهل إهداء القرب المجمع على جوازها والمتنازع فيها إلى الميت إلا إيثار بالقرب ، فأى فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحرز ثوابها وبين أن يعملها ثم يؤثره بثوابها ؟

ومنها أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعـــد القدرة على هدمها وإبطالها يوما واحدا ، فانها شعائر الكفر والشرك ، وهى أعظم المنكرات ، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة ، وهذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثانا وطواغيت تعبد من دون الله ، والأحجار التى تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل ، لا يجوز إبقاء شىء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى وأعظم شركا عندها وبها وبالله المستعان . ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد فيها أنها تخلق وترزق وتحيى وتميت ، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم ، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة ، وأخذوا مأخذهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم ،

وصار المعروف منكرا والمنكر معروفا والسنة بدعة والبدعة سنة ، ونشأ على ذلك الصغير وهرم فيه الكبير ، وطمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام ، وقل العلماء وغلبت السفهاء ، وتفاقم الأمر واشتد البأس ، وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين ، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

ومنها جواز صرف الإمام الأموال التى تصل إلى هذه المشاهد والطواغيت فى الجهاد ومصالح المسلمين ، فيجوز للإمام - بل يجب عليه - أن يأخذ أموال هذه الطواغيت التى تساق اليها كلها ويصرفها الى الجند والمقاتلة ومصالح الإسلام ، كما أخذ النبى ﷺ أموال اللات وأعطاها لأبى سفيان يتألفه بها ، وقضى منها دين عروة والأسود ، وكذلك يجب عليه أن يهدم هذه المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثانا ، وله أن يقطعها للمقاتلة أو يبيعها ويستعين بثمنها على مصالح المسلمين ، وكذلك الحكم فى أوقافها والوقف عليها باطل ، وهو مال ضائع ، فينصرف فى مصالح المسلمين ، فان الوقف لا يصح إلا فى قربة وطاعة لله ورسوله ، فلا يصح الوقف على مشهد ولا قبر يسرج عليه ويعظم وينذر له ويحج اليه ويعبد من دون الله ويتخذ وثنا من دون الله ، وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام ومن اتبع سبيلهم . انتهى ملخصا من الهدى النبوى لابن القيم رحمه الله تعالى . وفيها من الفوائد والفقه أكثر مما ذكر . والله أعلم

ذكر قصة كعب بن زهير مع النبى ﷺ

قال ابن اسحق : ولما قدم رسول الله من الطائف كتب بجير بنِ زهير الى أخيه كعب ، وكان بجير قد أسلم وهو حسن الإسلام يخبره أن رسول الله قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وأن من بقى من شعراء قريش ابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب قد هربوا فى كل وجه فان كنت لك فى نفسك حاجة فطر الى رسول الله فانه لا يقتل أحداً جاءه تائباً ، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك . وكان كعب قد قال :

ألا أبلغا عنى بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
فبين لنا إن كنت لست بفاعل على أى شىء غير ذلك دلكا
على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه ولم تلف عليه أخا لكا
فان كنت لم تفعل فلست بآسف ولا قائل إما عثرت لعا لكا
سقاك بها المأمون كأسا روية فانهلك المأمون منها وعلكا

قال فبعث بها الى بجير ، فلما أتت بجيرا كره أن يكتمها رسول الله ، فأنشده إياها ، فقال رسول الله ﷺ : سقاك بها المأمون ، صدق وإنه لكذوب ، وأنا المأمون . ولما سمع : « على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه » قال : أجل ، لم يلف عليه أباه ولا أمه . ثم قال بجير لأخيه كعب :

من مبلغ كعبا فهل لك فى التى تلوم عليها باطلا وهى أحزم
الى الله لا العزّى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا شىء دينه ودين أبى سلمى علىَّ محرم

فلما بلغ كعبا ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان فى حاضره من عدوه فقال : هو مقتول . فلما لم يجد من شىء بداً قال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه ، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة كما ذكر ، فغدا به الى رسول الله ﷺ ، ثم أشار له الى رسول الله فقال : هذا رسول الله ، فقم اليه واستأمنه ، فذكر لى أنه قام الى رسول الله حتى جلس اليه فوضع يده فى يده ـ وكان رسول الله لا يعرفه ـ فقال : يا رسول الله إن كعب بن زهير جاء ليستأمنك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال رسول الله : نعم . قال أنا يا رسول الله كعب بن زهير . قال ابن اسحق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب اليه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله دعنى وعدو الله أضرب عنقه . فقال رسول الله : دعه عنك ، فقد جاءنا تائبا نازعا . قال

فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار لما صنع به صاحبهم ، وذلك أنه لم يتكلم رجل من المهاجرين إلا بخير ، فقال قصيدته اللامية المشهورة يصف فيها محبوبته وناقته التى أولها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة ... لا يشتكى قصر منها ولا طول
تمشى الغواة بجنبيها وقولهم ... إنك يا ابن أبى سُلمى لمقتول
وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألهينك إنى عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكم ... فكل ما قدَّر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول
نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى اك نافلة أعط القـــرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فىَّ الأقاويل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد إلا أن يكون له ... من الرسول بإذن الله تنويل
حتى وضعت يمينى ما أنازعها ... فى كف ذى نقمات قوله القيل
فلهو أخوف عندى إذ أكلمه ... وقيل إنك منسوب ومسئول
من ضيغم من ضراء الأسد مخدره ... فى بطن عثر غيل دونه غيل
إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرَّد السود التنابيل
شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود فى الهيجا سرابيل

بيضٍ سوابغ قد شكت لها حلق ... كأنها حلق القفعاء مجدول
ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم ... قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم ... وما لهم عن حياض الموت تهليل

قال ابن اسحق قال عاصم بن قتادة : فلما قال كعب « إذا عرد السود التنابيل » وإنما يريد معاشر الأنصار لما كان صاحبنا صنع به ، وخص المهاجرين من قريش بمدحته غضبت الأنصار ، فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار ويذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ :

من سره كرم الحياة فلا يزل ... فى منقب من صالحى الأنصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر ... إن الخيار هم بنو الأخيار
المكرهين السمهرى بأذرع ... كسوالف الهندى غير قصار
والناظرين بأعين محمرة ... كالجمر غير كليلة الأبصار
والبائعين نفوسهم لنبيهم ... للموت يوم تعانق وكرار
يتطهرون يرونه نسكا لهم ... بدماء من علقوا من الكفار
دربوا كما دربت ببطن خفية ... غلب الرقاب من الأسود ضوار
وإذا حالت ليمنعوك اليهم ... أصبحت عند معاقل الأغفار
ضربوا عليا يوم بدر ضربة ... دانت لوقعتها جميع نزار
لو يعلم الأقوام علمى كله ... فيهم لصدقنى الذين أمارى
قوم إذا خوت النجوم فانهم ... للطارقين النازلين مقارى

قال ابن هشام ويقال إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده بانت سعاد : لولا ذكرت الأنصار بخير . فان الأنصار لذلك أهل ، فقال كعب هذه الأبيات . وفى رواية أبى بكر بن الأنبارى لما وصل إلى قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به ... وصارم من سيوف الله مسلول

رمى عليه ﷺ بردة كانت عليه ، وإن معاوية بذل له فيها عشرة آلاف فقال :

ما كنت لأوثر بثوب رسول الله أحدا . فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفا وأخذها منهم ، قال وهى البردة التى عند السلاطين إلى اليوم

وكان كعب بن زهير من فحول الشعراء هو وأبوه زهير ، وابنه عقبة ، وابن ابنه العوام بن عقبة

فصل

قالوا : ولما دخلت سنة تسع بعث ﷺ المصدّقين يأخذون الصدقات من الأعراب ، قال ابن سعد : ثم بعث رسول الله ﷺ المصدقين . قالوا لما رأى رسول الله هلال المحرم سنة تسع بعث المصدقين يصدقون الأعراب ، فبعث عيينة بن حصن إلى بنى تميم ، وبعث يزيد بن الحصين إلى أسلم وغفار ، وبعث رافع بن مكيث إلى جهينة ، وبعث عمرو بن العاص إلى فزاره ، وبعث الضحاك بن سفيان إلى بنى كلاب ، وبعث بشير بن سفيان إلى بنى كعب وبعث ابن اللتبية الأزدى إلى بنى ذبيان ، وأمرهم رسول الله أن يأخذوا العفو منهم ويتوقّوا كرائم أموالهم . قال ابن اسحق : وبعث المهاجر بن أمية إلى صنعاء ، فخرج عليه العنسى وهو بها ، وبعث زياد بن لبيد إلى حضرموت ، وبعث عدى بن حاتم إلى طيء وبنى أسد . وبعث مالك بن نويرة على صدقات بنى حنظلة ، وفرق صدقات بنى سعد على رجلين : فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية ، وقيس بن عاصم على ناحية ، وبعث العلاء بن الحضرمى على البحرين وبعث عليا إلى نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم

فصل

فى السرايا والبعوث فى سنة تسع

فمنها سرية عيينة بن حصن الفزارى إلى بنى تميم ، وذلك فى المحرم من هذه السنة فى خمسين فارسا ليس فيهم مهاجرى ولا أنصارى ، فكان يسير الليل ويكمن النهار ، فهجم عليهم فى صحراء وقد سرحوا مواشيهم ، فلما رأوا الجمع ولوا فأخذ منهم أحد عشر

رجلا وعشرين امرأة وثلاثين صبيا فساقهم إلى المدينة فنزلوا فى دار رملة بنت الحارث. قدم فيهم عدة من رؤسائهم عطارد بن حاجب والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم والأقرع بن حابس وقيس بن الحارث ونعيم بن سعد وعمرو بن الأهتم ورياح بن الحارث ، فلما رأوا نساءهم وذراريهم بكوا اليهم ، فعجلوا فجاءوا إلى باب النبى ﷺ فنادوه : يا محمد أخرج الينا لنفاخرك ونشاعرك ، فنزل فيهم ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ الآية . فخرج اليهم رسول الله ﷺ فأقام بلال الصلاة وتعلقوا برسول الله يكلمونه فوقف معهم ، ثم مضى فصلى الظهر ، ثم جلس فى صحن المسجد ، فقدموا عطارد بن حاجب فتكلم وخطب ، وأمر عليه السلام ثابت ابن قيس بن شماس فأجابهم فغلبهم ، فقام الزبرقان شاعر بنى تميم فأنشد مفاخراً فقال :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا … منا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم قسرنا من الاحياء كلهم … عند النهاب وفعل العز يتبع
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا … من الشواء إذا لم يؤنس القزع
بما ترى الناس تأتينا سراتهم … من كل أرض هويا ثم نصطنع
فننحر الكوم عبطا فى أرومتنا … للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حى نفاخرهم … إلا استقادوا فكانوا الرأس يقتطع
فمن يفاخرنا فى ذاك نعرفه … فيرجع القوم والأخبار تستمع
إنا أبينا ولم يأب لنا أحد … أنا كذلك عند الفخر نرتفع

قال ابن اسحق وكان حسان غائبا فبعث اليه رسول الله ، قال حسان : جاءنى رسول رسول الله ﷺ فأخبرنى أنه إنما دعانى لأجيب شاعر بنى تميم ، فخرجت إلى رسول الله ﷺ وأنا أقول :

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا … على ألف راض من معد وراغم
منعناه لما حل بين بيوتنا … بأسيافنا من كل باغ وظالم

هل المجد إلا السؤدد العود والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا ... على دينه بالمرهفات الصوارم

زاد بعضهم :

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالا عند ذكر المكارم
وإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا فى المقاسم
فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ... ولا تلبسوا زيا كزى الأعاجم

فلما انتهيت إلى رسول الله وقام شاعر القوم فقال ما قال فلما فرغ قال رسول الله : قم يا حسان فأجب الرجل ، فقام حسان فقال :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربو ضروا عدوهم ... أوحاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لايرقع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون مارقعوا
لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مطمع طبع
إذا نصبنا لحى لم ندب لهم ... كما يدب إلى الوحشية الذرع
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع
كأنهم فى الوغى والموت مكتنع ... أسد بحلية فى أرساغها فدع
خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذى منعوا
فان فى حربهم فاترك عداوتهم ... شرا يخاض عليه السم والسلع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيع

أهدى لهم مدحتى قلب يؤازره ... فيما أحب لسان حائك صنع
فانهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جد بالناس جد القول أو شمعوا

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : إن هذا الرجل لمؤتى ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا . ثم أسلموا وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم ورد عليهم نساءهم وأبناءهم

سرية قطبة بن عامر فى سنة تسع

قالوا : بعث رسول الله ﷺ قطبة فى عشرين رجلا إلى حى من خثعم بناحية تبالة وأمره أن يشن الغارة ، فخرجوا على عشرة أبعرة فاعتقبوها فشنوا الغارة عليهم فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثر الجرحى فى الفريقين ، وقتل قطبة بن عامر من قتل وساقوا النعم والشاء والنساء إلى المدينة . وفى القصة أن القوم اجتمعوا وركبوا فى آثارهم ، فأرسل الله سيلا عظيما حال بينهم وبين المسلمين فساقوا النعم والسبى وهم ينظرون لا يستطيعون أن يعبروا اليهم

سرية الضحاك بن سفيان الكلابى إلى بنى كلاب

فى ربيع الأول سنة تسع . قالوا : بعث رسول الله جيشا إلى بنى كلاب وعليهم الضحاك بن سفيان بن عوف ومعهم الأصيد بن سلمة ، فلقوهم بالزخوخ ، فدعوهم إلى الإسلام فأبوا فقاتلوهم فهزموهم ، فلحق الأصيد أباه سلمة وسلمة على فرس له فى غدير بالزخ ، فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان ، فسبه وسب دينه ، فضرب الأصيد عرقوب فرس أبيه ، ولما وقع الفرس على عرقوبه ارتكز سلمة على الرمح فى الماء ثم استمسك حتى جاءه أحدهم فقتله ، ولم يقتله ابنه

سرية علقمة بن محرز المدلجى إلى الحبشة

فى ربيع الآخر سنة تسع ، وقال الحاكم فى صفر . قال ابن سعد : فلما بلغ رسول الله ﷺ أن ناسا من الحبشة تراآهم أهل جدة بعث اليهم علقمة بن محرز فى ثلاثمائة

فانتهى إلى جزيرة وقد خاض اليهم البحر فهربوا منه

ذكر سرية على بن أبى طالب إلى صنم طيء ليهدمه

وفى هذه السنة قالوا : بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فى خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسا ومعه راية سوداء ولواء أبيض إلى الفلس وهو صنم طيء ليهدمه ، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر فهدموه ، وملأوا أيديهم من السبى والنعم والشاء ، وفى السبى أخت عدى بن حاتم ، وكان عدى قد هرب إلى الشام ووجدوا فى خزانته ثلاثة أسياف وثلاثة أدراع ، واستعمل على السبى أبا قتادة ، وعلى الماشية والرقة عبد الله بن عتيك ، وقسم الغنائم فى الطريق ، وعزل الصفى لرسول الله ، ولم يقسم آل حاتم حتى قدم بهم المدينة

قال ابن اسحق قال عدى بن حاتم : ما كان رجل من العرب أشد كراهة لرسول الله ﷺ منى حين سمعت به ، وكنت امرءا شريفا ، وكنت نصرانيا ، وكنت أسير فى قومى بالمرباع ، وكنت فى نفسى على دين ، وكنت ملكا فى قومى . فلما سمعت برسول الله كرهته ، فقلت لغلام عربى لى — وكان راعيا لإبلى — لا أبالك ، أعدّ لى من إبلى أجمالا ذللا سمانا فاحبسها قريبا منى ، فاذا سمعت بخيل محمد قد وطئت هذه البلاد فآذنى . ففعل . ثم إنه أتانى ذات غداة فقال : يا عدى ما كنتَ صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن . فانى قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا : هذه جيوش محمد . قال فقلت : قرب لى أجمالى ، فقربها ، فاحتملت بأهلى وولدى ثم ألحق بأهل دينى من النصارى بالشام ، وخلفت بنتا لحاتم فى الحاضر فلما قدمت الشام أقمت بها ، وخالفتنى خيل رسول الله فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت ، فقدم بها على رسول الله ﷺ فى سبايا من طيء وقد بلغ رسول الله ﷺ هربى إلى الشام ، فمر بها رسول الله فقالت : يا رسول الله غاب الوافد ، وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ما بى من خدمة فمنّ علىّ منّ الله عليك . فقال : من وافدك ؟ قالت : عدى بن حاتم . قال : الذى فر

من الله ورسوله ؟ قالت : ثم مضى رسول الله وتركنى ، فلما كان من الغد مر بى ، فقلت له مثل ذلك ، وقال لى مثل ما قال بالأمس ، قالت : حتى إذا كان بعد الغد مر بى وقد يئست ، فأشار إلىّ رجل من خلفه أن قومى فكلميه ، قالت فقمت اليه فقلت: يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن على منّ الله عليك : قال رسول الله : قد فعلت ، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ، ثم آذنينى . فسألت عن الرجل الذى أشار إلى أن كلميه فقيل : على بن أبى طالب . فأقمت حتى قدم ركب من طيء أو قضاعة . قالت : وإنما أريد أن آتى أخى بالشام . قالت : فجئت رسول الله فأخبرته ، فكسانى وحملنى وأعطانى نفقة . قال عدى : فأتتنى أختى بالشام فقالت : لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، ائته راغبا أو راهبا ، فقد أتاه فلان فأصاب منه وفلان فأصاب منه . قال عدى : فأتيته وهو جالس فى المسجد ، فقال القوم : هذا عدى بن حاتم . وجئت بغير أمان ولا كتاب ، فلما دفعت اليه أخذ بيدى ، وقد كان قبل ذلك قال : إنى لأرجو أن يجعل الله يده فى يدى . قال فقام بى ، فلقيته امرأة ومعها صبى فقالا إن لنا اليك حاجة . فقام معهما حتى قضى حاجتهما . فقلت فى نفسى : والله ما هذا بملك . ثم أخذ بيدى حتى أتى داره فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه . وعند ابن اسحق : فتناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها الى فقال : اجلس على هذه . فقلت : بل أنت فاجلس اليها . قال : بل أنت . فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض . قال فقلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك . ثم قال : ايه يا عدى بن حاتم ، ألم تكن ركوسيا ؟ قال قلت بلى . قال : أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ قال قلت بلى . قال فان ذلك لم يحل لك فى دينك . قال قلت أجل والله ، قال وعرفت أنه نبى مرسل يعرف ما يُجهل . ثم قال : يا عدى ، لعلك إنما منعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من

القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف . ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل أن تفتح عليهم . قال : فأسلمت . فكان عدى يقول مضت اثنتان وبقيت الثالثة ، ووالله لتكونن . قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت ، ووالله لتكونن الثالثة ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه . كذا فى رواية ابن اسحق

وفى رواية غيره بعد قوله فجلست بين يديه : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما يضرك أن يقال لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله سوى الله ؟ قلت لا . ثم تكلم ساعة ثم قال : إنما تفر أن يقال الله أكبر ، وهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ قال قلت لا . قال فان اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون . قال قلت : فإنى حنيف مسلم . فرأيت وجهه منبسطا فرحا . قال ثم أمر بى فأنزلت عند رجل من الأنصار ، وجعلت أغشاه آتيه طرفى النهار . قال فبينا أنا عنده إذ جاء قوم فى ثياب من الصوف من هذه الثمار ، قال فصلى وقام فحث عليهم ثم قال : أيها الناس ارضخوا من الفضل ، ولو صاعا ، ولو بنصف صاع ، ولو بقبضة ، ولو ببعض قبضة ، يقى أحدكم نفسه من جهنم أو النار ، ولو بتمرة ، فان أحدكم لاقى الله وقائل له ما أقول لكم : ألم أجعل لك مالا وولدا ، فيقول بلى . فيقول : أين ما قدمت لنفسك ؟ فينظر قدامه وبعده وعن يمينه وعن شماله ثم لا يجد شيئا يقى به وجهه جهنم ، ليقِ أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة ، فان لم يجد فبكلمة طيبة ، فانى لا أخاف عليكم الفاقة فان الله ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة ما بين يثرب والحيرة أكثر ما تخاف على مطيتها السرق . قال فجعلت أقول فى نفسى : فأين لصوص طيء ؟ رواه الإمام أحمد والترمذى وغيرها بزيادات ونقص

وفى رواية أحمد : دخلت على رسول الله وهو يقرأ فى هذه الآية ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ قال فقلت : انهم لم يعبدوهم . قال بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم . ثم قال : ياعدى أسلم

تسلم . فقلت إنى من أهل دين . قال أنا أعلم بدينك منك . فقلت أنت أعلم بدينى منى ؟ قال : نعم ، ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ فقلت : بلى . قال فان هذا لا يحل لك فى دينك . قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها . وذكر نحو ما تقدم

فصل

قالوا : وفى هذه السنة هجر رسول الله نساءه وقال : ما أنا بداخل عليكن شهرا ، فاعتزل فى مشربة له ، فنزل بعد تسع وعشرين ليلة ، فبدأ بعائشة ، فقالت له : يا رسول الله كنت أقسمت أن لا تدخل علينا شهرا ، وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدها عداً . فقال : الشهر تسع وعشرون ، وكان ذلك الشهر تسعا وعشرين . والقصة فى الصحيحين

غزوة تبوك

قالوا : وكانت فى رجب من هذه السنة ، وهى آخر غزواته ﷺ . وتبوك موضع معروف ، وهو نصف طريق المدينة إلى دمشق ، وهى غزوة العسرة ، والفاضحة : لافتضاح المنافقين فيها . ولعبد الرزاق عن معمر عن ابن عقيل قال : خرجوا فى قلة من الظهر ، وفى حر شديد ، حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما فى كرشه من الماء ، وفى الظهر وفى النفقة ، فسميت « غزوة العسرة » . وللطبرانى من حديث عمران بن حصين قال : كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل : أن هذا الرجل الذى خرج يدعى النبوة هلك وأصابتهم سنون ، فهلكت أموالهم . فبعث رجلا من عظمائهم وجهز معه أربعين ألفا ، فبلغ ذلك النبى ﷺ — ولم يكن للناس قوة — وكان عثمان قد جهز عيراً للشام فقال : يا رسول الله هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ومائتا أوقية . قال فسمعته يقول « لا يضر عثمان ما عمل بعدها » . وعن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان بألف دينار فى كمه حين جهز جيش العسرة فنثرها فى حجره ﷺ فرأيت (1) يقلبها فى

(1) بياض : لعله : رسول الله ﷺ

حجره ويقول « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » خرجه الترمذى وقال : حسن غريب

وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة — وكانوا كلهم مسلمين فى هذا الوقت — يستنفرهم ، وحض رسول الله من عنده من المسلمين على الجهاد ، وأمرهم بالصدقة فجاءوا بصدقات كثيرة ، وكان أول من جاء بها أبو بكر ، جاء بماله كله ، وكان أربعة آلاف درهم . وجاء عمر بنصف ماله . وجاء العباس بن عبد المطلب بمال كثير . وجاء طلحة بمال . وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقية فضة . وجاء سعد بن عبادة بمال . وجاء محمد بن مسلمة بمال . وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقا من تمر . وبعثت النساء كل ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم . قال ابن اسحق : فذكر لنا الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن عمر وغيرهم من أصحابنا وبعض القوم يحدث مالا يحدث بعض أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم وذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد حين طابت الثمار والناس يحبون المقام ويكرهون الشخوص على حال من الزمان الذى هم عليه ، وكان رسول الله ﷺ قل ما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يعمد له ، إلا ما كان من غزوة تبوك فانه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يعمد له ، ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاز وأخبر أنه يريد الروم ، فقال رسول الله ذات يوم وهو فى جهازه ذلك للجد بن قيس أحد بنى سلمة : يا جد ، هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر ؟ فقال يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أنى لا أصبر . فأعرض عنه رسول الله وقال : قد أذنت لك . ففيه نزلت هذه الآية ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ﴾ الآية قال قوم من المنافقين : لا تنفروا فى الحر زهادة فى الجهاد وشكا فى الحق وإرجافا بالرسول ، فأنزل الله ﴿ وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً ﴾ الآية.

ثم إن رسول الله ﷺ جد فى سفره ، ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله

وهم البكاءون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف : سالم بن عمير وعلبة بن زيد أحد بنى حارثة وأبو ليلى عبد الرحمن أخو بنى مازن بن النجار وعمرو ابن الحمام بن الجموح أخو بنى سلمة وعبد الله بن مغفل المازنى — وبعض الناس يقول : هوعبد الله بن عمرو المازنى — وهرمى بن عبد الله أخو بنى واقف وعرباض بن سارية ، فاستحملوا رسول الله وكانوا أهل الحاجة ، فقال : لا أجد ما أحملكم عليه . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون . قال وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا اليه فلم يعذرهم الله . وجاءه المنافقون وهم ثمانون فأذن لهم . ثم استحث برسول الله السير فى سفره وأجمع السير ، وقد كان نفر من المسلمين تخلفوا عنه من غير شك ولا ارتياب ، منهم كعب بن مالك أخو بنى سلمة ومرارة بن الربيع أخو بنى عمرو بن عوف وهلال بن أمية أخو بنى واقف وأبو خيثمة أخو بنى سالم ، وكانوا نفر صدق لا يتهمون فى إسلامهم

فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنيـــة الوداع . قال ابن هشام : واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى . وذكر الدراوردى أنه استعمل سباع بن عرفطة . وخلف رسول الله على أهله على بن أبى طالب وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون وقالوا : ما خلفه إلا استثقالا منه وتخففا منه ، فلما قال ذلك المنافقون أخذ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله وهو نازل بالجرف فقال : يا نبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى أنك استثقلتنى وتخففت منى ، قال : كذبوا ، ولـكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى . فرجع إلى المدينة . قلت وفى الصحيح عن سعد أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف عليا ، فقال : أتخلفنى فى الصبيان والنساء ؟ قال : ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى ؟ انتهى . فهذا يدل على أنه استخلف عليا على المدينة كما رجحه ابن عبد البر ، وجزم ابن القيم بأن خلافة علىّ خاصة على الأهل ، وأما الاستخلاف العام فهو لمحمد بن مسلمة كما تقدم . قال

ابن اسحق : ومضى رسول الله ﷺ على سفره

ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياما إلى أهله فى يوم حار ، فوجد امرأتين له فى عريش لهما فى حائط قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت فيه ماء وهيأت له فيه طعاما . فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال : رسول الله فى الضحى والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأتين حسناوين فى ماله مقيم ؟ ما هذا بالنصف . ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فهيئا لى زادا . ففعلتا . ثم قدم ناضحه فارتحل ، ثم خرج فى طلب رسول الله حتى أدركه حين نزل تبوك ، وقد كان أدرك أبو خيثمة عمير بن وهب الجمحى فى الطريق يطلب رسول الله فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب : إن لى ذنبا فما عليك أن تتخلف عنى حتى آتى رسول الله . ففعل . حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك قال الناس : هذا راكب على الطريق . فقال رسول الله : كن أبا خيثمة . فقالوا : يا رسول الله هو والله أبو خيثمة . فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله وأخبره خبره . فقال له رسول الله خيراً ، ودعا له بخير

وقد كان رسول الله ﷺ حين مر بالحجر نزلها واستسقى الناس من بئرها ، فلما راحوا قال رسول الله : لا تشربوا من مائها شيئا ولا توضئوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئا ، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له . ففعل الناس ما أمرهم رسول الله ، إلا رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر فى طلب بعير له ، فأما الذى ذهب لحاجته فانه خنق على مذهبه ، وأما الذى ذهب فى طلب بعيره فحملته الريح حتى طرحته بجبل طيىء ، فأخبر رسول الله فقال : ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه ؟ ثم دعا رسول الله ﷺ للذى أصيب على مذهبه فشفى ، وأما الآخر فاهدته طيىء لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة . وفى صحيح مسلم عن أبى حميد : انطلقنا حتى أتينا تبوك ، فقال ﷺ :

تهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقم أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله . فهبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيء . وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : لما مر النبي ﷺ بالحجر قال : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم ، إلا أن تكونوا باكين . ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادى . وفى البخارى أنه أمرهم بإلقاء العجين . وفى مسلم أنه أمرهم أن يعلفوه الإبل وأن يهريقوا الماء وأن يستقوا من البئر التى كانت تردها الناقة . ورواه البخارى أيضا ، وقد حفظ راويه ما لم يحفظ الأول

وقال ابن اسحق : فلما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله ، فدعا رسول الله ﷺ فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء فقيل لبعض المنافقين : ويحك هل بعد هذا شيء ؟ قال : سحابة مارة . حتى إذا كان رسول الله ببعض الطريق ضلت ناقته ، فخرج أصحابه فى طلبها فقال زيد بن لصيت : أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ؟ فقال رسول الله إن رجلا قال : هذا محمد يخبركم بأمر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ، وأنا والله لا أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها وهى فى هذا الوادى من شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونى بها . فذهبوا فجاءوا بها

ثم مضى رسول الله ﷺ سائرا فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون : يا رسول الله تخلف فلان ، فيقول : دعوه ، فان يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه . حتى قيل : يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره . فقال : دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه . وتلوم على أبى ذر بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشيا ، ونزل رسول الله فى بعض منازله فقالوا : يا رسول الله إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله : كن أبا ذر . فلما تأمله القوم قالوا : يارسول الله هو والله أبو ذر . فقال رسول الله : رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت

وحده ، ويبعث وحده . قال ابن اسحق : فحدثنى بريدة بن سفيان الأسلمى عن محمد بن كعب القرظى عن عبد الله بن مسعود قال : لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة فأصابه بها قدره لم يكن معه بها أحد إلا امرأته وغلامه ، قال فأوصاهما أن غسلانى وكفنانى ثم ضعانى على قارعة الطريق فأول راكب يمر بكم فقولوا : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ، فأعينونا على دفنه . فلما مات فعلا ذلك به ، ثم وضعاه على قارعة الطريق ، وأقبل عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق عمارا ، فلم يرعهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل تطأها ، وقام اليهم الغلام فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه ، فاستهل عبد الله يبكى ويقول : صدق رسول الله ، تمشى وحدك وتموت وحدك ، ثم نزل هو وأصحابه فواروه ، ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه وما قال له رسول الله فى مسيره إلى تبوك

وقد كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو عمرو بن عوف ومنهم رجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مخشى بن حمير قال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض ؟ والله لكأنى بكم غداً مقرنين فى الحبال — إرجافا وترهيبا للمؤمنين — فقال مخشى بن حمير : والله لوددت على أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وأنا لنفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه . وقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر : أدرك القوم ، فانهم قد احترقوا فسلهم عن ما قالوه ، فان أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا . فانطلق اليهم عمار فقال لهم ، فأتوا رسول الله يعتذرون اليه ، فقال : وديعة بن ثابت : كنا نخوض ونلعب [فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾] ، وقال مخشى بن حمير : يا رسول الله قعد بى اسمى واسم أبى ، وكان الذى عفى عنه فى هذه الآية وتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر . قلت : روى ابن وهب أخبرنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس يوما : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب

ألسنا ولا أجبن عند اللقاء ، فقال رجل فى المجلس : كذبت ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله . فبلغ ذلك رسول الله ونزل القرآن . قال عبد الله بن عمر : وأنا رأيته متعلقا عقب ناقة رسول الله تنكبه الحجارة وهو يقول : يا رسول الله كنا نخوض ونلعب ، ورسول الله يقول . أبالله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم . قال ابن كثير . وقد رواه الليث بن سعد عن هشام بنحوه

فصل

قال ابن اسحاق . فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه صاحب أيلة ، فصالحه وأعطاه الجزية ، وأعطاه أهل جربا وأذرح بالذال المعجمة والراء والحاء المهملة بلدين بالشام بينهما ثلاثة أيام فأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله كتابا . وذكر ابن عائذ فى مغازيه أن رسول الله ﷺ نزل بتبوك فى زمان قد قل ماؤها فيه ، فاغترف رسول الله بيده غرفة من ماء فمضمض بها ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت ، فهى كذلك حتى الساعة . قلت : فى صحيح مسلم عن معاذ أنه ﷺ قال قبل وصوله اليها : إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتى . قال فجئنا وقد سبق اليها رجلان والعين تبض بشىء من مائها ، فسألهما رسول الله ، هل مسستما من مائها شيئا ؟ قالا نعم . وقال لهما ما شاء الله أن يقول . ثم غرف من العين قليلا قليلا حتى اجتمع الوشل ، ثم غسل رسول الله فيه وجهه ويده ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ، ثم قال رسول الله ﷺ : يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملىء جنانا

وذكر البيهقى فى الدلائل والحاكم من حديث عقبة بن عامر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فاسترقد رسول الله لما كان منها على ليلة ، فلم يستيقظ حتى كانت الشمس قيد رمح ، فقال : ألم أقل لك يا بلال اكلأ لنا الفجر ؟ فقال ، يارسول الله ذهب بى النوم الذى ذهب بك ، فانتقل رسول الله من ذلك المكان غير بعيد ثم صلى ، ثم ذهب بقية يومه وليلته

ثم أصبح فى تبوك ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال ، أما بعد فان أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص القرآن ، وخير الأمور عوارفها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دبراً ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما وقر فى القلب اليقين ، والارتياب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغلول من حر جهنم ، والسكر كى من النار ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، وشر المآكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى آخره ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الروايا روايا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتألى على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يتبع السمعة يسمع الله به ، ومن يتصبر يغفر الله له ، ومن يعص الله يعذبه . ثم استغفر ثلاثا . انتهى

ولمسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جمع بين الصلاتين فى غزوة تبوك ، فجمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، قال شعبة فقلت لابن عباس : ما حمله على ذلك ؟ قال : أراد أن لا يحرج أحد من أمته . وله عن معاذ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فكان يصلى الظهر والعصر جميعا ، والمغرب والعشاء جميعا . وأخرجه مالك فى الموطأ وزاد : فأخر الصلاتين يوماً ، ثم خرج فصلى الظهر والعصر

جميعا ثم خرج فصلى المغرب والعشاء جميعا . وفى رواية أبى داود والترمذى عن معاذ أن النبي ﷺ كان فى غزوة تبوك إذا ارتحل بعد زيغ الشمس صلى الظهر والعصر جميعا ، لكن أعلّ هذه الرواية جماعة من أئمة الحديث . وذكر البخارى أن بعض الضعفاء أدخلها على قتيبة حكاه الحاكم فى علوم الحديث . قال ابن عبد البر : هذا أوضح دليل على من قال لا يجمع إلا إذا جدّ به السير . انتهى

وبعث رسول الله خالد بن الوليد فى أربعمائة وعشرين فارسا إلى أكيدر بن عبد الملك من كندة ، وكان ملكا عليها وكان نصرانيا بدومة الجندل . قال أبو عبيد : دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيء ، ودومة من قريات من وادى القرى ، وذكر أن عليهم حصنا حصينا يقال له مارد وهو حصن أكيدر الملك ، فقال خالد : يا رسول الله كيف لى به وسط بلاد كلب وأنمار ، وأنا فى أناس يسير ؟ فقال رسول الله : ستلقاه يصيد الوحش أو قال البقر فتأخذه . فخرج خالد ومن معه فلما بلغ خالد قريبا من حصنه بمنظر العين وكانت ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له فى الحصن معه امرأته ، فباتت البقر تحك بقرونها باب الحصن ، وأشرفت امرأته على باب الحصن فقالت : ما رأيت كالليلة . وفى لفظ : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال لا والله . قالت : فمن يترك هذه الليلة ؟ قال لا أحد . فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته ومعه أخوه حسان فخرجوا من حصنهم بمطاردهم ، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ، فاستأسر أكيدر وامتنع حسان فقاتل حتى قتل ، وهرب من كان معه ودخل الحصن ، وكان على أكيدر قباء مخوّص بالذهب فاستلبه خالد وبعث به على رسول الله قبل قدومه به عليه . وفى الصحيح عن أنس قال : رأيت قباء أكيدر حين قُدم به على رسول الله فجعل المسلمون يلمسونه ويتعجبون منه ، فقال رسول الله ﷺ : أتعجبون من هذا ؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير من هذا . انتهى

وقال خالد لأكيدر : هل لك على أن أخيرك من القتل حتى آتى بك رسول الله على أن تفتح دومة الجندل ؟ قال نعم ذلك لك . فلما صالح خالد أكيدراً وأكيدر فى

وثاق ومضاد أخو أكيدر فى الحصن ، أبى مضاد أن يفتح باب الحصن لما رأى أخاه فى الوثاق ، فطلب أكيدر من خالد أن يصالحه على شئ حتى يفتح له باب الحصن وينطلق به وبأخيه إلى رسول الله ﷺ فيحكم فيهم بما شاء ، فرضى خالد بذلك فصالحه أكيدر على ألفى بعير وثلاثمائة فرس ، وأربعمائة درع وأربعمائة رمح ، ففعل خالد وخلى سبيله ، ففتح له باب الحصن فدخله وحقن دمه ودم أخيه ، فانطلق بهما إلى رسول الله ﷺ وهو قد وصل إلى المدينة ، فلما قدم بهما إلى رسول الله ﷺ صالحه على الجزية وخلى سبيلهما ، وكتب لهما كتاب إمارة . قال ابن الأثير : ومات أكيدر نصرانيا بلا خلاف بين أهل السير ، لأنه بعد المصالحة عاد إلى حصنه وبقى فيه فحاصره خالد زمن أبى بكر فقتله مشركا بنقضه العهد

فصل

فأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها ، وقيل عشرين ليلة يصلى بها ركعتين ولم يلق كيدا . وفى مسند أحمد أن هرقل كتب إلى النبى ﷺ : إنى مسلم ، فقال النبى كذب وهو على نصرانيته . ولأبى عبيد بسند صحيح نحوه ولفظه : قال كذب عدو الله ، ليس بمسلم . وفى المواهب اللدنية كتب رسول الله كتابا من تبوك إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام فقارب الإجابة ولم يجب رواه ابن حبان فى صحيحه عن أنس . وفى المنتقى شاور رسول الله أصحابه فى التقدم والمسير إليهم ، فقال عمر : إن كنت أمرت بالمسير فسر ، فقال رسول الله : لو أمرت ما استشرتكم فيه ، فقال عمر : يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت وأفزعهم دنوك ، لو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله لك فى ذلك أمراً عظيما . فانصرف رسول الله إلى المدينة ، ولم يلق كيدا . وكان فى الطريق ماء يخرج من وشل يروى الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له وادى المشقق فقال رسول الله ﷺ : من سبقنا إلى الماء فلا يسقين منه شيئا حتى نأتيه ، فسبقه اليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه ، فلما أتاه رسول الله وقف عليه فلم ير فيه شيئا فقال : من سبقنا إلى هذا ؟ فقيل

يا رسول الله فلان وفلان . فقال ألم أنهكم أن تستقوا منه شيئا حتى آتيه ؟ ثم لعنهم ودعا عليهم ، ثم نزل ووضع يده تحت الوشل ، فجعل يصب فى يده ما شاء الله أن يصب ، ثم نضحه به ومسحه بيده ودعا بما شاء الله أن يدعو ، فانخرق من الماء كما يقول من سمعه ، أما إن له حسا كحس الصواعق ، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه ، فقال رسول الله ﷺ : لئن بقيتم أو بقى منكم لتسمعن بهذا الطريق وقد أخصب ما بينه وما خلفه

وفى مرجعه ﷺ من تبوك هم المنافقون بالفتك به فعصمه الله منهم ، ذكر البيهقى فى الدلائل من حديث ابن اسحق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن حذيفة قال : كنت آخذا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة وأنا أسوق وعمار يقوده ، حتى إذا كنا بالعقبة فاذا أنا باثنى عشر راكبا قد اعترضوه فيها قال فأنبهت رسول الله فصرخ فيهم فولوا مدبرين ، فقال رسول الله : هل عرفتم القوم ؟ قلنا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ، ولكن عرفنا الركاب . قال : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيمة . قال : هل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا لا . قال : أرادوا أن يزحموا رسول الله فى العقبة فيقتلوه بها . قلنا يا رسول الله ألا تبعث لعشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال لا ، أكره أن تتحدث العرب أن محمدا قاتل بالقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم . اللهم ارمهم بالدبيلة . قلنا يارسول الله وما الدبيلة ؟ قال : شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك : ولأحمد عن أبى الطفيل قال : لما أقبل رسول الله من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى : إن رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار ، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل ، فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل ، فقال النبى ﷺ قد قد ، حتى هبط رسول الله ، فلما هبط ونزل رجع عمار فقال : يا عمار هل عرفت القوم ؟ فقال عرفت الرواحل والقوم متلثمون . قال : وهل تدرى ما أرادوا ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أرادوا أن ينفروا برسول الله ويطرحوه . قال فسارّ عمار رجلا من أصحاب النبى

فقال نشدتك بالله هل تعلم كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة . قال إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر ، قال فتعذر لرسول الله منهم ثلاثة وقالوا والله ما سمعنا منادى رسول الله ما علمنا ما أراد القوم . فقال عمار أشهد أن الاثنى عشر حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . انتهى . وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعمارا بأسمائهم وما هموا به وأمرهما أن يكتما عليهم ، وكان حذيفة يقال له صاحب السر الذى لا يعلمه غيره . قال الضحاك فى قوله تعالى ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ الآية ، أنها نزلت فى أهل العقبة

قال ابن اسحق : وحدثنى محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمى أن عبد الله بن مسعود يحدث قال : قمت من جوف الليل فى غزوة ، قال فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر فاتبعتها أنظر اليها فاذا رسول الله وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ورسول الله فى حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه اليه ، وهو يقول إدليا لى أخاكما ، فدلياه اليه ، فلما هيأه لشقه قال : اللهم إنى أمسيت راضيا عنه فارض عنه . قال يقول عبد الله بن مسعود : يا ليتنى كنت صاحب الحفرة . قال ابن هشام : إنما سمى ذا البجادين لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمعنه قومه من ذلك ويضيقون عليه حتى تركوه فى بجاد ليس عليه غيره ، والبجاد الكساء الغليظ . فهرب منهم إلى رسول الله ، فلما كان قريبا منه شق بجاده باثنتين فاتزر بواحدة واشتمل بالأخرى ، ثم أتى رسول الله فقيل له ذا البجادين

قال ابن اسحق : ثم أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين نزل بذى أوان وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، جاءه خبر مسجد الضرار من السماء ، وذكر غيره أن بنى عمرو بن عوف لما اتخذو مسجد قباء فبعثوا إلى رسول الله أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه ، فحسدتهم إخوتهم بنى غنم — وكانوا من منافقى الأنصار — فقالوا : نبنى مسجدا ونرسل إلى رسول الله فيصلى فيه كما صلى فى مسجد إخواننا ويصلى فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام . وروى عثمان بن سعيد الدارمى عن ابن عباس فى قوله ﴿ والذين

اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ هم ناس من الأنصار ابتنوا مسجداً ، فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فانى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه . فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا : إنا فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة ، فأنزل الله ﴿لا تقم فيه أبدا ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم – يعنى مسجد قباء – أحق أن تقوم فيه﴾ إلى قوله ﴿فانهار به فى نار جهنم﴾ يعنى قواعده ﴿لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم﴾ من الشك ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ يعنى بالموت . انتهى

قال ابن اسحق : وقد كان أهل مسجد الضرار ، أتوا رسول الله وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يارسول الله إنا بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وأنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه . فقال رسول الله : إنا على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله أتينا فصلينا لكم فيه . فلما انصرف رسول الله من تبوك ونزل بذى أوان أتاه المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار فسألوه إتيان مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فنزل عليه القرآن وأخبره الله تعالى خبرهم وما هموا به ، فدعا رسول الله مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن فقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه . فخرجوا سراعا حتى أتوا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك : انظرونى حتى أخرج اليكم بنار من أهلى . فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد فحرقوه وهدموه وتفرق أهله عنه . ولما دنا رسول الله ﷺ من المدينة خرج الناس لتلقيه وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

قال فى الهدى : وبعض الناس يهم فى هذا ويقول : إنما كان ذلك عند مقدمه من مكة ، وهو وهم ظاهر ، لأن ثنيات الوداع إنما هى من ناحية الشام . فلما أشرف على

المدينة قال « هذه طابة وهذا جبل أُحد يحبنا ونحبه » . وفى البخارى لما رجع النبى ﷺ من غزوة تبوك فدنا من المدينة قال : إن بالمدينة رجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر . قالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة ؟ قال . وهم بالمدينة

فصل

ولما دخل المدينة بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ـ كما فى حديث كعب بن مالك فى الصحيحين ـ ثم جلس للناس ، فجاء المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل رسول الله منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله . وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من غير شك ولا نفاق : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، وأمر رسول الله أصحابه أن لا يكلموا هؤلاء الثلاثة

وروى البخارى ومسلم وغيرهما عن كعب بن مالك قال : ما تخلفت عن رسول الله فى غزوة غزاها قط ، غير أنى كنت قد تخلفت عنه فى غزوة بدر ، وكان غزوة بدر لم يعاتب أحد تخلف عنها ، وذلك أن رسول الله إنما خرج يريد عير قريش ، فجمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت غزوة بدر أذكر فى الناس منها . وكان من خبرى حين تخلفت عنه فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت لى راحلتان قط حتى اجتمعنا فى تلك الغزوة ، وكان رسول الله قل ما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله فى حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ، واستقبل عدواً كثيراً فجلا للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته ، وأخبرهم بوجهه الذى يريده ، والمسلمون مع رسول الله كثير لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وجعلت أغدو لأتجهز معه فأرجع ولم أقض

شيئا فأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إن أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى شمر بالناس الجد وأصبح رسول الله غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا ، فقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحق بهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت فلم أقض شيئا ، ثم غدوت ورجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو . فهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتنى فعلت ولم أفعل ، وجعلت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله فطفت فيهم يحزننى أن لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه بالنفاق ، أو رجلا ممن عذره الله من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه ونظره فى عطفيه ، فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً ، فسكت رسول الله . فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ توجه قافلا حضرنى همى وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بما أخرج من سخطة رسول الله غدا ؟ وأستفتى على ذلك كل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل لى إن رسول الله قد قفل قادما زاح عنى الباطل وعرفت أنى لا أنجو منه إلا بالصدق ، فأجمعت أن أصدقه . وأصبح رسول الله قادما إلى المدينة ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل رسول الله علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم الى الله ، حتى جئت فسلمت عليه ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعالى . فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكن والله قد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه إنى لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت . فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم

حتى يقضى الله فيك . وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت الى رسول الله بما اعتذر به المخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله لك ، فوالله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم رجلان قالوا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أمية الواقفى . فذكروا لى رجلين صالحين شهدا بدرا فيهما أسوة — ولم يذكر ابن اسحق فى روايته قد شهدا بدرا — فمضيت حين ذكروهما لى

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم ، وكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف الأسواق فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه فأسارقه النظر ، فاذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال علىّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام ، فقلت . يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت . فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فقال . الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار قال فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءنى دفع الى كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه « أما بعد فانه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسيك » فقلت لما قرأتها ،

وهذا أيضا من البلاء . زاد ابن اسحق قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فىّ رجل من أهل الشرك . فتيممت بها التنور فسجرته بها . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول لرسول الله ﷺ فقال : إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك : فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال لا بل اعتزلها ولا تقربنها . وأرسل إلى صاحبىّ مثل ذلك . فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر . قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أميـة الى رسول الله فقالت . يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربنك . قالت : إنه والله مابه حراك إلى شئ ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان الى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله وما يدرينى ما يقول رسول الله إذا استأذنته وأنا رجل شاب ، فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت خمسين ليلة من حين نهى رسول الله عن كلامنا . فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله . قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت ـ زاد ابن اسحق . وقد كنت ابتنيت خيمة فى ظهر سطح فكنت أكون فيها ـ إذ سمعت صوت صارخ على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . فخررت ساجدا ، وعرفت أن جاء الفرج . قال وآذن رسول الله بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبى مبشرون . وركض رجل إلىّ فرسا وسعى ساع من أسلم حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاء الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىّ فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت الى رسول الله ﷺ ، فتلقانى الناس فوجا فوجا يهنئونى بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله عليك . قال كعب : حتى دخلت المسجد ، فاذا رسول الله جالس وحوله الناس ، فقام إلىّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، ووالله ما قام الى رجل من

المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة . فلما سلمت على رسول الله ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . قال قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله . وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله قال رسول الله : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قلت : فإنى أمسكت سهمى الذى بخيبر ، فقلت يا رسول الله إنما نجانى الله بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت . فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين ابتلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله أحسن مما ابتلانى ، وما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله إلى يومى هذا كذبا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى - وأنزل الله على رسوله ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار ﴾ إلى قوله ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ قال كعب . فوالله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله يومئذ أن لا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فان الله تبارك وتعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، فقال ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم إنهم رجس ﴾ الآيتين . قال كعب : وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ وليس الذى ذكر الله من تخلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر اليه فقبل منه . انتهى

وقوله فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً . قال فى الهدى : هذا الموضع مما عد من أوهام الزهرى ، فانه لا يحفظ عن أحد من أهل المغازى والسير البتة ذكر هذين الرجلين فى أهل بدر ، لا ابن اسحق ولا ابن عقبة ولا الواقدى ، وكذلك ينبغى أن لا يكونا من أهل بدر ، فإن النبى ﷺ لم يهجر حاطبا ولا عاقبه وقد حبس اليه ، وأين

ذنب التخلف عن ذنب الحبس ؟ قال أبو الفرج بن الجوزى . ولم أزل حريصا على كشف ذلك وتحقيقه حتى رأيت أبا بكر الأثرم قد ذكر الزهرى وفضله وحفظه وإتقانه وأنه لا يكاد يحفظ عليه غلطا إلا فى هذا الموضع ، وهذا لم يقله أحد غيره ، والغلط لا يعصم منه إنسان

فصل

قالوا . ولما قدم رسول الله ﷺ من تبوك وجد عويمر العجلانى امرأته حبلى فلاعن عليه السلام بينهما كما ثبت ذلك فى الصحيحين وغيرهما

وفيها رجم رسول الله المرأة الغامدية وذلك أنها جاءته فقالت . يا رسول الله إنى قد زنيت وأنا أريد أن تطهرنى ، فقال لها النبى ﷺ : ارجعى . ثم أتته الغد فقالت أيضا ، وبعد الغد أيضا وقالت : يا رسول الله طهرنى ، فلعلك تردنى كما رددت ماعز بن مالك ، فوالله إنى لحبلى من الزنا ، فقال لها ، ارجعى حتى تلدى . فلما ولدت جاءت بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت : يا نبى الله ، هذا فطمته . فأمر النبى ﷺ بالصبى فدفع إلى رجل من المسلمين وأمر بها فحفر لها حفرة فجعلت فيها الى صدرها ثم أمر الناس أن يرجموها ، فأتى خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد ابن الوليد فسبها ، فسمع النبى ﷺ سبه إياها فقال : مهلا يا خالد ، لا تسبها فوالذى نفس محمد بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له . فأمر بها فصلى عليها ودفنت

قالوا وفى هذه السنة توفى النجاشى ملك الحبشة فى المغرب واسمه أصحمة وهو الذى هاجر اليه المسلمون ، فنعاه النبى ﷺ ، وخرج إلى المصلى وصفّ أصحابه خلفه وكبر عليه أربع تكبيرات كما ثبت ذلك فى الصحيحين ، وتقدم ذلك عند ذكر هجرة الحبشة

وفيها توفيت أم كلثوم بنت رسول الله تحت عثمان بن عفان ، فحزن عليها حزنا شديداً فقال ﷺ لو كانت عندى ثالثة لزوجتكها يا عثمان . وجلس عليه الصلاة والسلام

على قبرها وعيناه تدمعان وقال : هل منكم أحد لم يقارف الليلة أهله ؟ فقال أبو طلحة : أنا يا رسول الله . فقال : انزل ، فنزل فى قبرها أبو طلحة كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى

وفيها مات عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين ، فأتاه النبى ﷺ فشهده وصلى عليه وألبسه قميصه . ولما قام ﷺ ليصلى عليه وثب اليه عمر فقال : يا رسول الله أتصلى على ابن أبىّ وقد قال كذا يوم كذا وعدد قوله ، فتبسم رسول الله وقال أخر عنى يا عمر . فلما أكثر عليه قال : إنى خيرت فاخترت ، ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها . فصلى عليه رسول الله ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ﴾ الآيتان قال عمر : فعجبت من جرأتى على رسول الله يومئذ ، والله ورسوله أعلم . وعن جابر بن عبد الله قال : أتى رسول الله عبد الله بن أبى عندما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضع على ركبتبه فنفث فيه من ريقه وألبسه قميصه ، وكان كسا عباسا قميصا لما أتى به يوم بدر ولم يكن عليه ثوب ، فوجدوا قميص عبد الله بن أبى يقدر عليه كساه النبى ﷺ إياه فلذلك ألبسه عليه الصلاة والسلام قميصه ، قال ابن عيينة كانت له عند النبى ﷺ يد فأحب أن يكافئه

وفى هذه السنة قدم النبىَّ ﷺ كتاب ملوك حمير مقدمه من تبوك سنة تسع ، وهم الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان بن قيل ذى رعين وهمدان ومعافر ورسولهم اليه ﷺ مالك بن مرة الرهاوى . قال الواقدى : بعث زرعة ذو يزن إلى رسول الله مالك بن مرة بإسلام ملوك حمير ومفارقتهم الشرك وأهله ، وقد كان رسول الله فى مسيره الى تبوك يقول : إنى بشرت بالكنزين فارس والروم ، وأمددت بالملوك ملوك حمير يأكلون فى الله ويجاهدون فى سبيل الله ، فلما قدم مالك بن مرة بإسلامهم كتب اليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله النبى ، الى الحارث بن عبد كلال وإلى نعيم بن عبد كلال وإلى النعمان بن قيل ذى رعين ومعاذ وهمدان. أما بعد فانى أحمد

اليكم الله الذى لا إله إلا هو أما بعد فانه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة ، فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قلتم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين وأن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبى وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة (وبين لهم صدقة الزرع والإبل والبقر والغنم . ثم قال) : فمن زاد فهو خير له ، ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فانه من المؤمنين له مالهم وعليه ما عليهم . ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فانه لا يرد عنها وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف من قيمة المعافر أو عوضه ثيابا ، فمن أدى ذلك الى رسول الله فان له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه فانه عدو لله ولرسوله . أما بعد فان محمدا النبى أرسل إلى زرعة ذى يزن أنْ إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيرا معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم ، وإن جمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم فأبلغوها رسلى ، وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيا . أما بعد فان محمدا يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله . ثم إن مالك بن مرة الرهاوى قد حدثنى أنك قد أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين ، فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيراً ، ولا تخونوا ولا تخاذلوا فان رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم . وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته ، إنما هى زكاة يزكى بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل ، وإن مالكا قد بلغ الخير وحفظ الغيب وآمركم به خيراً ، وإنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى ، وأولى دينهم وأولى علمهم ، وآمركم بهم خيراً فانه منظور اليهم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فهذا ما ذكره ابن اسحق من شأن ملوك حمير وما كتبوا به وما كتب اليهم

وفى هذه السنة فى ذى القعدة بعث رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج ذكره ابن سعد وغيره بسند صحيح عن مجاهد ، ووافقه عكرمة بن خالد ، وقال قوم : فى ذى الحجة ، وبه قال الداودى والماوردى ومحمد بن سعد ، ويؤيده أن ابن اسحق صرح بأن النبى ﷺ

أقام بعدما رجع من تبوك رمضان وشوالا وذا القعدة ، ثم بعث أبا بكر على الحج ، فيكون حجه فى ذى الحجة . والله أعلم

ثم حج رسول الله ﷺ فى العام القابل فى ذى الحجة وذلك حين قال رسول الله فى حجته تلك « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » وذلك أن العرب كانوا يستعملون النسىء فيؤخرون المحرم الى صفر ثم كذلك حتى تتدافع الشهور فيستدير التحريم على السنة كلها ، روى نحو هذا عن مجاهد . قال ابن كثير فى تفسيره : وقول مجاهد فيه نظر . وأيضا كيف تصح حجة فى ذى القعدة وأنّى هذا ؟ وقد قال الله ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر ﴾ الآية . وإنما نودى بذلك فى حجة أبى بكر ، فلو لم يكن فى ذى الحجة لما قال الله ﴿ وأذان من الله ورسوله يوم الحج الأكبر ﴾ ولا يلزم من فعلهم النسىء الذى ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم فى كل عام شهرا ، فان النسىء حاصل بدون هذا ، فانهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما عوضوا صفر وبعده ربيعا وربيع الآخر والسنة حالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ، ثم فى العام القابل يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفر وربيعا وربيعا الآخر الى آخرها ، فيحلونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله أى فى تحريمه أربعة أشهر من السنة ، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم وتارة ينسوئه الى صفر أى يؤخرونه . وأما قوله ﷺ « إن الزمان قد استدار كهيئته » الى آخره ، فهو تقدير منه وتثبيت للناس على ما جعله الله لهم فى أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ولا نقص ولا نسىء ولا تبديل ، كما قال فى تحريم مكة « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيمة » وهكذا قال ههنا « إن الزمان قد استدار » الخ ، أى الأمر شرعا كما ابتدأ الله ذلك فى كتابه يوم خلق السموات والأرض . انتهى كلامه

قال ابن اسحق : ثم أقام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان وشوالا وذا القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميرا على الحج من سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم ، والناس من أهل

الشرك على منازلهم من حجهم ، فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين ،قال فى المواهب : وكان معه ثلاثمائة رجل من المدينة وعشرون بدنة . قال ابن اسحاق ونزلت براءة فى نقض ما بين رسول الله وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه : أن لا يصدوا عن البيت أحداً جاءه ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام ، وكان ذلك عهداً عاما بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت بين رسول الله ﷺ وبين قبائل العرب خصائص الى آجال مسماة ، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه فى تبوك وفى قول من قال منهم ، فكشف الله فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون منهم من سمى لنا ومنهم من لم يسمَّ لنا . قال ابن اسحق : وكانت براءة تسمى فى زمان رسول الله وبعده المبعثرة لما كشفت من سرائر الناس

قال وحدثنى حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبى جعفر محمد بن على أنه لما نزلت براءة على رسول الله قيل له : يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبى بكر ، فقال : لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى ، فدعا على بن أبى طالب فقال : أخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك . ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له مدته . فخرج علىّ على ناقة رسول الله العضباء ، حتى أدرك أبا بكر الصديق ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ قال : بل مأمور . ثم مضيا وأقام أبو بكر للناس الحج

وللنسائى عن جابر قال كنا مع أبى بكر فى حجته ، فلما كان بالعرج ثوّب بالصبح ، فلما استوى للتكبير سمع الرغوة خلف ظهره ، فوقف عن التكبير فقال : هذه رغوة ناقة رسول الله الجدعاء ، لقد بدا لرسول الله فى الحج ، فلعله أن يكون رسول الله فنصلى معه فاذا هو علىٌّ عليها ، فقال له أبو بكر : أمير أم رسول ؟ فقال : لا بل رسول ، أرسلنى رسول الله ﷺ ببراءة أقرؤها على الناس فى مواقف الحج . فقدمنا مكة ، فلما كان قبل يوم التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس فحدثهم عن مناسكهم ، حتى إذا فرغ

قام عليّ فقرأ على الناس براءة حتى ختمها ، ثم كان يوم النحر فأفضنا ، فلما رجع أبو بكر خطب الناس فحدثهم عن إفاضتهم وعن نحرهم وعن مناسكهم ، فلما فرغ قام على فقرأ على الناس براءة حتى ختمها ، فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر فخطب الناس فحدثهم كيف ينفرون وكيف يرمون ، يعلمهم مناسكهم ، فلما فرغ قام على فقرأ على الناس براءة حتى ختمها . وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن أبا بكر بعثه فى الحجة التى أمره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع فى رهط يؤذن فى الناس يوم النحر أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ثم أردف النبى ﷺ بعلى بن أبى طالب وأمره أن يؤذن ببراءة ، فأذن معنا فى أهل منى ببراءة أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . قال فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام ، فلم يحج فى العام القابل الذى حج فيه رسول الله حجة الوداع مشرك ، فأنزل الله فى العام الذى نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين ﴿يا أيها الذين آمنو إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ الآية . وفى رواية للبخارى : فكان حميد بن عبد الرحمن يقول يوم النحر يوم الحج الأكبر ، من أجل حديث أبى هريرة . وقال الحميدى : حدثنا سفيان حدثنى أبو إسحق الهمدانى عن زيد بن يثيع قال : سألنا عليا بأى شئ بعثت فى الحج ؟ قال « بعثت بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع كافر ومؤمن فى المسجد الحرام بعد عامه هذا ، ومن كان بينه وبين النبى عهد فعهدته إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله الى أربعة أشهر »

قال فى الهدى : واختلف فى حجة الصـــديق هل هى التى أسقطت الفرض ، أو المسقطة هى حجة الوداع مع النبى ﷺ ؟ على قولين أصحهما الثانى والقولان مبنيان على أصلين : أحدهما هل كانت حجة الصديق فى ذى الحجة أو وقعت فى ذى القعدة من أجل النسىء الذى كان أهل الجاهلية يؤخرون له الأشهر ؟ والثانى قول مجاهد وغيره ، وعلى هذا فلم يؤخر النبى ﷺ الحج بعد فرضه عاما واحداً ، بل بادر إلى الامتثال فى العام الذى فرض فيه ، وهذا هو الأليق بهديه وحاله ، وليس بيد من ادعى تقدم فرض الحج

سنة ست أو سبع أو ثمان دليل واحد ، وغاية ما احتجوا به قوله تعالى ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ وهى نزلت بالحديبية سنة ست ، وهذا ليس فيه ابتداء فرض الحج ، إنما فيه الأمر بإتمامه إذا شرع فيه ، وآية فرض الحج هى قوله ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ الآية وهى نزلت عام الوفود أواخر سنة تسع . انتهى والله أعلم

فصل

فى قدوم وفود العرب وغيرهم على رسول الله ﷺ

وقد كان ابتداء الوفود بعد رجوعه عليه السلام من الجعرانة آخر سنة ثمان وما بعدها . وقال ابن اسحق : لما افتتح رسول الله مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، قال ابن هشام : حدثنى أبو عبيدة أن ذلك فى سنة تسع ، وأنها كانت تسمى « سنة الوفود » . قال ابن اسحاق : وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحىّ من قريش وأمر رسول الله ، وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت والحرم وصريح ولد اسمعيل ابن ابراهيم ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله وخلافه ، فلما افتتحت مكة ودانت قريش عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ، فدخلوا فى دين الله كما قال عز وجل ﴿ أفواجا ﴾ فقدم عليه وفد هوازن وهو بالجعرانة كما تقدم ، وقدم عليه وفد ثقيف وتقدم ذلك أيضا . وقدم عليه وفد بنى تميم وتقدم ذلك أيضا ، وقدم عليه وفد بنى عامر بن صعصعة وفيهم عامر بن الطفيل عدو الله وأربد بن قيس أخو ابيد الشاعر لأمه وخالد بن جعفر وجبار بن أسلم ابن مالك ، وكان هؤلاء النفر الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم ، فأقبل عدو الله عامر وأربد يريدان أن يغدرا برسول الله ، فقيل يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك . فقال رسول الله ﷺ : دعوه ، إن يرد الله به خيرا يهده . فأقبل حتى قام عليه فاستشرف الناسُ لجمال عامر ، وكان من أجمل الناس ، فقال : يا محمد ما لى إن أسلمت ؟

قال : لك ما للمسلمين وعليك ماعليهم . فقال : تجعل الأمر لى بعدك ؟ قال : ليس ذلك إلىّ ، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء . قال : فاجعلنى على الوبر وأنت على المدر . قال : لا . قال : فما ذا تجعل لى ؟ قال : أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها . قال وليس ذلك إلىّ اليوم ؟ وكان عامر قال لأربد : إذا قدمنا على الرجل فأنا شاغل عنك وجهه فاذا رأيتنى أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف ، فدار أربد ليضربه فاخترط من سيفه شبرا ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله فعصم الله نبيه . فالتفت رسول الله فرأى أربد وما يصنع بسيفه فقال : اللهم اكفنيهما بما شئت . فلما خرجوا من عند رسول الله قال عامر لأربد : أين ما أمرتك به ؟ قال : ويحك والله ما هممت بالذى أمرتنى به إلا وحلتَ بينى وبينه ، أفأضربك بالسيف ؟ فأرسل الله على أربد وجمله صاعقة فأحرقته وكان أربد أخا لبيد لأمه ، فبكاه ورثاه . ومما قال :

أخشى على أربد الحتوف ولا ... أرهب نوء السماك والأسد
ما أن تعرى المنون من أحد ... لا والد مشفق ولا ولد
فجعنى الرعد والصواعق بالفـــارس يوم الكريهة النجد
يا عين هلا بكيت أربد إذ ... قمنـــا وقام الخصوم فى كبد

وقال :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم ... وبقيت فى خلف كجلد الأجراب
لا ينفعون ولا يرجَّى خيرهم ... ويعاب قائلهم وإن لم يشغب
إن الرزية لا رزية مثلها ... فقدان كل أخ كضوء الكوكب

قال ابن عبد البر : ومما يستجاد قوله فى قصيدة يرثى بها أخاه :

أعاذل ما يدريك إلا تظننا ... إذا رحل السفار من هو راجع
أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى ... وأين كريم لم تصبه القوارع
لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى ... ولا زاجرت الطير ما الله صانع
وما المرء إلا كالشهاب وضوؤه ... يعود رمادا بعد إذ هو ساطع

وما البر إلا مضمرات من التقى　　وما المال إلا معمرات ودائع

قال ابن اسحق : وأنزل الله عز وجل ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ وفى رواية قال عامر : والله لأربطن بكل نخلة فرسا . فقال رسول الله : يمنعك الله من ذلك وأبناء قيلة . يعنى الأوس والخزرج . وفى صحيح البخارى : إن عامرا أتى النبى ﷺ فقال أخيرك بين خصال ثلاث : يكون لك أهل السهل ولى أهل المدر ، أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء . فطعن فى بيت امرأة فقال : أغدة كغدة البعير فى بيت امرأة من بنى فلان ؟ ايتونى بفرسى ، فركب ، فمات على ظهر فرسه

وقد وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ ، وهى قبيلة كبيرة ينسبون الى عبد القيس بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار . وفى الصحيحين عن ابن عباس أن وفد عبد القيس قدموا ، فقال رسول الله : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة قال مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى . فقالوا يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، وإنا لا نصل اليك إلافى شهر حرام ، فمرنا بأمر فصل نأخذ به من وراءنا وندخل به الجنة . فقال « آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ماالإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس . وأنهاكم عن أربع : الدباء والحنتم والنقير والمزفت . فاحفظوهن وادعوا إليهن من وراءكم » زاد مسلم قالوا : يا رسول الله ما علمك بالنقير ؟ قال : بلى ، جذع تنقرونه ثم تلقون فيه من التمر ثم تصبون عليه الماء حتى يغلى ، فاذا سكن شربتموه ، فعسى أن يضرب ابن عمه بالسيف . وفى القوم رجل به ضربة لذلك . قال : وكنت أخبؤها حياء من رسول الله . قالوا : ففيم نشرب يارسول الله ؟ قال : اشربوا فى أسقية الأدم التى تلاث على أفواهها . قالوا : يا رسول الله إن أرضنا كثيرة الجرذان لا تبقى بها أسقية الأدم . قال : وإن أكلتها الجرذان (مرتين أو ثلاثا) . ثم قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس : إن فيك لخصلتين يحبهما الله : الحلم

والأناة. قال فى الهدى : وفى هذه القصة أن الإيمان بالله مجموع هذه الخصال من القول والعمل كما على ذلك أصحاب رسول الله والتابعون وتابعوهم كلهم . ذكره الشافعى فى المبسوط . وفيها أنه لم يعدّ الحج من هذه الخصال . وكان قدومهم فى سنة تسع ، وهذا أحد ما يحتج به على أن الحج لم يكن فرض بعد ، وأنه إنما فرض فى العاشرة

وقدم على رسول الله ﷺ (وفد بنى حنيفة) فيهم مسيلمة الكذاب . قال ابن اسحق عن شيخ من أهل اليمامة : إن وفد بنى حنيفة أتوا رسول الله وخلفوا مسيلمة فى رحالهم ، فلما أسلموا ذكروا له مكانه فقالوا : يا رسول إنا قد خلفنا صاحبا لنا فى رحالنا وركابنا . فأمر له رسول الله بما أمر للقوم وقال : أما إنه ليس بشركم مكانا ، يعنى حفظه ضيعة أصحابه . ثم انصرفوا وجاءوه بالذى أعطاه ، فلما قدم اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وقال : إنى أشركت فى الأمر معه ، ألم يقل لكم حين ذكرتمونى : إنه ليس بشركم مكانا . ثم جعل يسجع السجعات فيقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن « لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين شغاف وحشا » ووضع عنهم الصلاة ، وأحل لهم الخمر والزنا ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله أنه نبى . فأصفقت معه بنو حنيفة على ذلك . وقد كان كتب لرسول الله ﷺ : من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله ، أما بعد فانى قد أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر ، وليس قريش قوما يعدلون . فقدم عليه رسوله بهذا الكتاب ، فكتب اليه رسول الله « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فكان فى آخر سنة عشر . وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : لما قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله فجعل يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتبعته . وقدمها فى بشر كثير من قومه ، فأقبل النبى ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفى يد النبى ﷺ قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : إن سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعد أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله وإن أراك

الذى رأيتُ فيه ما رأيت ، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عنى . ثم انصرف . قال ابن عباس : فسألت عن قول رسول الله ﷺ : وإن أراك الذى رأيت فيه ما رأيت ، فأخبرنى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمنى شأنهما ، فأوحى إلى فى المنام أن أنفخهما فنفختهما ، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى : أحدهما العنسى صاحب صنعاء ، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة . وهذا أصح من حديث ابن اسحاق المتقدم

وقدم (وفد طيء) على النبى ﷺ وفيهم زيد الخيل وهو سيدهم ، فلما انتهوا اليه كلمهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم ، وقال ﷺ : ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل فانه لم يبلغ كل ما فيه ، ثم سماه « زيد الخير » وأقطعه فيد وأرضين معه وكتب بذلك . وخرج من عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله : إن ينج زيد من حمى المدينة فانه . فلما انتهى إلى ماء من مياه نجد يقال له فردة أصابته الحمى فمات . كذا ذكر ابن اسحق . قال ابن عبد البر . وقيل مات فى آخر خلافة عمر . وفى رواية قال ﷺ « يا زيد تقتلك أم ملدم » يعنى الحمى ، فلما رجع إلى أهله حم ومات . وله ابنان حريث ومكنف أسلما وصحبا رسول الله وشهدا قتال أهل الردة

وقدم (وفد كندة) سنة عشر . قال ابن اسحق حدثنى ابن شهاب أنهم قدموا فى ثمانين أو ستين راكبا من كندة فيهم الأشعث بن قيس ، فدخلوا عليه مسجده وقد رجلوا جممهم وتكحلوا عليهم جبات الحبرات مكفوفة بالحرير ، فلما دخلوا قال رسول الله ﷺ : أو لم تسلموا ؟ قالوا : بلى . قال : فما هذا الحرير فى أعناقكم ؟ فشقوه ونزعوه فألقوه . وفى المسند عن الأشعث بن قيس قال : قدمنا على رسول الله ﷺ وفد كندة ولا يرون إلا أنى أفضلهم ، قلت يا رسول الله ألستم منا ؟ قال : لا نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا . فكان الأشعث يقول : لا أوتى برجل نفى رجلا من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد . قال فى الهدى : وفيه من الفقه

أن من كان من ولد النضر فهو من قريش . وفيه جواز إتلاف المال المحرم استعماله كثياب الحرير على الرجال ، وأن ذلك ليس إضاعة . وللنبى ﷺ جدة من كندة مذكورة وهى أم كلاب بن مرة وإياها أراد الأشعث . وفيه أن من انتسب الى غير أبيه فقد انتفى من أبيه ، وقفا أمه أى رماها بالفجور . وفيه أن كندة ليسوا من ولد النضر ابن كنانة . وفيه أن من أخرج رجلا من نسبه المعروف جلد حد القذف .

قال ابن اسحق : وقدم فروة بن مسيك المرادى مفارقا لملوك كندة ومباعدا لها إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم ؟ فقال : من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الردم ولا يسوؤه ذلك ؟ فقال له رسول الله : أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرا . واستعمله على مراد وزبيد ومذحج كلها . وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة ، فكان معه فى بلاده حتى توفى رسول الله

وقد كان بين مراد وهمدان وقعة قبل الإسلام أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا حتى أثخنوهم فى يوم كان يقال له يوم الردم ، وفى ذلك يقول فروة بن مسيك .

مررت على لفات وهى خوص ينازعن الأعنة ينتحينا
فان نغلب فغلابون قدماً وإن نغلب فغير مغلبينا
وما إن طبنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا
كذاك الدهر دولته سجال تكر صروفه حينا فحينا
فبينا ما نسر به ونرضى ولو لبثت غضارته سنينا
إذ انقلبت به كرات دهر وألفيت الألى غبطوا طحينا
فمن يغبط بريب الدهر منهم يجد ريب الزمان له خؤونا
فلو خلد الملوك إذاً خلدنا ولو بقى الكرام إذاً بقينا
فأفنى ذلكم سرواب قومى كما أفنى القرون الأولينا

وقدم عمرو بن معدى كرب على رسول الله ﷺ فى أناس من زبيد فأسلم ، ثم رجع إلى قومه فأقام فيهم وعليهم فروة بن مسيك ، فلما توفى رسول الله ارتد عمرو بن معدى كرب ثم رجع إلى الإسلام وقتل فى قتال العجم زمن عمر رضى الله عنه

وقدم على رسول الله ﷺ الأشعريون وأهل اليمن ، روى يزيد بن هرون من حميد عن أنس أن النبى ﷺ قال : يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوبا ، فقدم الأشعريون فجعلوا يرتجزون :

غداً نلقى الأحبه محمدا وحزبه

ولمسلم عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ « جاء أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وأضعف قلوبا . الإيمان يمان والحكمة يمانية . السكينة فى أهل الغنم ، والفخر والخيلاء فى الفدادين أهل الوبر قبل مطلع الشمس » وفى البخارى عن عمران أن نفراً من بنى تميم جاءوا الى رسول الله فقال «أبشروا يا بنى تميم » فقالوا بشرتنا فأعطنا ، فتغير وجه النبى ﷺ ، وجاءه نفر من أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى إذا لم يقبلها بنو تميم . قالوا قد قبلنا . ثم قالوا يا رسول الله جئنا لنتفقه فى الدين ، ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال : كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء . وكتب فى الذكر كل شىء . انتهى . وليس أراد اجتماع الأشعريين وأهل اليمن فى الوفادة ، فان الأشعريين قد قدموا مع أبى موسى سنة سبع فى فتح خيبر ، وقدوم هؤلاء كان سنة الوفود سنة تسع ، ولهذا اجتمعوا مع تميم

وقدم على رسول الله صرد بن عبد الله الأزدى فأسلم وحسن إسلامه فى وفد من الأزد ، فأمره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن ، فخرج يسير بأمر رسول الله حتى نزل بجرش وهى يومئذ مدينة مغلقة وبها قبائل من قبائل العرب ، قال : وقد ضوت اليهم خثعم فدخلوا معهم حين سمعوا بمسير المسلمين اليهم فحاصروهم قريبا من شهر وامتنعوا فيها

فرجع عنهم قافلا حتى إذا كان فى جبل لهم يقال له سكر ظن أهل جرش أنه إنما ولى عنهم منهزما فخرجوا فى طلبه حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلا شديدا ، وقد كان أهل جرش بعثوا الى رسول الله ﷺ رجلين منهم يرتادان وينظران ، فبينما هما عند رسول الله ﷺ عشية بعد العصر إذ قال رسول الله : بأى بلاد الله شكر ؟ فقام الجرشيان فقالا : يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كسر ، وكذلك يسميه أهل جرش . فقال : إنه ليس بكسر ولكنه شكر . قالا : فما شأنه يا رسول الله ؟ قال : إن بدن الله لتنحر عنده الآن . قال فجلس الرجلان إلى أبى بكر أو إلى عثمان فقال لهما : ويحكما إن رسول الله ﷺ لينعى لكما قومكما ، فقوما فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما . فقاما اليه فسألاه ذلك فقال : اللهم ارفع عنهم . فخرجا من عند رسول الله راجعين الى قومهما فوجدا قومهما قد أصيبوا فى اليوم الذى قال فيه رسول الله ﷺ ما قال وفى الساعة التى ذكر فيها ما ذكر ، فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا ، وحمى لهم حمى حول قريتهم . ذكره ابن اسحق فى السيرة

وقدم وفد بنى الحارث بن كعب . قال ابن اسحق : ثم بعث رسول الله خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا ، فان استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم . فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون : أيها الناس أسلموا تسلموا . فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا اليه . قال : فقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام ، فكتب الى رسول الله بذلك ، فكتب اليه رسول الله أن أقبل ويقبل معك وفدهم . فأقبل وأقبل معه وفدهم ، منهم قيس بن الحصين ذى الغصة ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وعبد الله بن قراد وشداد بن عبد الله ، وقال لهم رسول الله ﷺ بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا : كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحدا بظلم . قال صدقتم . وأمر عليهم قيس بن الحصين فرجعوا إلى قومهم فلم يمكثوا إلا أربعة أشهر حتى توفى رسول الله ﷺ

وقدم عليه وفد همدان ، منهم مالك بن النمط ومالك بن أيفع وضمام بن مالك وعمرو بن مالك ، فلقوا رسول الله مرجعه من تبوك وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم العدنية على الرواحل المهرية ومالك بن النمط يرتجز بين يدى رسول الله يقول :

همدان خير سوقة وأقيال ليس لها فى العالمين أمثال
محلها الهضب ومنها الأبطال لهــــا اطابات بها وآكال

ويقول الآخر :

اليك جاوزن سواد الريف فى هبوات الصيف والخريف
مخطمات بحبال الليف

وذكروا له كلاما كثيرا حسنا فصيحا ، فكتب لهم رسول الله كتابا أقطعهم فيه ما سألوه ، وأمر عليهم مالك بن النمط ، وقال مالك بن النمط شعراً :

ذكرت رسول الله فى فحمة الدجى ونحن بأعلى رحرحان وصلدد
وهن بنا خوص طلائح تعتلى بركبانها فى لاحب متمدد
على كل فتلاء الذراعين جسرة تمر بنا مر الهجف الخفيدد
حلفت برب الراقصات إلى منى صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق رسول أتى من عند ذى العرش مهتد
فما حملت من ناقة فوق رحلها أبرّ وأوفى ذمة من محمـــــد
وأعطى إذا ماطالب العرف جاءه وأمضى بحد المشرفى المهند

وروى البيهقى بسند صحيح عن أبى إسحق أن النبى ﷺ بعث خالدا إلى اليمن يدعوهم إلى الإسلام ، قال البراء : فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد ، فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا . ثم إن النبى ﷺ بعث على بن أبى طالب فأمره أن يقفل خالداً إلا رجلا كان ممن مع خالد أحب أن يعقب مع على فليعقب معه ، قال البراء : فكنت فيمن عقب مع على ، فلما دنونا من القوم خرجوا الينا فصلى بنا علىّ ثم

صفنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ ، فأسلمت همدان جميعا ، فكتب عليّ إلى رسول الله بإسلامهم ، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجدا ثم رفع رأسه وقال : السلام على همدان السلام على همدان . وأصل الحديث فى صحيح البخارى ، ولأحمد وأبى داود والترمذى عن عليّ قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن ، فقلت : يا رسول الله تبعثنى إلى قوم أسن منى وأنا حديث السن لا أبصر القضاء ، قال فوضع يده فى صدرى وقال : اللهم ثبت لسانه واهد قلبه . وقال : يا على إذا جلس اليك الخصمان لا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر . . الحديث . انتهى

وقدم وفد مزينة على رسول الله ﷺ . روى البيهقى عن النعمان بن مقرن ، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ أربعمائة رجل من مزينة ، فلما أردنا أن ننصرف قال : يا عمر : زوّد القوم . فقال : ما عندى إلا شيء من تمر ما أظنه يقع من القوم موقعا . قال : انطلق فزودهم . قال فانطلق بهم عمر فأدخلهم منزله ثم أصعدهم إلى علية ، فلما دخلنا إذا فيه من التمر مثل الجمل الأورق ، فأخذ القوم منه حاجتهم . قال النعمان : وكنت فى آخر من خرج ، فنظرت وما أفقد موضع تمرة من مكانها

وقد وفد نجران عليه ﷺ سنة عشر . قال ابن اسحق : وقدم على رسول الله ﷺ وفد نجران بالمدينة ، فحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال : لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده ، فحانت صلاتهم فقاموا يصلون فى مسجده ، فأراد الناس منعهم ، فقال رسول الله : دعوهم . فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم . قال وحدثنى يزيد بن سفيان عن السلمانى عن كرز بن علقمة قال : قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكبا منهم أربعة وعشرون رجلا من أشرافهم ، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم : العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره واسمه عبد المسيح ، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل

أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم ، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم ، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم ، فلما توجهوا إلى رسول الله من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له متوجها إلى رسول الله ، وإلى جنبه أخ له يقال له كرز بن علقمة يسايره ، إذ عثرت بغلة أبى حارثة ، فقال له كرز : تعس الأبعد — يريد رسول الله — فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست ، فقال : ولم يا أخى ؟ قال : والله إنه للنبى الأمى الذى ينتظرونه . فقال له كرز : فما يمنعك وأنت تعلم هذا ؟ فقال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا ومولونا وكرمونا ، وقد أبوا إلا خلافه ، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى ، فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك

قال ابن اسحق : حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت قال : حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان ابراهيم إلا يهوديا . وقالت النصارى : ما كان إلا نصرانيا فتنازعوا فأنزل الله فيهم ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ﴾ إلى قوله ﴿ والله ولى المؤمنين ﴾ فقال رجل من الأحبار : أتريدنا يا محمد أن نعبدك كما عبد النصارى عيسى بن مريم ؟ وقال رجل من النصارى : وذلك تريد يا محمد واليه تدعونا ؟ فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله أن نعبد غير الله وآمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثنى ولا أمرنى . فأنزل الله فى ذلك من قولهما ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ﴾ إلى قوله ﴿ أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ ، ثم ذكر ما أخذ عليهم وعلى آبائهم من الميثاق بتصديقه وإقرارهم به على أنفسهم فقال ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ الآية . وحدثنى محمد بن سهل بن أبى أمامة قال . لما قدم وفد نجران على رسول الله يسألونه عن عيسى بن مريم نزل فيهم فاتحة آل عمران الثمانين منها . انتهى

قال ابن اسحق : وكانوا مختلفين فى أمرهم يقولون : هو الله ، ويقولون : هو ولد

الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة : وكذلك قولهم فى النصرانية فهم يحتجون فى قولهم هو الله بأنه كان يحيى الموتى ويبرئ الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا ، وذلك كله بأمر الله وليجعله آية للناس ، ويحتجون فى قولهم إنه ولد الله بأنهم يقولون لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم فى المهد ، شئ لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله ، ويحتجون فى قولهم إنه ثالث ثلاثة بقول الله : فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون : لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وقضيت وأمرت وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم ، ففى ذلك من قولهم نزل القرآن . فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله : أسلما . قالا : قد أسلمنا . قال : إنكما لم تسلما فأسلما . قالا : بل قد أسلمنا قبلك . قال : كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير . قالا : فمن أبوه ؟ فصمت رسول الله عنهما فلم يجبهما ، فأنزل الله فى ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها فقال ﴿ألم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ فاستفتح السورة فى تنزيه نفسه عما قالوا وتوحيده إياها بالخلق والأمر والإلهية ، ردا عليهم ما ابتدعوه من الكفر ، ﴿الحى﴾ الذى لا يموت وقد مات عيسى وصلب فى قولهم ، ﴿القيوم﴾ القائم على مكانه من سلطانه فى خلقه لا يزول ، وقد زال عيسى وصلب فى قولهم عن مكانه الذى كان به وذهب عنه إلى غيره إلى قوله ﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء﴾ أى قد كان عيسى ممن صور فى الأرحام — لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه — كما صور غيره من ولد آدم ، فكيف يكون إلها وقد كان بذلك المنزل ؟ ثم قال تنزيها لنفسه وتوحيدا لها مما جعلوا معه ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ فى انتصاره ممن كفر به إذا شاء ، الحكيم فى حجته وعذره إلى عباده ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات﴾ حجة للرب وعصمة للعباد ودفع للخصوم والباطل ليس لهن تصريف ولا تأويل ﴿وأخر متشابهات﴾ ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم فى الحلال والحرام ولا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق ، يقول الله ﴿فأما الذين فى قلوبهم زيغ﴾ أى ميل عن الهدى ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ أى

لتكون لهم الحجة فيما ابتدعوا وأحدثوا ، ولهم على ما قالوا شبهة ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أى اللبس ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ ذلك أى على ماركبوا من الضلالة ﴿ ومايعلم تأويله ﴾ أى الذى أراده ﴿ إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ فكيف يختلف وهو قول واحد من رب واحد ؟ ثم ردوا تأويل المتشابهة على ما عرفوا من تأويل المحكمة التى لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد ، واتفق بقول الكتاب وصدق بعضه بعضا فنفذت به الحجة وظهر به العذر وزاح الباطل ودمغ به الكفر ، يقول الله ﴿ وما يذكر ﴾ فى مثل هذا ﴿ إلا أولو الألباب ﴾ ، إلى قوله ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك ﴾ فيما جاءك من الخبر عن عيسى ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ أى قد جاءك الحق من ربك فلا تمترين فيه ، وإن قالوا خلق عيسى من غير ذكر فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة من غير أنثى ولا ذكر ، فكان كما كان عيسى لحما ودما وشعرا وبشرا ، فليس خلق عيسى من غير ذكر بأعجب من هذا ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾ أى من بعد ماقصصت عليك من خبره وكيف كان أمره ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ قال ابن هشام قال أبو عبيدة : نبتهل ندعو باللعنة . وقال غيره أى ثم نجتهد فى الدعاء ، قال ابن اسحق ﴿ إن هذا ﴾ الخبر الذى جئت به عن عيسى ﴿ لهو القصص الحق ﴾ من أمر الله ﴿ وما من إله إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم ، فإن تولوا فان الله عليم بالمفسدين . قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ فدعاهم إلى النصف ، وقطع عنهم الحجة . فلما أتى رسول الله الخبر عن الله عنه والفصل من القضاء بينهم وبينه وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك . وروى الحاكم بإسناده أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران : باسم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب . أما بعد فإنى أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله

من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب الإسلام . فلما أتى إلى الأسقف الكتاب فقرأه قطع به وذعر ذعرا شديداً ، فبعث به إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة وكان من أهل همدان ، ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت معضلة قبله ، لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب ، فدفع اليه الأسقف كتاب رسول الله فقرأه ، فقال الأسقف : يا أبا مريم ما رأيك ؟ فقال شرحبيل : قد علمت ما وعد الله إبراهيم فى ذرية إسمعيل من النبوة ، رأيى لو كان من أمر الدنيا أشرت عليك فيه برأيى وجهدت لك فيه . فقال الأسقف : تنح فاجلس ، ثم دعا الأسقف رجلا آخر منهم [يقال له عبد الله بن شرحبيل وهو من ذى أصبح [1]] فقال مثل قول شرحبيل . فبعث إلى آخر [يقال له جبار بن فيض من بنى الحارث بن كعب [1]] فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله . فلما اجتمع الرأى على تلك المقالة جميعا أمر الأسقف بالناقوس فضرب به ورفعت المسوح فى الصوامع ، وكذلك كانوا يفعلون إذا نزل أمر بالنهار ، وإذا فزعهم ليلا ضربوا بالناقوس ورفعت النيران فى الصوامع ، فاجتمع أهل الوادى أعلاه وأسفله ، وطول الوادى مسيرة يوم للراكب السريع ، وفيه ثلاث وسبعون قرية وعشرون ومائة ألف مقاتل ، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأى فيه ، فاجتمع رأى أهل الوادى منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمدانى وعبد الله بن شرحبيل وجبار بن قيس الحارثى فيأتونهم بخبر رسول الله ، فذكر مجيئهم لرسول الله ﷺ وسؤالهم له عن عيسى عليه السلام ، فأصبح الغد وقد أنزل الله ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ إلى قوله ﴿لعنة الله على الكاذبين﴾ فأبوا أن يقروا بذلك ، فلما أصبح رسول الله الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملا على الحسن والحسين فى خميل له وفاطمة تمشى عند ظهره للمباهلة وله يومئذ عدة نسوة ، فقال شرحبيل إن كان هذا الرجل نبيا مرسلا فلاعناه لا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك .

---

(١) عن البداية والنهاية لابن كثير ٥ : ٥٣

فقال له صاحباه : فما الرأى ؟ فقد وضعتك الأمور على ذراع فهات رأيك . فقال : رأيى أن أحكمه ، فإنى أرى رجلا لا يحكم شططا أبداً . فقال له : أنت وذاك . فلقى شرحبيل رسول الله ﷺ فقال : إنى رأيت خيرا من ملاعنتك . فقال : وما هو ؟ قال شرحبيل : أحكمك ، فما حكمت فينا فهو جائز . فرجع رسول الله ولم يلاعنهم ، حتى إذا كان من الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتب محمد النبى رسول الله لنجران ، إذا كان عليهم حكمه : فى كل ثمرة وفى كل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق فأفضل عليهم وترك ذلك كله على ألفى حلة ، فى كل رجب ألف حلة ، وكل صفر ألف حلة ، وكل حلة أوقية ما زادت على الخرج أو نقصت عن الأواقى فبحساب ، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم بحساب ، وعلى نجران مثواة رسلى ومتعهم من عشرين فدونه ، ولا يحبس رسول فوق شهر . وعليهم عارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا إذا كان كيد باليمن ذو معذرة ، وما هلك مما أعاروا رسولى من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسولى حتى يؤديه اليهم ، ولنجران وحِشْيتها جوار الله وذمة النبى على أنفسهم وسكنهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم ، وأن لا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير سقف من أساقفتهم ولا راهب من رهبانيتهم ولا وقه من وقهيته وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . وليس عليهم دية ولا جاهلية ولا يحسرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل فيهم فيسهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين . ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر ، وعلى ما فى هذه الصحيفة بجوار الله وذمة محمد رسول الله حتى يأتى الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مبتلين بظلم . شهد أبو سفيان وغيلان بن عمرو ومالك ابن عوف والأقرع ابن حابس الحنظلى والمغيرة وكتب . حتى إذا قبضوا كتابهم وانصرفوا إلى نجران فتلقاهم الأسقف ووجوه نجران على مسيرة ليلة ومع الأسقف أخ له من أمه وهو ابن

عمه من النسب يقال له بشر بن معاوية وكنيته أبو علقمة ، فدفع الوفد كتاب رسول الله إلى الأسقف ، فبينما هو يقرأه وأبو علقمة معه وهما يسيران إذ كبت ببشر ناقته فتعّس بشر - غير أنه لا يكنى عن رسول الله - فقال له الأسقف عند ذلك : قد والله تعّست نبيا مرسلا . فقال بشر : لا جرم والله لا أحل عنها عقدا حتى آتيه ، فضرب وجه ناقته نحو المدينة وثنى الأسقف ناقته عليه فقال له : افهم عنى ، إنما قلت هذا ليبلغ عنى العرب مخافة أن يقولوا إنا أخذنا حقه ، أو نجعنا لهذا الرجل بما لم تنجع به العرب ونحن أعزهم وأجمعهم دارا . فقال له بشر : لا والله لا أقيلك ما خرج من رأسك ، فضرب بشر ناقته وهو مول ظهره للأسقف وهو يقول :

اليك تغدو قلقا وضينها   معترضا فى بطنها جنينها

مخالفا دين النصارى دينها

حتى أتى النبى ﷺ فأسلم ولم يزل مع رسول الله حتى استشهد أبو علقمة بعد ذلك ودخل الوفد نجران . وروى البخارى عن حذيفة قال : جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله يريدان أن يلاعناه ، فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لن نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . قالا إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلا أمينا ولا تبعث معنا إلا أمينا . فقال : لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين حق أمين ، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ، فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام قال رسول الله ﷺ : هذا أمين هذه الأمة

وله أيضا عن ابن عباس قال أبو جهل : إن رأيت رسول الله يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال فقال : لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا . انتهى

وفى ذلك من الفقه : مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة ، ووقع

ذلك لجماعة من العلماء ودعوا اليها سلفا وخلفا . ومما عرف بالتجربة أن من باهل – لو كان مبطلا – لا تمضى عليه سنة من يوم المباهلة

وفى القصة أيضا أن من عظم مخلوقا فوق منزلته التى يستحقها بحيث أخرجه عن منزلة العبودية المحضة فقد أشرك وعبد مع الله غيره ؛ وذلك مخالف لجميع دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم (١)

وقول ابن اسحق : إن النبى ﷺ بعث على بن أبى طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم فقد يظن أنه كلام متناقض لأن الصدقة والجزية لا يجتمعان ، وأشكلُ منه ما ذكره هو وغيره أن النبى ﷺ بعث خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا قبل أن يقاتلهم ، وقد تقدمت القصة عند ذكر وفد بنى الحارث بن كعب ، وتقدم فى قصة أهل نجران أنهم وفدوا وصالحوه على ألفى حلة . وجواب هذا أن أهــــل نجران كانوا صنفين نصارى وأميين ، فصالح النصارى على ما تقدم ، وأما الأميون منهم فبعث اليهم خالدا فأسلموا ، وقدم على النبى ﷺ وفدهم ، وهم الذين قال لهم رسول الله : بم كنتم تغلبون من قاتلكم الخ . . فقوله بعث عليا إلى أهل نجران ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم أراد به الطائفتين من أهل نجران صدقات من أسلم منهم وجزية النصارى

وقدم وفد دوس وكان قدومهم عليه بخيبر

وقدم وفد فروة بن عمرو الجذامى وكان عاملا للروم . قال ابن اسحق : وبعث فروة بن عمرو الجذامى إلى رسول الله ﷺ رسولا بإسلامه وأهدى اليه بغلة بيضاء وكان عاملا للروم على ما يليهم من العرب ، وكان منزله معان ، فلما بلغ الروم ذلك طلبوه حتى أخذوه فحبسوه ثم صلبوه وقتلوه ، وزعم الزهرى أنهم لما قدموه ليقتلوه قال :

---

(١) بعد هذا بياض بالاصل قدر خمسة أسطر

بلغ سراة المسامين بأنى سلم نربى أعظمى ومقامى

وقدم وافد بنى سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة ، ففى صحيح البخارى عن أنس بن مالك أنه قال : بينما نحن جلوس مع النبى ﷺ فى المسجد إذ دخل رجل على جمل فأناخه فى المسجد ثم عقله ثم قال : أيكم محمد ؟ والنبى ﷺ متكئ بين ظهرانيهم . فقلنا : هذا الرجل الأبيض المتكئ . فقال له الرجل : يابن عبد المطلب ؟ فقال له النبى : قد أجبتك. قال الرجل : إنى سائلك ومشدد عليك فى المسألة فلا تجد على فى نفسك . فقال : سل عما بدا لك . قال : أسألك بربك ورب من قبلك ، آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال : اللهم نعم . فقال : نشدتك بالله ، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال : اللهم نعم . قال : نشدتك بالله ، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا وتقسمها على فقرائنا ؟ قال النبى ﷺ : اللهم نعم . فقال الرجل : آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائى من قومى ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر . قال ابن اسحاق : حدثنى محمد بن الوليد عن كريب عن ابن عباس قال : بعث بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله ، فذكر نحو ما تقدم ، وزاد : قال فإنى أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك : آلله أمرك أن نعبده لا نشرك به شيئا وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون ؟ فقال رسول الله ﷺ : اللهم نعم . ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة ، الصلاة والزكاة والصيام والحج وفرائض الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة كما ينشده فى التى قبلها ، حتى إذا فرغ قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف راجعاً إلى بعيره — فقال رسول الله ﷺ حين ولى : إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة ، وكان ضمام رجلا جلدا أشقر ذا غديرتين . ثم أتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج ، حتى قدم على قومه فاجتمعوا اليه ، وكان أول ما تكلم به أن قال بئست اللات والعزى ، فقالوا : مه يا ضمام ؟ اتق البرص والجنون والجذام . فقال : ويلكم إنهما ما يضران ولا ينفعان ، وإن الله قد

بعث رسولا وقد أنزل عليه كتابا استنقذكم مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله أن محمدا عبده ورسوله ، وإنى جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه . فوالله ما مسى فى ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما . قال ابن عباس : فما سمعنا وافد قوم أفضل من ضمام من بن ثعلبة

وذكره الحج فى هذه القصة يدل على أن قدوم ضمام كان بعد فرض الحج ، وهذا عيد ، فالظاهر أن هذه اللفظة مدرجة من كلام بعض الرواة . والله أعلم

وقدم وفد طارق بن عبد الله وقومه ، وفى رواية ابن اسحق قال طارق : ثم دخلنا لمدينة فدخلنا المسجد ، فاذا هو قائم على المنبر يخطب ، فأدركنا من خطبته وهو يقول : تصدقوا فان الصدقة خير لكم ، اليد العليا خير من اليد السفلى ، أمك وأباك ، أختك وأخاك ، وأدناك أدناك» إذ أقبل رجل من بنى يربوع ـ أو قال من الأنصار ـ نال : يا رسول الله لنا فى هؤلاء دماء فى الجاهلية ، فقال : إن أما لا تجنى على ولد ثلاث مرات)

وقدم وفد تجيب سنة تسع وهم من السكون ثلاثة عشر رجلا قد ساقوا معهم صدقات مواالهم التى فرض الله عليهم ، فقال رسول الله : ردوها فاقسموها على فقرائكم . نالوا : يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا ، فقال أبو بكر : يا رسول لله ، ما وفد العرب بمثل ما وفد به هذا الحى من تجيب . فقال رسول الله ﷺ : إن لهدى بيد الله فمن أراد به خيرا شرح صدره للإيمان . وسألوا رسول الله فكتب لهم بها ، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن ، فازداد رسول الله فيهم رغبة . وأمر بلالا أن يحسن ضيافتهم ، فلما أرادوا أن ينصرفوا أمر بلالا فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به لوفود . قال : هل بقى منكم أحد ؟ قالوا : غلام خلفناه على رحالنا . قال : أرسلوه الينا . فجاء الغلام فقال : يا رسول الله ، إن حاجتى ليست كحاجة أصحابى ، إنى والله ماحملنى من بلادى إلا أن تسأل الله أن يغفر لى ويرحمنى ويجعل غناى فى قلبى . قال رسول الله :

اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه . ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه ، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم . ووافوا رسول الله فى الموسم بمنى سنة عشر فقالوا : نحن بنوا يدى . فقال : ما فعل الغلام الذى أتانى معكم ؟ قالوا : يا رسول الله ما رأينا مثله قط ، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله ، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت اليها . . فقال : الحمد لله إنى لأرجو أن يموت جميعا . فقال رجل منهم : أو ليس الرجل يموت جميعا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله : تتشعب أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا ، فلعل أجله أن يدركه فى بعض تلك الأودية فلا يبالى الله فى أيها هلك . قالوا : فعاش ذلك الرجل فينا على أفضل حال وأزهده فى الدنيا وأقنعه بما رزق . فلما توفى رسول الله ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام قام فى قومه فذكرهم الله والإسلام ، فلم يرجع منهم أحد . وجعل أبو بكر الصديق يذكره ويسأل عنه حين بلغه حاله وما قام به ، فكتب إلى زياد بن أسد يوصيه به خيرا

وقدم وفد بنى سعد هذيم بن قضاعة فى سنة تسع وهم من أهل اليمن ، وقد وفد بنى فزارة سنة تسع ، قال أبو الربيع بن سالم فى كتاب الاكتفاء : ولما رجع رسول الله من تبوك قدم عليه وفد بنى فزاره بضعة عشر رجلا فيهم خارجة بن حصن والحر بن قيس ابن أخى عيينة بن حصن وهو أصغرهم فنزلوا فى دار بنت الحارث ، وجاءوا رسول الله مقرين بالإسلام وهم مسنتون على ركاب عجاف ، فسألهم رسول الله عن بلادهم فقال أحدهم : يا رسول الله أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا وجدبت جناننا وغرث عيالنا ، فادع لنا ربك يغيثنا ، وتشفع لنا إلى ربك وليشفع ربك اليك . فقال رسول الله ﷺ : سبحان الله ، ويلكم إنما شفعت إلى ربى عز وجل ، فمن ذا الذى يشفع ربنا اليه ، لا إله إلا هو العظيم ، وسع كرسيه السموات والأرض ، فهى تئط من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد . وقال رسول الله ﷺ : إن الله ليضحك من شفقتكم وأزلكم وقرب غياثكم . فقال الأعرابى : يا رسول الله ويضحك ربنا ؟ قال : نعم . فقال الأعرابى : لن نعدمك من رب يضحك خيرا . فضحك النبى ﷺ من قوله .

وصعد المنبر فتكلم بكلمات ، وكان لا يرفع يديه فى شىء من الدعاء إلا رفع الاستسقاء ، فرفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه ، وكان مما حفظ من دعائه ، اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحى بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريحا مريعا طبقا واسعا عاجلا غير آجل نافعا غير ضار . اللهم سقيا رحمة لاسقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق . اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء

وقدم وفد بنى أسد على رسول الله ﷺ عشرة رهط فيهم وابصة بن معبد وطليحة ابن خويلد ، ورسول الله جالس فى المسجد مع أصحابه فتكلموا ، فقال متكلمهم : يا رسول الله إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله وجئناك يا رسول الله ولم تبعث الينا بعثا ، ونحن لمن وراءنا . قال محمد بن كعب القرظى : فأنزل الله على رسوله ﴿ يمنُّون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم ﴾ الآية . وكان مما سألوا رسول الله عنه يومئذ العيافة والكهانة وضرب الحصى ، فنهاهم عن ذلك كله . قالوا : أرأيت خصلة واحدة بقيت ؟ قال : وما هى ؟ قالوا : الخط . قال : علمه نبى من الأنبياء ، فمن صادف مثل علمه علم

وقدم وفد بهراء من اليمن سنة تسع ، وكانوا ثلاثة عشر رجلا ، ونزلوا على المقداد ابن عمرو وأقاموا أياما وتعلموا الفرائض ، ثم ودعوا رسول الله وأمر لهم بالجوائز وانصرفوا إلى بلادهم

وقدم وفد عذرة فى سنة تسع ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، منهم حمزة بن النعمان فقال رسول الله ﷺ : من القوم ؟ فقال متكلمهم : ممن لا تنكر ، نحن بنو عذرة إخوة قصى لأمه ، نحن الذين عضدوا قصيا وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر ، ولنا قرابات وأرحام . فقال رسول الله : مرحبا بكم وأهلا ، ما أعرفنى بكم . فأسلموا وبشرهم رسول الله بفتح الشام وهرب هرقل إلى ممتنع من بلاده ، ونهاهم عن سؤال الكاهنة وعن الذبائح التى كانوا يذبحونها ، وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية . ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد أجيزوا

وقدم وفد بَلِيّ فى ربيع الأول سنة تسع ، فنزلوا على رويفع بن ثابت البلوى ، فقال رسول الله : الحمد لله الذى هداكم إلى الإسلام ، فكل من مات على غير الإسلام فهو فى النار . ثم ودعوا رسول الله بعد أن أجازهم . وقال له أبو الضبيب شيخ الوفد : يا رسول الله إنى رجل فى رغبة من الضيافة ، فهل لى فى ذلك أجر ؟ قال : نعم ، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة . قال : يا رسول الله كم وقت الضيافة ؟ قال : ثلاثة أيام . ما كان بعد ذلك فصدقة ، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك حتى يحرجك

وقدم وفد ذى مرة ، وكانوا ثلاثة عشر ، ورئيسهم الحارث بن عوف ، فقال رسول الله ﷺ : كيف البلاد ؟ فقالوا : والله إنا لمسنتون فادع الله لنا . فقال : اللهم اسقهم الغيث . ثم أقاموا أياما ورجعوا بالجائزة ، ووجدوا بلادهم قد أمطرت فى ذلك اليوم الذى دعا لهم فيه رسول الله ﷺ

وقدم وفد خولان فى شعبان سنة عشر ، وكانوا عشرة مسلمين ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما فعل صنم خولان الذى كانوا يعبدونه ؟ قالوا : أبدلنا الله ما جئت به ، إلا أن عجوزا وشيخا كبيرا يتمسكان به ، وإن قدمناه عليه هدمناه إن شاء الله . ثم أعلمهم فرائض الدين ، وأمرهم بالوفاء بالعهد والأمانة وحسن الجوار وأن لا يظلموا ، ثم أجازهم ورجعوا الى قومهم وهدموا الصنم

وقدم وفد محارب عام حجة الوداع ، وكانوا أفظ العرب وأغلظهم عليه أيام عرضه نفسه على القبائل يدعوهم إلى الله ، فجاءه منهم عشرة فأسلموا ثم انصرفوا إلى أهليهم

وقدم وفد صداء فى سنة ثمان فأسلموا ، وهم خمسة عشر رجلا ، فبايعوه على الإسلام ورجعوا إلى قومهم ، ففشا فيهم الإسلام ، فوافى رسول الله منهم مائة رجل فى حجة الوداع ، ذكره الواقدى

وقدم وفد غسان فى شهر رمضان سنة عشر ، وكانوا ثلاثة نفر ، فأسلموا وأجازهم رسول الله وانصرفوا راجعين وقالوا : لا ندرى أيتبعنا قومنا أم لا ، وهم يحبون بقاء

ملكهم وقرب قيصر ، فقدموا على قومهم فلم يستجيبوا لهم ، وكتموا إسلامهم حتى مات منهم رجلان على الإسلام ، وأدرك الثالث منهم عمر بن الخطاب عام اليرموك فلقى أبا عبيدة فخبره بإسلامه فكان يكرمه

وقدم وفد سلامان فى شوال سنة عشر كما قال الواقدى ، وهم ستة عشر نفراً أسلموا ، وشكوا اليه جدب بلادهم فدعا لهم ، ثم ودعوه وأمر لهم بالجوائز ، فرجعوا الى بلادهم فوجدوها قد أمطرت ذلك اليوم الذى دعا لهم فيه تلك الساعة

وقدم وفد عبس فقالوا : يا رسول الله قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، ولنا أموال ومواش ، فان كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا . قال عليه السلام : اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئا ، وسألهم رسول الله عن خالد بن سنان هل له عقب ؟ فأخبروه أنه لا عقب له ، كانت له ابنة فانقرضت ، وأنشأ رسول الله يحدث أصحابه عن خالد بن سنان فقال : نبى ضيعه قومه

وقدم وفد عامر كما قال الواقدى ، وكانوا عشرة فأقروا بالإسلام ، وكتب لهم كتابا فيه شرائع الإسلام ، وأمر أبىّ بن كعب فعلمهم قرآنا وأجازهم عليه السلام وانصرفوا

وقدم وفد الأزد سنة عشر ، ذكر أبو نعيم فى معرفة الصحابة والحافظ أبو موسى المدينى من حديث أحمد بن أبى الحوارى قال : سمعت أبا سليمان الدارانى قال : حدثنى علقمة بن يزيد بن سويد الأزدى قال : حدثنى أبى عن جدى سويد بن الحارث قال : وفدت سابع سبعة من قومى على رسول الله ﷺ ، فلما دخلنا عليه وكلمناه وأعجبه ما رأى من سمتنا وزينا فقال : من أنتم ؟ قلنا : مؤمنون . فتبسم رسول الله ﷺ وقال لكل قوم حقيقة ، فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟ قلنا : خمس عشرة خصلة : خمسا أمرتنا رسلك أن نؤمن بها ، وخمسا أمرتنا أن نعمل بها ، وخمسا تخلقنا بها فى الجاهلية فنحن عليها إلا إن تكره منها شيئا . فقال رسول الله ﷺ : ما الخمس التى أمرتكم رسلى

أن تؤمنوا بها ؟ قالوا : أمرتنا أن نؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت . قال : وما الخمس التى أمرتكم أن تعملوا بها ؟ قلنا أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤدى الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت من استطاع اليه سبيلا . قال : وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية ؟ قالوا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بمر القضاء ، والصدق فى مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء . فقال رسول الله ﷺ : حكماء علماء ، كادوا من فقهم أن يكونوا أنبياء . ثم قال : وأنا أزيدكم خمسا فتتم لكم عشرون خصلة : إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا فى شىء أنتم عنه غدا زائلون ، واتقوا الله الذى اليه ترجعون وعليه تعرضون ، وارغبو فى ما عليه تقدمون وفيه تخلدون . فانصرف القوم من عند رسول الله وقد حفظوا وصيته وعملوا بها

وقدم على رسول الله وفد بنى المنتفق ، روى الإمام عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه قال : كتب إلىّ إبراهيم بن حمزة بن محمد بن حمزة بن مصعب بن الزبير الزبيرى : كتبت إليك هذا الحديث وقد عرضته وسمعته على ما كتبت به اليك ، فحدث به عنى . قال : حدثنى عبد الرحمن بن المغيرة الحزامى حدثنا عبد الرحمن بن عياش الأنصارى عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاطب بن عامر بن المنتفق العقيلى عن أبيه عن عمه لقيط ابن عامر . قال دلهم : وحدثنيه أبى الأسودُ بن عبد الله عن عاصم بن لقيط ، أن لقيط بن عامر خرج وافدا إلى رسول الله ﷺ ومعه صاحب له يقال له نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق ، قال لقيط : فخرجت أنا وصاحبى حتى قدمنا على رسول الله ، فوافيناه حين انصرف من صلاة الغداة ، فقام فى الناس خطيبا فقال : يا أيها الناس ، ألا إنى قد خبأت لكم صوتى منذ أربعة أيام لتستمعوا اليوم ، ألا فهل من امرىء بعثه قومه فقالوا له : اعلم لنا ما يقول رسول الله ؟ ألا ثم رجل لعله يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه ضال . ألا وإنى مسئول ، هل بلغت ؟ ألا اسمعوا تعيشوا . ألا اجلسوا . فجلس الناس . وقمت أنا وصاحبى حتى إذا فرغ لنا فؤاده و نظره قلت : يارسول الله ما عند

من علم الغيب ؟ فضحك لعمر الله وعلم أنى أبتغى السقط فقال : ضن ربك بمفاتيح خمس من الغيب ، لا يعلمها إلا الله ـ وأشار بيده ـ فقلت : ماهن يا رسول الله ؟ فقال : علم المنية قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه . وعلم المنى متى يكون في الرحم ، قد علمه ولا تعلمونه . وعلم ما فى غد ، قد علم ما أنت صانع ولاتعلمه . وعلم يوم الغيث يشرف عليكم أزلين مشفقين فيظل يضحك وقد علم أن خوفكم إلى قريب . قال لقيط فقلت : لن نعدم من رب يضحك خيرا يا رسول الله . وقال : وعلم الساعة . قلت : يا رسول الله علمنا مما تعلم الناس وتعلم ، فأنا من قبيل لا يصدّق تصديقنا أحد من مذحج التى تربو علينا وخثعم التى توالينا وعشيرتنا . قال : تلبسون فيها ما لبثتم ثم يتوفى نبيكم ثم تبعث الصائحة ، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها شيئا إلا مات ، والملائكة الذين مع ربك عز وجل ، فأصبح ربك عز وجل يطوف فى الأرض وخلت البلاد ، فأرسل ربك السماء بهضبان عند العرش ، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى تخلفه عند رأسه فيستوى جالسا ، فيقول ربك : مهيم ؟ لما كان فيه . فيقول : يا رب أمس اليوم . لعهده بالحياة يحسبه حديثا بأهله . فقلت . يا رسول لله ، فكيف يجمعنا بعد ما تمزقنا الرياح والبلى والسباع ؟ قال : أنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله ، الأرض أشرفتَ عليها وهى مدرة بالية . فقلتَ لا تحيى أبدا ، ثم أرسل الله عليها السماء فلم تلبث عليك إلا أياما حتى أشرفت عليها وهى شرَبة واحدة ، ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يجمعكم من الماء على أن يجمع نبات الأرض ، فتخرجون من الأصواء من مصارعكم فتنظرون اليه وينظر اليكم . قال قلت : يارسول الله كيف ونحن ملء الأرض وهو شخص واحد ينظر الينا وننظُر اليه ؟ قال : أنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله ، الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونهما ويريانكم ساعة واحدة ولا تضامون فى رؤيتهما . قلت : يا رسول الله فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه ؟ قال : تعرضون عليه بادية له صفحاتكم لا تخفى عليه خافية ، فيأخذ ربك بيده غَرفة من ماء فينضح بها قبلكم ، فلعمر إلهك ما تخطىء وجه أحد منهم قطرة ، فأما المسلم فتدع وجهه مثل الريطة البيضاء ،

وأما الكافر فتخطمه بمثل الحميم الأسود . ثم ينصرف نبيكم ويتفرق على أثره الصالحون ، فيسلكون جسراً من النار يطأ أحدهم الجمرة يقول : حس ، يقول ربك عز وجل : أو أنه . فتطلعون على حوض نبيكم على أظمأ والله ناهلة قط ما رأيتها ، فلعمر إلهك مايبسط أحدكم يده إلا وقع عليها قدح يطهره من الطوف والبول والأذى ، وتخنس الشمس والقمر فلا ترون منهما واحدا . قال قلت : يا رسول الله فبم نبصر ؟ قال بمثل بصرك ساعتك هذه ، وذلك مع طلوع الشمس فى يوم أشرقت الأرض وواجهت به الجبار . قال قلت : يا رسول الله فبم نجزى من حسناتنا وسيئاتنا ؟ قال : الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها ، إلا أن يعفو الله . قال قلت : يارسول الله ما الجنة ، ما النار ؟ قال : لعمر إلهك إن النار لها سبعة أبواب ، ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهماسبعين عاما ، وإن للجنة ثمانية أبواب ما منها بابان إلا ويسير الراكب بينهما سبعين عاما . قال قلت : يا رسول الله فعلام نطلع من الجنة ؟ قال : على أنهار من عسل مصفى ، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله معه ، وأزواج مطهرة . قلت : يا رسول الله أو لنا فيها أزواج ، ومنهن مصلحات ؟ قال : المصلحات للمصلحين ، وفى لفظ الصالحات للصالحين ، تلذونهن ويلذذنكم مثل لذاتكم فى الدنيا ، غير أن لا توالد . قال لقيط فقلت : يارسول الله أقصى مانحن بالغون ومنتهون اليه ؟ قال : ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (١) قلت : يارسول الله علام أبايعك ؟ فبسط النبى ﷺ يده وقال : على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وزيال الشرك وأن لا تشرك بالله إلها غيره . قال قلت : ياسول الله وأن لنا مابين المشرق والمغرب ؟ فقبض النبى ﷺ يده وظن أنى مشترط ما لا يعطينيه . قال قلت : نحل منها حيث شئنا ، وأن لايجنى على امرئ إلا نفسه . فبسط يده وقال : لك ذلك ، تحل حيث شئت ، ولا يجنى عليك إلا نفسك . قال فانصرفنا عنه . ثم قال : ها إن ذين ، ها إن ذين (مرتين) . من أتقى الناس فى الأولى ،

(١) قال فى الأصل وجدت فى نسخة أخرى ماصورته : فلم يجبه النبى ﷺ

والآخرة . فقال له كعب بن الحدارية أحد بنى بكر بن كلاب : من هم يا رسول الله ؟ قال : بنو المنتفق بنو المنتفق ، أهل ذلك منهم . قال فانصرفنا : وأقبلت عليه فقلت : يا رسول الله ، هل لأحد ممن مضى من خير فى الجاهلية ؟ فقال رجل من عرض قريش : إن أباك المنتفق لفى النار . قال فكأنه وقع حر بين جلد وجهى ولحمه مما قال لأبى على رءوس الناس ، فهممت أن أقول : وأبوك يا رسول الله ؟ ثم إذا الأخرى أجمل فقلت : يا رسول الله وأهلك ؟ قال : وأهلى لعمر الله . حيث ما أتيت عليه من قبر كافر عامرى أو قرشى أو دوسى قل : أرسلنى اليك محمد ، فأبشر بما يسوؤك ، تجر على وجهك وبطنك فى النار . قال قلت : يا رسول الله وما فعل بهم ذلك وقد كانوا على عمل لا يحبون إلا إياه ، وكانوا يحسبون أنهم مصلحون ؟ قال ﷺ : ذلك بأن الله بعث فى آخر كل سبع أمم نبيا ، فمن يعصى نبيه كان من الضالين ، ومن أطاع نبيه كان من المهتدين

قال ابن القيم رحمه الله : هذا حديث كبير جليل تنادى جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة ، لا يعرف إلا من حديث عبد الرحمن المدنى ، رواه عنه إبراهيم بن حمزة الزبيرى ، وهما من كبار علماء المدينة ثقتان محتج بهما فى الصحيح ، احتج بهما إمام أهل الحديث محمد بن اسمعيل البخارى ورواه أئمة السنة فى كتبهم وتلقوه بالقبول وقابلوه بالتسليم والانقياد ولم يطعن أحد منهم فيه ، ولا فى أحد من رواته . قال أبو عبد الله بن منده : وقد رواه بالعراق بمجمع العلماء وأهل الدين جماعة من الأئمة ، منهم أبو زرعة الرازى وأبو حاتم وأبو عبد الله محمد بن اسمعيل ، ولم ينكره أحد ، ولم يتكلم فى إسناده ، بل رووه على سبيل القبول والتسليم ، ولا ينكر هذا الحديث إلا جاحد أو جاهل أو مخالف للكتاب والسنة . هذا كلام ابن منده رحمه الله . وقوله « تهضب » أى تمطر « والأصواء » القبور ، « والشربة » بفتح الراء الحوض الذى يجتمع فيه الماء وبالسكون الحنطة ، يريد أن الماء قد كثر فمن حيث شئت شربت ، وعلى رواية السكون يكون قد شبه الأرض بخضرتها بالنبات بخضرة الحنطة واستوائها . وقوله « حسن » هى كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما يحرقه على غفلة أو

يؤله ، قال الأصمعى : وهى مثل أوه . وقوله « يقول ربك أو انه » قال ابن قتيبة : فيه قولان : أن يكون « انه » بمعنى نعم ، والآخر أن يكون الخبر محذوفا كأنه قال أنتم كذلك أو انه على ما يقول . و « الطوف » الغائط . وفى الحديث : لا يصلى أحدكم وهو يدافع الطوف والبول . و « الجسر » الصراط . وقوله « مهيم » أى ما شأنك وما أمرك وفيم كنت ؟ وقوله « أزلين » الأزْل بسكون الزاى الشدة والأزِل على وزن كتف هو الذى أصابه الأزل واشتد به حتى كاد يقنط . وقوله « فيظل يضحك » هو من صفات أفعاله سبحانه التى لا يشبهه فيها شئ من مخلوقاته كصفات ذاته . وقوله « حتى يخلفه من عند رأسه » هو من أخلف الزرع إذا نبت بعد حصاده ، شبه النشأة بعد الموت بإخلاف الزرع بعد ما حصد ، وتلك الخلفة من عند رأسه كما ينبت الزرع . وقوله « يقول يا رب أمس اليوم » استقلالا لمدة لبثه فى الأرض ، وكأنه لبث فيها يوما فقال أمس ، أو بعض يوم فقال اليوم ، يحسب أنه حديث عهد بأهله وإنما فارقهم أمس أو اليوم . وقوله « على أظمأ والله ناهلة قط » الناهلة العطاش الواردون للماء ، أى يردونه أظمأ ما هم عليه . وقوله « وتخنس الشمس والقمر » أى يختفيان وينخنسان ولا يريان ، الانخناس التوارى والاختفاء ، وقوله « ما بين البابين مسيرة سبعين عاما » يحتمل أن يريد به أن بعد ما بين الباب والباب هذا المقدار ، ويحتمل أن يريد بالبابين المصراعين ، ولا يناقض هذا ما جاء من تقديره بأربعين عاما لوجهين : أحدهما أنه لم يصرح به راويه بالرفع بل قال ولقد ذكر لنا أن ما بين المصراعين أربعين عاما ، والثانى أن المسافة تختلف باختلاف سرعة السير وبطئه . وقوله « أقصى ما نحن بالغون ومنتهون اليه » لا جواب لهذه المسألة ، لأنه إن أراد أن أقصى مدة الدنيا وانتهائها فلا يعلمه إلا الله ، وإن أراد أقصى ما نحن منتهون اليه بعد دخول الجنة والنار فلا تعلم نفس أقصى ما تنتهى اليه من ذلك ، وإن كان الانتهاء إلى نعيم أو جحيم ، ولهذا لم يجبه ﷺ . وقوله فى عقد البيعة « وزيال الشرك » أى مفارقته ومعاداته فلا يجاوره ولا يواليه كما فى الحديث الذى فى السنن « لا تراءى ناراهما » يعنى المسلمين والمشركين .

وقوله « حيث ما مررت بقبر كافر فقل : أرسلني اليك محمد » هـــذا إرسال تقريع وتوبيخ ، لاتبليغ أمر ونهى ، وفيه دليل على سماع أهل القبور كلام الأحياء وخطابهم لهم ، ودليل على أن من مات مشركا فهو فى النار وإن مات قبل البعثة ، لأن المشركين كانوا قد غيروا الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام واستبدلوا بها الشرك وارتكبوه ، وليس معهم حجة من الله به ، وقبحه والوعيد عليه بالنار لم يزل معلوما من دين الرسل كلهم ، وأخبار عقوبات الله لأهله متداولة بين الأمم قرنا بعد قرن ، فلله الحجة البالغة على المشركين

وقدم على رسول الله ﷺ وفد النَّخَع ، وهم آخر الوفود قدوما عليه ، فى نصف المحرم سنة إحدى عشرة فى مائتى رجل ، فنزلوا دار الأضياف ، ثم جاءوا رسول الله مقرين بالإسلام ، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل ، وكان رسول الله ﷺ قد بعث معاذا إلى اليمن قبل ذلك هو وأبا موسى الأشعرى كل واحد منهما على مخلاف ، قالوا : واليمن مخلافان ثم قال : يسروا ولا تعسرا . وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تخالفا . وقال لمعاذ « إنك ستأتى قوما من أهل الكتاب ، فليكن أول ماتدعوهم اليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإن هم أطاعوك بذلك فأخبرهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » أخرجاه فى الصحيحين من حديث ابن عباس . والمخلاف بكسر الميم وسكون المعجمة وآخره فاء بلغة أهل اليمن الكورة والإقليم . وروى أنه قال له « يا معاذ ، إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، وإنهم سائلوك عن مفاتيح الجنة ، فأخبرهم أن مفاتيح الجنة « لا إله إلا الله » وأنها تخرق كل شئ حتى تنتهى إلى الله ولا تحجب دونه ، من جاء بها يوم القيامة مخلصا رجحت بكل ذنب » . فقال معاذ : أرأيت ما سئلت عنه واختصم إلىَّ فيه مما ليس فى كتاب الله ولم أسمع منك سنة الله ؟ فقال : تواضع يرفعك الله ، ولا تقضين إلا بعلم ، فان أشكل عليك أمر فسل ولا تستحى ، واستشر ثم اجتهد ، فان الله

إن علم من قلبك الصدق يوفقك ، فان التبس عليك فقف حتى تتنبه أو تكتب إلىّ فيه ، واحذر الهوى فانه قائد الأشقياء إلى النار . وعليك بالرفق . وفى رواية أنه قال له لما بعثه إلى اليمن . كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله . قال فان لم تجد فى كتاب الله ؟ قال فبسنة رسول الله . قال : فان لم تجد فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو . قال فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : الحمد لله الذى سدد رسول رسول الله لما يرضى رسول الله . رواه الترمذى وأبو داود والدارمى . وللبخارى أن أبا موسى قال : يا رسول الله إن أرضنا بها شراب من الشعير المزر وشراب من العسل البتع ، فقال : كل مسكر حرام . فانطلقا . فقال معاذ لأبى موسى : كيف تقرأ القرآن ؟ قال : قائما وقاعدا وعلى راحلتى ، وأتفوقه تفوقا . قال : أما أنا فأقوم وأنام وأحتسب نومتى كما احتسبت قومتى . فضرب فسطاطا فجعلا يتزوران ، فزار معاذ أبا موسى ، فإذا رجل موثق ، فقال : ما هذا ؟ فقال أبو موسى : يهودى أسلم ، ثم ارتد . فقال معاذ : لأضربن عنقه . انتهى

رجعنا إلى حديث الوفد . فقال رجل منهم يقال له زرارة بن عمرو : يا رسول الله إنى رأيت فى سفرى هذا عجبا . قال : وما رأيت ؟ قال : رأيت أتاناً تركتها فى الحى كأنها ولدت جديا أسفع أحوى . فقال له رسول الله : هل تركت أمة لك مصرة على حمل ؟ قال نعم . قال : فانها ولدت لك غلاما وهو ابنك . قال : يا رسول الله ما باله أسفع أحوى ؟ قال : أدن منى . فدنا منه ، فقال : هل بك من برص تكتمه ؟ قال : والذى بعثك بالحق ما علم به أحد ولا اطلع عليه غيرك . قال : يا رسول الله : ورأيتُ النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان ومسكتان . قال ذلك ملك العرب إلى أحسن زيه وبهجته : قال : يا رسول الله ورأيت عجوزا شمطاء خرجت من الأرض . قال : تلك بقية الدنيا . قال : ورأيت نارا خرجت من الأرض فحالت بينى وبين ابن لى يقال له عمرو وهى تقول : لظى لظى ، بصير أعمى ، أطعمونى أكلكم وأهلكم ومالكم . قال رسول الله ﷺ : تلك فتنة تكون فى آخر الزمان . قال : يا رسول الله وما

الفتنة ؟ قال يقتل الناس إمامهم ويشتجرون اشتجار أطباق الرأس ـ وخالف رسول الله بين أصابعه ـ يحسب المسىء فيها أنه محسن ، يكون دم المؤمن عند المؤمن أحلى من شرب الماء ، إن مات ابنك أدركتَ الفتنة ، وإن متَّ أدركها ابنك . قال : يا رسول الله ادعُ الله أن لا أدركها . فقال له رسول الله : اللهم لايدركها . فمات وبقى ابنه ، وكان ممن خلع عثمان . والله أعلم

فصل

قالوا وفى هذه السنة ـ سنة تسع ـ بعث جرير بن عبد الله البجلى إلى تخريب ذى الخلصة وقد تقدم ذلك فى ذكر أصنام العرب فى أول الكتاب (١) . قالوا : وفيها بعث جرير ابن عبد الله إلى ذى الكلاع فأسلم وأسلمت امرأته خزيمة بنت أبرهة بن الصباح ، واسم ذى الكلاع سميفع ، وكان قبل ذلك قد استعلى أمره حتى ادعى الربوبية فأطيع ، ووفد ذو الكلاع فى خلافة عمر ومعه ثمانية عشر ألف عبد ، وأعتق من عبيده أربعة آلاف ، قال : يا أمير المؤمنين لى ذنب ما أظن أن الله يغفره . قال : وما هو ؟ قال : تواريت يوما ممن يتعبدنى ، ثم أشرفت عليهم من مكان عال فسجد لى زهاء مائة ألف إنسان . فقال عمر : التوبة بإخلاص والإنابة بإقلاع يرجى بهما مع رأفة الله الغفران . وفى رواية أعتق ذو الكلاع اثنى عشر ألف بيت ، وقتل بصفين

وفيها فى يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الأول توفى إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وهو ابن ثمانية عشر شهراً ، ودفن بالبقيع ، ورش قبره وعلم بعلامة . قال الزبير : وهو أول قبر رش ، وقيل صلى عليه بالبقيع ، وقيل لم يصلَّ عليه . وقال ﷺ : « القلب يحزن والعين تدمع ، ولا نقول إلا مايرضى الرب ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »

وفيها انكسفت الشمس يوم موت إبراهيم ، فقال الناس : إنما كسفت لموت إبراهيم ، قال رسول الله ﷺ : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان

---

(١) فى الصفحة ٣٢

لموت أحد ولا لحياته » رواه الشيخان . قيل الغالب الكسوف فى الثامن والعشرين فكسفت يوم مات إبراهيم فى العاشر فلذلك قالوا كسفت لموته

قالوا : وفيها طلع جبريل على مجلس النبى ﷺ فى صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر وطيب الرائحة وحسن الوجه ، رآه حضار المجلس لايرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد ، فجاء حتى جلس إلى النبى ﷺ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع يديه على فخذيه وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والقيامة وأماراتها ، فأجاب النبى ﷺ عن غير القيمة وقال فيها : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . فخرج جبريل من المجلس ، فأمر النبى ﷺ حتى طلبوه فما وجدوه ، قال ﷺ : أتدرون من السائل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . أخرجه مسلم من حديث عمر ، والبخارى من حديث أبى هريرة

وفيها قدم فيروز الديلمى المدينة فأسلم ، وهو الذى قتل الأسود العنسى الكذاب المتنبئ قتله فى الحادية عشرة من الهجرة

قال ابن اسحق : كان رسول الله ﷺ قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما وطئ الإسلام ، فبعث المهاجر بن أبى أمية بن المغيرة إلى صنعاء ، فخرج عليه العنسى وهو بها . وبعث زياد بن لبيد أخا بنى بياضة الأنصارى إلى حضرموت وعلى صدقاتها . وبعث عدى بن حاتم على كل طيئ وصدقاتها وعلى بنى أسد . وبعث مالك ابن نويرة على صدقات بنى حنظلة . وفرق صدقة بنى سعد على رجلين منهم ، فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية ، وقيس بن عاصم على ناحية . وبعث العلاء بن الحضرمى على البحرين . وبعث على بن أبى طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم

حجة الوداع، وتسمى: حجة الإسلام، وحجة التمام

قال ابن اسحق: فلما دخل على رسول الله ﷺ شهر ذى القعدة تجهز للحج، وأمر الناس بالجهاز له انتهى. وذلك سنة عشر، فأجمع الخروج إلى الحج. وفى البخارى عن زيد بن أرقم أن النبى ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، وأنه حج بعدما هاجر حجة واحدة حجة الوداع ولم يحج بعدها، وأخرج الترمذى عن جابر بن عبد الله: حج رسول الله ثلاث حجج حجتين قبل أن يهاجر وحجة بعد ما هاجر معها عمرة. هذا لفظه وصححه الحاكم. قال ابن حزم: حج رسول واعتمر قبل النبوة وبعدها وقبل الهجرة حججا وعمراً لا يعرف عددها، ولم يحج عليه السلام بعد أن هاجر إلى المدينة إلا حجة واحدة وهى حجة الوداع سنة عشر، واعتمر بعد أن هاجر إلى المدينة أربع عمر: عمرتين مفردتين قصد بهما فى ذى القعدة وأتمهما، إحداهما عمرة القضية سنة سبع، والأخرى عمرته من الجعرانة عام ثمان إثر وقعة حنين فى ذى القعدة أيضا، واعتمر عمرة ثالثة قرنها مع حجة الوداع، والرابعة عمرته التى صده عنها المشركون سنة ست فى ذى القعدة عام الحديبية. فخرج ﷺ من المدينة بعد ما صلى الظهر بها أربعا ثم ترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه وخطبهم قبل ذلك خطبة علمهم فيها وجوه الإحرام وواجباته وسننه، يوم السبت لخمس ليال بقين من ذى القعدة ثبت فى الصحيحين: صلينا مع النبى ﷺ الظهر بالمدينة أربعا، والعصر بذى الحليفة ركعتين. ولمسلم عن جابر: أذن رسول الله فى الناس فى العاشرة وأعلم الناس أنه حاج، فقدم المدينة بشر كثير كلهم ريد أن يأتم برسول الله ويعمل بمثل عمله انتهى. وخرج معه عليه الصلاة والسلام سعون ألفا ويقال مائة وأربعة عشر ألفا ويقال أكثر كما حكاه البيهقى، وكان أول ى الحجة يوم الخميس، وخروجه من المدينة يوم السبت كما تقدم، ودخوله مكة صبح ابعة ذى الحجة كما ثبت فى حديث عائشة، وذلك يوم الأحد، فيكون المكث فى طريق ثمان ليال وهى المسافة الوسطى، وكانت الوقفة يوم الجمعة. وأخرج ﷺ معه

نساءه كلهن فى الهوادج ، وساق معه الهدْى هو وأبو بكر وعمر وذوو اليسار من أصحابه ، فقلده وأشعره ، وبات بذى الحليفة وقال : أتانى الليلة آت من ربى وقال : صل بهذا الوادى المبارك ، وقل : عمرة وحجة . رواه البخارى عن عمر ، وصلى بها المغرب والعشاء والصبح والظهر ، فصلى بها خمس صلوات وطاف على نسائه كلهن تلك الليلة ، فلما أراد الإحرام اغتسل غسلا ثانيا لإحرامه غير غسل الجماع الأول ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة وطيب فيه مسك فى بدنه ورأسه حتى كان وبيص المسك يرى فى مفارقه ولحيته ، ثم استدامه ولم يغسله ، ثم لبس إزاره ورداءه ثم صلى الظهر ركعتين ، ثم أهل بالحج والعمرة فى مصلاه ، وقرن بينهما ، ولم ينقل أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر ، وكان قارنا بين الحج والعمرة لبضعة وعشرين دليلا ذكرها فى الهدى . ولمسلم عن جابر ، ثم ركب القصواء حتى إذا استوت ناقته على البيداء نظرتُ إلى مد بصرى بين يديه من راكب وماش وعن يمينه بمثل ذلك وعن شماله بمثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك ورسول الله بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل به من شئ عملنا به ، فأهل رسول الله ﷺ بالتوحيد : لبيك لبيك ، لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . وأهل الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يرد رسول الله شيئا منه . ولزم رسول الله تلبيته . قال جابر : لسنا نرى إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة . وفى الصحيحين عن عائشة ، خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع ، فمنا من أهل بعمرة ، ومنا من أهل بحج وعمرة ، ومنا من أهل بالحج ، وأهل رسول الله بالحج . فأما من أهل بالحج أو جمع بين الحج والعمرة فلم يحلق حتى كان يوم النحر . انتهى . وجمع شيخ الإسلام ابن تيمية بين الأحاديث المختلفة فى صفة حجه ﷺ بأن قال : والصواب أن الأحاديث فى هذا الباب متفقة ليست بمختلفة إلا اختلافا يسيرا يقع مثله فى غير ذلك ، فان الصحابة ثبت عنهم أنه تمتع ، والتمتع عندهم يتناول القرآن ، والذين روى عنهم أنه أفرد روى عنهم أنه تمتع كما فى الصحيحين عن عمران أن رسول الله ﷺ جمع بين حج وعمرة ، ثم إنه لم ينه عنه حتى مات ولم ينزل فيه قرآن يحرمه .

وفى رواية عنه تمتع نبي الله وتمتعنا معه ، فهـذا عمران وهو من أجل السابقين الأولين أخبر أنه تمتع ، وأنه جمع بين الحج والعمرة . والقارن عند الصحابة متمتع ، ولهـذا أوجبوا عليه الهدى ، ودخل فى قوله تعالى ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ ، وما ذكره بكر بن عبد الله المزنى أنه لبى بالحج وحده فجوابه أن الثقات الذين هم أثبت فى ابن عمر — مثل سالم ابنه ونافع — رووا عنه أنه قال : تمتع رسول الله بالعمرة إلى الحج . فتغليط بكر أولى من تغليط سالم . ويشبه أن ابن عمر قال له « أفرد الحج » فظن أنه قال لبى بالحج ، فان إفراد الحج كانوا يطلقونه ويريدون به إفراد أعمال الحج ، وذلك رد منهم على من قال إنه قرن قرانا طاف فيه طوافين وسعى فيه سعيين ، وعلى من يقول إنه حل من إحرامه ، فرواية من روى من الصحابة أنه أفرد الحج فهم ثلاثة عائشة وابن عمر وجابر ، والثلاثة نقل عنهم التمتع ، وحديث عائشة وابن عمر أنه تمتع بالعمرة والحج أصح من حديثهما عنه أنه أفرد الحج ، وما صح من ذلك عنهما فمعناه إفراد أعمال الحج أو أن يكون وقع فيه غلط كنظائره ، فإن أحاديث التمتع متوافرة رواها أكابر الصحابة كعمر وعلى وعثمان وعمران بن حصين ، بل رواها عن النبي ﷺ بضعة عشر من الصحابة والله أعلم . قلت : وهذا الكلام من أحسن ما يجمع لك بين الأحاديث فى هذا الباب ، وبه يتفق معناه

عدنا إلى سياق حجته ﷺ . ولبد رسول الله رأسه بالغسل ، وهو بالغين المعجمة على وزن كفل ، وهو ما يغسل به الرأس من خطمى ونحوه يلبد به الرأس حتى لا ينتشر ، وأهلّ فى مصلاه ، ثم ركب على ناقته فأهلّ أيضا ، ثم أهلّ لما استقلت به على البيداء . قال ابن عباس : وأيم الله لقد أوجب فى مصلاه ، وأهل حين استقلت به ناقته ، وأهل حين علا شرف البيداء . وكان يهل بالحج والعمرة تارة ، وبالحج تارة ، لأن العمرة جزء منه ، فمن ثم قيل قرن ، وقيل تمتع ، وقيل أفرد . ثم لبى وأمر الصحابة بأمر الله أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية . وكان حجه على رحل ، لا فى محمل ولا هودج ولا عمارية

ثم إنه ﷺ خير أصحابه عنـد الإحرام بين الأنساك الثلاثة : القرآن ، والتمتع

الخاص ، والإفراد . ثم ندبهم عند دنوهم من مكة إلى فسخ الحج والقرآن إلى العمرة لمن لم يكن معه هدى ، ثم حتم ذلك عليهم عند المروة

وولدت أسماء بنت عميس بذى الحليفة محمد بن أبى بكر ، فأمرها رسول الله أن تغتسل وتستثفر بثوب وتحرم وتهل ، ففى هذه ثلاث سنن : غسل المحرم ، وأن الحائض تغتسل لإحرامها ، وأن الإحرام يصح من الحائض . ثم سار رسول الله ولزم تلبيته والناس يزيدون فيها وينقصون منها وهو يقرهم ولا ينكر عليهم ، فلما كان بالروحاء رأى حمار وحش عقيرا فقال : دعوه فانه يوشك أن يأتى صاحبه ، فجاء صاحبه فقال : يارسول الله شأنكم بهذا الحمار . فأمر رسول الله أبا بكر أن يقسمه بين الرفاق . وفى هذا دليل على جواز أكل المحرم من صيد الحلال إذا لم يصده لأجله ، وأن الهبة لا تفتقر إلى لفظ وهبت ، وجواز قسمة اللحم مع عظامه بالتحرى ، وأن الصيد يملك بالإثبات ، وعلى أكل الحمار الوحش ، وعلى التوكل فى القسمة ، وعلى كون القاسم واحدا.

ثم مضى حتى إذا كان بالإثاية بين الرويثة والعرج إذا ظبى حاقف فى ظل فيه نسيم ، فأمر رجلا أن يقف عنده لا يريبه أحد من الناس . والفرق بين هذا والذى قبله أن الذى صاد الحمار كان حلالا فلم يمنع من أكله ، وهذا لم يعلم أنه حلال فلم يأذن فى أكله المحرم . وفيه دليل على أن قتل المحرم للصيد يجعله بمنزلة الميتة فى عدم الحل ، إذ لو كان حلالا لم يضيع ماليته . ثم سار حتى نزل بالعرج وكانت زاملته وزاملة أبى بكر واحدة ، وكانت مع غلام لأبى بكر ، فجلس رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى جانبه وعائشة إلى جانبه الآخر وأسماء زوجته إلى جانبه وأبو بكر ينتظر الغلام والزاملة إذ طلع الغلام ليس معه البعير ، فقال : أين بعيرك ؟ فقال : أضللته البارحة . فقال بعير واحد تضله ! قال فطفق يضربه ورسول الله يبتسم ويقول : انظروا إلى المحرم ما يصنع ؟ وما يزيد رسول الله أن يقول ذلك ويبتسم . ومن تراجم أبى داود على هذه القصة « باب المحرم يؤدب »

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالأبواء أهدى له الصعب بن جثامة عجز

حمار وحش، فرده عليه وقال : إنا لم نرده إلا أنا حرم . أخرجاه فى الصحيحين . وإذا حمل حديث أبى قتادة على أنه لم يصده لأجله وحديث الصعب على أنه صيد لأجله زال الإشكال، ويشهد له حديث جابر المرفوع « صيد البر حلال ما لم تصيدوه ويصاد لكم » . فلما مر بوادى عسفان قال : يا أبا بكر أى واد هذا ؟ قال : وادى عسفان . قال : لقد مر به هود وصالح على بكرين أحمرين خطمهما الليف ، وأزرهم العبا ، وأرديتهم النمار يلبون ، يحجون البيت العتيق . ذكره الإمام أحمد فى مسنده

فلما كان بسرف حاضت عائشة ، وقد كانت أهلت بعمرة ، فدخل عليها النبى ﷺ وهى تبكى فقال : مايبكيك ؟ لعلك نفست . قالت : نعم . قال هذا شئ كتبه الله على بنات آدم ، افعلى ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفى بالبيت . أخرجاه فى الصحيحين . وفيهما عن عروة عنها : خرجنا مع رسول الله قالت : أهللنا بعمرة ، فقدمت مكة وأنا حائض ولم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، فشكوت ذلك إلى رسول الله فقال : انقضى رأسك وامتشطى وأهلِّى بالحج ودعى العمرة . قالت : ففعلت فلما قضينا الحج أرسلنى رسول الله مع أخى عبد الرحمن إلى التنعيم فاعتمرت ، فقال : هذه مكان عمرتك . فطاف الذين أهلوا بالعمرة بالبيت وبالصفا والمروة ثم رحلوا ، ثم طافوا طوافا آخر بعد أن رجعوا من منى لحجهم . وأما الذين كانوا يجمعون الحج والعمرة فإنما طافوا طوافا واحدا انتهى . فلما كان بسرف قال لأصحابه : من لم يكن معه هدى فأحبَّ أن يجعلها عمرة فليفعل ، ومن كان معه هدى فلا . وهذه رتبة أخرى فوق رتبة التخيير عند الإحرام . فلما كان بمكة أمر أمرا حتما من لا هدى معه أن يجعلها عمرة من إحرامه ، ومن معه هدى أن يقيم على إحرامه ، ولم ينسخ من ذلك شئ البتة ، بل سأله سراقة بن مالك عن هذه العمرة التى أمرهم بالفسخ اليها هل هى لعامهم ذلك أم للأبد ؟ فقال ﷺ : إن العمرة دخلت فى الحج إلى يوم القيامة . وقد روى عنه ﷺ الأمر بفسخ الحج إلى العمرة أربعة عشر من الصحابة رضى الله عنهم وأحاديثهم كلها صحاح وهم : عائشة وصفية وعلى بن أبى طالب وفاطمة بنت رسول الله

وأسماء بنت أبى بكر وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدرى والبراء بن عازب وعبد الله ابن عمر وأنس بن مالك وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن عباس وسبرة بن معبد وسراقة بن مالك . ففى الصحيحين عن ابن عباس : قدم النبى ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة مهلين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة ، فتعاظم ذلك عندهم فقالوا : يا رسول الله أى الحل ؟ قال : حل كله . وفى لفظ : وأمر النبى ﷺ أصحابه أن يجعلوا إحرامهم بعمرة إلا من كان معه الهدى . وفى الصحيحين عن جابر : أهل النبى ﷺ وأصحابه وليس مع أحد هدى غير النبى ﷺ وطلحة . وقدم على من اليمن ومعه هدى . فقال أهللت بما أهل به النبى ﷺ . فأمر النبى أن يجعلوها عمرة ويطوفوا ويقصروا ، إلا من كان معه الهدى . قالوا ننطلق إلى منى وذكر أحدنا يقطر ؟ فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : لو استقبلت من امرىء ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معى الهدى لا حللت . وفى لفظ فقام فقال : علمتم أنى أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم ، ولولا هديى لحللت كما تحلون ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى ، فحلوا . فحللنا ، فسمعنا وأطعنا . ولمسلم عن عائشة : دخل رسول الله ﷺ علىَّ وهو غضبان ، فقلت : من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار ؟ قال أو ماشعرت ؟ إنى أمرت الناس بأمر فاذا هم يترددون . . الحديث . قال فى الهدى : ونحن نشهد الله علينا أنا لو أحرمنا بحج لرأينا فرضا علينا فسخه إلى عمرة تفاديا من غضب رسول الله واتباعا لأمره ، فوالله مانسخ هذا فى حياته ولا بعده ، ولاصح حرف واحد يعارضه ، ولا خص به أصحابه دون من بعدهم ، بل أجرى الله سبحانه على لسان سراقة أن سأله : هل ذلك مختص بهم ؟ فأجابه بأن ذلك كائن لأبد الأبد . فما ندرى مايقدَّم على هذه الأحاديث ، وهذا الأمر المؤكد قد غضب رسول الله على من خالفه . ولله در الإمام أحمد إذ يقول لسلمة بن شبيب ، قال له : يا أبا عبد الله كل أمرك عندى حسن إلا خلة واحدة . قال : وماهى ؟ قال تقول بفسخ الحج إلى العمرة . فقال : يا سلمة كنت أرى لك عقلا ، عندى فى ذلك أحد عشر حديثا صحاحا عن رسول الله أأتركها لقولك ؟ وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن رجلا

قال له : ما هذه الفتيا التى قد فشت بالناس أن من طاف فقد حل ؟ فقال : سنة نبيكم ﷺ وإن زعمتم . وصدق ابن عباس : كل من طاف بالبيت ممن لا هدى معه من مفرد وقارن أو متمتع فقد حل إما وجوبا وإما حكما . هذه هى السنة التى لا راد لها ولا مدفع . وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن أبى الشعثاء عن ابن عباس قال : من جاء مهلا بالحج فان الطواف بالبيت يصير إلى عمرة شاء أو أبَى . قلت : إن الناس ينكرون ذلك عليك . قال : وهذه سنة نبيهم وإن زعموا . وهذا مذهب أهل بيت رسول الله ومذهب حبر الأمة وبحرها ابن عباس وأصحابه ومذهب إمام أهل السنة وأتباعه أحمد بن حنبل وأهل الحديث معه ومذهب أهل الظاهر . وأما قول عروة وغيره : نهى عنها أبو بكر وعمر فقد أجابه ابن عباس فأحسن جوابه ، فروى الأعمش عن فضيل بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : تمتع رسول الله ، فقال عروة نهى أبو بكر وعمر عن المتعة ، فقال ابن عباس : أراهم سيهلكون ، أقول رسول الله وتقول قال أبو بكر وعمر ؟ وفى صحيح مسلم عن ابن أبى مليكة أن عروة بن الزبير قال لرجل من أصحاب رسول الله يأمر الناس بالعمرة فى هذا العشر وليس فيها عمرة فقال أو لاتسأل أمك عن ذلك ؟ فقال عروة : فان أبا بكر وعمر لم يفعلا ذلك . قال الرجل : من ههنا هلكتم . ما أرى الله إلا سيعذبكم ، إنى أحدثكم عن رسول الله وتخبرونى بأبى بكر وعمر . قال عروة : إنهما والله كانا أعلم بسنة رسول الله منك . فسكت الرجل . قال أبو محمد بن حزم : نحن نقول لعروة : ابن عباس أعلم بسنة رسول الله منك وبأبى بكر وعمر منك وخير منك وأولى بهم ثلاثتهم منك ، لايشك فى ذلك مسلم ، مع أنهما قد روى عنهما خلاف ما قال عروة ومن هو خير من عروة وأفضل وأعلم وأوثق . ثم روى من طريق ابن عباس : تمتع رسول الله حتى مات ، وأبو بكر حتى مات ، وعمر حتى مات ، وعثمان كذلك . وأول من نهى عنها معاوية وقد رواه أحمد والترمذى وقال حديث حسن . وقال عبد الله بن عمر لمن سأله عنها فقال له السائل إن أباك نهى عنها قال : أفرسول الله أحق أن يتبع ، أو أبى ؟ وأجاب الشيخ تقى الدين رحمه الله عن

ذلك بأن قال : إن عمر لم ينه عن المتعة البتة ، وإنما قال : إن أتم لحجكم وعمرتكم أن تفصلوا بينهما ، فاختار لهم عمر أفضل من القرآن والتمتع الخاص بدون سفرة أخرى ، وقد نص على ذلك الإمام أحمد وأبو حنيفة ومالك والشافعى وغيرهم ، وهذا هو الإفراد الذى فعله أبو بكر وعمر ، وكان عمر يختاره للناس وكذلك علىّ ، وقال عمر وعلى فى قوله ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ قال إتمامها أن تحرم بهما من دويرة أهلك ، وقال ﷺ لعائشة فى عمرتها : أجرك على قدر نصيبك . قال فى الهدى : فهذا الذى اختاره عمر للناس ، فظن من غلط منهم أنه نهى عن المتعة . ومن الناس من جعل عنه فيها روايتين ومنهم من جعل النهى عنه قولا قديما رجع عنه كما فعل أبو محمد بن حزم

عدنا إلى سياق حجه ﷺ : نهض ﷺ إلى أن نزل بذى طوى ، وهى المعروفة اليوم بآبار الزاهر ذكره فى الهدى ، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة ، وصلى بها الصبح ثم اغتسل من يومه ونهض إلى مكة فدخلها نهارا من أعلاها من الثنية العليا التى تشرف على الحجون ، وكان فى العمرة يدخل من أسفلها ، وفى الحج دخل من أعلاها وخرج من أسفلها . ثم سار حتى دخل المسجد ، وذلك ضحى ، وذكر الطبرانى أنه كان إذا نظر إلى البيت قال : اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة . وروى عنه أنه كان يرفع يديه ويكبر ويقول : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، حينا ربنا بالسلام اللهم زد . . . وهو مرسل ، لكن هذا سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب يقوله . فلما دخل المسجد عمد إلى البيت ولم يركع تحية المسجد فإن تحية المسجد الحرام الطواف ، فلما حاذى الحجر استلمه ، ثم أخذ على يمينه وجعل البيت عن يساره ، ولم يدعُ عند الباب بدعاء ولا تحت الميزاب ولا عند ظهر الكعبة وأركانها ولا وقت الطواف ذكرا معينا ، لا بفعله ولا بتعليمه ، بل حفظ عنه بين الركنين : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، ورمل فى طوافه هذه الثلاثة الأشواط الأول يسرع فى مشيه ويقارب بين خطاه . واضطبع بردائه فجعله على إحدى كتفيه وأبدى كتفه الأخرى ومنكبه . وكلما حاذى الحجر الأسود أشار اليه واستلمه بمحجنه وقبل المحجن . والمحجن

عصا محجنة الرأس . وثبت عنه أنه استلم الركن اليمانى ولم يثبت عنه أنه قبله ولا قبل يده عند استلامه ، وثبت عنه أنه قبل الحجر الأسود وأنه استلمه بيده ووضع يده عليه ثم قبلها ، وثبت أنه استلمه بمحجن فهذه ثلاث صفات ولم يستلم ولم يمس من الأركان إلا اليمانيين فقط . فلما فرغ من طوافه جاء إلى خلف المقام فقرأ ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ فيصلى ركعتين والمقام بينه وبين البيت ، فقرأ فيهما بعد الفاتحة سورتى الآخرة (١) فلما فرغ من صلاته أقبل إلى الحجر فاستلمه ، ثم خرج إلى الصفا من الباب الذى يقابله فلما دنا منه قرأ ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ أبدأ بما بدأ الله به ، وفى رواية النسائى ابدأوا على الأمر ، ثم رقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة ووحد الله وكبره وقال : لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . ثم دعا بين ذلك قال مثل هـذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة يمشى فلما انتصب قدماه فى بطن الوادى وأصعد مشى وذلك اليوم قبل الميلين الأخضرين فى أول السعى ، هكذا فى حديث جابر قال : حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا ، فلما أكمل سعيه عند المروة أمر كل من لا هدى معه أن يحل حتما ولا بد ـ قارنا كان أو مفردا ـ الحل كله من وطء النساء والطيب والمخيط ، وأن يبقوا كذلك إلى يوم التروية ، ولم يحل هو من هديه . وهناك دعا المحلقين بالمغفرة ثلاثا وللمقصرين مرة . وهناك سأله سراقة بن مالك عقيب أمره لهم بالفسخ والإهلال : هل ذلك لعامهم خاصة أم للأبد . ولم يحل أبو بكر ولا عمر ولا طلحة ولا الزبير من أجل الهدى . وأما نساؤه فأحللن إلا عائشة فإنها لم تحل من أجل تعذر الحل عليها بحيضها . وأمر من أهل بإهلال كإهلاله ﷺ أن يقيم على إحرامه إن كان معه هدى ، وكان يصلى مـــدة قيامه إلى يوم التروية بمنزله الذى هو نازل فيه بالمسلمين بظاهر مكة ، فأقام أربعة أيام يقصر الصلاة يوم الأحد والإثنين والثلاثاء.

---

(١) عند النسائى والترمذى : قل هو الله أحد ، وقل يا أيها الكافرون

والأربعاء ، فلما كان يوم الخميس ضحى توجه بمن معه من المسلمين إلى منى فأحرم بالحج من كان أحل منه من رحالهم ، ولم يدخلوا إلى المسجد ، بل أحرموا ومكة خلف ظهورهم . وفى حديث جابر : وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر وبات بها ليلة الجمعة حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة له من شعر تضرب بنمرة ، فسار رسول الله ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية فأجاز رسول الله حتى أتى عرنة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها ، حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال : إن دماءكم وأموالكم – وفى رواية غيره وأعراضكم – حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث (كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل) ، وربا الجاهلية موضوعة وأول ربا أضع ربا العباس ابن عبد المطلب فإنه موضوع كله . واتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله ، وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكسها إلى الناس : اللهم اشهد اللهم اشهد (ثلاث مرات) ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا . قال فى الهدى : وذلك يوم الجمعة ، فدل على أن المسافر لا يصلى الجمعة ، ومعه أهل مكة فصلوا بصلاته قصروا جميعا بلا ريب ولم يأمرهم بالإتمام وإنما قال ﷺ لأهل مكة « أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر » فى غزاة الفتح بجوف مكة حيث كانوا فى ديارهم مقيمين ، ولهذا كان أصح أقوال العلماء أن أهل مكة يقصرون ويجمعون بعرفة كما فعلوا مع النبى ﷺ ، وفى هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يحدد بمسافة معلومة ولا بأيام ، ولا تأثير للنسك فى قصر الصلاة البتة

وقال جابر : ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ولم يزل واقفا حتى غربت الشمس . قال فى الهدى : وأمر الناس أن يرفعوا عن بطن عرنة وأخبر أن عرفة لا تختص بموقفه ذلك بل قال : وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف ، وأرسل إلى الناس أن يكونوا على مشاعرهم ويقفوا بها فانها من إرث أبيهم إبراهيم . وهناك أقبل ناس من أهل نجد فسألوه عن الحج فقال : الحج يوم عرفة ، من أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج ، أيام منى ثلاثة أيام التشريق ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه . وكان فى دعائه رافعا يديه إلى صدره كاستطعام المسكين ، وأخبر أن خير الدعاء الدعاء فى عرفة ، وهناك نزلت عليه ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ﴾ وهناك سقط رجل من المسلمين عن راحلته وهو محرم فمات . فأمر رسول الله ﷺ أن يكفن فى ثوبيه ولا يمس بطيب وأن يغسل بماء وسدر ولا يغطى رأسه ولا وجهه ، وأخبر أن الله يبعثه يوم القيامة يلبى ، فلما غربت الشمس واستحكم غروبها بحيث ذهبت الصفرة أفاض من عرفة ، وأردف أسامة بن زيد خلفه وأفاض بسكينة وضم اليه بزمام ناقته حتى إن رأسها ليصيب طرفا رحله . وفى حديث جابر : ويقول بيده اليمنى : أيها الناس عليكم بالسكينة . وكلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد . انتهى

وأفاض من طريق المأزمين ودخل عرفة من طريق ضب ، وهكذا كانت عادته عليه السلام فى الأعياد أن يخالف الطريق ، ثم جعل يسير العنق ، وهو ضرب من السير ليس بالسريع ولا البطىء ، فاذا وجد فجوة وهو المتسع نص سيره أى رفعه فوق ذلك . وكان يلبى فى مسيره ذلك لا يقطع التلبية ، ثم أمر بالأذان فأذن المؤذن ثم أقام فصلى المغرب قبل حط الرحال وتبريك الجمال ، فلما حطوا رحالهم أمر فأقيمت الصلاة ثم صلى العشاء الآخرة بإقامة بلا أذان ولم يصل بينهما بشىء ، ثم نام حتى أصبح وأذن تلك الليلة لضعفة أهله أن يتقدموا إلى منى قبل طلوع الفجر وذلك عند غيوب القمر ، وأمرهم أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس . حديث صحيح صححه الترمذى . والذى دلت عليه

السنة جواز الرمى قبل طلوع الشمس للعذر بمرض أو كبر يشق عليه مزاحمة الناس لأجله ، وأما القادر الصحيح فلا يجوز له ذلك ، فلما طلع الفجر صلاها فى أول الوقت لا قبله قطعا بأذان وإقامة يوم النحر ، وهو يوم العيد وهو يوم الحج الأكبر

ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام فاستقبل القبلة فأخذ فى الدعاء والتضرع والتكبير والتهليل والذكر حتى أسفر جدا ، ووقف وأعلم الناس أن مزدلفة كلها موقف ، ثم سار من مزدلفة مردفا للفضل بن عباس وهو يلبى فى سيره ، وكان الفضل رجلا حسن الشعر أبيض وسيما ، فلما دفع رسول الله مرت ظعن يجرين ، فطفق الفضل ينظر إليهن ، فوضع ﷺ يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر فحوّل ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل فصرف وجهه من الشق الآخر ينظر وفى طريقه ذلك أمر ابن عباس أن يلقط له حصى الجمار سبع حصيات ، ولم يكسرها من الجبل تلك الليلة كما فعل من لا علم عنده ، ولا التقطها بالليل ، فالتقط له سبع حصيات من حصى الخذف ، فجعل ينفضه من كفه ويقول : أمثال هؤلاء فارموا ، وإياكم والغلو فى الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين

فلما أتى بطن محسر حرك ناقته وأسرع السير ، وهذا كان عادته فى المواضع التى نزل بها بأس الله بأعدائه ، فان هناك أصاب أصحاب الفيل ما قصّ الله علـيه ، وسمى محسرا لأن الفيل حسر فيـه أى أعيا وانقطع عن الذهاب . وقال جابر فى حديثه : ثم سلك الطريق التى تخرج على الجمرة ، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات مثل حصى الخذف ، يكبر مع كل حصاة منها من بطن الوادى . انتهى . وكان رميه إياها راكبا بعد طلوع الشمس واحدة ، وحينئذ قطع التلبية ورمى ، وبلال وأسامة معه أحدهما آخذ بخطام ناقته والآخر يظله بثوب من الحر ، وفيه دليل على جواز استظلال المحرم بالمحمل ونحوه إن كانت هذه القصة يوم النحر ، وإن كانت أيام منى فلا حجة فيها

ثم رجع إلى منى فخطب الناس خطبة بليغة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه وفضله عند الله ، وحرمة مكة على جميع البلاد . وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب

الله ، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه وقال : لعلى لا أحج بعد عامى هـذا ، وعلمهم مناسكهم ، وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم ، وأمر الناس أن لا يرجعوا بعده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمر بالتبليغ عنه ، وأخبر أنه رب مبلغ أوعى من سامع ، وقال فى خطبته : لا يجنى جان إلا على نفسه ، وأنزل المهاجرين عن يمين القبلة والأنصار عن يسارها والناس حولهم ، وفتح الله له أسماع الناس حتى سمعه أهل منى فى منازلهم ، وقال فى خطبته تلك : اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم . وودع حينئذ الناس فقالوا « حجة الوداع »

ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده ، وكان ينحرها قائمة معقولة يدها اليسرى ، وكان عدد ما نحر عدد سنى عمره ، ثم أمسك وأمر عليا أن ينحر ما بقى من المائة ، ثم أمر عليا أن يتصدق بجلالها وجلودها ولحومها فى المساكين ، وأمره أن لا يعطى الجزار فى جزارتها شيئا منها وقال : نحن نعطيه من عندنا . وقال : من شاء اقتطع ، ونحر ﷺ بمنحره بمنى وأعلمهم أن منى كلها منحر ، وأن فجاج مكة طريق ومنحر ، وفى هذا دليل على أن النحر لا يختص بمنى بل حيث نحر من فجاج مكة أجزأه . وسئل ﷺ أن يبنى له بمنى مظلة من الحر فقال : لا ، منى مناخ من سبق

فلما أكمل ﷺ نحره استدعى بالحلاق فقال للحلاق ـ وهو معمر بن عبد الله ـ وهو قائم على رأسه بالموسى ونظر فى وجهه وقال : يا معمر أمكنك رسول الله من شحمة أذنه وفى يده الموسى . قال معمر : فقلت أما والله يا رسول الله إن ذلك لمن نعمة الله علىّ . قال أجل . ذكره أحمد . وقال للحلاق : خذ . وأشار إلى جانبه الأيمن . فلما فرغ قسم شعره بين من يليه ، ثم أشار إلى الحلاق فحلق جانبه الأيسر قال : ههنا أبو طلحة ؟ فدفعه اليه . هكذا وقع فى صحيح مسلم . قيل أصاب خالد بن الوليد شعرات من ناصيته فجعلها فى قلنسوته فلم يشهد بها قتالا إلا رزق النصر

قال جابر فى حديثه : وأشرك ﷺ عليا فى هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببعضة

فجعلت فى قدر فطبخت ، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها . ثم ركب ﷺ فأفاض إلى البيت ، وصلى بمكة الظهر ، فأتى بنو عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم . فناولوه دلوا فشرب منه

وطاف فى حجة الوداع على راحلته بالبيت وبالصفا والمروة ليراه الناس وليسألوه . ثم رجع إلى منى . واختلف أين صلى الظهر يومئذ ، ففى الصحيحين عن ابن عمر أنه ﷺ أفاض يوم النحر فصلى الظهر بمنى . وفى مسلم عن جابر أنه صلى الظهر بمكة . وكذلك قالت عائشة . وطافت أم سلمة فى ذلك اليوم على بعيرها وهى شاكية ، وكانت استأذنت رسول الله ، وطافت عائشة فى ذلك اليوم طوافا واحدا وسعت سعيا واحدا أجزأها عن حجها وعمرتها . وطافت صفية ذلك اليوم ثم حاضت فأجزأها طوافها ذلك عن طواف الوداع فلم تودع ، فاستقرت سنته ﷺ فى المرأة الطاهر إذا حاضت قبل الطواف أن تقرن وتكتفى بطواف واحد وسعى واحد ، وإن حاضت بعد طواف الإفاضة اجتزأت به عن طواف الوداع

ثم رجع ﷺ إلى منى من يومه ذلك فبات بها ، فلما أصبح انتظر زوال الشمس فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار ولم يركب ، فبدأ بالجمرة الأولى التى تلى مسجد الخيف فرماها بسبع حصيات : واحدة بعد واحدة ، يقول مع كل حصاة : الله أكبر . ثم تقدم عن الجمرة أمامها حتى أسهل فقام مستقبل القبلة ، ثم رفع يديه ودعا دعاء طويلا بقدر سورة البقرة ، ثم أتى الجمرة الوسطى فرماها كذلك ، ثم انحدر ذات اليسار مما يلى الوادى فوقف مستقبل القبلة رافعا يديه يدعو قريبا من وقوفه الأول . ثم أتى الجمرة الثالثة وهى جمرة العقبة فاستبطن الوادى واستعرض الجمرة ، فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ، فرماها بسبع حصيات كذلك ولم يرمها من أعلاها كما يفعل الجهال ، ولا جعلها عن يمينه ، واستقبل البيت وقت الرمى كما ذكره غير واحد من الفقهاء ، فلما أكمل الرمى رجع من فوره ولم يقف عندها ، فقيل لضيق المكان بالجبل ، وقيل وهو أصح

إن دعاءه كان فى نفس العبادة قبل الفراغ منها ، فلما رمى جمرة العقبة فرغ الرمى ، والدعاء فى صلب العبادة أفضل منه بعد الفراغ منها ، وهذه كانت سنته فى دعائه فى الصلاة . وذكر الإمام أحمد أنه كان يرمى يوم النحر راكبا وأيام منى ماشيا فى ذهابه ورجوعه . فقد تضمنت حجته ﷺ ست وقفات للدعاء : الأولى على الصفا ، والثانية على المروة ، والثالثة بعرفة ، والرابعة بمزدلفة ، والخامسة عند الجمرة الأولى ، والسادسة عند الجمرة الثانية

واستأذنه العباس بن عبد المطلب أن يبيت بمكة ليالى منى من أجل السقاية فأذن له ، واستأذنه رعاء الإبل فى البيتوتة خارج منى عند الإبل فأرخص لهم أن يرموا يوم النحر ثم يجمعوا رمى يومين بعد يوم النحر يرمونه فى أحدهما . قال مالك : ظننت أنه قال فى أول يوم منهما ثم يرمون يوم النفر ، وقال ابن عيينة فى هذا الحديث رخص للرعاء أن يرموا يوما ويدعوا يوما ، فيجوز للطائفتين بالسنة ترك المبيت بمنى ، وأما الرمى فلا يتركونه ، بل لهم أن يؤخروه إلى الليل فيرمون فيه ، ولهم أن يجمعوا رمى يومين فى يوم ، وكذلك من له مال يخاف ضياعه أو مريض يخاف من تخلفه عنه ، أو كان مريضا لا يمكنه البيتوتة سقطت عنه بتبيينه النص على هؤلاء . والله أعلم

ولم يتعجل ﷺ فى يومين ، بل تأخر حتى أكمل رمى أيام التشريق الثلاثة وأفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر إلى المحصب ـ وهو الأبطح وهو خيف بنى كنانة ـ فوجد أبا رافع قد ضرب قبته هناك ، وكان على ثقله ، توفيقا من الله دون أن يأمره ﷺ ، فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء ورقد رقدة . ثم نهض إلى مكة فطاف طواف الوداع ليلا سحرا ، ولم يرمل فى هذا الطواف ، ورغبت اليه عائشة أن تعمر عمرة مفردة فأخبرها أن طوافها بالبيت وبالصفا والمروة قد أجزأ عن حجها وعمرتها . فقالت : يا رسول الله يرجع الناس بحجة وعمرة وأرجع أنا بحجة ؟ قال : أو ما طفت ليالى قدمنا مكة ؟ قالت : لا . قال : فاذهبى مع أخيك إلى التنعيم فأهلِّى بعمرة ، ثم موعدك كذا وكذا ، ففرغت من عمرتها ليلا ثم وافت المحصب مع أخيها فأتيا فى جوف الليل ، فقال

رسول الله ﷺ : فرغتما ؟ قالت : نعم . فنادى بالرحيل فى أصحابه فارتحل الناس . ثم طاف بالبيت قبل صلاة الصبح ، هكذا عند البخارى فى حديث القاسم عنها . وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله قال حين أراد أن ينفر من منى : نحن نازلون إن شاء الله غدا بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على بنى هاشم وبنى المطلب لا يناكحوهم ولا يكون بينهم شئ حتى يسلموا اليهم رسول الله انتهى ، فقصد النبى ﷺ إظهار شعائر الإسلام فى المكان الذى أظهروا فيه شعائر الكفر والشرك ، وكان ابن عمر يرى نزوله سنة ، وذهب ابن عباس وعائشة إلى أنه ليس سنة ، وإنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ ليكون أسمح لخروجه

قال ابن اسحاق : ثم قفل رسول الله ﷺ فأقام بالمدينة بقية ذى الحجة والمحرم وصفرا ، وضرب على الناس بعثا إلى الشام ، وأمر عليهم أسامة بن زيد مولاه وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، فتجهز الناس ، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون . انتهى . وهى آخر سرية جهزها النبى ﷺ ، وأول شئ جهزه أبو بكر

فلما كان يوم الأربعاء بدئ برسول الله وجعه ، فحم وصدع ، فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده ، فخرج بلوائه معقودا فدفعه إلى بريدة الأسلمى فسكن بالجرف ، فتكلم قوم وقالوا : يستعمل هذا الغلام على المهاجرين ! فغضب من ذلك غضبا شديدا ، ففى الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله بعث بعثا وأمر عليهم أسامة بن زيد ، فطعن الناس فى إمارته ، فقام رسول الله ﷺ فقال : بلغنى أنكم قلتم فى أسامة وإنه أحب الناس إلىّ . وفى لفظ : إن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه ، وأيم الله إنه كان خليقا لإمارته وإنه كان لمن أحب الناس إلىّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إلىّ بعده . قال ابن اسحق وانكمش الناس فى جهازهم ، فخرج أسامة بجيشه حتى نزلوا الجرف ، وتتام اليه الناس ، وثقل رسول الله ، فأقام أسامة والناس معه لينظروا ما الله قاض فى رسوله ، وعن محمد بن أسامة عن أبيه قال : لما ثقل رسول الله

هبطت وهبط الناس معى إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله وقد صَمت فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علىّ ، أعرف أنه يدعو لى

وفى الصحيحين عن عقبة بن عامر قال : صلى رسول الله ﷺ على قتلى أُحد بعد ثلاث سنين صلاته على الميت كالمودع للأحياء والأموات ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : إنى فرطكم ، وإنى شهيد عليكم . وإنى والله لأنظر إلى حوضى الآن ، وإنى أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض ، وإنى والله ما أخاف أن تشركوا بعدى ، ولكنى أخاف عليكم أن تنافسوا فيها

وفى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى قال : خطب رسول الله ﷺ الناس فقال : إن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله . قال فبكى أبو بكر ، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله عن عبد خُير ، فكان رسول الله هو المخير ، وكان أبو بكر هو أعلمنا . فقال رسول الله ﷺ : إن من أمَنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أُخوة الإسلام ومودته . لا يبقين فى المسجد باب إلا سد ، إلا باب أبى بكر

قال ابن اسحق : وحدثنى عبد الله بن عمر عن عبيد بن جبير مولى الحكم بن العاص عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبى مويهبة مولى رسول الله قال : بعثنى رسول الله من جوف الله فقال : يا أبا مويهبة ، إنى قد أُمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معى فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم قال : السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنَ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى . ثم أقبل علىّ فقال : يا أبا مويهبة إنى قد أُوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة . قال فقلت : بأبى أنت و مى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . قال : لا والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربى والجنة . ثم استغفر لأهل البقيع ، ثم نصرف ، فبدأ برسول الله وجعه الذى قبضه الله فيه

قال : وحدثنى يعقوب بن عتبة عن محمد بن مسلم الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة قالت : رجع رسول الله ﷺ من البقيع . فوجدنى وأنا أجد صداعا فى رأسى وأنا أقول : وارأساه . فقال : بل أنا والله ياعائشة وارأساه . ثم قال : وماضرك لو مت قبلى فقمت إليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك . قالت : قلت والله لكأنى بك لو قد فعلتُ ذلك لقد رجعتَ إلى بيتى فأعرمت فيه ببعض نسائك . قالت : فتبسم رسول الله . وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه ، حتى استعزَّ به وهو فى بيت ميمونة . فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض فى بيتى فأذِنَّ له . قالت : فخرج رسول الله يمشى بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن عباس ورجل آخر عاصبا رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتى . قال عبيد الله : فحدثت بهذا الحديث عبد الله بن عباس فقال : هل تدرى من الرجل الآخر ؟ قال قلت لا . قال : على بن أبى طالب . ثم غمى رسول الله واشتد به وجعه ، فقال : هريقوا علىَّ سبع قِرَب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد اليهم . قالت : وأقعدناه فى مخضب لحفصة بنت عمر ، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول : حسبكم حسبكم . انتهى . قلت : وأصل هذا الحديث فى صحيح البخارى من طريق الزهرى عن عبيد الله عن عائشة . زاد البخارى فى هذه الرواية : ثم خرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم

وله عن عروة عن عائشة أنها قالت : إن رسول الله قال فى مرضه الذى مات فيه : مروا أبا بكر فليصل بالناس . قالت عائشة قلت : إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يُسمع الناس من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس(١) . قالت عائشة : فقلت لحفصة قولى له إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يُسمِع الناس من البكاء فمُر عمر فليصل بالناس ، ففعلت حفصة فقال رسول الله ﷺ : مه ، إنكن لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيرا . وفى رواية لمسلم : ثم إن

---

(١) فى الكتب الأخرى أن عائشة كررت له هذا القول ، وكرر ﷺ الإجابة

النبي ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ اليه النبي ﷺ أن لا تتأخر ، وقال لهما : اجلسانى إلى جنبه فأجلساه إلى جنب أبى بكر ، فكان أبو بكر يصلى وهو قائم بصلاة النبي ﷺ والناس يصلون بصلاة أبى بكر ، وكذا فى رواية الأسود عن عائشة وكذا فى رواية عروة عنها . وله فى رواية أبى موسى فى هذه القصة فأتاه الرسول فصلى بالناس فى حياة النبي ﷺ . وللبخارى عن عائشة فى حديث عبيد الله قالت عائشة : لقد راجعت رسول الله فى ذلك ، وما حملنى على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع فى قلبي أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه إلا تشاءم الناس به ، فأردت أن يعدل رسول الله عن أبى بكر

قال الزهرى : وأخبرنا عبيد الله بن عبد الله أن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فاذا اغتم بها كشفها ، فقال وهو كذلك « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذّر ماصنعوا وفى رواية أحمد « قاتل الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحرم ذلك على أمته . وفى رواية للبخارى قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، غير أنه خشى أن يتخذ مسجدا

وله عن ابن عباس أن على بن أبى طالب خرج من عند رسول الله ﷺ فى وجعه الذى مات فيه فقال الناس : يا أبا حسن كيف أصبح رسول الله ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئا . فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له « أنت والله بعد ثلاث عبد العصى وإنى والله لأرى رسول الله سوف يتوفى من وجعه هذا . إنى لأعرف بنى عبد المطلب عند الموت ، اذهب بنا إلى رسول الله فلنسألنه فى مَن هذا الأمر ؟ إن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا علمناه فأوصى بنا . فقال على : إنا لئن سألناها رسول الله فمنعناها لايعطيناها الناس بعده ، وإنى والله لا أسألها رسول الله . وللبخارى أن رسول

الله ﷺ قال لعائشة « ماأزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم » قال ابن اسحق : فكان المسلمون يرون أن رسول الله مات شهيداً ، مع ما أكرمه الله به من النبوة . وقالت عائشة : لددنا [رسول الله] فى مرضه ، فجعل يشير الينا أن لا تلدونى ، فقلنا كراهية المريض للدواء . فلما أفاق قال : ألم أنهكم أن تلدونى ؟ قلنا كراهية المريض للدواء . فقال : لا يبقى أحد فى البيت إلا لد وأنا أنظر ، إلا العباس فانه لم يشهدكم . انتهى . واللد شىء تصنعه العرب دواء يصب فى أحد شقى الفم ، فأمر بلدّهم كلهم اقتصاصا

فلما كان يوم الخميس قبل موته بأربع ليال اجتمع عنده ناس من أصحابه فقال عليه السلام ائتونى بكتف ودواة أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا . وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : يوم الخميس ومايوم الخميس ، اشتد برسول الله وجعه فقال : ائتونى أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا . فتنازعوا ، ولا ينبغى عند نبى تنازع . فقال بعضهم : إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول قربوا يكتب لا تضلوا بعده ، ومنهم من يقول غير ذلك . وفى رواية فقالوا : ما له أهجر ، استفهموه . فذهبوا يردون عليه فقال : دعونى فالذى أنا فيه خير مما تدعوننى اليه وأوصاهم بثلاث : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم . وسكت عن الثالثة ، أو قال فنسيتها . وفى رواية : فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال : قوموا عنى . قال عبد الله : فكان ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب ، لاختلافهم ولغطهم . انتهى . ولا شك أنه لو كان من واجبات الشريعة لم يغيره عليه السلام كلام عمر ولا غيره . وكان قال لعائشة فى تلك المرضة : لقد هممت أن أبعث إلى أبيك وأخيك فأكتب كتابا وأعهد عهدا لئلا يتمنى متمن أو يقول قائل « أنا أولى » ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر . رواه البخارى . فلم يكن والله أعلم الكتاب الذى أراد أن يكتب إلا فى استخلاف أبى بكر ، ولقد ظهرت

رزية ذلك وكاد الناس أن يهلكوا فى الاختلاف فى من يلى أمر المسلمين بعده ، ولقد هلكت الشيعة فى ذلك وتمادى ضلالهم إلى اليوم نعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى .
وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفّس على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده ، فلما اشتكى وجعه الذى مات فيه طفقتُ أنفس عنه بالمعوذات التى كان ينفس ، وأمسح بيد النبى ﷺ عنه لبركتها . رواه البخارى . ولهما عن أنس قال : لما كان يوم الإثنين والناس فى صلاة الفجر وأبو بكر يصلى لهم لم يفجأهم إلا رسول الله يكشف ستر حجرة عائشة ، فنظر اليهم وهم صفوف فى الصلاة ، ثم تبسم يضحك ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن رسول الله يريد أن يخرج إلى الصلاة ، وهم الناس أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحا برسول الله فأشار اليهم بيده أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر . زاد ابن اسحق فى روايته عن الزهرى عن أنس : وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله قد أفاق من وجعه ، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح .
وعن عائشة أنها كانت تقول : إن من نعم الله علىّ أن رسول الله توفى فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى ، وأن الله جمع بين ريقى وريقه ، ودخل علىّ عبد الرحمن وبيده سواك وأنا مسندة رسول الله إلى صدرى فرأيته ينظر اليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناوله فاشتد عليه . وقلت : ألينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فلينته بأمره فاستن به وهو مستند إلى صدرى ، وبين يديه ركوة أو علبه — يشك عمر — فيها ماء ، فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح بها وجهه ويقول لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات . وكان رسول الله ﷺ يقول : إنه لن يقبض نبى قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيي أو يخير . فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشى عليه ، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال : اللهم اغفر لى وارحمنى ، وألحقنى بالرفيق الأعلى . وفى رواية : مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وفى رواية فقلت : إذا لا يختارنا . وعرفت أنه الحديث الذى يحدثنا به وهو صحيح . قالت : فكانت آخر كلمة تكلم بها : اللهم الرفيق

الأعلى . زاد ابن اسحق قالت عائشة : فمن سفهى وحداثة سنى أن رسول الله ﷺ قبض فى حجرى ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى . وفى رواية للبخارى : فلا أكره شدة الموت لأحد بعد النبى ﷺ . وعن الأسود قال : ذكر عند عائشة أن النبى ﷺ أوصى إلى علىّ فقالت : من قاله ؟ لقد رأيت النبى ﷺ وإنى لمسندته إلى صدرى . فدعا بالطست فانخنث فمات وما شعرت ، فكيف أوصى إلى على ؟ وعن طلحة قال : سألت ابن أبى أوفى : أوصى النبى ﷺ ؟ فقال : لا . فقلت : كيف كتب على الناس الوصية وأمر بها ؟ فقال : أوصى بكتاب الله . رواهُنّ البخارى . وفى مسند أحمد أن النبى ﷺ جعل يقول وهو يجود بنفسه : الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم ، حتى ما يغيض بها لسانه

وعن عمرو بن الحارث قال : ماترك النبى ﷺ دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها ، وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة . وعن عائشة : توفى رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير . رواهما البخارى

وعن أنس بن مالك قال : لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه ، فقالت فاطمة : واكرب أباه ، فقال لها : ليس على أبيك كرب بعد اليوم . فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب ربا دعاه ، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه . فلما دفن قالت فاطمة : يا أنس ، أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله التراب ؟ وعن عائشة قالت : دعا النبى ﷺ فاطمة فى شكواه التى قبض فيها فسارّها فبكت ، ثم دعاها فسارّها فضحكت ، فسألناها عن ذلك فقالت : سارنى أنه يقبض فى وجعه الذى توفى فيه فبكيت ، ثم سارنى فأخبرنى أنى أول أهل بيته يتبعه فضحكت . رواهما البخارى

ويذكر أنه لما توفى جاءت التعزية يسمعون الصوت والحس ولا يرون الشخص . السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته . كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون

أجوركم يوم القيمة ، إن فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت ، فبالله ثقوا ، وإياه فارجوا ، فان المصاب من حرم الثواب. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وتوفى رسول الله ﷺ يوم الإثنين نصف النهار لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة مثل الوقت الذى دخل فيه المدينة. وللبخارى عن أنس قال : مر أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال : ما يبكيكم ؟ فقالوا ذكرنا مجلس النبى ﷺ منا ، فدخل على النبى ﷺ فأخبره بذلك ، قال فخرج النبى وقد عصب على رأسه حاشية برد قال : فصعد المنبر ـ ولم يصعد بعد ذلك اليوم ـ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أوصيكم بالأنصار فانهم كرشى وعيبتى ، وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم . وله عن ابن عباس قال : خرج النبى ﷺ وعليه ملحفة متعطفا بها على منكبيه ، وعليه عصابة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فان الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح للطعام ، فمن ولى منكم أمرا يضر به أحدا أو ينفعه ، فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم

وله عن عائشة أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح ـ قال اسماعيل يعنى بالعالية ـ فقام عمر يقول : والله ما مات رسول الله . قالت وقال عمر : والله ما كان فى نفسى إلا ذلك ، وليبعثنه الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم . فجاء أبو بكر على فرس من منزله بالسنح حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيمم رسول الله وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ثم قال : بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا ، والذى نفسى بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدا . ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال : اجلس يا عمر ، فأبى عمر أن يجلس ، وفى رواية قال : أيها الحالف على رسلك . فأقبل اليه الناس وتركوا عمر . فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال : أما بعد فمن كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله

فإن الله حى لا يموت . وقال عز وجل ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ وقال ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ الآية . قال فنشج الناس يبكون . قال ابن عباس : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها . قال ابن المسيب قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى هويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، وعلمت أن رسول الله قد مات . وعن ابن عباس قال : أنزل على النبى وهو ابن أربعين سنة ، فقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة عشر سنين ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة رواه البخارى

ولما عرفوا أنه مات دهش الناس وطاشت عقولهم ، فمنهم من خبل ومنهم من أصمت ، ولم يكن أثبت وأحزم من أبى بكر والعباس

ذكر أمر سقيفة بنى ساعدة

وفى البخارى فى حديث عائشة قالت : اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة فقالوا : منا أمير ومنكم أمير ، فذهب اليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر ، وكان عمر يقول : والله ما أردت بذلك إلا أنى قد هيأت كلاما أعجبنى خشيت أن لا يبلغه أبو بكر ، فتكلم أبو بكر أبلغ الناس فقال فى كلامه : نحن الأمراء وأنتم الوزراء . فقال حباب بن المنذر : لا والله لا نفعل ، منا أمير ومنكم أمير . فقال أبو بكر : لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء . [إن قريشا] هم أوسط العرب دارا وأعزهم أحسابا ، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة بن الجراح ، فقال عمر : بل أبايعك ، فأنت خيرنا وأحبنا إلى رسول الله . فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس ، فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عبادة . فقال عمر : بل قتله الله . قال القاسم فى حديثه : فما كان من خطبتهما من خطبة إلا نفع الله

بها ، لقد خوف عمر الناس وإن فيهم لنفاقا ، فردهم الله بذلك ، ثم لقد بصر أبو بكر الناس الهدى وعرفهم الحق الذى عليهم ، فخرجوا يتلون ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ الآية

وقال ابن اسحق : ولما قبض رسول الله ﷺ انحاز هذا الحى من الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة ، واعتزل على بن أبى طالب والزبير وطلحة بن عبيد الله فى بيت فاطمة ، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبى بكر وانحاز معهم أسيد بن حضير فى بنى عبد الأشهل . فأتى آت إلى أبى بكر وعمر فقال : إن هذا الحى من الأنصار مع سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة قد انحازوا اليه ، فان كان لكم بأمر الناس من حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم — ورسول الله فى بيته لم يفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله — قال عمر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه . فانطلقا يؤمانهم ، فلقيهما رجلان صالحان : عويم بن ساعدة ومعن بن عدى فذكرا لهما ما تمالأ عليه القوم وقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قالا نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار ، فقالا : فلا عليكم أن لا تقربوهم يا معشر المهاجرين ، اقضوا أمركم . قال عمر : والله لنأتينهم . فانطلقا حتى أتياهم فى سقيفة بنى ساعدة فاذا بين ظهرانيهم رجل مزمل ، فقال عمر : من هذا ؟ قالوا : سعد بن عبادة . قال : ماله ؟ قالوا : وجع . قال فلما جلسنا تشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا ، وقد دفت دافة من قومكم فاذا هم يريدون أن يجتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر . قال عمر : فلما سكت أردت أن أتكلم وقد زورت مقالة قد أعجبتنى أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر ، وكنت أدارى منه بعض الجد ، فقال أبو بكر : على رسلك يا عمر ، فكرهت أن أغضبه ، فتكلم . وهو كان أعلم منى وأبلغ ، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتنى من تزويرى إلا قالها فى بديهته أو مثلها أو أفضل حتى سكت . قال : أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، هم أوسط العرب نسبا ودارا .

وقد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم ، وأخذ بيدى ويد أبى عبيدة وهو جالس بيننا ، ولم أكره مما قال غيرها ، كان والله أن أقدم فتضرب عنقى — ولا يقربنى ذلك إلى إثم — أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر . قال فقال قائل من الأنصار — الحباب بن المنذر — أنا جُذَيلها المحكّك وعُذَيقها المرجَّب ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش . قال عمر : فكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف فقلت : إبسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون والأنصار ونزونا على سعد بن عبادة فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عبادة . قلت : قتل الله سعد ابن عبادة

وعن عبد الله بن مسعود قال : كان رجوع الأنصار — يوم سقيفة بنى ساعدة — بكلام قاله عمر قال : أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : فأيكم تطيب نفسه أن يزيله عن مقامه الذى أقامه فيه رسول الله ؟ قالوا : كلنا لا تطيب أنفسنا ، نستغفر الله . فلما فرغ أبو بكر من البيعة رجع إلى المسجد فقعد على المنبر فبايعه الناس حتى أمسى ، وشغلوا عن دفن جهاز رسول الله ، حتى كان آخر الليل — ليلة الثلاثاء — مع الصبح

قال ابن اسحق حدثنى الزهرى قال حدثنى أنس بن مالك قال . لما بويع أبو بكر فى السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر ، فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له ثم قال : يا أيها الناس ، إنى قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدته فى كتاب الله ، ولا كانت عهدا عهده إلى رسول الله ، وكنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا — يقول يكون آخرنا — وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى به هدى رسوله ، فان اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوه . فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة . ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ثم قال : أما بعد أيها الناس ، فإنى قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى

وإن أسأت فقوّمونى . الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أربح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . انتهى

وتخلف عن بيعته على بن أبى طالب وبنو هاشم والزبير بن العوام وخالد بن سعيد ابن العاص وسعد بن عبادة الأنصارى ، ثم إن الجميع بايعوا بعد موت فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلا سعد بن عبادة فانه لم يبايع أحدا إلى أن مات ، وكانت بيعتهم بعد ستة أشهر . وذكر موسى بن عقبة أن رجالا من المهاجرين غضبوا فى بيعة أبى بكر منهم على والزبير ، فدخلا بيت فاطمة معهما السلاح ، فجاءها عمر فى عصابة من المهاجرين والأنصار ، فيهم أسيد بن حضير وسلمة بن وقش وثابت بن قيس فكلموهما ، حتى أخذ أحد القوم سيف الزبير فضرب به الحجر حتى كسره ، ثم قام أبو بكر فخطب الناس واعتذر اليهم فقال : والله ما كنت حريصا على الإمارة يوما قط ولا ليلة ، ولا سألتها الله قط سرا ولا علانية ، ولكنى أشفقت من الفتنة ، وما لى فى الإمارة من راحة ، ولقد قلدت أمرا عظيما مالى به طاقة ولا يد إلا بتقوية الله ، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكانى اليوم . فقبل المهاجرون منه ، وقال على والزبير : ما غضبنا إلا أن أخرنا عن المشورة ، وإنا لنرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله ، إنه لصاحب الغار وثانى اثنين ، وإنا لنعرف له شرفه ومنّه ، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة وهو حى . وذكر غير ابن عقبة أن أبا بكر قام فى الناس بعد مبايعتهم إياه يقيلهم من بيعته ويستقيلهم مما تحمله من أمرهم ، كل ذلك يقولون له : والله لا نقيلك ولا نستقيلك . وروى عن الحسن البصرى عن على قال : قدّم رسول الله ﷺ أبا بكر رضى الله عنه فصلى بالناس ، وإنى شاهد غير غائب ، وإنى لصحيح غير مريض ، ولو شاء أن يقدمنى لقدمنى . فرضينا لدنيانا من رضى الله ورسوله لديننا

وفى الصحيحين عن عائشة أن فاطمة بنت رسول الله أرسلت إلى أبى بكر الصديق تسأله ميراثها من رسول الله مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقى من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال «لا نورث، ما تركنا صدقة. وإنما يأكل آل محمد فى هذا المال» وإنى والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التى كانت عليها فى عهد رسول الله، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله. فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئا. فوجدت فاطمة على أبى بكر فى ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد رسول الله ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها على بن أبى طالب ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر، فصلى عليها على. وكان لعلى من الناس وجهة حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر علىّ وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبى بكر ومبايعته، ولم يكن بايع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد، كراهية محضر عمر بن الخطاب، فقال عمر لأبى بكر: والله لا تدخل عليهم وحدك، فقال أبو بكر: وما عساهم أن يفعلوا بى؟ إنى والله لآتينهم. فدخل عليهم أبو بكر فتشهد على ابن أبى طالب ثم قال: إنا يا أبا بكر قد عرفنا فضيلتك وما أعطاك الله، ولم ننفس خيرا ساقه الله اليك، ولكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نرى لنا حقا لقرابتنا من رسول الله. فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عينا أبى بكر. فلما تكلم أبو بكر قال: والذى نفسى بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلى أن أصل من قرابتى. وأما الذى شجر بينى وبينكم من هذه الأموال فإنى لم آل فيها عن الحق، ولم أترك أمرا رأيت رسول الله يصنعه فيها إلا صنعته. فقال على لأبى بكر: موعدك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقى على المنبر وتشهد وذكر شأن على وتخلفه عن البيعة وعذره الذى اعتذر اليه ثم استغفر. وتشهد على بن أبى طالب فعظم حق أبى بكر، وأنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على أبى بكر، ولا إنكار للذى فضله الله به، ولكنا كنا نرى لنا فى الأمر نصيبا فاستبد علينا به، فوجدنا فى أنفسنا. فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت. وكان المسلمون إلى على قريبا حين راجع الأمر المعروف

ذكر غسله ﷺ وتكفينه ودفنه

ولما فرغ الناس من بيعة أبى بكر وجمعهم الله عليه وصرف عنهم كيد الشيطان أقبلوا على تجهيز نبيهم ، قال ابن اسحق حدثنى عبد الله بن أبى بكر وحسين بن عبد الله وغيرهما أن على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وقثم بن العباس وشقران مولى رسول الله وأسامة بن زيد هم الذين ولوا غسله وأن أوس بن خولى ـ وكان بدريا ـ دخل معهم وحضر غسل رسول الله وأسنده إلى صدره ، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه معه ، وكان أسامة بن زيد وشقران هما اللذان يصبان الماء عليه ، وعلى يغسله قد أسنده إلى صدره ، وعليه قميصه يدلكه به من ورائه لا يفضى بيده إلى رسول الله ، وعلى يقول : بأبى أنت وأمى ، ما أطيبك حيا وميتا . ولم ير من رسول الله ما يرى من الميت . حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت : لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه فقالوا : والله ما ندرى أنجرد رسول الله من ثيابه ؟ قالت فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا ذقنه فى صدره ، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو أن غسلوا النبى ﷺ وعليه ثيابه ، قالت فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص ويدلكون والقميص دون أيديهم ، فلما فرغ من غسله كفن فى ثلاثة أثواب : صحاريين وبرد حبرة أدرج فيه إدراجا

وحدثنى حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة ، وكان أبو طلحة زيد بن سهيل هو الذى كان يحفر لأهل المدينة وكان يلحد ، فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما : اذهب إلى أبى عبيدة وللآخر اذهب إلى أبى طلحة ، اللهم خره لرسول الله ، فوجد صاحب أبى طلحة أبا طلحة فجاء به فلحد لرسول الله ، فلما فرغ من جهاز رسول الله يوم الثلاثاء وضع على سريره فى بيته ، وقد كان المسلمون اختلفوا فى دفنه فقال

قائل : ندفنه فى مسجده ، وقال قائل بل ندفنه مع أصحابه ، فقال أبو بكر : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما قبض نبى إلا دفن حيث يقبض ، فرفع فراش رسول الله الذى توفى عليه فحفر له تحته ، ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ أرسالا حتى إذا فرغوا أدخل النساء حتى إذا فرغ النساءأدخل الصبيان ، ولم يؤم الناس على رسول الله أحد . قالت عائشة : ما علمنا بدفن رسول الله حتى سمعنا صوت المساحى من جوف الليل من ليلة الأربعاء ،وكان الذين نزلوا فى قبره على بن أبى طالب والفضل وقثم ابنا العباس وشقران مولاه وأوس بن خولى ، وجعل تحته ﷺ قطيفة كان يلبسها ويفترشها . وقال على : آخر الناس عهدا به قثم بن عباس

ذكر الردة

قال ابن اسحق : ولما توفى رسول الله عظمت به مصيبة المسلمين ، فكانت عائشة فيما بلغنى تقول : لما توفى رسول الله ﷺ ارتدت العرب ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم ، حتى جمعهم الله على أبى بكر

قال ابن هشام حدثنى أبو عبيدة وغيره أن أكثر أهل مكة لما توفى رسول الله هموا بالرجوع عن الإسلام ، حتى خافهم عتاب بن أسيد فتوارى ، فقام سهيل بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر وفاة رسول الله وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلاقوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه . فتراجع الناس ، وكفوا . وكان هذا هو المقام الذى أراده رسول الله حيث قال لعمر وقد قال له : انزع ثنيتى سهيل يلدغ بلسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا ، فقال رسول الله ﷺ « عسى يقوم مقاما يسرك »

وفى معالم التنزيل : لما قبض رسول الله ارتد عامة العرب إلا أهل مكة والمدينة والبحرين من عبد القيس . انتهى . وممن تمسك بالإسلام ما بين المسجدين أسلم وغفار وجهينة ومزينة وكعب وثقيف ، قام فيهم عثمان بن أبى العاص ، وأقامت طيىء كلها على

الإسلام ، قام فيهم عدى بن حاتم ، وهذيل وأهل السراة وبجيلة وخثعم ومن قارب تهامة من هوازن نضر وجشم وسعد بن بكر وعبد القيس قام فيهم الجارود وعبس وبعض أشجع ودوس وتجيب وهمدان . وارتد عامة بنى تميم وأسد وغطفان وطوائف من سليم وأهل اليمامة كلهم وبكر بن وائل وأهل البحرين وأهل دبا وأزد عمان والنمر ابن قاسط وكلب ومن قاربهم من قضاعة وفزارة وبنى عامر بن صعصعة ، وقيل تربصوا ينتظرون لمن تكون الدائرة

وفى الصحيح عن أبى هريرة قال : لما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبى بكر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقها وحسابه على الله ؟ فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال . والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه . فقال عمر : فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق . قال عمر : والله لرجح إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة جميعا فى قتال أهل الردة . وروى رزين عن عمر قال قلت يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم ، فقال لى : أجبار فى الجاهلية وخوّار فى الإسلام ؟ قد انقطع الوحى وتم الدين ، أينقض وأنا حى ؟ وفى كتاب الواقدى من قول عمر لأبى بكر : وإنما شحت العرب على أموالها ، وأنت لا تصنع بتفريق العرب عنك شيئا ، فلو تركت للناس صدقة هذه السنة . وذكر يعقوب بن محمد الزهرى عن جماعة من شيوخه قال : كان أبو بكر أمير الشاكرين الذين ثبتوا على دينهم ، وأمير الصابرين الذين صبروا على جهاد عدوهم وهم أهل الردة ، وبرأى أبى بكر أجمعوا على قتالهم ، وذلك أن العرب افترقت فى ردتها فقالت فرقة : لو كان نبيا ما مات ، وقال بعضهم : انقضت النبوة بموته فلا نطيع أحداً بعده ، وفى ذلك يقول قائلهم وهو الحطيئة :

أطعنا رسول الله ما عاش بيننا فيالعباد الله ما لأبى بكر

أيورثها بكرا إذا مات بعده فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

وقال بعضهم نؤمن بالله ونشهد أن محمدا رسول الله ونصلى ، ولكن لا نطيعهم فى أموالنا . قلت : وفى هؤلاء وقعت الشبهة والمراجعة بين أبى بكر وعمر وغيره حتى ناظرهم أبو بكر فرجعوا إلى قوله ، وتبين لهم صوابه فى قتالهم انتهى . وجادل أبا بكر أصحابه فى جهادهم ، وكان من أشدهم عليه عمر وأبو عبيدة وسالم مولى أبى حذيفة ، فقالوا : احبس جيش أسامة يكون عمارة وأمانا بالمدينة ، وارفق بالعرب حتى ينفرج هذا الأمر فان هذا الأمر شديد غوره ، فلو أن طائفة من العرب ارتدت قلنا قاتل بمن معك من ارتد ، وقد اتفقت العرب على الارتداد ، فهم بين مرتد ومانع صدقة مثل مرتد ، وبين واقف ينظر ما تصنع أنت وعدوك ، قدم رجلا وأخر رجلا . فقال أبو بكر : والذى نفسى بيده لو علمت أن السباع تأكلنى بهذه القرية لأنفذت هذا البعث الذى أمر رسول الله بإنفاذه ، ولا أحل لواء عقده رسول الله بيده . ثم قال لأسامة إن رأيت أن تخلف معى عمر فافعل . وأمره بالانتهاء إلى ما أمر به رسول الله ﷺ ، وشيعه ماشيا وأسامة راكب لأنه أقسم عليه ألا ينزل . ومضى أسامة فجعل لا يمر بقبيلة يريدون الارتداد إلا قالوا : لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم . فهزموهم ورجعوا سالمين

وجد بأبى بكر الجد فى قتال أهل الردة ، وأراد الله رشده فيهم ، وعزم على الخروج بنفسه إليهم ، وأمر الناس بالجهاز ، وخرج هو فى مائة من المهاجرين والأنصار وخالد بن الوليد يحمل اللواء حتى نزل بقعا يريد أن يتلاحق الناس ويكون أسرع لخروجهم ، ووكل بالناس محمد بن مَسْلمة يستحثهم ، وأشار عليه عمر وغيره بالرجوع وقالوا : ارجع ياخليفة رسول الله تكن للمسلمين فئة وردءا فإنك إن تقتل يرتد الناس ويعلوا الباطل الحق ، وأبو بكر مظهر المسير بنفسه ، وسألهم بمن نبدأ من أهل الردة ؟ فاختلفوا عليه ، قال أبو بكر : نعمد لهذا الكذاب على الله وعلى رسوله طليحة . ولما ألحوا على أبى بكر بالرجوع وعزم هو عليه استعمل عليهم خالد بن الوليد وقال : ياخالد ،

عليك بتقوى الله وإيثاره على من سواه والجهاد فى سبيله ، فقد وليتك على من ترى من أهل بدر من المهاجرين والأنصار . ورجع أبو بكر ومن معه ، وسار خالد حتى نزل على طيء فى جبليهم سامى وأجأ ، وانضم اليه عدىّ بن حاتم ومن كان من المسلمين فى تلك القبائل

وسار إلى طليحة وهو على ماء من مياه أسد فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم انهزم طليحة وانهزم الناس ، ثم لحق بالشام ، ثم جاء طليحة بعد ذلك فأسلم وحسن إسلامه وقتل بنهاوند شهيدا ، فدخلت القبائل فى الإسلام : بنو حنظلة وأسد وفزارة وغطفان و بنو عامر و بنو سليم وغيرهم وبايعوه على الإسلام ، وأخـــذ كل ما ظهر من سلاحهم ، واستحلفهم على ما غيبوا منه ، فان حلفوا تركهم ، وإن أبوا شدهم أسرى حتى أتوا بما عندهم ، فأخذ سلاحا كثيرا فأعطاه أقواما يحتاجون اليه فى قتال عدوهم ، وكتبه عليهم ، ثم رده بعد فقدم به على أبى بكر

وعن ابن عمر قال : شهدت بزاخة مع خالد ، فأظفرنا الله على طليحة ، وكنا كلما أنجزنا على قوم سبينا الذرارى واقتسمنا الأموال . وعن يزيد بن شريك الفزارى قال : قدمت مع أسد وغطفان على أبى بكر وافدا حين فرغ خالد من بزاخة ، وجعلت أسد وغطفان تسلل فاجتمعوا عند أبى بكر ، فمنهم من بايع خالد ومنهم من لم يبايعه وجاءوا إلى أبى بكر ، فقال : اختاروا بين خصلتين : حرب مجلية أو سلم مخزية . قال خارجة ابن حصن : الحرب المجلية قد عرفتها فما السلم المخزية ؟ قال : تقرون أن قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار ، وأن تردوا علينا ما أخذتم منا ولا نرد مما أخذنا منكم شيئا ، وأن تدوا قتلانا دية كل قتيل مائة بعير أربعون فى بطونها أولادها ولا ندى قتلاكم ، ونأخذ منكم الحلقة والكراع وتلحقون بأذناب الإبل حتى يرى الله خليفة نبيه والمؤمنين ما شاء فيكم ، أو يرى منكم إقبالا إلى ما خرجتم منه . فقال خارجة : نعم يا خليفة رسول الله . قال أبو بكر : عليكم عهد الله وميثاقه أن تقوموا بالقرآن آناء الليل وآناء النهار ، وتعلموه أولادكم ونساءكم ، ولا تمنعوا فرائض الله فى أموالكم ، قالوا : نعم .

قال عمر : يا خليفة رسول الله كل ما قلت كما قلت إلا أن يدوا من قتل منا فإنهم قوم قتلوا فى سبيل الله ، فتتابع الناس على قول عمر . وقبض أبو بكر كل ما قدر عليه من الحلقة والكراع . فلما توفى أبو بكر رأى عمر أن الإسلام قد ضرب بجرانه فدفعه إلى أهله أو إلى عصبة من مات منهم . وأصله فى صحيح البخارى من حديث طارق بن شهاب بنحوه مختصر

ثم توجه خالد إلى اليمامة لحرب مسيلمة الكذاب ، وكان خالد فى بضعة عشر ألفا ومع مسيلمة أربعون ألفا ، فقتل الله مسيلمة وقتل من أصحابه عشرة آلاف ، وكانت الهزيمة أولا على المسلمين حتى دخل أصحاب مسيلمة فسطاط خالد فرعبلوا الفسطاط بالسيف ، ثم حمل عليهم المسلمون وقاتلوهم قتالا شديدا حتى قتل الله محكم بن الطفيل وفتح الله على المسلمين ، واشترك فى قتل مسيلمة وحشى بن حرب قاتل حمزة ورجل من الأنصار ، وكان وحشى يقول : ربك أعلم أينا قتله . وقتل من خيار المسلمين نحو ألف رجل ، منهم زيد بن الخطاب وثابت بن قيس وأبو دجانة وعباد بن بشر وسالم مولى أبى حذيفة . ثم صالح مجاعة خالدا على من فى الحصون من قومه ، بعد أن خدع خالدا وبعث إلى قومه وأمرهم أن يلبسوا النساء السلاح وأن يشرفوهن والذرارى على رؤوس الحصون ، وقال له : انظرو إلى المقاتلة والسلاح ، وكان المسلمون يرون أنه لم يبق من مقاتلتهم أحد ، فلما رأوا ذلك ظنوا صدق ما قال ، فصالحه خالد على الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع ونصف السبى ، وكان أبو بكر يتروح الخبر عن اليمامة ، وكان رأى فى النوم كأنه أتى بتمر من هجر فأكل منه تمرة واحدة وجدها نواة على خلقة التمرة ، فلاكها ساعة ثم رمى بها ، فتأولها فقال : ليلقين خالد من أهل اليمامة شدة ، وليفتحن الله على يديه . فأرسل خالد أبا خيثمة بشيرا إلى أبى بكر ، فلما رآه قال : ما وراءك يا أبا خيثمة ؟ قال : خير يا خليفة رسول الله ، قد فتح الله علينا اليمامة . فسجد أبو بكر

وقال زيد بن طلحة : قتل يوم اليمامة من قريش سبعون ، ومن الأنصار سبعون ، ومن سائر الناس خمسمائة . وفى البخارى عن قتادة قال : ما نعلم حيا من أحياء العرب

أكثر شهيدا وأعز يوم القيامة من الأنصار . قال قتادة : حدثنا أنس أنه قتل منهم يوم أُحد سبعون ، ويوم بئر معونة سبعون ، ويوم اليمامة سبعون . وزاد غيره وفى جسر أبى عبيد سبعون

ذكر مسير خالد إلى العراق

ولما فرغ خالد من قتال أهل اليمامة وأهل الردة انصرف راجعا إلى المدينة . وقيل لما دخلت السنة الثانية من خلافة أبى بكر كتب إلى خالد : إذا فرغت من اليمامة فسر إلى العراق ، فقد وليتك حرب فارس والحيرة ، فسار خالد إلى العراق فى بضعة وثلاثين ألفا ، فصالح أهل السواد ، ثم أقبل حتى نزل الحيرة وكان عليها قبيصة بن إياس الطائى أميرا لكسرى ، فصالح خالدا أيضا على تسعين ألف درهم كل سنة . فكانت أول جزية وقعت بالعراق . ثم سار خالد إلى الأبلّة وخرج له هرمز فى مائة وعشرين ألفا فالتقى مع خالد واقترنوا فى السلاسل ، فقيل لهم قيدتم أنفسكم لعدوكم فلا تفعلوا فان هذا طائر سوء . فأجابوهم : أما أنتم فتحدثوننا أنكم تريدون الهرب ، ثم زحف اليهم فاقتتلوا فانهزم أهل فارس ، وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل ، فقتل الله من المشركين سبعين ألفا ، وقتل خالد هرمز ، ونفله أبو بكر قلنسوته وكانت تساوى مائة ألف ، وسميت هذه الوقعة ذات السلاسل ، وكتب خالد إلى كسرى :

بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى الملك كسرى والملوك . أما بعد فالحمد لله الذى فرق كلمتكم وكسر شوكتكم ، فأسلموا تسلموا ، وإلا فأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

فلما قرأوا كتابه أخذوا يتعجبون ، فصالحوا على مائة ألف وتسعين ألفا فى كل سنة

ثم قصد خالد الروم ، وكان أبو بكر كتب اليه بذلك انتهى . وارتدت ربيعة بالبحرين كما تقدم إلا الجارود بن عمرو فانه ثبت على الإسلام فيمن تبعه من قومه عبد

القيس ، وعلى البحرين يومئذ العلاء بن الحضرمى ، وكان بعثه عليه رسول الله ﷺ ، فحاصرهم المشركون بجواثا حصن بالبحرين ، وأصاب المسلمين جهد شديد من الجوع حتى كادوا أن يهلكوا ، فخرج عبد الله بن حذافة ليلة من الليالى ليتجسس أخبارهم فوجدهم سكارى ، فأخبر المسلمين بذلك ، فبيتهم العلاء ومن معه من المسلمين فقتل من قتل منهم وأصبح ما أفاء الله على المسلمين من خيولهم عند العلاء فى جواثا . ثم سار العلاء إلى المدينة فقاتلهم قتالا شديداً ، وهزمهم الله حتى لحقوا إلى باب المدينة فتحصنوا بها ، فضيق عليهم ، فطلبوا الصلح والأمان ، فصالحوهم على ثلث ما بالمدينة بأيديهم من أموالهم ، وما كان من شئ خارج عنها فهو له ، فبعث العلاء بمال كثير إلى المدينة . فلما ظهر العلاء على أهل الردة من أهل البحرين بعث أربعة عشر رجلا من رؤساء عبد القيس وفدا إلى أبى بكر فنزلوا على طلحة والزبير ، فدخلوا على أبى بكر وأخبروه بمسارعتهم إلى الإسلام وقيامهم فى أهل الردة ، ثم دخل القوم على أبى بكر وعنده طلحة والزبير فسألوه أن يعطيهم أرضا من البحرين وطواحين فأسعف أبو بكر وقال : إنى فعلت وأعطيتهم كل ما سألونى وعرفت لهم قدر إسلامهم ، وكتب لهم بذلك كتابا . فلما خرجوا من عنده أقرؤوا عمر الكتاب ، فلما قرأه تفل فيه ، فرجعوا إلى أبى بكر فأخبروه . ودخل طلحة والزبير فقالا : والله لا ندرى أنت الخليفة أم عمر ؟ قال : وما ذاك ؟ فأخبروه ، فقال أبو بكر : لئن كان عمر كره من ذلك شيئا فإنى لا أفعله ، فبينما هم على ذلك إذ أقبل عمر ، فقال له أبو بكر : ما كرهت من هذا الكتاب ؟ فقال : كرهت أن تعطى خاصة دون عامة ، ولكن اجعل أمر الناس عندك واحدا لا يكون عندك خاصة دون عامة فتأبى أن تفضل أهل السابقة وأهل بدر وتعطى هؤلاء قيمة عشرين ألفا دون الناس ، فقال أبو بكر : وفقك الله وجزاك خيرا . فهذا هو الحق

وفى أيام أبى بكر رضى الله عنه تنبأت سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية واتبعها بنو تميم وأخوالها من تغلب وغيرهم من بنى ربيعة ، وقصدت مسيلمة فأرسل

اليها : هل لك أن أتزوجك فيقال نبى تزوج نبية ؟ قالت : نعم . فأقامت عنده ثلاثا ، ثم انصرفت إلى قومها ، ثم أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها

ذكر خبر الأسود العنسى وقتله

وفى مدة مرض رسول الله ﷺ قتل الأسود العنسى ، واسمه عبهلة ، وكان يشعبذ ويرى الجهال الأعاجيب ، ادعى النبوة ، وكاتبه أهل نجران ، وسار الأسود من نجران إلى صنعاء فملكها ، وصفا له الملك باليمن ، واجتمع جماعة من المسلمين فى قتله واجتمعوا بامرأته وكان الأسود قد قتل أباها فقالت : والله إنه أبغض الناس إلىّ ، ولكن الحرس محيطون بقصره ، فانقبوا عليه البيت ، فواعدوها على ذلك ونقبوا عليه ، فدخل عليه فيروز الديلمى فقتله واحتز رأسه ، فخار خوار الثور . فابتدر الحرس الباب ، فقالت زوجته : هذا النبى يوحى إليه . فلما طلع الفجر أمروا المؤذن فقال : أشهد أن محمدا رسول الله ، وأن عبهلة كذاب . وكتب أصحاب النبى ﷺ إليه بذلك ، فورد الخبر من السماء إلى النبى وأعلم أصحابه بقتل الأسود ، ووصل الكتاب بقتله فى خلافة أبى بكر فكان كما أخبر . وفى الصحيح قال عبيد الله بن عبد الله : سألت ابن عباس عن رؤيا رسول الله فقال ابن عباس : ذكر لى أن النبى ﷺ قال : بينا أنا نائم رأيت أنه وضع فى يدى سواران من ذهب فقطعتهما وكرهتهما ، فأذن لى فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان . قال عبيد الله : أحدهما العنسى الذى قتله فيروز ، والآخر مسيلمة الكذاب

وفى هذه السنة ــ وهى الأولى من خلافة أبى بكر ــ ماتت فاطمة رضى الله عنها ، وهى بنت تسع وعشرين سنة

وفيها أمر أبو بكر زيد بن ثابت بجمع القرآن لما رأى كثرة من قتل من القراء يوم اليمامة . كما فى البخارى عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فاذا عمر جالس عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر جاءنى فقال إن القتل استحر

يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى إن استحر بالقراء فى المواطن فيذهب كثير ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . قال زيد فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، قد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه . قال زيد قلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم يزل أبو بكر يراجعنى — وفى رواية فلم يزل عمر يراجعنى — حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة أو أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر . زاد ابن شهاب عن أنس أن حذيفة قدم على عثمان — أى فى خلافته — وكان يغازى أهل الشام مع أهل العراق ، فأفزع حذيفةَ اختلافهم فى القرآن فقال : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلى حفصة ، أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك ، فأرسلت بها اليه ، فأمر بنسخها وأرسل إلى كل أفق بمصحف ، وأمر بما سوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . انتهى

ولما دخل شهر ذى الحجة أمَّر أبو بكر عمر على الحج ، فخرج بالناس سنة إحدى عشرة فحج بالناس ، واشترى فى حجته تلك مولاه أسلم

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة فبعث أبو بكر الجنود إلى الشام ، بعث عمرو بن العاص إلى فلسطين ، وبعث يزيد بن أبى سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة رضى الله عنهم إلى الشام ، وأمرهم أن يأخذوا طريق الشام من أعلى الشام . وخرج أبو بكر مع يزيد يوصيه ، ويزيد راكب وأبو بكر يمشى ، فقال له يزيد : إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال : ما أنا براكب ولا أنت بنازل ، إنى أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله . ثم مضوا ونزلت الروم بثنية جلق بأعلى فلسطين فى سبعين ألفا عليهم تذارق

أخو هرقل ، فكتب عمرو بن العاص إلى أبى بكر يخبره ويستمده ، فكتب أبو بكر إلى خالد وهو بالحيرة يأمره أن يمد أهل الشام بمن معه من أهل القوة ، ويستخلف على ضعفة الناس رجلا منهم ، وقال له : إذا التقيتم فأنت أمير الجماعة . فسار خالد بأهل القوة ، ورد الضعفاء والنساء إلى المدينة ، واستخلف على من أسلم بالعراق من العرب وغيرهم المثنى بن حارثة الشيبانى

ثم سار خالد حتى أغار على غسان بمرج راهط ، ثم سار حتى نزل على قناة بصرى وعليها أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد ، فصالح أهلُ بصرى حين رأوا كثرة العسكر على الجزية ، وفتحها الله للمسلمين ، وكانت أول مدينة فتحت من مدائن الشام

ثم ساروا جميعا مدداً لعمرو بن العاص إلى فلسطين ، فسمع الروم باجتماع المسلمين ، فانكشفوا إلى أجنادين ، فسار المسلمون اليهم فاقتتلوا قتالا شـــديدا ، فهزم الله المشركين ، وقتل المسلمون منهم فى المعركة ثلاثة آلاف ، واتبعوهم يأسرون ويقتلون ، فخرج فل الروم إلى إيلياء وقيسارية ودمشق ، وكانت وقعة أجنادين هذه أول وقعة عظيمة كانت بالشام وكانت فى جمادى الأولى قبل وفاة أبى بكر بأربع وعشرين ليلة

ثم ساروا إلى دمشق فحاصروها ، فبينما هم كذلك أتاهم آت فأخبرهم أن هذا جيش قد جاءكم من قبل ملك الروم ، فنهض خالد بالناس على تعبئة حتى لقوهم ، فهزمهم الله ، ورجع الناس قد ظفروا ، ويقال لهذه الوقعة « يوم مرج الصفَّر » ، ثم رجعوا إلى دمشق فحاصروها وضيقوا عليهم ، فكان المسلمون يغيرون ، فكلما أصاب رجل منهم شيئا جاء به يلقيه فى القبض ، لا يستحل أن يأخذ منه قليلا ولا كثيرا ، فسأل صاحب دمشق بعض عيونه عن أعمالهم وسيرتهم فوصفهم له بهذه الصفة فى الأمانة ، ووصفهم بالصلاة بالليل وطول القيام ، فقال : هؤلاء رهبان بالليل أسود بالنهار ، لا والله مالى بهؤلاء طاقة ، ومالى فى قتالهم خير ، فراود المسلمين على الصلح

وفى هذه السنة مات الصديق رضى الله عنه مسى ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة

مضت من جمادى الآخرة بين المغرب والعشاء . وفى سبب موته قولان : أحدهما أن اليهود سمته ، والثانى أنه اغتسل فى يوم بارد فحم . فأمر عمر أن يصلى بالناس . وقيل له فى مرضه : ألا ندعو لك الطبيب ؟ قال : قد رآنى . فقالوا : فما قال لك ؟ قال قال : إنى فعال لما أريد

ولما أيس من الحياة دعا عثمان وأملى عليه كتاب العهد لعمر فقال :

اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا عنها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، وحين يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ، إنى استخلفت

ولما انتهى إلى هذا الموضع غشى عليه ، فكتب عثمان «عمر بن الخطاب» ، فأمسك حتى أفاق أبو بكر قال : أكتبت شيئا ؟ قال : كتبت عمر بن الخطاب ، فقال : جزاك الله عن الإسلام وأهله خيرا . ثم رفع أبو بكر يديه وقال : اللهم وليتهم خيرهم ، ولم أرد بذلك إلا إصلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم ، وقد حضرنى من أمرك ما قد حضر ، فاجتهدت لهم الرأى ، ووليت عليهم خيرهم لهم وأحرصهم على رشدهم ، ولم أرد محاباة عمر وأنا خارج من الدنيا إلى الآخرة ، فاخلفنى فيهم ، فهم عبادك ونواصيهم بيدك ، أصلح لهم واليهم عمر ، واجعله من خلفائك الراشدين ، يتبع هدى نبيه نبى الرحمة وهدى الصالحين بعده ، وأصلح له أمر رعيته

وكتب بهذا العهد إلى أمراء الأجناد : إنى قد وليت عليكم خيركم ولم آلُ نفسى ولا المسلمين خيرا . ثم دعا عمر رضى الله عنهما فقال : إنى مستخلفك على أصحاب رسول الله ياعمر إن لله حقا فى الليل لا يقبله فى النهار ، وحقا فى النهار لا يقبله فى الليل ، وإنها لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة . وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غير الحق غدا أن يكون ثقيلا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم ، وحق

لميزان لا يوضع فيه غير الباطل أن يكون خفيفا . إنما نزلت آية الرجاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرجاء ليكون المؤمن راغبا راهبا ، فلا ترغب رغبة فتتمنى على الله فيها ما ليس لك ، ولا ترهب فيها رهبة تلقى فيها ما بيدك ، إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم ما كان من حسن ، فاذا ذكرتهم قلت إنى لأخشى أن أكون من هؤلاء ، وإنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سيء ، فاذا ذكرتهم قلت : أى من أعمالهم أعمل ؟ فان حفظت وصيتى فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو نازل بك ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكن غائب أكره اليك من الموت ولست تعجزه

وبلغ أبا قحافة وهو بمكة موت ابنه ، سمع الهائعة فقال : ما هذا ؟ فقيل : مات ابنك . فقال : رزء جلّ . قال : فالى من عهد ؟ قالوا : إلى عمر . قال : صاحبه

ومات بمكة عتاب بن أسيد يوم مات الصديق ، وكانا قد سمّا جميعا

وكان عمر أبى بكر ثلاثا وستين سنة ، وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام . وأوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عُميس

ولما توفى ارتجت المدينة بالبكاء ، وصلى عليه فى مسجد رسول الله . ونزل فى قبره عمر وعثمان وطلحة وابنه عبد الرحمن . وكان له من الولد ستة ، ثلاثة بنين : عبد الله وهو أكبرهم وعبد الرحمن وهو شقيق عائشة ومحمد ، وثلاث بنات : عائشة وأسماء وهى أكبرهن وأم كلثوم . ماتت وهى فى بطن أمها

وعن عائشة قالت : لما مرض أبو بكر قال انظروا ما زاد فى مالى منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدى . فلما مات : نظرنا فإذا عبد نوبى كان يحمل صبيانه ، وإذا ناضح كان يسقى بستانا له ، فبعثنا بهما إلى عمر . فبكى عمر وقال : رحمة الله على أبى بكر ، لقد أتعب من بعده تعبا شديدا . وعنها قالت : ما ترك أبو بكر دينارا ولا درهما ضرب الله سكته

ذكر خلافة عمر بن الخطاب

بويع له بالخلافة يوم مات أبو بكر ، وكان أول كلام تكلم به حين صعد المنبر أن قال : اللهم إنى شديد فلينى ، وإنى ضعيف فقونى . وإنى بخيل فسخنى . أيها الناس ، القوى عندى ضعيف حتى آخذ منه الحق ، والضعيف عندى قوى حتى آخذ له الحق

وهو أول خليفة دعى بأمير المؤمنين ، وأول من وضع التاريخ بعام الهجرة : وضعه فى السنة السابعة عشرة ، وهو أول من جمع الناس على إمام واحد فى قيام رمضان ، وأول من حمل الدرة لتأديب الناس ، وكان نقش خاتمه « كفى بالموت واعظا يا عمر » وحج بالناس عشر حجج متواليات ، وحج بأزواج النبى ﷺ فى آخر حجة حجها

وكان فى أيامه فتوح الأمصار ، منها دمشق فتحت صلحا على يد أبى عبيدة وخالد وكان عمر قد عزل خالدا واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس . وكان قد قدم على أبى عبيدة كتاب عمر بعزل خالد وتوليته ، فاستحيا أبو عبيدة أن يقرئه الكتاب ، فلما فتحت أظهر أبو عبيدة ذلك

ثم فتح الله الروم وطبرية وقيسارية وفلسطين وعسقلان ، وسار عمر بنفسه ففتح بيت المقدس صلحا ، وفتحت أيضا بعلبك وحمص وحلب وقنسرين وأنطاكية وجلولاء والرقة وحرّان والموصل والجزيرة ونصيبين وآمد والرها ، وفتحت القادسية والمدائن على يدى سعد بن أبى وقاص ، وزال ملك الفرس وانهزم يزدجرد ملك الفرس ولجأ إلى فرغانة والترك . وفتحت أيضا كورة الأبله على يد عتبة بن غزوان ، وفتحت كور الأهواز والجابية على يد أبى موسى ، وفتحت نهاوند واصطخر وأصبهان وبلد فارس وتستر وسوس وهمذان والنوبة والبربر ، وفتحت أذربيجان وبعض أعمال خراسان ، وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص غرة المحرم سنة عشرين . وفتح عمرو أيضا الإسكندرية وطرابلس الغرب وما يليها من الساحل . وفى حياة الحيوان : وعدُّوا مما فتح رأس العين والخابور وبيسان واليرموك والرى وما بينهما

وفى أيام عمر مصرت البصرة سنة سبع عشرة ، والكوفة ونزلها سعد بن أبى وقاص

وفى سنة ثمان عشرة كان عام الرمادة ، واستسقى عمر بالعباس فسقى ، وفيها كان طاعون عمواس مات فيه خمسون ألفا منهم أبو عبيدة ومعاذ وغيرهم من الصحابة

وعن طارق بن شهاب قال : لما قدم عمر الشام لقيه الجنود وعليه عمامة وقد خلع خفيه وهو يخوض الماء آخذا بزمام راحلته ، وخفاه تحت إبطه . فقالوا له : يا أمير المؤمنين الآن تلقاك الأمراء وبطارقة الشام وأنت هكذا ؟ فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله

وعن معاوية أنه قال : أما أبو بكر فانه لم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته ولم يردها ، وأما عثمان فأصاب منها ، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن

قيل : كان فى خدى عمر خطان أسودان من البكاء

وكثر المال فى دولته إلى الغاية حتى عمل بيت المال ، ووضع الديوان ، وفضل أهل السابقة على غيرهم ، ورتب لرعيته ما يكفيهم ، وفرض للأجناد

ولما استخلفه أبو بكر كره بعضهم إمارته ، وقال له طلحة : تولى علينا فظا غليظا ، ما تقول لربك إذا لقيته ؟ فقال أبو بكر : ساندونى . فأجلسوه ، فقال : أبالله تخوفونى ؟ أقول : استخلفت عليهم خير أهلك . وحلفت بالله ما تركت أحدا أشد حبا له من عمر وستعلمون إذا فارقتموها وتنافستموها

وقال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : صاحب مصر حين قال ﴿ اكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾ ، وابنة شعيب حين قالت ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ ، وأبو بكر حين استخلف عمر

ذكر مقتل عمر

كان رضى الله عليه ملازما للحج فى سنى خلافته ، وكان من سيرته أن يأخذ عماله

بموافاته كل سنة فى موسم الحج ليحجزهم بذلك عن الرعية ويحجز عنهم الظلم ويتعرف أحوالهم عن قرب ، وليكون للرعية وقت معلوم ينهون اليه شكاويهم

وقال سعيد بن المسيب : لما صدر عمر من منى أناخ بالأبطح ، ثم كوم كومة بطحاء ثم طرح عليها رداءه واستلقى ، ثم مد يديه إلى السماء ثم قال : اللهم كبر سنى ، وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط . ثم قدم المدينة فخطب الناس ، فما انسلخ ذو الحجة حتى قتل . روى أن عمر لما انصرف من حجته التى لم يحج بعدها أتى ضجنان ووقف فقال : الحمد لله ولا إله إلا الله ، يعطى من يشاء ما يشاء . لقد كنت بهذا الوادى أرعى إبلا للخطاب ، وكان فظا غليظا يتعبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا قصرت . وقد أصبحت وليس بينى وبين الله أحد أخشاه . ثم تمثل بهذه الأبيات :

لا شئ مما ترى تبقى بشاشته   يبقى الإله ويودى المال والولد

لم تغن عن هرمز يوما خزائنه   والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجرى الرياح له   والجن والإنس فيما بينها ترد

أين الملوك التى كانت لعزتها   من كل أوب اليها وافد يفد

حوض هنالك مورود بلا كذب   لا بد من ورده يوما كما وردوا

وعن حفصة بنت عمر وأسلم مولاه عن عمر أنه قال : اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك . قالت حفصة فقلت : أنى يكون هذا ؟ قال : يأتينى به الله إذا شاء . رواه البخارى

وفى الصحيحين ولفظه لمسلم عن معدان بن طلحة أن عمر بن الخطاب خطب يوم الجمعة فذكر نبى الله ، وذكر أبا بكر ، ثم قال : إنى رأيت كأن ديكا نقرنى ثلاث نقرات ، وإنى لا أراه إلا لحضور أجلى ، وإن أقواما يأمروننى أن أستخلف عليكم ، وإن الله لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته ولا الذى بعث به رسوله ﷺ . فان عجل بى

أمر الخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض وإنى قد علمت أن أقواما يطعنون فى هذا الأمر أنا ضربتهم بيدى هذه على الإسلام ، فإن فعلوا ذلك فأولئك أعداء الله الكفرة الضلال ، ثم إنى لا أدع بعد شيئا أهم عندى من الكلالة (١) ، وما راجعت رسول الله ﷺ ما راجعته فى الكلالة ، وما أغلظ لى فى شىء ما أغلظ فيها حتى طعن بإصبعه فى صدرى وقال : يا عمر ، ألا تكفيك آية الصيف التى فى آخر النساء ، وإن أعش أقض فيها بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأه . ثم قال : اللهم إنى أشهدك على أمراء الأمصار ، وإنى إنما بعثتهم عليهم ليعدلوا ، وليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، ويقسموا فيأهم ، ويرفعوا إلىّ ما أشكل عليهم من أمرهم . ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين البصل والثوم ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحهما من الرجل فى المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع ، فمن أكلهما فليمتهما طبخا . فما كانت إلا الجمعة الأخرى حتى طعن عمر . انتهى . وروى أن عمر خرج يوما يطوف بالسوق ، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة ، وكان نصرانيا أو مجوسيا ، فقال : يا أمير المؤمنين إن المغيرة أثقل على غلتى ، فكلمه يخفف عنى . قال : فما صناعتك؟ قال : نجار حداد نقاش . قال : ما أرى خراجك كثيرا . قال : بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح لفعلت . قال : نعم . قال فاعمل لى رحى . فقال : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب . ثم انصرف عنه فقال عمر : لقد توعدنى العلج آنفا . وفى حديث عمرو بن ميمون فى البخارى : فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة ، وكان إذا مر بين الصفين قام بينهما فإذا رأى خللا قال استووا ، حتى إذا لم ير فيهم خللا تقدم فكبر ، قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل ونحو ذلك فى الركعة الأولى ، حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول : قتلنى — أو أكلنى — الكلب حين طعنه ،

---

(١) الكلالة : أن يموت الميت وليس له وارث من والد أو ولد

فطار العلج بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يمينا أو شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، فمات منهم تسعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه ، فتناول عمر عبد الرحمن بن عوف فقدمه ، فأما من كان يلي عمر فقد رأى الذي رأيت ، وأما نواحي المسجد فانهم ما يدرون ما الأمر ، غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله سبحان الله ، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن عباس انظر من قتلني ، فجال ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة بن شعبة . فقال : الصنع ؟ قال : قاتله الله : لقد كنت أمرت به معروفا . ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل مسلم ، قد كنتَ وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة

ثم احتمل إلى بيته فانطلقنا معه ، قال فكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، فأتى بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه ، ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه ، فعرفوا أنه ميت . وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله ، قد كان لك من صحبة رسول الله وقدم في الإسلام ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة . فقال : وددت أن ذلك كفافا لا علي ولا لي . فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض فقال : يا ابن أخي ارفع ثوبك ، فإنه أبقى لثوبك وأتقى لربك . يا عبد الله انظر ما عليَّ من الدين ؟ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه فقال : إن وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم ، وإلا فسل في بني عدي بن كعب ، فان لم تف به أموالهم فسل في قريش ، ولا تعدهم إلى غيرهم ، وأدِّ عني هذا المال . انطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل : يقرأ عليك عمر السلام . ولا تقل أمير المؤمنين فاني لست اليوم المؤمنين بأمير ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . قال : فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال : يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام . ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه . فقالت : كنت أريده لنفسي ، ولأوثرنه اليوم على نفسي . فلما أقبل قيل : هذا عبد الله قد جاء . قال ارفعوني . فأسنده رجل اليه فقال : ما لديك ؟ قال : الذي

تحب يا أمير المؤمنين ، أذنت . قال : الحمد لله ، ما كان شيء أهم من ذلك إلى . فاذا أنا قضيت فاحملونى ، ثم سلم وقل : يستأذن عمر ، فان أذنت فأدخلونى ، وإن ردتنى فردونى إلى مقابر المسلمين . فقالوا : أوص يا أمير المؤمنين ، استخلف . قال : ما أرى أحدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذى توفى رسول الله وهو عنهم راض . فسمى عليا وعثمان وطلحة والزبير وسعدا وعبد الرحمن بن عوف . وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء — كهيئة التعزية له — فان أصابت الإمارة سعدا فذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر . فانى لم أعزله عن عجز ولا خيانة . وقال : أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين . أن يعرف لهم حرمتهم . وأوصيه بالأنصار خيرا الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم . وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو . وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلتهم عن رضا منهم . وأوصيه بالأعراب خيرا . فانهم أصل العرب ومادة الإسلام . وأن يأخذ من حواشى أموالهم ويرد على فقرائهم . وأوصيه بذمة الله وذمة نبيه ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم . وأن يقاتل من ورائهم . ولا يكلفوا إلا طاقتهم

قال سعد بن أبى وقاص : طعن عمر يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة . انتهى . ودفن يوم الأحد صبيحة هلال المحرم . ونزل فى قبره عثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص . وكان عمره يوم توفى ثلاثا وستين . وصلى عليه صهيب الرومى . فكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال . وكان له من الولد ثلاثة عشر : تسعة بنين . وأربع بنات

خلافة عثمان بن عفان

قال أبو عمر : بويع لعثمان رضى الله عنه يوم السبت غرة المحرم سنة أربع وعشرين . بعد دفن عمر بثلاثة أيام باجتماع الناس . وفى البخارى فى حديث المسور : إن الرهط

الذين ولاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن ، فلما صلى الناس الصبح اجتمع أولئك الرهط عند المنبر ، فأرسل عبد الرحمن إلى من كان خارجا من المهاجرين والأنصار ، وأرسل إلى أمراء الأجناد وكانوا قد وافوا تلك الحجة مع عمر ، فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن وقال : أما بعد يا علىّ فإنى نظرت فى أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعل لى على نفسك سبيلا . فأخذ بيد عثمان وقال : أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده . فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس والمهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون ، وهو أقرب العشرة إلى رسول الله ﷺ بعد علىّ نسبا ، وفضائله كثيرة ، وافتتح فى خلافته الإسكندرية ثم نيسابور ثم طبرستان وسجستان وكرمان ثم الأساورة فى البحر ثم إفريقية ثم حصون قبرس ثم ساحل الأردن ثم مرو . وفى أيامه قتل يزدجرد ملك فارس فى مرو ، وغزا معاوية القسطنطينية وفتحت أرمينية ، وفى أيامه ركب معاوية نائب الشام البحر بالجيوش فافتتح قبرص . وسار نائبه على مصر عبد الله بن أبى سرح بالجيوش إلى إفريقية والتقى هو والعدو فنصر الله المسلمين . وكانت وقعة عظيمة هائلة بحيث طلع سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار من الغنيمة . وامتد ملك المسلمين حتى بلغ المحيط . وافتتح عبد الله بن عامر بن كريز عامله على البصرة من أرض فارس مدينة جور وغيرها . وافتتح المسلمون فى أشهر معدودة نحوا من عشرين مدينة . ثم خرج ابن كريز من نيسابور محرما بالحج من بقعته شكراً لله لما فتح الله عليه من هذه المدائن الكبار . واستناب على خراسان الأحنف ابن قيس . وسار حتى دخل مكة وطاف وسعى وحل . ثم أتى وافدا على أمير المؤمنين عثمان بالمدينة . وقدم ابن كريز إلى البصرة فاستقر بها . ونوابه على خراسان وسجستان والجبال . وكثر المال والخراج على عثمان . وأتاه الخراج من النواحى . واتخذ الخزائن العظيمة بالمدينة . وكان يقسم بين الناس فيأمر للرجل بمائة ألف درهم . واتسعت الدنيا وكثرت الأموال حتى كانت الفرس تشترى بمائة ألف . وكان البستان يباع بالمدينة بأربع مائة ألف . وكانت المدينة عامرة كثيرة الأموال والخيرات والناس . ويجبى

اليها خراج الممالك ، وهى دار الأمان وقبة الإسلام ، فبطر الناس بكثرة الأموال والنعم ، وفتحوا أقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا ، فأخذوا ينقمون على خليفتهم لكونه يعطى المال أقاربه ويوليهم الولايات الجليلة ، فتكلموا فيه وكان قد صار له أموال عظيمة وله ألف مملوك ، وآل الأمر إلى أن قالوا : هذا لا يصلح للخلافة ، وهموا بعزله وجرت أمور طويلة نسأل الله العافية . وروى الإمام أحمد فى مسنده حدثنا معاوية بن عمر حدثنا زيد عن عاصم عن شقيق قال : لقى عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة فقال الوليد : أراك قد جفوت أمير المؤمنين عثمان ؟ فقال له عبد الرحمن : أبلغه أنى لم أفر يوم عينين [1] ، قال عاصم يقول : يوم أحد ، ولم أتخلف يوم بدر ، ولم أترك سنّة عمر قال فانطلق الوليد فخبر بذلك عثمان ، قال فقال : أما قوله إنى لم أفر يوم عينين ، فكيف يعيرنى بذلك وقد عفا الله عنه فقال ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ﴾ وأما قوله إنى تخلفت يوم بدر فانى كنت أمرّض رقية بنت رسول الله ، وقد ضرب لى رسول الله ﷺ بسهم ، ومن ضرب له رسول الله بسهم فقد شهد . وأما قوله : إنى لم أترك سنة عمر فإنى لا أطيقها ولا هو ، فأتاه فحدثه بذلك . انتهى

ثم اجتمع المنحرفون عن عثمان وحاصروه فى داره بالمدينة ، وعلى الكوفيين الأشتر النخعى ، وعلى المصريين ابن عديس وعمرو بن الحمق ، وعلى البصريين حكيم بن جبلة ، فسير اليهم عثمان رضى الله عنه المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ليدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، فردوها أقبح رد ولم يسمعوا كلامهما ، فبعث اليهم عليا فضمن لهم ما يعدهم به عثمان ، وكتبوا على عثمان كتابا بإزاحة علتهم والسير فيهم بكتاب الله وسنة نبيه ، وأخذوا عليه عهدا بذلك ثم نقضوا العهد بعد ذلك . ذكر ابن الجوزى فى شرح الصحيحين أنهم هجموا على المدينة وكان عثمان يخرج فيصلى بالناس وهم يصلون خلفه

---

(١) عينان اسم الجبل الذى أقام عليه الرماة يوم أحد ، فسمى به يوم أحد

شهراً ، ثم خرج من آخر جمعة خرج فيها فحصبوه حتى وقع على المنبر ولم يقدر أن يصلى بهم ، فصلى بالناس يومئذ أبو أمامة بن سهل بن حنيف ، ثم حصروه ومنعوه الصلاة فى المسجد ، وكان يصلى بهم ابن عديس تارة وكنانة بن بشر أخرى وهما من الخوارج على عثمان . وفى مسند أحمد أن عثمان قال يوم الدار حين حصر : إن النبى ﷺ عهد إلىّ عهدا فأنا صابر عليه ، فكانوا يرونه ذلك اليوم . وروى عبد الله بن أحمد فى زيادة المسند أن عثمان رضى الله عنه أعتق عشرين مملوكا ، ودعا بسراويل فشدها عليه ولم يلبسها فى جاهلية ولا إسلام وقال : إنى رأيت رسول الله ﷺ البارحة فى المنام ورأيت أبا بكر وعمر رحمة الله عليهما وأنهم قالوا . اصبر فانك تفطر عندنا القابلة . ثم دعا بمصحف فنشر بين يديه فقتل وهو بين يديه . انتهى . ويذكر أن الدم نضح على هذه الآية ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ قال وإنها فى المصحف ما حكت . وفى حديث أبى سعيد عند أبى حاتم : فأخذت نائلة بنت الفرافصة حليها فوضعته فى حجرها — وذلك قبل أن يقتل — وتفاجت عليه ، فقال بعضهم : قاتلها الله ما أعظم عجيزتها . فعلم أن أعداء الله لم يريدوا إلا الدنيا . انتهى . وأرسل على ابنيه الحسن والحسين ومواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته ، وأمرهم أن يمنعوا عنه ، وبعث الزبير ابنه عبد الله ، وبعث طلحة ابنه محمدا ، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آباؤهم اقتداء بمن ذكرنا ، فصدوهم عن الدار ، فرمى من وصفنا بالسهام ، واشتبك القوم وجرح الحسن وشج قنبر وجرح محمد بن طلحة . وكان معه فى الدار جماعة يريدون الدفع عنه ، منهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن سلام وعبد الله بن الزبير والحسن وأبو هريرة ومحمد بن حاطب والمغيرة ابن الأخنس ، ويومئذ قتل المغيرة قبل عثمان . وفى الاستيعاب : روى سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : إنى لمحصور مع عثمان فى الدار قال فرُمى رجل منا ، فقلت : ياأمير المؤمنين الآن طاب الضرب . قتلوا منا رجلا . فقال عثمان : عزمت عليك يا أبا هريرة لما رميت نفسك . فإنما يراد نفسى . وسأقى المؤمنين بنفسى . قال أبو هريرة : فرميت بسيفى فلا أدرى أين هو الساعة

وحج بالناس تلك السنة عبـــد الله بن عباس – وعثمان محصور – بأمر عثمان ، وخرجت عائشة للحج هاربة

وعن ابن شهاب قلت لسعيد بن المسيب : هل أنت مخبرى كيف قتل عثمان ؟ وما كان شأن الناس وشأنه ؟ ولم خذله أصحاب محمد ﷺ ؟ قال : قتل عثمان مظلوما ، ومن قتله كان ظالما ، ومن خذله كان معذورا . قلت : وكيف كان ذلك ؟ فذكر السبب فى ذلك إلى أن قال : فتسوّروا من دار رجل من الأنصار حتى دخلوا على عثمان وما يعلم أحد ممن كان معه ، لأن من كان معه كان فوق البيت ، ولم يكن معه إلا امرأته ، وقتلوه وخرجوا هاربين من حيث دخلوا . وصرخت امرأته فلم يسمع صراخها من الجلبة فصعدت إلى الناس فقالت : إن أمير المؤمنين قتل ، فدخل عليه الحسن والحسين ومن كان معهما فوجدوه مذبوحا ، فانكبوا عليه يبكون ، ودخل الناس فوجدوا عثمان مقتولا ، فبلغ عليا وطلحة والزبير وسعدا ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا ، فاسترجعوا وقال على لابنه كيف قتل أمير المؤمنين وأنتم على الباب ؟ ورفع يده فلطم الحسن ، وضرب صدر الحسين ، وشتم محمد ابن طلحة ، وشتم عبد الله بن الزبير

وخرج على فأتى منزله وجاء الناس كلهم إلى على ليبايعوه ، فقال لهم : ليس هذا اليكم ، إنما هو إلى أهل بدر ، فمن رضى به أهل بدر فهو الخليفة . فلم يبق أحد من أهل بدر إلا قال : ما نرى أحق بها منك . وقتل عثمان رضى الله عنه شهيدا فى ذى الحجة . قال الواقدى يوم الجمعه لثمان أو سبع خلت من ذى الحجة يوم التروية سنة خمس وثلاثين . قال ابن اسحق : قتل عثمان على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا واثنين وعشرين يوما من مقتل عمر بن الخطاب . انتهى . وهى أول مصائب الإسلام وخرومه ، لأن المسلمين استضيموا فى قتله جهرة ، وبقتله فتح باب الفتنة إلى يوم القيامة . قال حسان بن ثابت :

من سره الموت صرفا لا مزاج له   فليأت مأسدة فى دار عثمانا

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا
صبرا فداء لكم أمي وما ولدت قد ينفع الصبر في المكروه أحيانا
لتسمعن وشيكا في ديارهم : الله أكـــــبر يا ثارات عثمانا

وقال حسان أيضا ، وقيل هي لكعب ، وقيل هي للوليد بن عقبة :

فكف يديه ثم أغلق بابه وأيقن أن الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار لا تقتلوهم عفا الله عن ذنب امرئ لم يقاتل
وكيف رأيت الله ألقى عليهم العداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر بعده عن الناس إدبار السحاب الحوامل

وعن سعيد بن زيد قال : لو أن رجلا انقض لما فُعل بعثمان كان حقيقا أن ينقض . وقال ابن عباس : لو اجتمع الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة كما رمى قوم لوط . قال ابن اسحق : قتل وهو ابن ثمانين سنة . وقال قتادة : ابن ست وثمانين ، ودفن ليلا بموضع يقال له حش كوكب ، وكوكب : رجل من الأنصار ، والحش البستان . وتفرقت الكلمة بعد قتله ، وماج الناس واقتتلوا للأخذ بثأره حتى قتل من المسلمين تسعون ألفا . وفضائله وسبقه إلى الإسلام معروف . رضي الله عنه

ذكر خلافة علي بن أبي طالب

روى أحمد في المناقب عن محمد بن الحنفية قال : كنت مع أبي حين قتل عثمان ، فقام فدخل منزله ، فأتاه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا له : إن هذا الرجل قد قتل ، ولا بد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحدا أحق بهذا الأمر ولا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله منك . قال : لا تفعلوا ، فإني وزيراً خير من أن أكون أميراً . قالوا : لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك . قال : ففي المسجد ، فان بيعتي لا تكون خفية ، ولا تكون إلا عن رضى المسلمين . فدخل المهاجرون والأنصار فبايعوه ، ثم بايع الناس . وقيل أول من بايعه طلحة وكانت يده شلاء فقيل : يد شلاء وأمر لا يتم .

وقال الزهرى : أرسل إلى طلحة والزبير فدعاهما إلى البيعة ، فتلكأ طلحة ، فقال الأشتر وسلّ سيفه : والله لتبايعن أو لأضربن به بين عينيك . فبايعه الزبير . وذهب قوم إلى الشام فلم يبايعوه ، ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة . وقال محمد بن حبيب الهاشمى : لم يبايعه سعد وابن عمر وصهيب وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد

وطارت الأخبار بقتل الشهيد عثمان ، فحزن عليه المسلمون ، ولا سيما أهل دمشق ، وأتى البريد بثوبه بالدم فنصب على منبر دمشق ، ونعاه معاوية إلى أهلها فبكوا ، وتعاقدوا على الطلب بدمه وكانوا ستين ألفا . وآلى رجال منهم لا يأتون النساء ولا يغتسلون من جنابة إلا من احتلام حتى يقتلوا قتلته ومن عرض دونهم . وتخلف عن بيعة على معاوية فى أهل الشام وأظهروا له الخلاف ونسبوه إلى الإعانة على قتل عثمان والرضى بها ، وقد برأه الله من ذلك . واجتمع ناس إلى على فقالوا إن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى قتل هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم ، فقال لهم : يا إخوتاه إنى لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعا للقدرة على شىء مما تريدون ؟ قالوا : لا والله . وقال طلحة لعلى : دعنى آتى البصرة ولا يفجأك إلا وأنا فى خيل ، وقال الزبير : دعنى آتى الكوفة ولا يفجأك إلا وأنا فى خيل . فقال : حتى أنظر فى ذلك . ودخل عليه المغيرة بن شعبة فقال له : إن لك حق الطاعة والنصيحة . أقرر معاوية على عمله وابن عامر والعمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت . قال : حتى أنظر . وخرج من عنده ثم أتاه من الغد فقال : إنى أشرت عليك أمس ، وإن الرأى أن تعاجلهم فتعرف السامع من غيره . فتلقاه ابن عباس — وقد أتى من الحج — وهو خارج من عند على ، فدخل على علىّ ، فلما انتهى اليه قال : رأيت المغيرة خرج من عندك . قال : جاءنى أمس بكذا واليوم بكذا . فقال : أما أمس فقد نصحك ، وأما اليوم فقد غشك . قال فما الرأى ؟ قال

كان الرأى قبل اليوم أن تخرج حين قتل الرجل أو قبله فتأتى مكة فتدخل دارك وتغلق بابك ، فكانت العرب محايلة ومضطربة فى أثرك لا تجد غيرك ، فأما اليوم فان بنى أمية يستحثون الطلب وأن يلزموك شقة من هذا الأمر . وفى رواية وإنى أخشى أن ينتقض عليك الشام ، مع أنى لا آمن طلحة ولا الزبير أن يخرجا عليك . وإنى أشير عليك أن تقر معاوية ، فإن بايع لك فعلى أن أقتلعه من منزلته متى شئت ، فقال على : والله لا أعطيه إلا السيف . ثم تمثل :

وما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقال : يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع ، ولست صاحب رأى ، فقال : إذا عصيتك فأطعنى . قال ابن عباس : أيسر مالك عندى الطاعة

وكانت عائشة مقيمة بمكة تريد عمرة المحرم ، فلما قضت عمرتها وخرجت إلى المدينة سمعت بما جرى ، فانصرفت راجعة إلى مكة ، فأتاها عبد الله بن عامر والى مكة من قبل عثمان فقال : يا أم المؤمنين ما ردك ؟ قالت : ردى أن عثمان قتل مظلوما ، وإن هذا الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر ، وإنهم بادروا بالعدوان ، وسفكوا الدم الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، وإن هذا حدث عظيم وأمر منكر ، فاطلبوا دم عثمان . فكان أول من أجابها عبد الله بن عامر . وذلك أول ما تكلمت به بنو أمية بالحجاز ورفعوا رؤوسهم . ثم إن طلحة والزبير رضى الله عنهما ندما وعظم عليهما قتله ، فخرجا هاربين إلى مكة من غير أمر على ، فاجتمعا بعائشة ومن معها من بنى أمية ، وجمعوا جمعا عظيما ، واتفق رأيهم على المضى إلى البصرة وقالوا : معاوية بالشام قد كفانا أمرها . وكان عبد الله بن عمر قد قدم مكة فدعوه إلى المسير معهم فامتنع ، وأرادت حفصة المسير معهم فردها أخوها عبد الله ، وأحب أهل المدينة أن يعلموا ما رأى على فى قتال أهل القبلة وقد بلغهم أن الحسن دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس . فدسوا زياد بن حنظلة التميمى فدخل فجلس إليه ساعة ثم قال : يا زياد تسير ؟ قال : لأى شىء ؟ قال : لغزو الشام . فقال زياد : الأناة والرفق أمثل ، وقال :

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة　　يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل على :

متى تجمع القلب الذكى وصارما　　وأنفا حميا تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس فقالوا : ما وراءك ؟ قال : السيف يا قوم . فلما بلغه خبر الزبير وطلحة وأم المؤمنين وأنهم يريدون البصرة لمشاهدة الناس والإصلاح بينهم فتعبأ للخروج نحوهم ، واشتد على أهل المدينة الأمر وتثاقلوا ، فسار على نحوهم فى أربعة آلاف من أهل المدينة فيهم أربعمائة ممن بايع تحت الشجرة فالتقى هو وطلحة والزبير ومن معهما عند البصرة فجرت وقعة الجمل المشهورة بلا علم ولا قصد [1] والتحم القتال من الغوغاء وخرج الأمر عن على وطلحة والزبير ، وقتل من الفريقين نحو عشرين ألفا وقتل طلحة وانهزم الزبير فلحقه عمرو بن جرموز بوادى السباع فقتله ، وكانت عائشة راكبة الجمل وهى فى هودج وقد صار كالقنفذ من النشاب ، وتمت الهزيمة على أصحاب عائشة . ولما كثرت القتلى عند الجمل وقطع على خطامه أيد كثيرة قال على : اعقروا الجمل ، فعقر فسقط . فبقيت عائشة فى هودجها إلى الليل ، وأدخلها أخوها محمد إلى البصرة ثم أمر على عائشة بالرجوع إلى المدينة وأن تقر فى بيتها ، فسارت وشيعها الناس ، وجهزها على بما احتاجت اليه ، وكانت بعد ذلك إذا ذكرت مسيرها هذا بكت حتى تبل دموعها خمارها وتقول : ياليتنى كنت نسيا منسيا ، ولوددت أنى مت قبل ذلك بعشرين سنة

واستعمل علىّ على البصرة عبد الله بن عباس ، وسار علىّ إلى الكوفة فنزلها ، واستحكم له الأمر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان ، ولم يبق خارجا عنه إلا الشام ، وأرسل على جرير بن عبد الله إلى معاوية يطلب منه البيعة ويدخل فيما

---

(١) لأن الفريقين باتا على صلح وسلام ، فاندس قتلة عثمان فى المعسكرين وأنشبوا الحرب بينهما فجأة فى الصباح ، فكل معسكر ظن أن الغدر جاء من المعسكر الآخر

دخل فيه المهاجرون والأنصار ، فماطله معاوية وامتنع من مبايعته ، فسار على إلى الشام فى سبعين ألفا من أهل العراق ، وسار اليه معاوية وعمرو بن العاص فى أهل الشام فى ستين ألفا وقيل فى مائة وعشرين ألفا فالتقوا بصفين بناحية الفرات ، ودخلت سنة سبع وثلاثين والجيشان بصفين ، ومضى المحرم ولم يكن بينهم قتال ، وأرسل على إلى معاوية رسلا يدعونه إلى الله وإلى الطاعة فأتوه فقالوا له : إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله جازيك بما قدمت يداك ، وإنا ننشدك الله أن لا تفرق جماعة هذه الأمة أو تسفك دماءها بينها . فقال المتكلم : هلا أوصيت بذلك صاحبك ؟ فقال : إن صاحبي ليس مثلك ، إن صاحبى أحق البرية كلها بهذا الأمر بالفضل والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من رسول الله . فقال له معاوية : ويطل دم عثمان ؟ لا والله ، لا أفعل ذلك أبدا . فلما دخل شهر صفر تنابذوا ، وبات على يعبئ الكتائب ويقول : لا تقاتلوهم إلا أن يبدؤوكم ، فاذا قاتلتموهم فهزمتموهم لا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تأخذوا شيئا من أموالهم . فاقتتلوا أياما ، وكانت بينهم وقعات كثيرة قيل كانت تسعين وقعة ، وقتل من الفريقين أكثر من سبعين ألفا ، وقتل من جند علىّ عمار بن ياسر من السابقين الأولين البدريين وكان من نجباء الصحابة . قال أبو عمر فى ترجمته تواترت الآثار عن النبى ﷺ أنه قال لعمار تقتلك الفئة الباغية ، ولما قتل عمار أمسك عمرو بن العاص عن القتال وتابعه على ذلك خلق كثير ، فقال له معاوية : لم لا تقاتل ؟ قال : قتلنا هذا الرجل وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية فدل على أنا نحن البغاة . فقال له معاوية : اسكت ، فوالله ما تزال تدحض فى بولك ، أنحن قتلناه ؟ إنما قتله على وأصحابه وجاءوا به حتى ألقوه بيننا ، وإنما دفعنا عن أنفسنا فقتل . فبلغ ذلك عليا فقال : إن كنت أنا قتلته فالنبى ﷺ قتل حمزة حين أرسله إلى قتال الكفار . ولما قتل عمار حمل على فى اثنى عشر ألفا ، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض

وتخلف جماعة من سادات الصحابة عن القتال فى الفتنة ، منهم سعد بن أبى وقاص

وسعيد بن زيد وأبو اليسر وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وابن عمر وأسامة بن زيد وصهيب الرومى وأبو موسى الأشعرى ورأوا السلامة فى العزلة وقالوا : إذا كان غزو الكفار قاتلنا

ولما سئم الفريقان تداعوا إلى الخصومة ، ورفع أهل الشام المصاحف على رؤوس الرماح وقالوا : ندعوكم إلى كتاب الله ، فرضى الفريقان فحكَّم علىٌّ وأهل الكوفة أبا موسى ، وحكَّم معاوية عمرو بن العاص ، ورجع على ومن معه إلى العراق ، ومعاوية ومن معه إلى الشام . ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل واتفقا على أن يخلعاهما معا ويختار المسلمون خليفة يرضون به ، وقد عينوا يومئذ عبد الله بن عمر بن الخطاب . ثم اجتمعا بالناس فبدأ أبو موسى فخلع عليا ثم قام عمرو وقال : قد خلعت عليا كما خلعه وأثبتت خلافة معاوية (١) فرضى أهل الشام بذلك ورجعوا فبايعوا معاوية . ولما جرى التحكيم غضب خلق أزيد من عشرة آلاف من جيش على وقالوا : لا حكم إلا لله ، وكفروه بذلك واعتزلوه ، وهم الخوارج ، وشقوا عصا المسلمين ونصبوا راية الخلاف وسفكوا الدماء ، وقطعوا السبيل ، فبعث اليهم على عبدَ الله بن عباس ، قال ابن عباس : فدخلت عليهم فلم أر قط قوما أشد منهم اجتهادا ، جباههم قرحة من السجود ، وأيديهم كأنها ثفن الإبل ، وعليهم قمص مرحضة مشمرين مسهمة وجوههم من السهر ، فسلمت عليهم فقالوا مرحبا يا ابن عباس ماجاء بك ؟ قلت : أتيتكم من عند المهاجرين والأنصار من عند صهر رسول الله وعليهم أنزل القرآن وهم أعلم بتأويله منكم ، فقالت طائفة منهم : لا تخاصموا قريشا فان الله عز وجل يقول ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ . فقال اثنان أو ثلاثة لنكلمنه فقلت : هاتوا مانقمتم ، فقالوا : ثلاثا إحداهن أنه حكم الرجال فى أمر الله وقد قال الله ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ ، وأنه قاتل ولم يسب ولم يغنم فان كانوا مؤمنين ما حل

---

(١) الحكمان تركا أمر الإمامة لكبار الصحابة ، ولم يقل عمرو إلا ما قاله أبو موسى . والصحيح فى أمر التحكيم ما رواه الدارقطنى وخليفة بن خياط من شيوخ البخارى ، وانظره فى العواصم من القواصم ص ١٧٢ - ١٧٦

لنا قتالهم وسبيهم ، وإن كانوا كفارا حل لنا قتالهم وسبيهم . ومحا نفسه من إمرة المؤمنين فان لم يكن أمير المؤمنين فإنه لأمير الكافرين . فقلت : أما قولكم حكم الرجال في دين الله فأنا أقرأ عليكم في كتاب الله ما ينقض قولكم ، إن الله صير من حكمه إلى الرجال في ربع درهم ثمن أرنب ، وتلا قوله ﴿ لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم – إلى قوله – يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ وفي المرأة وزوجها فقال ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ﴾ فنشدتكم الله هل تعلمون حكم الرجال في إصلاح ذات بينهم وحقن دمائهم أفضل أم حكمهم في ثمن أرنب وبضع امرأة ؟ قالوا بل هذه . قلت خرجت من هذه ؟ قالوا نعم . قلت : وأما قاتل ولم يغنم فتسبون أمكم عائشة ؟ فوالله إن قلتم ليست أمنا لقد خرجتم من الإسلام ، وإن قلتم لنسبينها ونستحل منها ما نستحل من غيرها فقد خرجتم من الإسلام ، أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم . قلت : وأن قولكم محا نفسه عن إمرة المؤمنين فان النبي ﷺ يوم الحديبية كاتب سهيل بن عمرو ، فقال : يا علي اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقالوا : ما نعلم أنك رسول الله ، ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ، فقال امح يا علي واكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . فوالله لرسول الله خير من علي . فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم ، فخرج علي بمن معه عليهم ورام رجعتهم فأبوا إلا القتال ، فقاتلهم بالنهروان فقتلهم ، ولم ينج منهم إلا القليل

وتواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بوصفهم وذمهم والتحريض على قتالهم ، ففي الصحيحين عن سويد بن غفلة قال قال علي رضي الله عنه : إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فوالله لأن أخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فان الحرب خدعة ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « سيخرج قوم في آخر الزمان حداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأين ما لقيتموهم فاقتلوهم فان في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة » وفيهما عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول

الله ﷺ يقول « يخرج فى هذه الأمة ـ ولم يقل منها ـ قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم يقرأون القرآن لا يجاوز حلوقهم أو حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر الرامى سهمه فيتمارى إلى نصله وإلى رصافه فيتمارى فى فوقه هل علق بها من الدم شئ » وفى رواية لهما عنه « آيتهم رجل إحدى يديه أو إحدى ثدييه مثل ثدى المرأة أو قال مثل البضعة تدردر يخرجون على خير فرقة من الناس » قال أبو سعيد لسمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن على بن أبى طالب قتلهم وأنا معه ، وأمر بذلك الرجل فالتمس فأتى به حتى نظرت اليه على نعت النبى ﷺ الذى نعته . ولمسلم عن على رضى الله عنه : لو يعلم الجيش الذين يقاتلونهم ماذا قضى لهم على لسان نبيهم لا تكلوا عن العمل . انتهى

وفى أيامه أيضا خرجت الغالية وادعوا فى علىّ الإلهية ، قال الحافظ ابن حجر : وروينا من طريق عبد الله بن شريك العامرى عن أبيه قال : قيل لعلى إن هنا قوما على باب المسجد يزعمون أنك ربهم ، فدعاهم فقال لهم : ويلكم إنما أنا مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون ، إن أطعت الله أثابنى وإن عصيته خشيت أن يعذبنى ، فاتقوا الله وارجعوا ، فأبوا . فلما كان الغد غدوا عليه فجاءه قنبر فقال : قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام ، قال : أدخلهم . فقالوا كذلك ، فلما كان اليوم الثالث قال : لئن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث القتلة فأبوا إلا ذلك ، فقال : يا قنبر ائتنى بفعلة معهم مرورهم فخدّ لهم أخدوداً بين المسجد والقصر وقال لهم : احفروا فأبعدوا فى الأرض ، وجاء بالحطب فطرحه بالنار فى الأخدود وقال : إنى طارحكم فيها أو ترجعوا . فأبوا أن يرجعوا . فقذف بهم فيها حتى احترقوا وقال :

لما رأيت الأمر أمراً منكرا أوقدت نارى ودعوت قنبرا

وإسناده حسن . وفى الصحيح أن ابن عباس لما بلغه تحريقهم قال : لو كنت أنا لم أحرقهم لقول النبى ﷺ « لا تعذبوا بعذاب الله » ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه » فبلغ عليا قول ابن عباس فقال : صدق ابن عباس

ذكر مقتل على رضى الله عنه

ذكر الزبير بن بكار وغيره : اجتمع ثلاثة نفر بمكة من بقايا الخوارج ، عبد الرحمن ابن ملجم المرادى والبرك بن عبد الله التميمى وعمرو بن بكر التميمى ، فاجتمعوا بمكة وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة ويريحوا العباد منهم ، فقال ابن ملجم : أنا لكم بعلى ، وقال برك : أنا لكم بمعاوية ، وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتعدوا بينهم ليلة سبع عشرة من رمضان سنة أربعين ، ثم توجه كل رجل منهم إلى المصر الذى يريد ، فقدم عبد الرحمن بن ملجم الكوفة عازما على قتل على ، واشترى سيفا لذلك بألف ، وسقاه السم . وروى أبو عمر أن عبد الرحمن جاء إلى على يستحمله فحمله ، ثم قال : إن هذا قاتلى . قيل فما يمنعك منه ؟ قال : إنه لم يقتلنى بعد . ولعبد الرزاق عن عبيدة قال : كان على إذا رأى ابن ملجم قال :

أريد حياته ويريد قتلى   عذيرك من خليلك من مراد

وكان على كثيرا ما يقول : ما يمنع أشقاها ؟ أو ما ينتظر أشقاها أن يخضب هذه من دم هذه ؟ ويقول : والله لتخضبن هذه من دم هذا — ويشير إلى لحيته ورأسه — خضاب دم لا خضاب عطر ولا عبير . وروى أبو عبد الرحمن السلمى عن الحسن أنه سمع أباه فى ذلك السحر الذى ضرب فيه يقول : يا بنى رأيت النبى ﷺ الليلة فى نومى فقلت : يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من اللأواء واللدد . فقال : ادع الله عليهم . فقلت : اللهم أبدلنى خيرا منهم وأبدلهم بى من هو شر منى . ثم انتبه وجاءه مؤذنه للصلاة فخرج ، فاعتور الرجلان ابن ملجم وشبيب بن بَجَرة الأشجعى فاما شبيب فوقعت ضربته فى النطاق وأما ابن ملجم فضربه فى رأسه ، وذلك فى صبيحة يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة من رمضان ، وفى رواية فلما ضربه ابن ملجم قال : الحكم لله يا على لا لك ولا لأصحابك . قال على : فزت ورب الكعبة ، لا يفوتنكم الكلب ، فشد الناس عليه من كل جانب فأخذوه ، فلما أخذ قال على : احبسوه ، فان مت فاقتلوه ولا تمثلوا به ،

وإن لم أمت فالأمر إلى فى العفو أو القصاص . وقبر أول ليلة من العشر الأواخر من رمضان . واختلف فى موضع قبره فقيل دفن فى قصر الإمارة بالكوفة ، وقيل دفن فى رحبة الكوفة ، وقيل دفن فى نجف الحسين موضع بطريق الحيرة ، واختلف فى سنة يوم مات : فقيل سبع وخمسون وقيل ثلاث وستون قاله أبو نعيم وغيره

ولما بلغ عائشة قتل على قالت : لتصنع العرب ما شاءت ، فليس أحد ينهاها

وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وستة أيام . وقيل أربعة عشر يوما

وكان رضى الله عنه يسير فى الفىء بسيرة أبى بكر الصديق ، وإذا ورد عليه مال لم يبق منه مالا إلا قسمه ، ولا يترك فى بيت المال إلا ما يعجز عن قسمه فى يومه ذلك ، ويقول : يا دنيا غرى غيرى . ولم يستأثر من الفىء بشىء ولا يخص قريبا ولا يخص بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات . وإذا بلغته عن أحدهم خيانة كتب اليه ﴿ويا قوم قد جاءتكم موعظة من ربكم أوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾ إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يديك من عملنا حتى نبعث اليك من يتسلمه منك . ثم يرفع طرفه فى السماء ثم يقول : اللهم إنك تعلم أنى لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك . قال أبو عمر : وثبت عن الحسن بن على من وجوه أنه قال : لم يترك أبى إلا ثمانمائة درهم فضلت من عطائه كان يعدها لخادم يشتريها لأهله . وأما تقشفه فى لباسه ومطعمه فأشهر من أن يذكر ، وأما فضله وسابقته وجهاده الكفار مع رسول الله ﷺ فأشهر من ذلك . قال أحمد بن حنبل وإسماعيل بن اسحق القاضى ، لم يرو فى فضائل أحد من الصحابة ماروى فى فضائل على بن أبى طالب

وقيل له ألا تستخلف ؟ فقال : لا . أترككم كما ترككم رسول الله ﷺ . وقال بعضهم : إن نحن فقدناك ولا نفقدك بايع الناس الحسن ، فقال : ما آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر . ثم دعا الحسن والحسين فقال أوصيكما بتقوى الله وحده ولا تبغيا الدنيا

وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء منها قولا الحق وارحما اليتيم وأعينا الضعيف وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا ولا تأخذكما فى الله لومة لائم . ثم نظر إلى ابن الحنفية فقال : هل سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم . قال أوصيك بتوقير أخويك ، ولا تقطعن أمرا دونهما . ثم قال : أوصيكما به فانه أخوكما وابن أبيكما ، فاعرفا حقه وأكرماه

قال أبو عمر بن عبد البر : وقف جماعة من أئمة أهل السنة فى على وعثمان فلم يفضلوا واحدا منهما على صاحبه ، منهم مالك ويحيى بن سعيد القطان . وأهل السنة اليوم على تقديم أبى بكر فى الفضل على عمر ، وتقديم عمر على عثمان وتقديم عثمان على على رضى الله عنهم . وفى الصحيح عن ابن الحنفية قلت لأبى : من خير الناس بعد رسول الله ؟ قال أبو بكر . قلت ثم من قال . ثم عمر ، وخشيت أن يقول ثم عثمان فقلت ثم أنت ؟ قال إنما أنا رجل من المسلمين . وتواتر عنه أنه قال وهو على المنبر فى خلافته : ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر . ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد أبى بكر عمر . وفى مسند أحمد عنه قال سبق رسول الله ، وصلى أبو بكر ، وثلث عمر ، ثم خبطتنا فتنة يعفو الله فيها عمن يشاء . وقد كان بنو أمية ينالون منه وينتقصونه فما زاده ذلك إلا سموا ورفعة ومحبة عند العلماء . قال عمر بن عبد الله بن الزبير : إن بنى مروان شتموه ستين سنة فلم يزده الله بذلك إلا رفعة ، وإن الدين بنى شيئا فهدمته الدنيا ، ولم تبن الدنيا شيئا إلا عادت على ما بنت فهدمته انتهى . وهؤلاء الأربعة هم الخلفاء الذين أوصى رسول الله ﷺ باتباع سنتهم كما فى حديث العرباض بن سارية أنه ﷺ قال : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » وفى السنن ، وصحيح ابن حبان عن سفينة ، عن رسول الله ﷺ قال : الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا . قال : أمسك قال بعضهم خلافة أبى بكر سنتان وخلافة عمر عشر وخلافة عثمان اثنا عشر وخلافة على ست . قال على بن الجعد قلت لحماد : أسفينة القائل أمسك ؟ قال : نعم . خرجه أبو حاتم . وهذا مغاير لما ذكره أهل التاريخ فى خلافة على وأنها أربع سنين وثمانية أشهر ، قال الطبرى : الصحيح فى ولاية

الأربعة أنها تسع وعشرون سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام : أبو بكر سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام وعمر عشر سنين وستة أشهر وخمسة أيام وعثمان اثنتا عشرة سنة إلا اثنى عشر يوما وعلى أربع سنين وثمانية أشهر انتهى ، فإما أن يكون أطلق الحديث على ذلك الثلاثين لقربه منها أو تكون ولاية الحسن بن على محسوبة منها وهى تكملتها

وهؤلاء الخلفاء الأربعة هم أفضل أصحاب رسول الله ﷺ ، وبعدهم بقية العشرة أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير رضى الله عنهم أجمعين . وأما مراتبهم على الإجمال فالمهاجرون أفضل من الأنصار ، وأما على التفصيل فسباق الأنصار أفضل من متأخرى المهاجرين

وقد رتب أهل التواريخ الصحابة على طبقات : الطبقة الأولى أول الناس إسلاما كخديجة وعلى وزيد وأبى بكر ومن تلاهم ولم يتأخر إلى دار الأرقم . الطبقة الثانية أصحاب دار الأرقم وفيها أسلم عمر . والطبقة الثالثة المهاجرون إلى الحبشة . والطبقة الرابعة أصحاب العقبة الأولى وهم سباق الأنصار . والطبقة الخامسة أصحاب العقبة الثانية . والطبقة السادسة أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين . والطبقة السابعة أهل بدر الكبرى والثامنة الذين هاجروا بين بدر والحديبية . والطبقة التاسعة أهل بيعة الرضوان [1] . الحادية عشرة الذين هاجروا بعد الحديبية وقبل الفتح . الثانية عشرة الذين أسلموا يوم الفتح . وبعده الثالثة عشرة صبيان أدركوا النبى ﷺ ورأوه

وكان سعيد لا يعد الصحابى إلا من أقام مع رسول الله ﷺ سنة وغزا معه . وقال بعضهم كل من أدركه الحلم وأسلم ورأى النبى ﷺ فهو صحابى ولو أنه لم يصحب النبى ﷺ إلا ساعة واحدة ، وهذا هو الأكثر والله أعلم . وذكر عن أبى زرعة أنه قال : مات النبى ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا كلهم رآه أو روى عنه ، ذكره غير واحد منهم القطان فى مراتب الصحابة وابن الأثير فى جامع الأصول . والله أعلم

---

(١) لم يذكر العاشرة

ذكر خلافة الحسن بن على رضى الله عنه

لما مات على بايع الناس الحسن ، قال أبو عمر : بايع الحسن أكثر من أربعين ألفا كلهم قد بايع أباه قبله على الموت ، وكانوا أطوع للحسن وأحب فيهم من أبيه . ثم سار إلى معاوية ، وسار معاوية بجيش الشام لصده ، ولما تقارب الجمعان علم الحسن أن لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثرها ، ورأى أن الصالح فى جمع الكلمة وترك القتال ، فكتب إلى معاوية يراسله أنه يصير الأمر اليه ، واشترط عليه أن لا يطلب أحدا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشىء مما كان فى أيام أبيه وأن يكون ولى العهد من بعده وأن يمكنه من بيت المال ليأخذ منه حاجته ، ففرح معاوية وأجاب إلى ذلك وبعث اليه برقّ فقال : أكتب ما شئت فيه فألتزمه ، والتزم معاوية كل ما كتب واشترط ، وخلع الحسن نفسه وسلم الأمر إلى معاوية . فلما اصطلحا دخل معاوية الكوفة وسمى ذلك عام الجماعة ، ووقع مصداق ما أخبر به الصادق المصدق ﷺ بقوله فى الحسن «إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» وغضب من فعله ذلك شيعته ، وقال له بعضهم : السلام عليك يا مذل المؤمنين ، فقال : لا تقل ذلك ، فانى لم أذل المؤمنين وكرهت أن أقتلكم فى طلب الملك . وعنه أنه قال : كانت جماجم العرب بيدى يحاربون من حاربت ويسالمون من سالمت ، وتركتها ابتغاء وجه الله وحقن دماء المسلمين

وعن الشعبى قال : لما جرى الصلح بين الحسن ومعاوية قال له معاوية : قم فاخطب بالناس واذكر ما كنت فيه . فقام الحسن فخطب فقال : الحمد لله الذى هدى بنا أولكم ، وحقن بنا دماء آخركم . ألا إن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور ، وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون كان أحق به منى أو يكون حق تركته لله وإصلاح أمة محمد ﷺ وحقن دمائهم . ثم التفت إلى معاوية فقال : وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين . ثم نزل . قال عمرو بن العاص : ما أردت إلا هذا

ثم سار الحسن إلى المدينة بأهله وحشمه فأقام بها حتى مات رضى الله عنه
وقد أحببت أن أقتصر على هؤلاء الذين تقدم ذكرهم ، فإن فيهم كفاية إن شاء الله

❁

ولنختتم كتابنا هذا بشئ من ألفاظ الرسول ﷺ الوجيزة القليلة اللفظ الكثيرة المعانى الجامعة للأحكام والحكم ، وقد جمع العلماء من ذلك كثيرا ، فمن ذلك قوله ﷺ :

إنما الأعمال بالنيات ، وقوله : من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ؛ المرء مع من أحب ، أسلم تسلم ، الحرب خدعة ، ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب ، أى داء أدوى من البخل ، الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيمة ، الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، إن من البيان سحرا ، إن من الشعر حكمة ، نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ ، من غشنا فليس منا ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، اليد العليا خير من اليد السفلى ، ترك الشر صدقة . الحياء خير كله ، إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا . واستعينوا بالغَدوة والرَّوحة وشئ من الدلجة . الغنى غنى النفس ، أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل ، تنكح المرأة لجمالها ومالها ودينها فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك ، كل مسكر حرام ، ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر ، الولد للفراش وللعاهر الحجر ، المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . المهاجر من هجر مانهى الله عنه ، كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل . كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط ، اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب ، انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، اعملوا فكل مُيَسَّر لما خُلِق له ، ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا

عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله ، من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة ، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه ، مطل الغنى ظلم ، وإذا أتبع أحدكم على ملئ فليتبع ، ابدأ بمن تعول ، كل معروف صدقة ، الكلمة الطيبة صدقة ، الدنيا حلوة خضرة ، إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم ، كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته

❦

وكل ما ذكرنا مما تقدم فى الصحيحين أو أحدهما . ومما ذكر فى غيرهما قوله ﷺ للأنصار : إنكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع ، وقوله : عدة المؤمن كالأخذ باليد ، بورك لأمتى فى بكورها . لا تزال أمتى بخير ما لم يتخذوا الأمانة مغنما والزكاة مغرما احثوا التراب فى وجوه المداحين ، رأس الحكمة معرفة الله ، يا خيل الله اركبى وأبشرى بالجنة ، الآن حمى الوطيس ، لا ينتطح فيها عنزان ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، لا يجنى على المرء إلا يده . ليس الخبر كالمعاينة ، ساقى القوم آخرهم شربا ، المجالس بالأمانة ، لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما ، قيدوا العلم بالكتابة ، خير المال عين ساهرة لعين نائمة ، خير المال سكة مأبورة أو مهرة مأمورة ، المسلم مرآة المسلم ، رحم الله من قال خيرا فغنم أو سكت فسلم ، السعيد من وعظ بغيره ، عفو الملوك بقاء الملك ، ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء ، المكر والخديعة فى النار ، ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا ، المستشار مؤتمن . الدالُّ على الخير كفاعله ، الندم توبة ، لا يشكر الله من لا يشكر الناس ، حبك الشئ يعمى ويصم ، السفر قطعة من العذاب ، المسلمون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا ، الرجل أحق بصدر مجلسه وصدر دابته ، الناس معادن كمعادن الذهب والفضة . تمام التحية المصافحة ، من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ، جبلت القلوب على حب من أحسن اليها ، التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، أعط الأجير أجره قبل أن

يجف رشحه ، ليس بمؤمن من خاف جاره بوائقه ، اتقوا النار ولو بشق تمرة ، لا خير لك بصحبة من لا يرى لك ما يرى لنفسه ، الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، الدعاء سلاح المؤمن ، خير الأمور أوساطها ، إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ، اشفعوا تُؤجَروا وتحمدوا . ما هلك امرؤ عن مشورة ، ما عال من اقتصد ، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، شر الندامة يوم القيامة ، شر المعذرة عند الموت ، أقيلوا ذو الهيئات عثراتهم ، إياكم وخضراء الدِّمَن ، قيل يا رسول الله من ؟ قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، البلاء موكل بالمنطق ، اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع ، لا يدخل الجنة نمَّام ، لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود ، إنكم لن تَسَعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم . زُر غِبًّا تزدد حُبا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ، أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك ، الدين النصيحة ، صنائع المعروف تقى مصارع السوء . صدقة السر تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر ، لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك ، اليوم الرهان وغداً السباق والغاية الجنة والهالك من دخل النار ، ما ملأ ابن آدم شرا من بطن ، أفلح من هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به ، كل الصيد فى جوف الفرا ، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، قل الحق ولو كان مرا ، أحب للمسلمين ما تحب لنفسك . اتق الله حيث ما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخُلق حسن . ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد بما فى أيدى الناس يحبك الناس ، الصدق يهدى إلى البر ، والكذب يهدى إلى الفجور ، كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر أو أجذم ، البخيل من ذكرتُ عنده ولم يصلِّ علىَّ ، الأعمال بخواتيمها



وهذه الأحاديث منها ما هو فى الصحاح أيضا ، ومنها ما هو فى السنن والمسانيد وهو

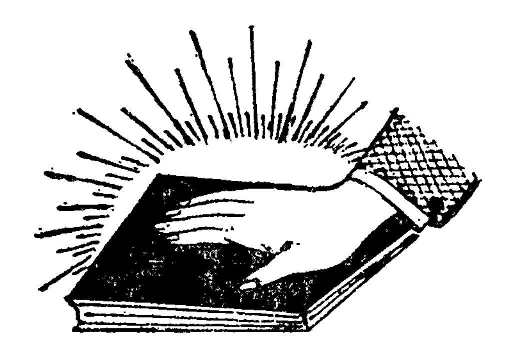
فى مرتبة الصحة ومنها ما هو فى مرتبة الحسن ، ومنها ما هو ضعيف رفعه إلى النبى ﷺ وهو صحيح أو حسن أو موقوف على الصحابى . والله أعلم

❀

فى آخر المخطوطة التى اعتمدنا عليها فى الطبع ما نصه :

وقد وقع الفراغ من هذا الكتاب الجليل القدر ، المحتوى على سيرة سيد البشر محمد ﷺ وشىء من أحواله وأعماله وأخلاقه ومغازيه وقتاله وسيرة خلفائه الراشدين المهديين ﷺ ورضى عنهم أجمعين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى بقية أصحابه أجمعين ، على يد أفقر العباد إلى رحمة ربه مبارك بن مبارك بن عبد الله بن مبارك غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، بتاريخ سبع عشر ليلة مضت من أحد شهور سنة ثلاث عشرة بعد المائتين والألف من مهاجره ﷺ .

تمت بحمد الله وعونه



فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

المطبعة السلفية ــ بمصر